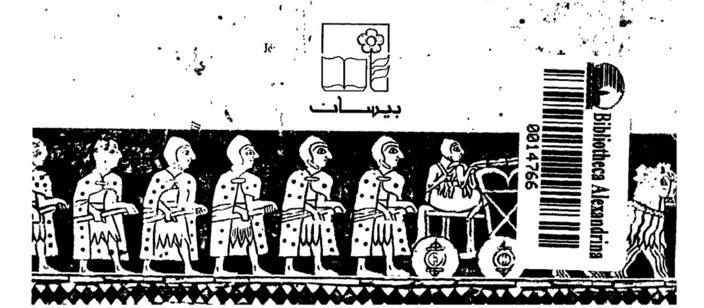
الدكتور عبد الله الحلو



صراع الممالك في التاريخ السوري القديم

ما بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية

بيسان



صراع الممالك
في التاريخ السوري القديم



الدكتور عبد الله الحلو

صراع الممالك
في التاريخ السوري القديم

ما بين العصر السومري
وسقوط المملكة التدمرية

* صراع الممالك في التاريخ السوري القديم
* تأليف: د. عبد الله الحلو
* الطبعة الأولى 1999 م.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع
□ ص.ب 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
□ هاتف: 351291 ـ فاكس 747089 ـ 1 ـ 961

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

عصور التحولات الكبرى

الفصل الرابع

وسط الرافدين والتمهيد للعصر البابلي

الفصل الخامس

تدهور السيادة البابلية ـ العصر البابلي الوسيط ـ

الفصل السادس

شمال الرافدين والعصر الآشوري القديم

الفصل السابع

تحولات كبرى في الألف الأول قبل الميلاد

الفصل الثامن

شمال الرافدين والعصر الآشوري الجديد

الفصل التاسع

وسط الرافدين والعصر البابلي الجديد

الفصل العاشر

حوض الفرات الأوسط ـ مملكة ماري

الفصل الحادي عشر

إبلا

الفصل الثاني عشر

عصر تحول جديد ـ السيطرة اليونانية

الفصل الثالث عشر

سوريا في زمن السلوقيين

الفصل الرابع عشر

مملكة الأنباط

الفصل الخامس عشر

المملكة التدمرية

ملاحق الكتاب

تقديم

ليس أمراً نادراً أن أواجه بين الحين والآخر بعض الأسئلة في التاريخ السوري القديم مما لا أجد له جواباً. وأسباب ذلك سيشعر بها تلقائياً القارىء المتمعن في فصول هذا الكتاب، الذي لا أتردد في اعتباره «نُتفاً» من تاريخ لا تحيط به معلوماتنا حتى الآن بصورة كاملة.

فالواقع أنه بمقدار ما يشعر الباحث في التاريخ السوري القديم بالاعتزاز والتقدير ويأخذه الإعجاب بعظمة هذا التاريخ وصانعيه، يقف في نفس الوقت حائراً إزاء جوانب متعددة ومراحل مختلفة ما زال يلفها الغموض حيث لم تتوفر عنها حتى الآن المعلومات الكفيلة بالإجابة على تلك الأسئلة التي أشرت إليها.

والحقيقة التي يعلمها الكثيرون، أنه لم يظهر حتى الآن كتاب في التاريخ السوري القديم توفر فيه التكامل وانطبقت عليه شروط التاريخ بمعناه الدقيق.

ولما كنت لا أودّ الإدّعاء بما لا أعلم فإن ما اعتبرته «نُتفاً» من هذا التاريخ الموغل في القدم، إنما هو مما تتناقله الأوساط التاريخية العالمية كمعلومات واضحة، رغم أن بعضها ما زال معرضاً للتغيير أو النقض في أي وقت كان.

وهذا العمل الذي هو حلقة من سلسلة أعمال في التاريخ السوري ما زالت قيد الإعداد، إنما دعوته: «صراع الممالك في التاريخ السوري القديم» كون المعلومات التي اجتمعت فيه تتعرض إلى ما هو واضح من جوانب تاريخية ومقومات حضارية لممالك عديدة مختلفة الأحجام والمواقع والأدوار والأعمار، تزامن بعضها وتعاقب البعض الآخر على الأرض السورية بمفهومها الجغرافي الواسع، أو البقعة التي عرفت باسم «الهلال الخصيب»، وطبعت حياتها في أغلب مراحلها بالصراع، إما ضد بعضها البعض، أو ضد قوى خارجية، الأمر الذي أشير إليه في الفقرة الأولى من المدخل العام للكتاب. وبتعبير

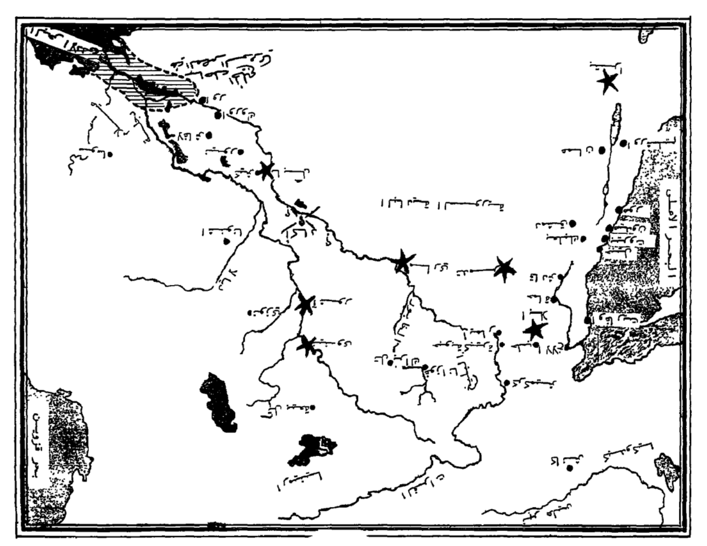
آخر فإن الإطار العام لهذا العمل تنحصر فيه الخطوط الكبرى لفترة زمنية تقع بداياتها في عصر الممالك السومرية القديمة بجنوب الرافدين، أي اعتباراً من الألف الرابع قبل الميلاد، ونهايتها مع نهاية المملكة التدمرية في بلاد الشام في أواخر القرن الثالث الميلادي.

كانون الأول 1997.

مدخل عام

بين البحر الأدنى والبحر الأعلى
أسس الانطلاقات الأولى
وسائط النقل البدائية
تجارة الأزمنة المبكرة

أبرز ممالك الهلال الخصيب ومراكزه الحضارية



بين البحر الأدنى والبحر الأعلى

تعتبر منطقة شرقي البحر المتوسط المعروفة بالهلال الخصيب هي قلب العالم القديم أو البقعة المركزية فيه. وقد تميزت هذه المنطقة بأمرين بارزين:

ـ الأول أنها منبت أقدم الحضارات البشرية وما قدمته من ابتكارات أساسية للإنسانية.

ـ والثاني أنها أكبر حقل للمواجهات السياسية والعسكرية خلال كل أدوار التاريخ المعروف قديماً وحديثاً.

في بعض المناطق من بلاد الشام والرافدين، وخصوصاً وديان الأنهار الخصبة، حصل ما بين الألف السابع والألف السادس قبل الميلاد أول تحول جذري للبشر من الحياة البدائية المعتمدة على الصيد وجمع القوت إلى الحياة المستقرة القائمة على إنتاج القوت بواسطة الزراعة وتدجين الحيوان.

وخلال الألفين التاليين ظهرت أيضاً لأول مرة في تاريخ البشرية حياة المدن وبداية الحضارة المتطورة.

ولما كنا لا نستطيع الإحاطة بهذا التطور الطويل الأمد عبر آلاف السنين من خلال التاريخ المكتوب فإن ما أظهرته التحريات الأثرية في العديد من المواقع الهامة مثل: أريحا في غور الأردن وأوغاريت (رأس شمرا) على الساحل الشمالي وتل حلف وقلعة جرمو في شمالي الرافدين، إضافة إلى أماكن عديدة أخرى، يسدّ بعض الثغرات في المعلومات عن هذه الحقب الأولى للمجتمعات المدنية.

وفي هذه الحقبة أيضاً ـ أي ما بين الألفين الخامس والرابع (ق.م) ـ حققت المجتمعات المستقرة خطوات هامة في طريق التطور عندما بدأت باستخدام حيوانات

النقل والجر والعربات والزوارق ودولاب الخزاف، والأهم من ذلك كله تصنيع النحاس.

وكانت الروابط القبلية التي حكمت حياة التجمعات البشرية قد أخذت حينذاك بالانحلال التدريجي مع ظهور الشكل القديم للسلطة الحاكمة. كما بدأت حياة الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي للجماعات القروية بالتبدل من خلال ظهور المراحل الأولى للتجارة والنقل والحرف الاختصاصية وتوزيع الأعمال. وبمرور الوقت أخذت الأعمال في الأبنية العامة وإنشاءات الري والتحصين تتطلب تنظيماً مشتركاً واسع النطاق للقوى العاملة. وهذا التطور تطلب إمكانات اقتصادية كبيرة وفي الوقت نفسه نشوء سلطة قوية بصلاحيات واسعة للإشراف عليه.

خلال القرون الأخيرة من الألف الرابع (ق.م.) كانت قد نشأت أولى المدن الحقيقية في تاريخ البشرية وخصوصاً في وديان الأنهار وعلى ساحل البحر المتوسط.

وبابتكار الكتابة وإيجاد معدن البرونز حققت هذه المدن خطوة مميزة وجذرية في الحياة البشرية اعتبرت نشأةً للحضارة المتطورة. والكتابة هي أرقى ابتكار أوجده الإنسان حتى الآن. ولولاها لبقي الماضي موصداً أمام الأجيال اللاحقة إلى الأبد.

كان الشكل السياسي الذي طبع هذه الحقب القديمة هو نظام دول المدن التي كانت بمعظمها عبارة عن مدينة وما يتبعها من الأراضي والقرى. فمنذ القرون الأولى للألف الثالث (ق.م.) وجد في بلاد الرافدين وبلاد الشام على السواء خليط كبير من هذه الكيانات السياسية المتفاوتة في أحجامها. إلا أن بعضها لم يكن بمعزل عن بعضها الآخر. فعلى الرغم من تنافسها السياسي كانت الروابط العرقية والثقافية والاقتصادية الوثيقة إضافة إلى الواقع الجغرافي تجعل منها بيئة حضارية متكاملة مهدت لوضع أسس نشوء القوى السياسية الكبرى فيما بعد.

ويعتبر النصف الثاني من الألف الثالث (ق.م.)، وعلى التحديد القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، بداية لسلسلة من الممالك الكبرى، أو الامبراطوريات، التي قامت خلال فترات مختلفة وامتد بعضها ما بين البحر الأدنى (الخليج) والبحر الأعلى (المتوسط) حسب تسميات ذلك الزمن، أي شملت كل المنطقة المعروفة بالهلال الخصيب، لا بل تجاوزتها في بعض الأحيان.

وتلك الفترة بالذات كانت في الوقت نفسه بداية لسلسلة طويلة أيضاً من

المواجهات مع قوى خارجية طبعت بطابعها كل القرون اللاحقة. ولذلك تعتبر منطقة الهلال الخصيب كما ذكرنا في البداية أكبر حقل للمواجهات السياسية والعسكرية في كل أدوار التاريخ. فمنذ القرن الثالث والعشرين (ق.م.) ـ وحتى قبل ذلك بقليل ـ كانت غارات الشعوب الجبلية من الشرق والشمال الشرقي (سلسلة زاغروس) وخصوصاً قبائل الـ «لولوبي» ثم الـ «غوتيوم» تتهدد بلاد الرافدين. وكانت قبائل الـ «غوتيوم» هي التي أنزلت الضربة القاضية بأول امبراطورية في الهلال الخصيب ـ امبراطورية سرجون الأول الأكادي ـ.

ومع الألف الثاني قبل الميلاد كان هناك تطاحن مستمر من أجل السيطرة، سواء كانت وراء هذا التطاحن قوى داخلية ـ من هذه الممالك ـ أو قوى خارجية. من ذلك كان الصراع بين بابل وآشور في حقب مختلفة، وسيطرة الكاشيين الغرباء في بابل. ثم تنازع الحثيين مع المصريين قروناً عدة على السيادة في بلاد الشام. وموجة ما يدعى شعوب البحر في غربي سوريا. وبعد ذلك سيطرة الميديين والفرس. ثم السيطرة اليونانية من جهة وسيطرة الفرتيين من جهة أخرى. وبعدها الرومان والبيزنطيون والفرس الساسانيون. وكل ذلك كان قبل المد العربي ـ الإسلامي الذي لم يطُلْ حتى عقبته حقب جديدة متواصلة من الفوضى سيطر خلالها الصليبيون والسلاجقة والمغول والأتراك العثمانيون. ولم تنته هذه السيطرة إلا لتحل محلها في أوائل القرن العشرين الميلادي قوى جديدة لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، منها بريطانيا وفرنسا، عدا عن قوى أخرى كانت لها أدوار خفية. يضاف إلى كل ذلك مواجهة البلاد السورية مع اليهود، تلك المواجهة القديمة ـ الجديدة التي بدأت منذ قرون عديدة قبل التاريخ الميلادي واستمرت على فترات متقطعة لتعود في عصرنا هذا بشكل أخطر من أي وقت مضى.

وباختصار يمكن القول إن بلاد الهلال الخصيب منذ أكثر من أربعة آلاف سنة لم تعرف من الاستقرار الفعلي والهدوء إلا فترات متقطعة كانت بمثابة هدوء ما قبل العاصفة.

والواقع إن هذا الكتاب يستعرض بصورة موجزة تلك الممالك التي لعبت أدواراً بارزة في بلاد الرافدين والشام ككل ثم سقطت إما نتيجة صراعها بعضها مع بعض أو نتيجة سيطرة خارجية ولم يبق منها للأجيال اللاحقة إلا أكوام هائلة من الأتربة وركام كثير من القرميد والطوب والحجارة وكنوز فنية وميراث كتابي كبير.

وكان لا بد في هذا البحث من التفصيل بشكل بارز في الجوانب الاقتصادية من

تجارة ونقل وخطوط مواصلات، حيث ان الاقتصاد كان من أهم الدوافع التي تحرك الصراع فيما بين تلك الممالك لاحتلال مركز الصدارة والقوة ما بين البحر الأدنى (الخليج) والبحر الأعلى (المتوسط). وبتعبير آخر كان السعي لإحراز القوة الاقتصادية بالدرجة الأولى ينعكس على شكل صراعات سياسية ـ عسكرية. وكان هو العامل الأساسي في البقاء. حيث سنرى فيما بعد أن بعض هذه الممالك لم يكن السبب المباشر في اضمحلالها وزوالها هو الحروب بمقدار ما كان تحول القوافل التجارية عنها وموت الحركة الاقتصادية فيها ثم خرابها التام.

ونظراً للعلاقة الاقتصادية ـ التجارية ـ التي كانت قائمة خلال الألف الأول قبل الميلاد بين مراكز بلاد الشام والرافدين من جهة وبين ممالك جنوب الجزيرة العربية من جهة أخرى وجدنا من المفيد تقديم لمحة عن هذه الممالك الجنوبية التي كان محور علاقاتها الاقتصادية هو تجارة البخور على مدى قرون عديدة ورتبنا ذلك بشكل ملحق في نهاية الكتاب.

أسس الإنطلاقات الأولى

كانت البداية التي حركت كل شيء مما سيأتي ذكره هي الإنتاج..... فحياة الإنسان البدائي عبر عشرات الآلاف من السنين اقتصرت على تصيّد قوته اليومي أو التقاطه من الأرض. إلى أن تفتحت مداركه خلال العصر الحجري الحديث وبدأ يعرف السبيل إلى إنتاج ما يقيته ويحفظ حياته.

فكانت بذلك خطوة جبارة في تاريخ الإنسان على وجه الأرض، لا نعرف بالتحديد متى حصلت. إلا أنها اعتبرت «ثورة العصر الحجري الحديث» أو «الثورة الزراعية». وخلال أواخر العصر الحجري الحديث، أي قبل أكثر من ستة آلاف سنة، أخذ الإنسان مع تزايد خبراته بإنتاج أكثر مما كان يحتاجه لاستهلاكه. فكان أن اتجه للقيام بأول خطوة واعية في طريق التجارة، مبتدئاً ذلك بمبادلة السلع الفائضة لديه بمواد أخرى يحتاجها، ومتدرجاً في ذلك من التبادل مع جيرانه الأقربين إلى سكان المستوطنات الأخرى المجاورة ثم البعيدة.

بمرور الزمن واستمرار هذا التبادل انكشفت للإنسان أمور كانت مجهولة وأيقظت رغباته وتطلعاته إلى الجديد والأكثر. وبعض الأفراد ممن كان لديهم الإقدام والتوثّب اندفعوا إلى مناطق أبعد فأبعد وتجولوا هنا وهناك وخففوا عن جماعاتهم مقابل أجر معين عناء التجوال والبحث عن مادة يحتاجونها أو إيجاد زبائن مناسبين للمبادلات. فكان أولئك الأفراد أولى الجماعات المحترفة من الباعة المتجولين. ومن الوسائل النقدية في ذلك الزمن الموغل في القدم كانت رؤوس السهام والبلطات الحجرية والمواد الغذائية والماشية والفرو والمواد النسيجية وحجر السبج (الزجاج البركاني الأسود) المرغوب كثيراً.

كان ذلك حوالى 4000 قبل الميلاد... وربما قبل ذلك بقرون عدة.

وسائط النقل البدائية

لا شك أن المحاولات الأولى التي أشرنا إليها آنفاً كانت بطيئة وقليلة. إلا أنها فتحت طريق التجارة بكل ما تشعّب عنه في القرون اللاحقة. فمنذ أوائل الألف الرابع قبل الميلاد كان الباعة المتجولون يحملون معهم الأصداف واللؤلؤ من منطقة الرافدين مبتعدين أكثر من تسعمائة كيلومتر في الأراضي الإيرانية ليبادلوا ذلك بأحجار الرخام والفيروز واللازورد والمرمر، التي كان موكلوهم في المدن السومرية يهتمون بها كاهتمامهم بالنحاس والقصدير والرصاص.

من المؤكد أن أقدم وأول واسطة للنقل على الإطلاق كانت أكتاف الإنسان وظهره. ولا يزال الحمالون شيئاً عادياً حتى عصرنا هذا في الحياة اليومية سواء في مدن بلاد الشام والرافدين أو في ما جاورها من البلدان الأخرى، حيث نراهم يحملون على ظهورهم الأمتعة الثقيلة وغيرها هنا وهناك.

ثم توصل الإنسان تدريجياً لتحميل حزم الأمتعة وسلال البضائع على ظهور الحيوانات. ومن المحتمل أنه أول ما استخدم في ذلك الثيران، حيث كانت من الحيوانات التي تم تدجينها منذ زمن طويل. غير أنها لم تكن مناسبة تماماً لمهمات من هذا النوع. وقد جرب الإنسان ـ ربما أيضاً في الحقبة نفسها ـ استخدام عربات اليد، تلك العربات الثقيلة الحركة التي تسير على اثنتين أو أربع من العجلات قوامها ثلاث قطع خشبية متشابكة مع بعضها تدور على المحور الذي ثبت بواسطة سيور جلدية على جسم العربة. وهذا النموذج من العربات لا يزال مستخدماً في مناطق الأناضول بتركيا حتى عصرنا هذا كما كان حوالى سنة 3000 قبل الميلاد. هذا ما تبين على كل حال من خلال المكتشفات الأثرية.

عندما لاحظ الإنسان أن الثور البطيء الحركة لا يحقق الفائدة المرجوة في النقل

خصوصاً وأنه لم تكن قد وجدت طرق بعد، إضافة إلى مشكلة تأمين الماء والعلف، عندها اهتدى إلى الاعتماد على حيوان آخر صبور قوي المراس بإمكانه عبور المناطق المختلفة دون وجود الطرق وعبور المناطق الجبلية محملاً، وكان ذلك هو الحمار. ومن غير المعروف بالضبط متى بدأ استخدامه فيّ النقل ولكن تدجين هذا الحيوان كان قد حصل بين أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث (ق. م.) في كل من آسيا الغربية ومصر والأرجح أنه منذ ذلك الحين بدأ استخدامه في النقل.

في زمن لا نعرفه على وجه التحديد أخذ الباعة المتجولون المهرة يتكتّلون مع بعضهم البعض ويجهزون قوافل كبيرة من الحمير كانت تعبر الأنهار حيث وجدت المخاضات، وتتوغل في الغابات المترامية الأطراف وتجتاز السلاسل الجبلية. وعندها دعت الضرورة لإنشاء محطات في مواقع معينة للتزود بالعلف والماء وجهزت أماكن للاستراحة والمبيت وأقيمت حواجز لرسوم الطرق. وفيما بين بلاد الرافدين والشام والأناضول وإيران كان يتم تبادل البضائع بكميات في ازدياد مستمر.

ويبدو أن الإنسان لم يعد يحجم عن التوغل بهذه القوافل حتى المناطق التي يقع خلفها البحر وينمو في غاباتها خشب الأرز ـ سلاسل الأمانوس ولبنان ـ الذي أصبح مادة تجارية هامة وعاش عصراً بكامله.

أما تلك النواحي الصحراوية الكبرى ما بين الهلال الخصيب والجزيرة العربية، التي تحيط بها في شبه تقوس من جهاتها الشرقية والشمالية والغربية مناطق ذات حضارة، فلم يكن في البدء يتجرأ أحد على التوغل فيها. ومما لا شك فيه أن أولئك التجار القدماء، الذين لم يكونوا أقل إقداماً من تجار عصرنا هذا، كان التفكير في الأرباح يحرضهم دوماً لإيجاد طرق تجارية جديدة. ولكنه سرعان ما تبين لهم أن استخدام الحمار بأحماله القليلة نسبياً واحتياجه المتكرر للماء والعلف مسألة ليست ذات جدوى على الطرق الصحراوية. فتوصلوا إلى استخدام الحيوان الذي ينتصر على الصحراء، وهو الجمل.

تجارة الأزمنة المبكرة

كان التاجر عند انطلاقه في رحلاته يحمل معه منتجات سكان القرى لتسويقها حيث اتجه ويعود بالسلع التي تحتاج إليها جماعته. ومن المعروف أنه منذ ما قبل 3000 قبل الميلاد تم إدخال النحاس وخشب البناء والحجارة التي كان لا غنى عنها خصوصاً في صنع الطواحين اليدوية والأبواب، حيث انه قبل توصل الإنسان لصنع أبواب تعلق بمفصلات كانت أعمدة الأبواب تدور في حجارة محفورة.

من المحتمل أن أوائل تجار الأزمنة القديمة كانوا من جماعات الصيادين الذين لاحظوا أن التجارة تأتي بمردود أكبر من الصيد فتحولوا إليها شيئاً فشيئاً. وربما أيضاً كان بعضهم من جماعات البدو الرحل الذين تجولوا ما بين البوادي والجبال ومستوطنات وديان الأنهار وتكونت لديهم معرفة بالمسالك والدروب.

وأيّاً كان. . . فالتجارة لم تكن بالطبع ذلك العمل السهل بالنسبة لهؤلاء القدامى، الذين وجب عليهم تجاوز المستنقعات والصحارى والجبال والدخول بزوارقهم في المجاري المائية الخطرة أحياناً، ودفع الأتاوات على الطرق والبقاء في خوف مستمر من مواجهة عصابات السطو. لقد رزحوا تحت التكاليف التي ألقتها على عاتقهم رحلاتهم إلى المجهول. حيث انهم لم يكونوا يحملون بضاعتهم فقط، بل عدا عنها كل ما يحتاجونه لاستهلاكهم على طريق الرحلة إضافة إلى بعض الأسلحة من أجل الدفاع عن النفس.

حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد أخذ الإنسان يتخطى تجارة المقايضة القديمة. وأخذ التكاثر السكاني وازدياد السلع المتاجر بها يحث الإنسان للبحث عن مقياس تقيّم به البضائع ويصلح لاستخدامه في دفع أجور الخدمات. فكان أن تم التعارف في البداية على استخدام الشعير. فكل إنسان كان بحاجة إليه. وبذلك أصبح

لأول مرة وسيلة للدفع استمرت حتى حلت محلها المعادن. كان ذلك ممّا سهّل تقدير قيمة السلع ويسّر التعامل التجاري.

ولئن كانت التجارة قبل ذلك لا تكاد تتجاوز شمالي الرافدين فقد أصبح الإنسان بالتالي يتوسع في رحلاته شرقاً وشمالاً ويماشي مجاري الأنهار ويعبر الشعاب الجبلية ويتوغل في بلدان ينقصها الشعير كمادة أساسية في الغذاء بينما تتوفر فيها مواد كالنحاس والفضة والرصاص والذهب والحجارة. من الواضح أن سكان تلك الأزمنة المبكرة كانت لديهم مواهب جديرة بالتقدير. فالنموذج الذي تم اكتشافه لزورق شراعي يوضح لنا أنهم كانوا في تلك الحقبة القديمة قد تعلموا الاستفادة من قوة الرياح في المواصلات النهرية. وأما في النقل البري فقد استخدموا تلك العربات التي تدور على عجلات بشكل قرص. وقد استخدمت المناجل المصنوعة من قرميد مشوي على حرارة عالية. ومن المؤكد أنها كانت سهلة الكسر وغير حادة. لذا تم تحسين نوع من النصال استخدمت فيه أسنان دقيقة من شظايا الحجارة، أول ما كان يتم غرسها في الخشب، وفيما بعد استخدم لذلك عظم الفك من الحيوانات الكبيرة بسبب تقوسه، حيث تزرع فيه تلك الأسنان الدقيقة وتثبت بالصلصال. وبقي الأمر كذلك حتى تمت صناعة النصال من المعادن.

الفصل الأول

بلاد الرافدين
أرض الطوفان

من الملاحظ أن سكان الحقب القديمة لتلك الأراضي الرسوبية ما بين النهرين التوأمين الفرات ودجلة لم يُطلقوا تسمية عامة على البلاد التي عاشوا فيها ككل، بل كانوا يقولون ببساطة: «البلاد» أو: «سومر» و«أكاد». وهذا أمر لم يكن مقتصراً على تلك المنطقة أو ميزة محصورة فيها، بل إن كل بلدان العالم القديم عرفت في الأزمنة القديمة نظام الكيانات الإقليمية التي تركت آثارها حتى عصرنا هذا.

وحتى عندما كانت إحدى القوى السياسية في الهلال الخصيب تفلح في توحيد تلك الكيانات أو الدويلات لفترة، طالت أو قصرت، فإن ذلك لم يكن ليتغلب نهائياً على التسميات الإقليمية التي كانت مشتقة إما من اسم مدينة أو اسم جماعة عرقية أو احتمالات أخرى.

وفي وقت لاحق ـ في حقبة حديثة نسبياً ـ استخدم المؤرخون اليونان لبلاد الرافدين تسمية «ميزوبوتاميا Mesopotamia» التي تعني حرفياً: «ما بين النهرين»، إلا أنها لم تقتصر على هذا المدلول الضيق بل شملت أرض الرافدين كلها وأصبح لها منذ ذلك الوقت استخدام عالمي في الأوساط التاريخية. واستخدام اليونان لهذه التسمية لا يعني بالضرورة أنهم ابتكروها، فسكان سوريا من الآراميين كانوا منذ زمن طويل قد أطلقوا على المنطقة ـ خصوصاً الشمالية منها التي سماها العرب بالجزيرة الشامية ـ اسم «آرام نهرين» والأرجح أن يكون الاستخدام اليوناني قد أُخذ كترجمة للآرامية.

والحضارة التي قامت تدريجياً في هذه المنطقة عاشت ما يقارب الثلاثة آلاف سنة بصورة مستمرة كان تأثرها بالهزات السياسية بسيطاً.

وقد سميت هذه الحضارة في الأوساط التاريخية بأشكال مختلفة إذ يقال أحياناً: «الحضارة السومرية ـ الأكادية» أو «البابلية ـ الآشورية» أو «الحضارة الكلدانية» أو بشكل عام «حضارة الرافدين» وذلك تبعاً لاهتمام الباحثين بتغليب اصطلاح على آخر. ولكن الواقع إن كل هذه التسميات كان يُقصد بها دائماً الأرض والحضارة ذاتهما.

والمدن التي تفتحت فيها هذه الحضارة وازدهرت ثم انتشرت منها إلى كل أنحاء ما يدعى بالشرق القديم كان من أبرزها وأقدمها أور وأوروك وأكاد وبابل. تعتبر بلاد الرافدين حسب التعبير المألوف «هبة النهرين». حيث أن ما يحملانه من رواسب عبر العصور الطويلة كوّن تلك السهول الرسوبية الخصبة الممتدة ما بين أطراف الصحراء العربية وهضبة إيران، والتي تصل حتى ساحل الخليج حيث تقع البصرة، أي أبعد بكثير إلى الجنوب مما كانت عليه قديماً. علماً أنه حوالى سنة 3000 قبل الميلاد كانت السفن تبحر حتى أور، الميناء التجاري على الخليج (البحر الأدنى قديماً). وفي عصرنا هذا يتكون من التقاء الفرات مع دجلة على بعد حوالى المئة كيلومتر شمالي البصرة عند بلدة القرنة مجرى واحد يدعى شط العرب يصب في الخليج. أما في الأزمنة القديمة فكان لكل منهما مجراه المستقل حتى ساحل الخليج. ولما كانت الصخور الكلسية القاسية في الشمال قد تحكمت بمجرى كل من النهرين فإننا لا نكاد نلاحظ في تلك المناطق انتقالاً يذكر لأي من المجريين عبر العصور. ولم تزل المدن القديمة كما كانت منذ آلاف السنين تقع على ضفافهما أو بالقرب منهما.

وأما في الجنوب حيث يصبح المجرى عبارة عن منخفض رسوبي عريض وقليل العمق فإن سير النهرين يصبح بطيئاً ويرتفع القاع كما في كل الأنهار المتعرجة، وتجري مياههما غالباً فوق مستوى السهول مما ينتج عنه الكثير من البحيرات والمستنقعات وتغير في المجرى من حين إلى آخر.

من هذا يتضح أن المدن الجنوبية في بلاد الرافدين، التي كانت سابقاً على الفرات ليست اليوم أكثر من تلال من الركام في أرض قفرٍ كلها من الوحول اليابسة المتشققة.

منذ أقدم الأزمنة كان هناك خطران يتهددان فلاحي تلك السهول الرسوبية الخصبة:

فالرّيّ الاصطناعي الذي لا غنى عنه بواسطة الأقنية وتفرعاتها والسدود والسواقي ينتج عنه بمرور الزمن تراكم الوحول وتملّح التربة الزراعية إن لم يكن هناك تصريف اصطناعي أيضاً ومنتظم للمياه الزائدة، الأمر الذي يبدو أنه لم يكن معروفاً في الحقب

المبكرة من الحياة الزراعية. ومن الطبيعي في هذه الحال أن الأرض الخصبة خلال زمن قصير نسبياً تفقد خصوبتها وتزداد بذلك مساحة الأراضي التي يتخلى عنها فلاحوها تباعاً وتتحول إلى بقع شبه صحراوية. والواقع أنه تستحيل المحافظة على التربة الزراعية وعلى فيض الغلال الذي تقدمه بسخاء إن لم يكن هناك شبكة سليمة للري والتصريف وعمل جدي وشاق لجموع كبيرة من البشر ومراقبة دقيقة لكل ذلك.

وإن مواصلة الرقابة على الأعمال الزراعية وتوزيع المياه في بلاد النهرين كانت مفتاحاً للرخاء والرفاهية في كل الحقب التاريخية. وما أكثر ما تطالعنا من بين الميراث الكتابي الضخم مدونات تظهر اهتمام الحكام على اختلافهم بأمور شبكات الأقنية ومراقبتها وصيانتها وتعزيلها وغير ذلك... هذا وإن ما يحدث عندما تترك سهول الرافدين وشأنها، وعندما يصبح عمل الإنسان مستحيلاً ويوضع حدّ بالقوة لإشراف الدولة، هو بالضبط ما نرى آثاره التي تركها اجتياح المغول في العصور الوسطى حتى أيامنا هذه. لقد أعادوا البلاد قروناً عدة إلى الوراء.

أما الخطر الثاني الذي لا يقل في أهميته عما ذكرنا والذي يتهدد أرض الرافدين منذ الأزل، فهو نظام المياه بالنسبة للنهرين دجلة والفرات. حيث انه يتعلق بالكامل بما يهطل من الثلوج والأمطار في جبال أرمينيا وكردستان. وهذا يعني أن شحاً في المياه لبضع سنوات ينتج عنه القحط والجوع. كما يعني ذلك من ناحية أخرى أن ارتفاع منسوب المياه يتسبب في انهيار السدود والفيضان فوق الضفاف وغمر الأراضي وتلف المحاصيل بتحول الحقول إلى بحيرات كبيرة وسخة. ولا شيء ينجو من تلك المياه التي تبدو للناظر ممتدة حتى الأفق، والتي تقتحم في سيرها البيوت والأكواخ بساكنيها وحيواناتها.

لقد عاش إنسان بلاد الرافدين في تهيب دائم من الصحراء والمستنقعات. وإذا أضفنا إلى ذلك كله القلق مما يخبئه الغيب أدركنا سر التشاؤم الذي يميز ديانة أهل الرافدين القدماء.

غالباً ما يرد ذكر الفيضانات في النصوص المسمارية. فعلى سبيل المثال ينص تقرير موجه من أحد الولاة إلى سيده على أن الخابور فاض ماؤه بشكل مباغت فوق ضفتيه وغمر جميع الأراضي المجاورة. ولكن هذا ليس كل شيء. فعلى حد تعبيره أن الأمطار الغزيرة التي لا تنقطع جعلت حتى الآن جني أي محصول جديد مستحيلاً.

بعد تاريخ هذا التقرير ببضعة قرون من الزمن حدد الملك حمورابي في مجموعته القانونية ما يلي:

«إذا كان أحد الفلاحين مديناً وأرسل إله المطر ـ حدد ـ أمطاراً غمرت حقله، أو داهمه طوفان خربه وأتلف محصوله، فإن الفلاح غير مطالب في تلك السنة بتقديم حبوب لدائنه أو فوائد عن ديونه...».

لقد تحدث كافة مؤرخي العصر القديم عن الطوفان الكبير كأفظع وأسوأ وبالٍ أتى على البشر منذ نشوء العالم. وإن هنالك قصة للطوفان من مدينة نيبور ـ في جنوب الرافدين ـ مكتوبة بالمسمارية السومرية على لوح طيني فيها شبه بقصة الطوفان التي يرويها سفر التكوين من التوراة. وهناك قصة أخرى في النصوص الأكادية لملحمة جلجامش وجدت في المكتبة الضخمة العائدة للملك الآشوري «آشور بانيبال» والتي اكتشفت ألواحها البالغة خمسة وعشرين ألفاً في خرائب نينوى، وهي اليوم في المتحف البريطاني بلندن، وتعتبر أعظم مجموعة من نوعها في العالم كله.

ولكن على الرغم من تعدد القصص فمن المحتمل أن طوفاناً واحداً كان أفدح من كل الفيضانات الأخرى التي عرفها البشر. وربما ذهب فيه ما يقرب من سكان مدينة أو إقليم بأسره. وهذا قد يوضح لنا السبب في أن البشر والحوادث والآلهة والأبطال ممن سبق زمن الطوفان ينسبهم مؤرخو الحقب اللاحقة إلى أساطير ليست لها حدود زمنية.

من الجدير بالذكر أن التنقيبات الأثرية لم تعثر حتى الآن بهذا الخصوص على أي دليل مادي يشير إلى الطوفان. غير أنه لا تنقصنا التوضيحات لذلك. فمن الممكن أن فيضاناً كبيراً كان قد حصل في هذه أو تلك من المدن وغدا أسطورة تناقلتها الأجيال وساعد خصب الخيال المعروف في بلادنا منذ الأزل على إبرازه كطوفان رهيب شامل كان نكبة على البلاد بأسرها. ولا أحسب أننا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا ان «شطحات الخيال» الموجودة في طبائعنا هذه الأيام أيضاً لدى رواية خبر أو حدثٍ ما، إنما هي أمور متأصلة بالوراثة منذ تلك الأزمنة القديمة. وقد فكر الإنسان في الوقت نفسه بسلسلة كبيرة من المد والجزر أو أعاصير عنيفة. ولكن نظريات من هذا النوع ليست ثابتة. وفي القصص القديمة ذكر لفيضانات أمطار، علماً بأن أسطورة الطوفان العام لا تقتصر على منطقة الهلال الخصيب بل هي معروفة في آداب عدد كبير من البلدان في كل أنحاء العالم، فهناك أمثلة قريبة من ذلك في الآداب الأميركية القديمة (أميركا الوسطى

والجنوبية) وآداب الهند وأفريقيا مثل الكاميرون ثم الفيليبين وغيرها[1].

وقد يظن الإنسان أن الطوفان العام لم يكن إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال. ولكن المرجّح هو أنه في تلك الحقب الموغلة في القدم عندما كانت أوروبا تعيش عصر الجليد، تعرضت بعض المناطق كبلاد الرافدين لأمطار هائلة وطويلة عاصرها الإنسان وبقيت ذكراها متناقلة من جيل إلى جيل إلى أن تحولت إلى قصة كارثة أسطورية عديمة المثيل.

عند نشأة أقدم ممالك المدن السومرية كانت أور تقع على ساحل الخليج. وكانت الأراضي المحيطة بها تتكون في الإجمال من مستنقعات ومراعٍ غالباً ما لعبت دوراً هاماً في الحياة الرافدية. وكثيراً ما تذكرها الكتابات القديمة عدا عن وصفها بعد ذلك بزمن طويل في مدونات الملك الآشوري سنحريب التي تمثل قصة «حربه في المستنقعات» بتصوير مجسم جدير بالمشاهدة. لم تكن الحياة سهلة في تلك المراعي والسهول الرطبة الحارة. ومن المعتقد أن السكان الأوائل الذين تمتعوا بوفرة من الأسماك والطيور كان أكثر ما طاب لهم هو أشجار النخيل المعطاء التي تجود بثمارها المفيدة سنة بعد سنة، عدا عن العديد من المنتجات الأخرى مثل: نبيذ التمر وبذوره والأوراق والألياف لصنع الحصر والسلال والحبال، ثم الجذوع التي كانت تستخدم في دعامات البيوت. ولكنها على الرغم من ذلك كانت تشكل أجمات مليئة بالقصب، فيها الحصى والضفاف الرملية التي كانت تغمرها مياه الفيضان، وأقنية متعرجة تجري فيها المياه الآسنة باتجاه الخليج. غير أنه بالمقارنة مع الصحارى القريبة منها فإن تلك الأجمات الرطبة على المجرى الأسفل لكل من الفرات ودجلة كانت على الرغم من كل شيء تبدو للناس وكأنها الفردوس. ولو تمكن الإنسان من ترويض مياه الفيضان وتوجيهها في أقنية وتصريف مياه المستنقعات وري الضفاف الجافة لغدت هناك بساتين تقدم الخير الوفير.

لقد كانت التربة من الخصوبة بحيث تصل الغلال إلى درجة قد تثير استغرابنا في هذه الأيام. فهناك ألواح مسمارية تعود إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد تؤكد ذلك عندما تذكر على سبيل المثال حقلاً مزروعاً بالشعير أنتج في بعض الأماكن ستين مثلاً وفي أماكن أخرى هنا وهناك ثمانين مثلاً.

وأما هيرودوت الذي زار بلاد الرافدين واطلع على أحوالها في القرن الخامس قبل

(1) انظر: Alan Dundes, The Flood Myth, University of california Press, 1988.

الميلاد، فقد كتب بهذا الصدد:

«... إن ما منحته إلهة الخصب من الغنى لهذه الأرض جعلها تثمر في الأحوال العادية بنسبة مئتي مثل وفي بعض الأحيان ثلاثمائة مثل. وكم كان يبلغ ارتفاع نباتات الذرة والسمسم فإنّي أعرفه جيداً ولكني لا أريد أن أقول ذلك لأن من لم يكن موجوداً في بابل ولم يشاهد ذلك فلن يصدقني فيما أقول عن إنتاج تلك الحقول...».

إذاً فقد كان لدى الناس هناك من الحبوب والتمور أكثر من حاجتهم. وكان بالطبع أمراً حسناً أن تتوفر لديهم سلع للمبادلة وتأمين ما ينقصهم من الحاجات الأخرى. علماً بأن متطلباتهم الحياتية في تلك الأوقات لم تكن عالية، خصوصاً وأنّهم كانوا في البداية يعيشون في قرى صنعت بيوتها من الحلفا. ثم إن تلك القرى تطورت تدريجياً لتصبح مدناً صغيرة. فصارت احتياجات الناس أكثر وشرعوا في مبادلة الفائض لديهم من الحبوب والتمور بما يحتاجونه مثل الأخشاب والحجارة والسبج (حجر الزجاج البركاني الأسود) والأشياء التي تساعد في تجميل الحياة كالأصداف والحجارة الكريمة. وتم جلب هذه السلع من البلدان المجاورة والبعيدة على السواء، في البداية طبعاً على ظهر الإنسان، ثم استخدم الحمار. واستخدمت الزوارق أيضاً في العديد من المجاري المائية.

الفصل الثاني

جنوب الرافدين

العصر السومري القديم

على الرغم من كل ما جاءت به التحريات الأثرية سواء عن العصور التاريخية أو ما قبل التاريخية فلم يظهر حتى الآن ما يشير من قريب أو بعيد إلى أصل أو أصول مستوطني بلاد الرافدين فيما قبل العصر السومري، أي فيما سبق الألف الرابع (ق.م.). وما زالت مسألة يلفها الغموض. وما أصبح معروفاً حتى الآن على كل حال هو أن السومريين كانوا أول جماعة سكانية تركت آثاراً واضحة لشعب كانت له كل مقومات الحضارة الإنسانية. وقد بدأت حضارتهم بالتفتح في أواسط الألف الرابع (ق.م.). ولكن استيطانهم كان بالتأكيد قبل ذلك.

وغير معروف أيضاً من أين كان قدومهم إلى جنوبي الرافدين. ومن المستبعد أن يكونوا قد وجدوا أمامهم أرضاً خالية فاستوطنوها، بل إنهم إما أزاحوا مستوطنين سبقوهم وإما اختلطوا معهم ثم استوعبوهم وامتصوهم.

واللغة التي استخدمها السومريون لم تظهر لها صلات قرابة مع أي من لغات الهلال الخصيب وما جاوره، الحية منها والمنقرضة. وقد اعتبرت من اللغات المركبة أو المجمعة.

وعلى الرغم من أن المدن السومرية كانت في القسم الجنوبي من أرض الرافدين ما بين بابل والخليج فإن دورهم الحضاري الكبير، بل والسياسي أيضاً، قد تجاوز هذه المنطقة بكثير، وبقي أثره العميق واضحاً في الحقب الزمنية اللاحقة، كما سنرى في الفصول التالية.

أما في وسط وشمال أرض الرافدين فقد شكلت الجماعات الناطقة بـ «اللغات السامية» النسبة الكبرى من الكثافة السكانية. ومع ذلك يلاحظ أنهم لم يختلفوا عن جيرانهم سكان الجنوب، سواء من حيث نمط المعيشة أو طراز المنشآت العامة أو التقاليد المتوارثة، كما أنهم عبدوا الآلهة نفسها ولو اختلفت أسماؤها أحياناً. لذلك لا يمكن الحديث عن حضارات مختلفة في أرض الرافدين، بل إنها حضارة واحدة مستمرة ومتكاملة لا تخلو من بعض الفروق المحلية الثانوية.

وازدهار الحضارة الرافدية كان أول ما انطلق من المدن الجنوبية، والسومريون هم أصحاب الدور الرئيسي فيها.

أما إن كان السومريون يتحدرون من عرق خاص بهم فهي مسألة ما زالت معلقة ولم تجد حتى الآن جواباً لا بالإيجاب ولا بالنفي. علماً بأن الهياكل العظمية التي كشفت عنها الحفريات الأثرية لا تقدم أي دليل واضح بهذا الصدد.

إن الآداب السومرية تقدم لنا بالواقع صورة عن شعب بالغ الذكاء محب للعمل وديع دمث الأخلاق ومتدين. ولكن هذا كل شيء. فتلك الآداب لا تقدم أدنى إشارة ولو بصورة غير مباشرة إلى أصلهم. بل إن ما يلفت النظر هنا أن أقوالهم وأساطيرهم بشكل عام تستند في معظم الأحيان بأفكارها إلى الأنهار والمستنقعات وأشجار النخيل والقصب، بحيث يخيل للباحث أن السومريين كانوا قد وُجدوا منذ أقدم الأزمنة في أرض الرافدين. وهو أمر يميل بعض الباحثين فعلاً إلى الإعتقاد به. ثم هناك مسألة أخرى لم يستطع أحد الإجابة عليها أيضاً، ألا وهي إن كانت اللغة السومرية قد استخدمت منذ زمن قديم جداً في بلاد الرافدين أم لا. . . كانت سومر تتكون من عدد من الإمارات أو ممالك المدن. وهو الأمر الذي كان شائعاً في حقب زمنية مختلفة. وكان لكل أمارة أو مملكة إلهها الخاص أو الرئيسي. ولكل مدينة سور من القرميد وخندق عاش السكان في حمايتهما. وامتدت حولها حقول ومروج للرعي وبساتين كانت أجيال سابقة قد أنشأتها من استصلاح الأراضي المستنقعية والسهوب والبقع الصحراوية. غير أنه لا مجال لمقارنتها مع مدن عصرنا هذا. فالمساحة التي كانت مبنية من مدينة أور لم تتجاوز في أي زمن كان الستين هكتاراً كما تبين الحفريات الأثرية. وهذا يعني استيعاب حوالى أربعة وعشرين ألفاً من السكان إذا أخذنا كمقياس مدناً قديمة أخرى كانت معروفة بصورة دقيقة.

نظام المدن السومرية
دولة المعبد

كان المعبد يحتل موقعاً متوسطاً في المدينة على مرتفع اصطناعي، تشرف عليه الزقورة التي هي برج المعبد. وكل معبد كانت تتبعه مخازن وأماكن للأعمال الإدارية وأماكن أخرى لمختلف ورشات العمل والإنتاج. أما في أماكن الورشات فكان يعمل أصحاب مهن متعددة، فهناك الخباز وصانع البيرة والغزّال والنساج والحداد والنجار وغيرهم، ويساعدهم العبيد في أعمالهم.

واعتبرت الأرض الزراعية ملكاً للآلهة حيث يشتغل الفلاحون من أجل خدمتها وطلباً لمرضاتها.

ويمكن القول إن المعبد كان بهذا الشكل نوعاً من «الإدارة الإلهية» لو أردنا استخدام هذا الوصف، أو كان نموذجاً موسعاً متطوراً لأسرات العصر الحجري بإشراف أبوي وطبعاً بتوزيع جديد للأعمال. فالمرأة في البيت لم تعد تقوم بصنع الملابس بل كانت تجهزها ثلاث عاملات اختصت كل منهن بقسم من العمل.

وفي ذلك الزمن ابتدأ بالفعل ظهور العامل الاختصاصي. وهؤلاء العاملون كلهم كانت تتم إعالتهم من فائض الغلال التي يجنيها الفلاحون من الحقول. والفلاح كان يعتبر مستأجراً للأرض من الآلهة. وكل المنتجات كانت تعتبر بمثابة ملك للآلهة. ومن أجل خدمتها يتم تنصيب الحاكم الذي كانت له في الوقت نفسه صفة الكاهن الأعلى. وجماعة الكهنة هي التي تعين العاملين في الإدارات، وإليها تأتي الموارد كافة التي منها تغطي كل النفقات بما فيها تكاليف الدفاع.

أما الإنسان الفرد فلم يكن يملك سوى البيت الذي يعيش فيه وأمواله المنقولة وأدوات عمله.

وكل من كان لدى المعبد من موظفين أو عمال يتقاضون منه أجورهم شعيراً. فالمعبد كانت له مخازن من كل شيء مما تحتاجه الجماعة كالشعير والزيت والصوف والتمر، وعدا عن ذلك منتجات مصنوعة. كما أن المعبد هو الذي تولى التجارة بتسيير القوافل والتجار إلى مختلف البلدان.

الواقع إن هذا الشكل من الإدارة في وسط نظام اجتماعي يمكن اعتباره بمثابة

«شيوعية المعبد» لم تكن له لا إمكانية تصريف شؤونه بنفسه ولا إمكانية الاكتفاء الذاتي. فقد احتاج إلى سلع لا يتم صنعها في المدينة أو سلع أخرى لا تنتجها الأرض المحلية. فمن أجل الآلهة كان الناس بحاجة إلى عدد كبير من السلع والمواد كالفضة والرصاص والنحاس والقصدير والذهب واللازورد وغير ذلك... ولم يكن بناء البيوت ممكناً من غير أخشاب ولا طواحين من دون حجارة. كل ذلك جلبه التجار خدمةً للمعابد من أماكن بعيدة مثل: «ماكان» شرقي الخليج ومن جبال زاغروس وآسيا الصغرى و«بدكجان» في أفغانستان ومن المناطق الساحلية للخليج وحتى من مناطق نهر الهند.

كان المعبد بالحقيقة هو المنشأة الكبرى في المدينة والجهة الوحيدة التي تعطي التعهدات. والتجار السومريون القدامى والمشرفون على القوافل التجارية كانوا كلهم بمثابة موظفين عند الآلهة. وكانت تدفع لهم أجورهم ككل الذين يعملون لمصلحة المعبد. إلا أنه من غير المعروف إن كان كل هؤلاء العاملين في التجارة من أهل المدن التي نحن بصددها، أو كانت بينهم جماعات قدمت من شعوب أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن التاجر لم يكن يتعاطى التجارة مع سكان المدينة نفسها التي أقام فيها وكلفه معبدها بالعمل، بل كان من واجبه مبادلة المنتجات المحلية بغيرها في مدن أو بلدان أخرى. وكأجرٍ له ـ أو كدليل على أنه وقف نفسه لخدمة جماعة المعبد ـ كان يتلقى نصيباً من محاصيل بلد المعبد إلى جانب الحق في استخدام عدد محدد من الحمير التي يملكها المعبد أثناء رحلاته التجارية.

ومما لا يستبعد بهذا الصدد أن يكون تجار المعابد هؤلاء في بعض الأحيان قد تعاطوا تجارات إضافية خاصة بهم وعرفوا كيف يتسترون على الأرباح الناتجة عنها بأساليب ذكية.

مما لا شك فيه أن رجال الكهنوت في ذلك المجتمع المنظم قديماً كانوا يتميزون بيقظة لا تعرف الكلل. ولكن يبدو مع ذلك أن المجال كان مفسوحاً للإنسان أن يحتال في توفير جزء من إنتاج الحقول أو القطعان أو الحرفة أو الورشة لمصلحته الخاصة يحقق له بعض الرخاء في العيش، الأمر الذي يعتبر بالواقع غير مشروع، ولكنه مرغوب ويمكّنه من اقتناء بعض ما يحب الحصول عليه من التاجر.

إن شعب المعابد هذا قد عاش بالحقيقة كجماعة لها نظام دقيق في نوع من «الاشتراكية الدينية». ولكن كما يبدو لم تكن على درجة كافية من الاستقامة تكتفي معها

بما يسمح به رجال الكهنوت. وكثير من الدلائل تشير إلى أنه كانت قد وجدت سوق سوداء لأشياء مثل الفضة والنحاس وبعض الحجارة الكريمة والروائح الطيبة.

تقول الأسطورة السومرية أن «إنكي» سيد الأرض وإله المياه المحيطة بها وإله الحكمة والسحر أمر بأن يبنى له بيت من الفضة واللازورد كان يتألّق كالنور. من خلال ما عرف عن السومريين يمكن الجزم بأن دويلات المدن القديمة عندهم قد تمتعت برخاء كبير. وأهم مصادر هذا الرخاء كان الاقتصاد الزراعي، علماً بأن الاتجاهات المهنية الأخرى كإنتاج الأقمشة وتصنيع المعادن والتجارة كانت أيضاً على درجة كبيرة من الأهمية.

كان وضع الكهنة على أحسن حال من خلال ما يقدم الناس باسم الآلهة يومياً من لحوم الأغنام والسمك والخبز والطحين والفطائر والزبدة والفواكه والعسل والبيرة. وكانت الأطعمة توضع في هيكل المعبد. وبالطبع كانوا يعتقدون أن الآلهة تسرّها الروائح الطيبة. ولكي تبقى راضية تماماً يعمدون لتنويع لائحة الأطعمة كل يوم.

إنه لم يرد في نصوص مكتوبة ما يوضح إلى أية درجة كان الكهنة يستفيدون من هذه التقدمات. ولكن كثيراً من الظواهر تدفع إلى الإعتقاد أنه قد نتجت عن ذلك تجارة بكل معنى الكلمة، كما لو أن بدايات الفساد قد تسللت إلى اقتصاد المعابد عموماً منذ زمن موغل في القدم. فعلى الرغم من أنه كان لكل المواطنين الحق في حصص متساوية من محاصيل الأرض المزروعة فقد عرف الكهنة دائماً كيف يقتطعون لأنفسهم الحصة الأكبر. وفضلاً عن ذلك فإن إدارات المعابد ادعت لنفسها الحق في ظروف عمل أسهل من تلك التي تقدم للجماعات الأخرى من مستأجري الأرض والحرفيين والعمال بشكل عام، ناهيك عن ذكر العبيد.

منذ ما قبل منتصف الألف الثالث (ق. م.) بوقت طويل لم يعد ما أسميناه «الإدارة الإلهية» يتمتع بتلك المظاهر من المساواة والعدالة. حيث إن رجال الكهنوت أخذوا بشكل تعسّفي يرفعون رسوم دفن الأموات والخدمات الكهنوتية البسيطة. والأكثر من ذلك أنهم صاروا يعتبرون أملاك الآلهة ـ أي أملاك المجتمع العامة ـ بمثابة أملاك شخصية لهم. وهناك لوح طيني يحمل معلومات واضحة عن تطور الأمور في هذا الاتجاه الفاسد، إذ تترجم العبارات الواردة فيه بما معناه:

«... دخل الكاهن الأعظم إلى بستان الفقراء... فرأى خشباً أعجبه

وأخذه معه... إذا كان بيت أحد المتنفذين متاخماً لبيت مواطن بسيط فإنّ هذا المتنفذ يستولي على المسكن المتواضع لذلك الرجل البسيط ويضمه إلى بيته دون أن يدفع له التعويض المناسب... إذا ولد عند أحد الفقراء حمار حسن الشكل.. يُتوقع أن يصبح قوياً فإن السيد يقول له: أريد أن أشتريه.. ويدفع به ما يخطر بباله...».

بذلك نلاحظ أن الأمور تطورت تدريجياً من جماعات معابد كانت بالأصل عديمة الطبقات إلى مجتمع طبقي، ومن ثم أسفر هذا التطور في شبه انقلاب سلمي عن نشوء هيئة دولة مصغرة على رأسها حاكم.

وكان الحكام الأُول قد أطلقوا على أنفسهم لقباً متواضعاً هو «إي.. شا.. كو» يمكن تفسيره بما معناه «بوّاب الإله». وفي أحوال نادرة جداً اعتبر بعضهم نفسه «لوغال/ لوجال» أي بمثابة ملك. وأحد هؤلاء كان «أورو كاجينا» حاكم دولة لاغاش الذي أفاد من منصبه فوضع حداً لاستغلال الفقراء من قبل الأغنياء وعين نفسه كاهناً أعظم وخصص لنفسه أكبر قطعة من الأرض وقطع دابر الربا والجوع والسرقات وأعاد للمواطنين الحرية وسمى نفسه ملكاً «لوغال» وأورث ابنه هذه المرتبة[2].

في ذلك الزمن كانت تجارة المعادن قد أصبحت احتكاراً ملكياً. وعلى الرغم من ذلك لا يمكن أن توصف دويلة المدينة السومرية بأنها دولة جماعية بالمفهوم المعاصر للدولة. كما أن ألـ «إي.. شا.. كو» لم يكن السيد المطلق، ولم يستطع حاكم أن يتجاوز السلطة العليا للمعبد.

أهم الابتكارات والتجديدات السومرية

إن كل ما تركه السومريون من آثار، سواء كان فنوناً أو كتابات، يدل على جماعة اتصفت بدقة في التفكير ومحبة للنظام وحرص على الوضوح. وكانوا منذ بزوغ شمس حضارتهم قد ابتكروا أشياء وطبّقوها عملياً، الأمر الذي عاد بفائدة كبيرة على جمعيات المعابد والتجارة المتنامية باستمرار.

---

(2) بخصوص تسمية «إي..شا..كو» والصيغة الأكادية «إيشياكوّم» ولقب لوغال ارجع إلى:
Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.51, 73-74, 156.
Wolfram von Soden, Einfuehrung in die Altorientalistik, p.p. 59-60.

كان أبرز ذلك نظام الأعداد ونظام الأوزان وإمكانية الكتابة.

كانوا قد أوجدوا النظام الستيني باتخاذ العدد 60 أساساً للأعداد، وقسموا اليوم إلى 12 ساعة مزدوجة والدائرة إلى 360 درجة. واستفادوا من علوم الهندسة والجبر والفلك في الشؤون الزراعية والدينية. ولدى وضعهم ألواح الأوزان أخذوا بعين الاعتبار ما يقدر الإنسان أو الحيوان على حمله كأساس للوزن وأخذوا من ذلك أجزاء مختلفة. وأصبحت جداول الوزن أساساً لجداول الأسعار.

كان كل شيء حصيلة لدقة المراقبة. فالسومريون كانوا أناساً عمليين بشكل يندر مثيله. والعمل المشترك للجميع والنشاطات التجارية للكهنة والتجار، كل ذلك دعا لإيجاد نظام موحد للقياسات والأوزان. فهناك وحدات كانت موجودة بطبيعة الحال مثل طول الإصبع والذراع ووزن حبة التمر أو حبة الشعير، وكان استخدامها في البداية ممكناً وفي حالات محدودة وبسيطة. ولكن عندما يقوم المئات من الناس بعمل ما من أجل المعبد، أو يتعلق الأمر بكمية كبيرة من مادة منتَجة فسيكون من المتعذر اعتبار ذراع أي واحد منهم وحدة للقياس إذ أن لكل إنسان ذراعاً يختلف في طوله عن الآخر. وكذلك فإن استخدام حبات التمر أو الشعير على نطاق واسع أو في الحسابات الكبيرة لم يكن معقولاً. لذا كان لا بد من اتخاذ مقاييس أخرى يعترف بها الجميع عندما يتم نقشها على قطعة خشب أو معدن. وهذا ما حصل بالفعل عند السومريين. كما تم التوصل إلى إيجاد المكاييل والأوزان. والأرجح أنه في تلك الفترة نفسها تم ابتكار الميزان أيضاً.

إن إيجاد نظام للأعداد والمقاييس والأوزان والمكاييل كانت له أهمية لا تقدر في تطور الحياة العملية من جوانبها كافة وخصوصاً الاقتصادية. فلقد كان من المهم جداً أن يعرفوا مثلاً كمية الحبوب الواجب تخزينها لبذار الحقول. أو يعرفوا كم من القرميد يجب أن يشوى من أجل سور أحد المعابد، أو كم ينبغي أن ينقلوا من الأتربة والمواد لرفع مصطبة زقورة أو برج أو إقامة سد، وكم يحتاجون من الناس لإنجاز عمل معين في وقت محدد وغير ذلك... ومن المعتقد أنه قد لفتت انتباههم رقعة شطرنج على حصيرة من القصب الملون إلى أن ضرب الطول بالعرض تنتج عنه مساحة المستطيل. وعرفوا كيف يحسبون محيط أكداس من القرميد، وأدركوا أن عملية الضرب بالأساس ليست إلا عملية جمع مكرر. وقد كتبوا كل شيء بدقة وعناية. وكانت عندهم جداول للجمع والضرب. حتى أنهم حسبوا محيط الدائرة ولو أنه بشكل غير دقّيق تماماً ولكنه كان كافياً لمعرفة السعة التقريبية لمخزن حبوب مثلاً أو ما شابه ذلك.

في ظل هذه التجديدات صاحب تطوّر المدن اتساعٌ كبير لتبادل البضائع والخدمات العامة وأصبحت معه الحاجة ملحة لإيجاد مقياس للقيمة لوضع حد لصعوبة الحسابات التي كانت تجري في الأزمنة السابقة وعدم دقّتها. أي أنه توجب إيجاد وسيلة تدفع بها قيمة السلع وتصح كأجرة مقابل ما ينجز من أعمال وخدمات. فالشعير الذي اعتبر أول وسيلة للدفع (بسبب احتياج كل الناس إليه) وكان يوزع حسب نوع العمل وأهميته بالنسبة للجماعة، لم يعد من الممكن استخدامه في نظام اقتصادي أصبح أكثر تعقيداً وفي تجارة أصبحت أكثر اتساعاً سواء في داخل البلاد أو خارجها. فوقع اختيار الإنسان على المعدن. فاستخدمت الفضة للمبالغ الكبيرة والنحاس للمبالغ الصغيرة. وكان يتم وزنهما استناداً لوحدات القياس والوزن المحددة في الجداول. ثم بقي ذلك زمناً طويلاً جداً قيد الاستخدام. بذلك كانت قد تمت الخطوة التاريخية من اقتصاد المبادلة إلى الاقتصاد المالي. أما الزمن فليس معروفاً بدقة، ولكنه كان أواسط الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى قبله بقليل.

اعتباراً من ذلك الوقت الذي تمت فيه هذه الخطوة المتميزة في أهميتها وشكلت منعطفاً كبيراً في التفكير الاقتصادي أصبح المال وسيلة للرفاه ولنقل الممتلكات التي يجري بيعها وشراؤها ليس بمواد غذائية أو عبيد أو أملاك منقولة وغير منقولة، بل بمادة ذات قيمة محددة، وهي لا تعتبر بحد ذاتها مادة استهلاكية، ويمكن مبادلتها بكل السلع وكل أنواع الخدمات، عدا عن أن نقلها من مكان إلى آخر أسهل من نقل الشعير كما وأنها قابلة للتخزين مدة طويلة دون أن تتعرض للتلف.

أما الإنتاج من أجل الضرورة الاستهلاكية فقد حل محله الإنتاج من أجل الأسواق أو جهات أخرى تحتاجه وتكون مستعدة للتعامل بهذه المادة الجديدة التي تضع في يدها الإمكانية لتأمين متطلباتها حيثما تناسبها الأسعار.

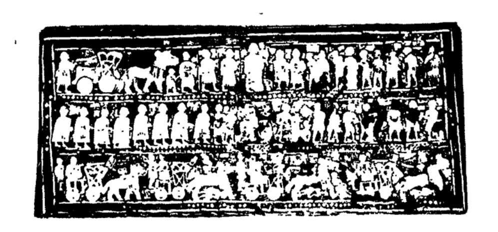
وكانت لهذه المادة الجديدة إضافة لذلك ميزة هامة هي أنها قابلة للتكاثر وإنتاج مال جديد. وبتعبير آخر وُجد «رأس المال» الذي صار يُستغل بشكل جيد ويعود بالأرباح دون أن يحتاج الإنسان نفسه لبذل مجهود يذكر. كانت أواسط الألف الثالث قبل الميلاد وكانت حضارة جنوب الرافدين قد تجاوزت أوجها منذ زمن طويل عند حصول هذه الخطوة التجديدية التي يمكن أن نطلق عليها تسمية: «ثورة رأس المال» كما سبق أن أُطلقت تسمية «الثورة الزراعية» على أوائل العصر الحجري الحديث. ومن المؤكد أن هذه الخطوة التجديدية لم تشمل الكيانات والمدن السومرية كافة دفعة واحدة

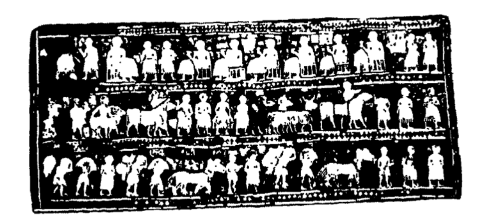
ولكنها انتشرت فيها كلها خلال فترة قصيرة من الزمن.

وتطالعنا من بين محفوظات المعابد تقارير عن مجموعات مستقلة أو طوائف من الباعة والتجار تسدد ما عليها من ضرائب استيراد وتقترض أموالاً من المعابد بقصد القيام بتجارات خاصة بها. الأمر الذي يبين لنا أن الاحتكار الاقتصادي الذي كان بيد المعبد قد أصبح هزيلاً. وصارت الأرض تباع وتشترى بعد أن كان الفلاح يعتبر بمثابة مستأجر لها من المعبد الذي حافظ على وجوده كهيئة قديمة لها اعتبارها. ولكن البنية الاقتصادية عرفت تغيراً عميقاً، إذ صارت منذ ذلك الزمن تحددها المبادرات الفردية والأموال الخاصة.

في تيار هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي بدأت الكلمة المكتوبة سلسلة انتصاراتها الفعلية. إذ أصبح لا بد من تنظيم العقود بشكل دقيق والتقيد التام بكل تفاصيل الأعمال التجارية لتجنب أي خلاف قد يقع فيما بعد.

في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد كان قد مضى على انتشار الكتابة في جنوب الرافدين زمن طويل. إذ وجدت آثار أدبية دينية ووثائق رسمية وتقارير. وهذا لا يعني بالضرورة أن الرغبة في ضمان توريث التعاليم الدينية والتقاليد هي التي أعطت دفعة القوة لنشر الكتابة في بلاد الرافدين. من الممكن أن الإنسان بحث عن وسيلة تؤمن تناقل الأخبار بشكل أفضل. ويمكن القول أيضاً إن تطور الكتابة كان بدافع عملي لضرورات ملحّة في الاستخدامات الاقتصادية والحسابية والحقوقية، كتبيان المواد والتعداد وإثبات الملكية وغير ذلك. وقد ظهرت ضرورة ذلك خصوصاً عندما بدأ الناس يمارسون التجارة، رغم أنه من المعتقد أن تدوين الأمور التجارية لم يصبح شيئاً عادياً إلا في زمن لاحق.





تدعى هذه التحفة الفنية «الراية الملكية» وقد اكتشفت في إحدى أقدم المقابر لمدينة أور. وهي تعكس بالواقع فكرة «الحرب والسلام» حيث أن أحد جانبيها (في الأعلى) يصور مشهد الحرب والجانب الآخر (في الأسفل) يصور مشهد السلام متضمناً شرب الأنخاب وشيئاً من الخصوبة وإحضار الغلال. والعمل بكامله عبارة عن موزاييك من الأصداف الملونة وقطع صغيرة من الحجارة الكريمة مزروع على أرضية طليت بالاسفلت. يعود تاريخها إلى حوالى 2600 ـ 2500 ق.م. (ـ محفوظة في متحف لندن ـ)

الطين والكتابة المسمارية

من المعتقد أن الإنسان السومري كان منذ زمن موغل في القدم قد توصل إلى أنه من السهل أن يطبع بواسطة قطعة من القصب بعض الرموز على الطين الرطب الذي إذا جففه احتفظ بالرموز زمناً طويلاً. وإن فضل السومريين في ذلك هو إيجادهم لهذا النظام من الكتابة الذي يدل على مقدار ما لديهم من مواهب عملية ومحبة للتطور والاطلاع. ومن المؤكد أن افتقار سهول الرافدين للحجارة ـ على عكس بلاد الشام ـ كان أهم سبب دفعهم لاستخدام الطين على نطاق واسع.

كانت الكتابة تتم على ألواح صغيرة من الطين المعروف بالصلصال. عندما يُشوى الصلصال ذو النوعية الجيدة يصبح متعذر الكسر. والمعروف أن كتّاب بلاد الرافدين قديماً كانوا يفاخرون بالصلصال الجيد الموجود لديهم.

والطريقة التي كانت متبعة بسيطة تماماً: إذ كانوا يلقون بالمادة الترابية في الماء ثم يحركونه. فما كان خفيفاً كالقش والأوراق وكسرات الخشب يطفو على الماء ويتم التخلص منه دون عناء. أما الحصى والرمل فيرسب ويبقى في القعر. ثم يصرف الماء من فوق الطين النظيف الذي أصبح سهل الاستخدام.

إن قالباً صغيراً من الصلصال تم عجنه بصورة جيدة يمكن أن يبقى آلافاً عدة من السنين مدفوناً في التربة الرطبة دون أن يفقد شكله. وإذا ما جفف أصبح قاسياً من جديد. وإذا كتب عليه أمكن فركه بالفرشاة دون أن يلحق بسطحه المكتوب أي أذى. وإذا علته طبقة من الأملاح والأوساخ أمكن شيّه مجدداً مما يعيد إليه نظافته ويجعل تحليل رموزه سهلاً. ولكن من الجدير بالذكر أن عجينة الصلصال لها ميزة من نوع خاص: فهي تتقلص كثيراً عند تجفيفها.

كانت الألواح المجففة توضع في خابية ثم تدفن الخابية في التراب فتمتص الألواح بعض الرطوبة التي تؤدي إلى انتفاخها قليلاً في مجال محصور ضاغطة على جدران الخابية من الداخل مما يكسب سطوحها بالتالي بعض التحدب. فإذا أراد الإنسان استعمالها في الكتابة وجب تجفيفها ببطء بعد ذلك بحيث تتقلص ثانية وتعود إلى حجمها الأول.

كانت الألواح الطينية المكتوبة منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى أوائل عصر المسيحية تقريباً تحفظ بعناية ويتم تجميعها في المكتبات وأقسام المحفوظات في

القصور (ونادراً في المعابد). وتشكل هذه الألواح سلسلة متواصلة من الوثائق والتقارير في الشؤون التاريخية والدينية والتقاليد وبشكل خاص في المجالات الاقتصادية والحقوقية كافة. ولولا هذه الألواح لبقيت معرفتنا عن بلاد الرافدين وعن الكثير من مناطق بلاد الشام أيضاً مجرد معرفة سطحية تغلب عليها التصورات من خلال ركام المدن وبقايا كنوزها الفنية.

وأما الكتابة فكانت تتم بواسطة ريشة صنعت من قطعة مستقيمة من القصب وتم قص نهايتها بشكل مثلث صغير. وبالطبع كانت للقصب بعض الوجوه السلبية في الكتابة على الطين الرطب، فرسم الدوائر مثلاً كان صعباً بهذه الريشة التي كانت مناسبة تماماً لتكوين الخطوط القصيرة المستقيمة. وبضغط ذلك الرأس المثلثي للريشة على اللوح الرطب تتكون تلك الرموز الشبيهة بالأسافين الصغيرة والتي تتكون منها المقاطع والعبارات. وهذا ما دعا الباحثين إلى تسميتها بالكتابة الاسفينية أو المسمارية. والطريقة كانت بأن يدير الكاتب يده بالريشة يميناً أو يساراً أو عمودياً تبعاً للرموز المراد وضعها. وهكذا اتخذت الرموز المكتوبة شكلاً أفقياً أو عمودياً أو مائلاً، أضيف إليها شكل رابع كان يتم نقشه برأس الريشة.

ونظام الكتابة بهذه الرموز بقي هو السائد في بلاد الرافدين في مختلف لهجاتها وخلال كل حقبها القديمة، لا بل تجاوزها إلى بعض مناطق بلاد الشام وإلى آسيا الصغرى فاستخدمه الحثيون، ودخل عيلام وبعض الأقاليم الإيرانية.

من غير الممكن تقدير الزمن الذي استغرقه ذلك التطور من الكتابة التصويرية القديمة إلى الكتابة المسمارية. ولكن لا شك أنه كان طويلاً ـ وربما قروناً عدة ـ. وفيما بعد لم يبق هناك أي شبه بين رموز هذه وتلك. وهناك الكثير من الرموز التي اكتسبت قيمة صوتية ربما لا تستند إطلاقاً إلى تلك القديمة. وعلى العكس تماماً من الهيروغليفية المصرية التي بقيت حتى النهاية كتابة تصويرية فإن هذه التغييرات الكثيرة للرموز الكتابية في بلاد الرافدين نتج عنها أسلوب في الكتابة جذاب وحديث تماماً ومرونة أكثر في التعبير. والأرجح أنه لم يكن السبب الوحيد لذلك هو مادة الكتابة نفسها ـ أي الصلصال ـ.

من الجدير بالذكر أن الأبجدية المبسطة لم تظهر في بلاد الرافدين رغم هذا التطوير المستمر في نظام الكتابة. ولكن بالطبع لا يجوز الاستنتاج من ذلك أن أهل الرافدين لم يكونوا قادرين على إيجاد شيء كهذا. . . فمن المحتمل أنهم كانوا لسبب أو لآخر،

يرفضون إجراء تغييرات أخرى. وقد أصبح مؤكداً في الآونة الأخيرة من الأبحاث الأثرية أن البابليين والآشوريين أيضاً في القرون الأخيرة من تاريخهم ـ الألف الأول قبل الميلاد ـ كانوا قد عرفوا تماماً كيف يمكنهم تطوير نظام أبجدي دونما صعوبات. إذ أنه وُجد كتّاب منذ زمن طويل من مناطق كانت أبجدياتها قيد الاستخدام (المراكز الفينيقية الساحلية). ولكن الكتّاب من أهل البلاد الذين يشكلون الغالبية ويتمتعون بالثقة والشهرة كانوا يعارضون هذا التغيير بقوة ويبقون على التقاليد القديمة.

لم تكن الكتابة على الألواح الطينية بالأمر السهل. وعليه فإن الكاتب الذي يجدر بنا أن نسميه «سكرتيراً» كانت له أهمية من نوع متميز ولا يمكن الاستغناء عن خدماته. وأصبح تابعاً لمؤسسة أعمال تشبه إلى حدٍ ما مؤسسات المكاتب والآلات الكاتبة في أيامنا هذه.

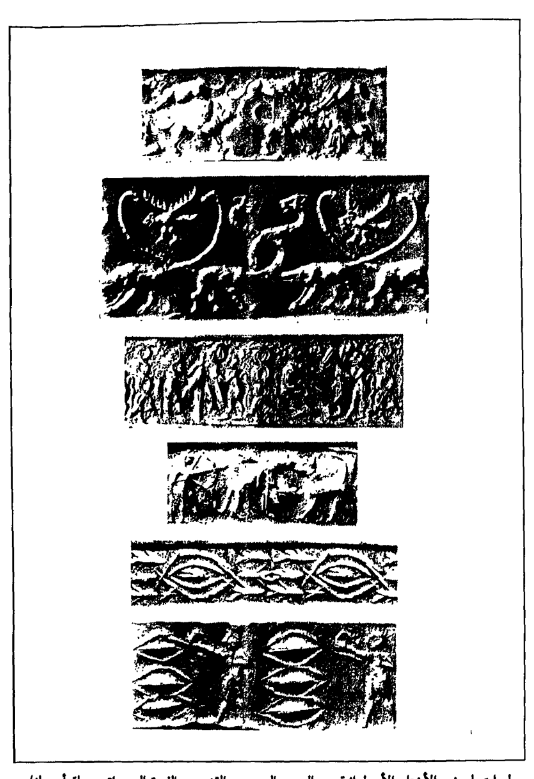
قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد بوقت قصير فرض القانون على كل مؤسسة تجارية حتى لو كانت صغيرة أو فردية ضبط كافة التعاملات كتابياً وبدقة وأمر بوضع أسماء وتواقيع كل من المتعاقدين والشهود على السواء. غير أنه لم يكن بالأمر السهل التوقيع على الوثيقة إذا طُلب الاسم بحرفيته، حيث ان أغلب المواطنين العاديين لم يكونوا يعرفون الكتابة إلا في أحوال نادرة. وهذه الصعوبة أيضاً تم التغلب عليها بطريقة بسيطة ومدهشة. حيث تم التوصل إلى أن كل إنسان يعلق برقبته سلسلة أو خيطاً يحمل توقيعه المصنوع بشكل اسطوانة حجرية صغيرة نقشت عليها صورة ما من الحياة الدينية أو الحياة اليومية العامة أو زخرفة معينة. وبذلك وجد الختم الأسطواني وانتشر استخدامه.

بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة أو العقد كان على أصحاب العلاقة مع كل الشهود دحرجة أختامهم مع ضغطها على الطين الرطب بحيث تترك أثراً أشبه بنقش تزييني يعتبر توقيعاً لصاحب الختم. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لا يجوز لختم أن يشبه الآخر، وأن كل مواطن يحمل ختماً خاصاً به لكان ذلك دليلاً على ما توفر في أرض الرافدين من قدرات ومواهب، ولكان في ذلك أيضاً مدعاة للتساؤل: كم من ملايين هذه الأختام الأسطوانية أنجزه فنانو أرض الرافدين على مدى الحقب الطويلة ما زال مبعثراً بين الأتربة والركام هنا وهناك، عدا عما تحتفظ به مختلف متاحف العالم؟...

ثم إن الكاتب يسجل اسم كل رجل وضع ختمه على اللوح. ويسجل اسمه هو في النهاية. ويصبح الاتفاق بذلك قانونياً وملزماً لكل الأطراف.

لقد قدم الطين للصفقات التجارية المكتوبة وللعقود المبرمة كافة ضمانة لا يستطيع الورق تقديمها. إنه في البداية لم يكن من المتعذر افتعال التزوير بإضافة واحد أو أكثر من الرموز المسمارية فيما بعد وفي مكان مناسب يؤدي لتغيير في عددٍ أو في معنى كلمة. ولكنهم فكروا في ذلك وقطعوا الطريق على محاولات من هذا النوع بأن صاروا يضعون اللوح المكتوب والمختوم في غلاف يحميه من التزوير. وكان ذلك يتم كالتالي: يأخذ الكاتب كتلة من الصلصال الطري ويرقّها حتى تصبح لها سماكة بسيطة، ثم يلفّ بها الرقيم الموثق ويقص أطراف الطين الزائدة بحيث يبقى منه ما هو بحجم الرقيم فقط. ثم يثني الزوايا الخارجية من هذا الغلاف ويصقلها. بذلك يصبح أمامه لوح لا يختلف عن اللوح الأصلي الذي بداخله إلا في أنه أكبر قليلاً منه. وبعدها يكتب على الغلاف الناتج محتوى العقد مرة أخرى وبالدقة الحرفية للنص الأصلي ويطلب من أصحاب العلاقة والشهود وضع أختامهم عليه. من ميزات هذا الغلاف أنه لا يلتصق بالرقيم الأصلي ولكنه يحميه من محاولات التزوير. وإذا نشب خلاف في وقت لاحق كانوا يضعون العقد أمام القاضي الذي يفتح الغلاف وينطق بحكمه استناداً لمحتوى العقد الداخلي الأصلي.

أصبحت الوثيقة المغلفة هي الطريقة المعمول بها رسمياً. وكان من غير الممكن فتح الغلاف وتبديل العقد أو إجراء تغيير فيه ثم إعادة الغلاف ثانية إلى مكانه لأنه إذا حاول الإنسان نزع الغلاف فلا بد من تكسيره، فهو بعد عملية التغليف يكون قد تقلص كاللوح الداخلي واكتسب الصلابة نفسها. عدا عن ذلك فإنه لتبديل الغلاف بآخر كان لا بد من حضور الشهود الأوائل أنفسهم للقيام بالإجراءات عينها. هذا كله يعني أن حرمة الوثائق كانت في كل الأحوال مضمونة وبطريقة يصعب علينا في هذه الأيام التوصل إليها. فمن لديه الأسلوب المتقن يستطيع في عصرنا هذا فتح رسالة مهما كان إغلاقها محكماً.



طبعات لبعض الأختام الأسطوانية من العصر السومري القديم ـ الفترة المسماة مرحلة أوروك/ جمدة نصر ـ أي حوالى 3200 ـ 3000 قبل الميلاد.

النشاط التجاري

ليس هنالك حتى الآن ما يوضح لنا إلى أي مدى وصلت العلاقات التجارية الرافدية حوالى أواخر الألف الرابع وخلال الألف الثالث (ق.م.)، وما هي بالضبط المواد والسلع التي تم التعامل بها في تلك الحقبة المبكرة، وكيف كان يجري نقل البضائع في الاتجاهات كافة، بحيث نكوّن إطاراً تاريخياً واضحاً لنشاط السومريين التجاري. فهناك ما هو معروف بصورة جيدة، وهناك أمور كثيرة أخرى نتبين ملامحها فقط بصورة غير دقيقة، سواء عبر النصوص المكتوبة أو الموجودات الأثرية الأخرى.

لقد دلت البقايا المكتشفة في بعض المواقع الأثرية في الشمال السوري على أنه منذ أواسط الألف الرابع (ق.م.) كان يجري التعامل ببعض المعادن خصوصاً النحاس، ثم بالخشب وبعض الأحجار الكريمة. فمن ذلك موقع على المجرى الأعلى للفرات دُثِرَ قبل وقت طويل، وموقع آخر معروف شمال شرقي الموصل يدعى «تِبِه غَوْرا». كما وجدت بقايا لحجارة السبج (الزجاج البركاني الأسود) على ساحل الخليج، مما يدل على التعامل بها.

كانت البضائع تنتقل جيئةً وذهاباً ما بين أرض الرافدين ومنطقة نهر الهند (وادي الهندوس). كما كانت السفن منذ ما قبل سنة 3000 (ق.م.) بزمن طويل تنتقل ما بين جزيرة دلمون (البحرين الحالية) والساحل الشمالي للخليج حيث كانت تقع مدينة أور في ذلك الزمن.

أما مَنْ كان أولئك الناس الذين افتتحوا هذه الطرق التجارية للوهلة الأولى، فهو أمر ما زال مجهولاً. إلا أن تجار الرافدين طرقوها كلها.

عند موقع مدينة «سِبّار» شمالي بابل كان يمر أحد هذه الطرق التجارية ولم يكن أكثر من دربٍ داسته الأقدام متسعٍ قليلاً، على امتداد الفرات نحو الشمال. ثم يقطع النهر عند موقع مدينة ماري (تل الحَريري حالياً) ويستمر باتجاه الغرب عبر تدمر وأراضي البادية إلى حمص، ومنها كان يصل إلى المدن الكنعانية القديمة على الساحل السوري.

وعلى امتداد نهر ديالا (رافد دجلة) كان يمر طريق آخر عبر سلسلة جبال زاغروس الموحشة على المرتفعات الفارسية. وطريق غيره يتوغل في الجنوب باتجاه عيلام (أرض الأهواز).

ومن أراد تجنب مخاطر البادية السورية المتاخمة للصحراء العربية كان يتابع مجرى الفرات الأعلى ثم يعبر النهر عند كركميش (جرابلس حالياً) داخلاً في شمالي بلاد الشام وأطراف سلسلة طوروس.

بصورة عامة كانت المواصلات مع البلدان الشرقية أصعب وأخطر بكثير منها مع مناطق الشمال. فالسلاسل الجبلية كانت حاجزاً طبيعياً على درجة من الصعوبة. وأهل تلك الجبال المعروفون بالروح العدائية كانوا يمثلون الجانب الأكبر من المخاطر. وفي ثلاثة مواقع فقط كان العبور ممكناً: الأول عند راوندوز. والثاني عند حلبجة قريباً من مدينة السليمانية. والثالث عند خانقين على مجرى ديالا. فإذا ما تجاوز صاحب التجارة معبر راوندوز دخل أراضي أذربيجان حيث يلتقي مع طريق اللازورد التي تؤدي إلى الصُغد (سوغديانا) وأفغانستان. أما عيلام التي يؤدي إليها معبر خانقين فكانت عبر حقب زمنية عديدة بلداً معادياً لأرض الرافدين. كما أن وديان كرخا وقارون لم تكن بالواقع إلا امتداداً شرقياً طبيعياً للسهول الرافدية الكبيرة.

وآخر طريق تجاري كبير بين أرض الرافدين والعالم المعروف في ذلك الزمن كان الطريق البحري، أي طريق الخليج الذي أسماه أهل الرافدين منذ أقدم الأزمنة «البحر الأدنى» أو «بحر الشمس المشرقة». والخليج كان منذ ذلك الوقت ولم يزل حتى اليوم بمثابة الرئة بالنسبة لبلاد الرافدين. وهو نافذة مفتوحة باتجاه الهند وبقية مناطق الشرق الأقصى. ولكن أهمية الدور الذي لعبه في اقتصاد الرافدين قديماً يصعب على كل حال تقديرها بدقة. فمن المعروف بالواقع أنه قد وجدت تجارات لا يستهان بها بين مدن الرافدين والهند منذ القدم، ولكن لا يوجد من الأدلة ما يشير إلى أنها كانت تتم بمعظمها عن طريق البر أو البحر. وعلى كل حال فإنه يتكرر في الكتابات المسمارية من السنوات الأخيرة للألف الثالث ذكر السفن التي كانت تُبْحِر من أور إلى دلمون (البحرين) و«ماكان» على الساحل الشرقي للخليج وأماكن أبعد منها. وتوجد أدلة واضحة تثبت أن ملوك أكاد وبعدهم ملوك آشور الأوائل حاولوا دائماً وبصورة جدية الإبقاء على البلدان المحيطة بالخليج ضمن دائرة نفوذهم السياسي والاقتصادي.

هذا كل ما يتعلق بالملاحة من خلال الكتابات الواضحة. وأما عن التجارة مع سواحل الهند الغربية فلا توجد نصوص صريحة.. والجدير بالذكر أنه توجد إشارات هنا وهناك لسفن من بلدان عديدة كانت تعرج بانتظام على أكاد عاصمة الملك سرجون الأول حوالي العام 2300 (ق.م.). ولكن لا أحد يعرف حتى اليوم أين تقع أكاد

بالضبط. ورغم الكثير من المحاولات الجدية لم يستطع أحد من الآثاريين حتى الآن التعرف إلى مكانها، رغم أنه استناداً إلى هذه الإشارات في وصول السفن إليها يجب أن يكون على ضفة واحد من النهرين (وهو الفرات) في منطقة اقترابهما من بعضهما، أي في نواحي بابل.

من المؤكد أن الحجارة الكريمة التي كثر طلبها في مدن الرافدين كانت بمعظمها تأتي من أفغانستان والهند عبر الطريق البري. وأهم المراكز لتجارة الوساطة في المرتفعات الإيرانية كانت «سيالْك» و«حصار»، وفي بلاد الرافدين كانت في البداية «تِبِه غَوْرا» قرب الموصل هي المركز الكبير للمبادلات حتى حلت محلها أوروك وبعدها أور. ويقال عن تجار الرافدين أنهم بالنظر لإمكاناتهم المالية واطلاعهم الواسع كانوا قد احتلوا في هذه الأعمال التجارية مكاناً احتكارياً بارزاً.

كان أكثر أنواع الأحجار الكريمة رواجاً هو اللازورد الصُغدي الذي كان يستخرج من مقلع عند «بادكران» في شمالي أفغانستان وعلى ارتفاع أكثر من 2000 متر، والذي لا يزال يُستغل حتى هذه الأيام. كما كان العقيق أيضاً مرغوباً، حيث كان يجري تصنيعه في ورشات المدن الرافدية الجنوبية حسب رغبات الوكلاء التجاريين ثم يُصدَّر مع نماذج ممتازة وجميلة من اللازورد إلى مصر.

وفي هذا وحده دليل على العلاقات الواسعة وخبرة الأسواق لدى أصحاب التجارة الخارجية في بلاد الرافدين. وقد ساعدهم في ذلك اقتصاد منظم بادارة دقيقة شبيه باقتصاد الامبراطوريات كان مقبولاً عند كل دويلات المدن السومرية المحبة للسلام، وأصبح متبعاً في عهد أول امبراطورية مركزية قديمة هي أكاد أثناء النصف الثاني من الألف الثالث (ق.م.). ومؤسسها سرجون الكبير يفاخر على أكثر من لوح فخاري بأنه اندفع بجيشه حتى غابات الأرز في جبل لبنان وجبال الفضة في سلسلة طوروس، وهدد بلدان البحر الأدنى (الخليج) بالحرب في حال عدم رسوّ سفنها في موانىء بلاده لتأمين إحضار السلع الضرورية لشعبه. وعلى الأرجح أن من أهم المواد المطلوبة كان القصدير الذي جاء من الجبال السورية الشمالية والتركية وكان لا غنى عنه لتحضير البرونز.

لقد اكتشف أهل الرافدين أن إضافة خامات القصدير إلى خامات النحاس ينتج عنها برونز أفضل في صفاته من ذلك الذي ينتج عن صهر القصدير والنحاس الخالصين مع بعضهما. وتوصلت المنتجات الرافدية شيئاً فشيئاً وبنسبة 8 بالمئة من القصدير فقط الى نوعية من البرونز جيدة وقاسية ومقاومة للكسر.

ولكن من أين جاءت تلك الكميات الكبيرة من خامات القصدير التي استخدمت لتلبية الاحتياجات المتزايدة باستمرار للتجارة في إنتاج البرونز العالي القيمة؟... سؤال لا توجد عليه إجابة حتى الآن من خلال المصادر المعروفة. يتوقع البعض أنه من غير المستبعد أن مدن الرافدين كانت ترسل مع القوافل التجارية مستطلعين ـ على غرار ما يسمى بالمفهوم المعاصر: جواسيس اقتصاديين ـ إلى كل أنحاء العالم المعروف لاستكشاف إمكانيات تأمين القصدير.

وسائط النقل

كان صاحب التجارة الخارجية في بلاد الرافدين هو نفسه متعهد النقليات. وقد أخذ على عاتقه ليس فقط إيجاد طريق النقل المناسب والآمن وإنما أيضاً أفضل واسطة للنقل. فعربات الثيران الثقيلة الحركة حتى في السهول كان استخدامها ممكناً على الأكثر في المسافات القصيرة بين المدن القريبة. والأحمال التي كان ممكناً نقلها على الحمار كانت محدودة. ورغم أنه كان يعبر المناطق الجبلية بسرعة نسبية فإنه كان بحاجة إلى العلف والماء وهو ما لم يكن تأمينه دائماً سهلاً. علماً أن استخدامه في البوادي والمناطق الصحراوية كان صعباً على العموم. لذلك اهتدى الإنسان منذ زمن موغل في القدم إلى فكرة استخدام الأنهار والأقنية. غير أن هذه الواسطة أيضاً تعترضها بعض العقبات التي لم يكن تذليلها سهلاً. ففي الفرات ودجلة واجهت الزوارق مشكلة قوة التيار سواء في الصعود أو النزول. عدا عن مشكلة أخرى خطرة وهي وجود أعداد لا تحصى من الأكوام الرملية المرئية والمخفية والكثير من الجزر الصغيرة والأصغر التي كانت مواقعها تتغير باستمرار نتيجة لنظام الجريان والفيضانات. وهذا كله كان قد أضعف رغبة المتعهدين في استخدام الملاحة النهرية. وبالحقيقة كانت تلك الزوارق الشراعية التي يوضع أمام ساريتها شراع مربع معروفة في ذلك الزمن، ولكنها نظراً لضيق غاطسها لم تكن تستوعب أحمالاً كبيرة. عدا أنها تفتقر إلى المرونة في المناورة بحيث تصعب السيطرة عليها وتنقلب بسهولة في الماء.

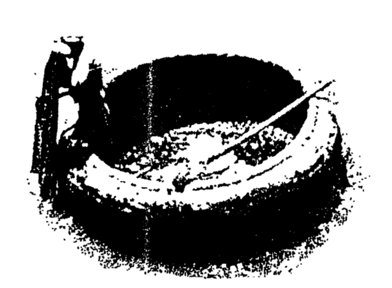
ثم توصل التجار المهرة إلى إيجاد إمكانية أخرى كمخرج جديد من هذه الصعوبات، ألا وهي استخدام طوافات مصنوعة من جلود الماعز تملأ بالهواء وتسير مع مجرى التيار في الفرات. وطوافات كهذه بقيت معروفة على نطاق ضيق حتى عصرنا هذا. وجرت العادة في ذلك الزمن أن تسيَّر هذه الطوافات في مجرى الفرات الأعلى

والأوسط حتى تصل إلى موقع دير الزور أو ماري أو هيت (المسماة قديماً تُتُل) حيث تنزل حمولتها ثم تفرغ من الهواء وتحمل ثانية باتجاه أعالي الفرات. وكانت الأحمال بعد ذلك توضع على ظهور الحمير التي تنقلها إلى «سيبّار» في أكاد وإلى «نيبّور» وأور في سومر على المجرى الأسفل للفرات، أو إلى بابل في أزمنة لاحقة. فالمواصلات التجارية كانت إذاً مؤمنة فيما بين جبال طوروس من الشمال والخليج (البحر الأدنى) من الجنوب. أما الوسطاء من التجار في وادي الفرات فقد حققوا فوائد عظيمة ليس فقط من أرباح السلع التجارية، بل وأيضاً من عائدات النقل والتخزين في محطات التوقف التي لا بد منها.

ولا شك أن الحكومات في ذلك الزمن كانت تلاحظ مقدار ما يجنيه التجار والمتعهدون من أرباح. والواقع أنه لم يكن حقهم مهضوماً، لا سيما وأنه توفرت لهم حرية النقل كما أنه لولا التسهيلات المحلية لكان من المتعذر إيجاد العربات وحمير النقل والمخازن وإنجاز الإجراءات الرسمية مع السلطات بسرعة ودونما تعقيد. وكل هذا كان موجوداً كما توضح الألواح الفخارية.

أما من أجل عبور الأنهار والأقنية فقد وجد القارب المستدير. وهو عبارة عن مركبة مجدولة من مواد طبيعية (نباتية) ومدهونة بالقير لجعلها عازلة للماء. وقد بقيت تستخدم حتى عصرنا هذا. والمعروف أن القير وجد منذ أقدم الأزمنة بكميات وفيرة على الفرات الأوسط ما بين هيت والرمادي. وهو ينبع من الأرض ثم يصبح كثيفاً ويتجمد. فيأخذه القيارون لإذابته على النار حيث يشاهد دخانه برائحته الواخزة يخيم ثقيلاً فوق السهوب. وبعدها يحمل في أوعية كالقفاف على ظهور الحمير ويرسل إلى التجار. وعلى الأرجح أن هذه الطريقة هي نفسها التي كانت متبعة قبل آلاف عدة من السنين. ففي أور وجدت علامات تشير إلى تلك القفاف. والقير الذي كان المادة الخام الوحيدة في أرض الرافدين قديماً قبل اكتشاف النفط استخدم منذ أزمنة مبكرة في مجالات متنوعة مثل عزل أنابيب المياه والحمامات وطلاء السفن ودخل مع القرميد في البناء وكمادة للوقود والأكثر من ذلك كمادة طبية. وبعض الدلائل تبين لنا أن أهل الرافدين جعلوا منه تجارة ناشطة ومربحة وصدَّروه خارج البلاد.

في المجرى الأسفل لكل من الفرات ودجلة وفي الأقنية الكبيرة استخدمت القوارب منذ الحقب الحضارية المبكرة في نقل البضائع. ومن هذه القوارب ما يمكن مشاهدته على بعض الأختام الاسطوانية مثل نموذج وجد في أور مصنوعاً من الفضة

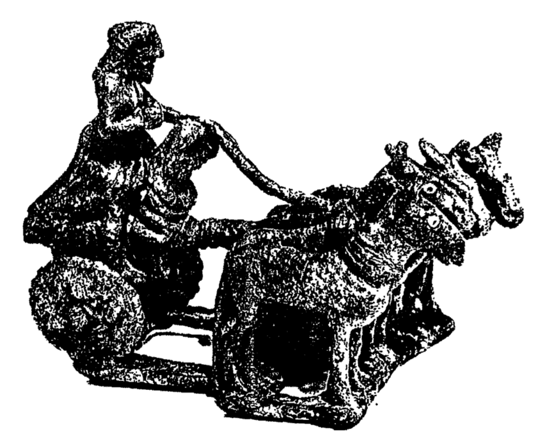


واحدة من أقدم وسائط النقل المائي في الأنهار والأقنية. وقد بقيت حتى عصرنا الحالي قيد الاستخدام. وعرفت في مناطق الفرات باسم: «القفة».

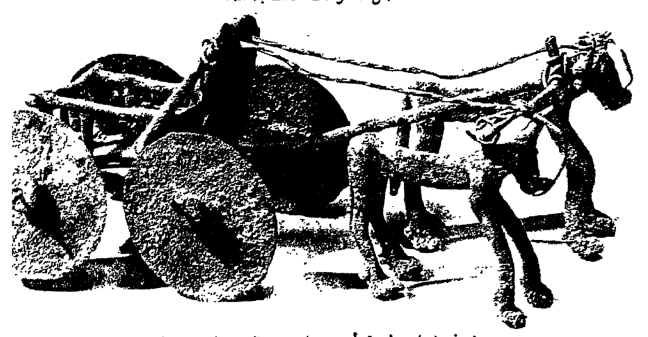
يعود لحوالي 2500 قبل الميلاد. وكانت هذه القوارب تصنع من حزم نبات الحلفا مرصوصة بعضها إلى بعض ومربوطة، يترك منها الرأس والعقب نحو الأعلى. وهذا النوع لا يزال مستخدماً عند أهل المراعي بنواحي المجرى الأسفل للفرات وما زالوا يتبعون في صنعه الطريقة نفسها التي كانت قبل بضعة آلاف من السنين. وما زال يتم دفعه بالمجاذيف. كما أنه ليست له قاعدة وبذلك فإن غاطسه صغير جداً. وهو بشكل عام خفيف الوزن. ومن مزاياه أنه إذا اصطدم بجروف رملية كان تخليصه منها سهلاً. ولكنه مقابل ذلك لا يستوعب من الحمولة الشيء الكثير. وما تزال القوارب في أيامنا هذه تطلى بالقير لجعلها عازلة وكتيمة.

ومن المؤكد أنه وجدت في الزمن القديم أساطيل كاملة من هذه القوارب لنقل أحمال القوافل التجارية الآتية من البلدان الجبلية في شمال الرافدين وإيصالها إلى المدن السومرية عبر المجاري المائية بتكاليف قليلة.

يمكن القول إن الاستفادة من الحركة الدورانية بابتكار العجلة قد وجهت نقل البضائع إلى طرق جديدة تماماً. والإشارات إلى وجود العجلة في عصر مبكر متوفرة من خلال الكشوف الأثرية، مثل بعض الرسوم والنماذج الفخارية من الفترة ما بين 3500 و3000 (ق.م.) والتي تكشف عن وجود عربات ذات عجلتين وأخرى بأربع عجلات. وتعطي فكرة مبدئية عن مظهرها وتركيبها. وقد انتقلت نماذج العربات هذه إلى البلدان



نموذج من النحاس يمثل أحد الملوك السومريين في عربته الحربية التي تجرها أربعة حيوانات. اكتشفت في موقع تل أجرب. وهي أقدم نموذج للعربات عثر عليه حتى الآن.
(من محفوظات متحف بغداد).



نموذج نحاسي لعربة بأربع عجلات من العصر السومري الجديد.
(من محفوظات متحف نيويورك).

المجاورة. واستخدمت في جرها الحمير أو الثيران. أما وضع النير على أكتاف الحيوانات فهو تطور حصل فيما بعد. إذ كانت في البداية تثبت خشبة على قرون الثيران اعتاد الناس استخدامها قبل اختراع العجلة عندما كانت الحيوانات تجر الأحمال الثقيلة على الأرض.

ولم تزل بعض النماذج القديمة من العربات ـ كتلك التي كانت عجلاتها بشكل قرص ـ معروفة على بعض الطرق الريفية النائية في شرقي تركيا، ويسميها الفلاحون هناك تندّراً: البلابل الأناضولية.

تطوّر الأوزان

في الزمن نفسه الذي سعى فيه السومريون لإيجاد وسائل أفضل للنقل كانت طريقة الأوزان أيضاً تتطور. وكان ما دفع لذلك بالدرجة الأساسية هو المتاجرة بالمعادن والسلع الثمينة الأخرى.

وعلى كل حال فمن الظاهر أن الموازين في أوائل عهدها كانت قد استخدمت فقط للتأكد من وزن المواد الثمينة. ولهذا السبب يلاحظ أن أقدم الوحدات للوزن كانت صغيرة. وبشكل عام كانت أصغر وحدة للوزن في تلك الأوقات المبكرة هي حبة القمح أو حبة الشعير التي تضاعفت مراتٍ لتعادل وزنة أكبر، الأمر الذي كان بالطبع يختلف من بلدٍ إلى آخر ويضطر التاجر لأن يصطحب معه مجاميع مختلفة من الأوزان هنا وهناك. هذا يعني أن الـ «شاقل»[3] كان يعادل ما يتراوح بين 120 و150 حبة قمح أو شعير وربما يصل حتى الـ 200 حبة. وبمرور الزمن أصبحت الضرورة ملحة لإيجاد أوزان أكبر ناتجة عن مضاعفة الشاقل فتم بذلك إيجاد الـ «منه» أو الـ «مينا»[4]. وفي

(3) الشاقل وحدة عمّ استخدامها أنحاء الهلال الخصيب كافة. وجاءت في مختلف لغاته ولهجاته بألفاظ متقاربة مثل «شِقْلو» بالأكادية والآشورية و«شِقِل» بالكنعانية والآرامية القديمة. ثم «تِقْلا» في اللهجات الآرامية اللاحقة والسريانية. وأصل الكلمة من الجذر الثلاثي القديم «ثقل». ويقال بالعربية «مثقال». وكان الشاقل يزن أكثر من 8 غرامات بقليل.

(4) الـ «منه/ مينا» عمّ استخدامها أيضاً في الهلال الخصيب. ففي الأكادية والآشورية «مانو» أو «منّو» وفي الآرامية بكل لهجاتها والسريانية «منا» أو «مينا». وعدا عن ذلك انتقل استخدامها إلى اليونان وبلفظ مشابه. وبلغت 50 شاقلاً أي حوالى 436 غراماً.

وقت لاحق ـ في الألف الأول قبل الميلاد استخدم الـ «طالن»[5] كأكبر وحدة للوزن. وهذان الوزنان الأخيران انتشر استخدامهما في كل بلدان ما يدعى بالشرق الأدنى باستثناء مصر.

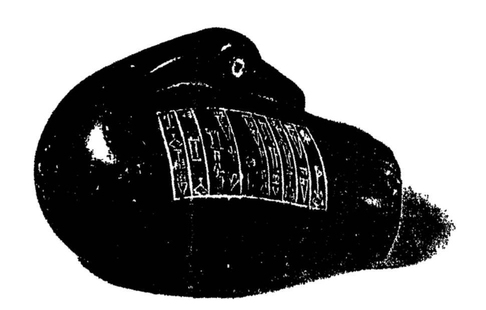
كانت الأوزان تصنع عادة من الحجر القاسي المصقول. وينقش عليها تعريفها (الاسم أو القيمة). في بلاد الرافدين كانت حجارة الأوزان ـ لأسباب لا يوجد لها توضيح حتى الآن ـ تصنع غالباً على هيئة بطة تنظف ريشها الخلفي بمنقارها. في أماكن أخرى ـ كمصر مثلاً ـ كانت تتلاءم في شكلها مع الغرض منها، وأغلبها ما هو عبارة عن قطع حجرية مربعة الشكل تم نحت حوافها وزواياها بشكل مستدير.

وحجارة الأوزان التي كانت تستخدم حكومياً حرصوا على حفظها في القصور الملكية والمعابد. وقد اكتشفت مجموعات كاملة منها. ولكن حتى هذه أيضاً كانت تختلف من بلد إلى آخر وربما من مدينة لأخرى في الكيان نفسه أو الدويلة نفسها.

وأما الموازين فتألفت ببساطة من كفتين على عارضة لها ذراعان متساويان. إلا أنه حتى الآن لم يتضح جيداً كيف كانت تتم عمليات الكيل أو الوزن الدقيق رغم وجود كثير من الرسوم التي تشير إلى عمليات كهذه. وعلى كل حال فليس هنالك شك في أن الموازين كانت على درجة ممتازة من الدقة.

---

(5) الأرجح أن إدخال الطالن كان بعد منتصف الألف الأول (ق.م.) وذلك من اليونانية «Talanton» حيث كان وزنه هناك يعادل 60 مينا أو 26,2 كيلوغراماً. ولكن ذلك اختلف في الزمان والمكان إذ اعتبر مثلاً في فارس أيام داريوس الكبير 24 كيلوغراماً واستخدم في بلاد الرافدين بوزن مشابه لذلك. وقد ورد في الآرامية والسريانية بلفظ «طالنطا».



وحدة للأوزان على شكل بطة. مصنوعة من حجر الديوريت الأسود.
وتعود إلى حوالي 2100 قبل الميلاد، أي للعصر السومري الجديد.
أما الكتابة المسمارية التي تحملها فتعني:
«من أجل سيده الإله نانا قام شولجي الرجل العظيم، ملك أور،
وملك الجهات الأربع، بتحديد هذه الوزنة بـ 5 مينا تماماً».

الفصل الثالث

عصور التحولات الكبرى

أول التحولات الكبرى
الامبراطورية الأكادية وتراجع العصر السومري القديم

بانتهاء النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد كانت دول المدن السومرية قد تجاوزت تلك الإنجازات الحضارية الهامة وقطعت شوطاً كبيراً في مجال التطور الاقتصادي وخصوصاً الجانب التجاري. وكانت قد أصبحت مجالات الربح واسعة جداً بالنسبة لأصحاب التجارات الخارجية بصورة خاصة، الذين لم تكن لتخفف من إقدامهم لا ظروف العمل القاسية ولا صعوبة الرحلات ولا الأخطار التي تتربص دائماً بحياتهم وأموالهم. وقد استطاع أصحاب الأعمال الخاصة بمساعدة أرباحهم الخفيّة أن يتحرروا تدريجياً من موكلهم ومموِّلهم، أي المعبد، ويتخلصوا من سيطرته.

فالاشتراكية الدينية التي سادت حقبة طويلة في المدن السومرية تحت سلطة المعبد ظهرت فيها بمرور الزمن ثغرات كثيرة وتكشفت المساوىء الاجتماعية وأخذت أوضاع الكهنوت بالتدهور. ومن جهة أخرى كانت النزاعات المستمرة حول الحدود الإقليمية ومسألة المياه فيما بين الكيانات السياسية العديدة قد أدت إلى إضعافها تدريجياً. وكان الذي عرف كيف يستفيد من هذه الظروف كلها لنفسه هو عالَم التجار ورجال الأعمال.

بقيت مبادرات الإصلاح كلها بلا طائل. وفي تلك الأوقات اعتلى عرش أوروك «لوغال زاغيزي» الذي تميز بسياسة ذكية وطموح كبير. فألحق الدمار بدولة لاغاش كما أخضع أور لسلطته وحاول أن يعيد النظام إلى سابق عهده وينصِّب نفسه حامياً لمدن جنوب الرافدين كافة. وبالفعل كاد أن يستتب له الأمر خلال وقت قصير. إلا أن

طموحه قد تحطم ومحاولاته الأخيرة لإنجاز هذه السياسة انتهت بظهور ملك قوي آخر من خارج الكيانات السومرية قلَبَ التركيبة السياسية لبلاد الرافدين، والأصح للهلال الخصيب بالكامل. وهو الذي اشتهر باسم سرجون الأول أو سرجون الأكادي الكبير، والذي تُحَدِّد أغلب التواريخ بداية حكمه في حوالى 2370 قبل الميلاد.

وتشير كتابات تلك الفترة أن ملك أوروك «لوغال زاغيزي» كان حتى ذلك الحين قد أخضع لسلطته حوالي الخمسين من ملوك الدويلات والأمراء المحليين. فكان أن وقع أسيراً بيد سرجون الأكادي الذي ربطه في عنقه بطوق كلب واقتاده إلى مدينة كيش وأُوقِفَ للتفرج عليه عند بوابة الإله الكبير إنليل. أخذ الحاكم الجديد بمهاجمة المدن السومرية الواحدة بعد الأخرى، وكان النصر حليفه في كل مكان كما توضح مدوناته. وحيثما اتجه كان يأمر بهدم أسوار المدن. وليظهر للجميع أنه أحكم قبضته على كل الجنوب الرافدي (سومر) قام بتصرف رمزي قلّده فيه ملوك آخرون في أوقات لاحقة وهو أنه:

«غسل سلاحه في مياه البحر الأدنى ـ الخليج ـ» كما تقول مدوناته.

يعتبر سرجون مؤسس أول امبراطورية حقيقية في الهلال الخصيب. وقد كان بإمكانه أن يكتفي بلقب «ملك كيش» غير أن مطامحه كانت أبعد من ذلك. وأسس في مكانٍ ما على الفرات الأوسط مدينة «أكاد» عاصمته الجديدة التي لم تتوصل التحريات الأثرية حتى الآن للكشف عن موقعها. وبنى فيها قصراً لنفسه ومعبداً لعشتار، الإلهة التي تحميه.

إلا أن سرجون لم يتعرض بسوء لديانة المدن السومرية. بل سمّى نفسه: كاهن الإله إنليل. وجعل ابنته كاهنة لإله القمر نانًا في أور. وتمت المحافظة على هذه التنازلات للسومريين في عهد الأسرة السرجونية.

أما الجماعة السكانية التي ينتمي إليها سرجون والتي كانت إحدى «الجماعات السامية» فقد برزت إلى المكان الأول في هذه الدولة الواسعة وتولى أفراد منها السلطة السياسية في المدن السومرية كافة وأصبحت لغتها «الأكادية» لغة رسمية إلى جانب السومرية.

بعد أن وطد سرجون سلطته السياسية والمعنوية في الجنوب الرافدي وقوّى جيشه بشكل ملحوظ وجه اهتمامه شرقاً ضد إيران وغرباً ضد دويلات بلاد الشام كلها غربي الفرات.

كان على رأس السلطة في عيلام حاكم يعتبره السومريون حسب أعرافهم «إنسي» أي بمثابة عمدة وكاهن أعظم. وكان شخصاً استسلامياً فجعل منه سرجون والياً تابعاً له وتركه يحكم في مدينة سوسه، العاصمة الجديدة لعيلام التي كانت قبل ذلك الوقت مجرد قرية واسعة متواضعة. ولم يكن ملك أكاد يتوقع عند ذاك أن حاكماً آخر لعيلام في فترة لاحقة سيساهم في إسقاط الأسرة السرجونية، وأن كلمة سوسه ستكون المسؤولة عن هزيمة بلاد الرافدين وإذلالها فيما بعد(6).

وصل سرجون في حملاته حتى الغابات في الغرب والمناجم في المرتفعات الشمالية. وأمن بذلك التزود بالأخشاب والمعادن التي صارت تنقل دون أي عائق عن طريق الفرات إلى أكاد وسومر. وكما يوضح لنا أحد الألواح الفخارية اصطحب سرجون معه من ساحل البحر الأعلى (المتوسط) غراس الكرمة والتين والورود.

وعلى لوح آخر يقول سرجون مفاخراً بنفسه:

« . . أنا سرجون ملك أكاد العظيم. . .

كانت ولادة أمي وضيعة. . . أما أبي فلم أعرفه. . .

وأخو أبي كان يعيش في الجبال. . .

مدينتي أزوبورانو على ضفة الفرات. . .

وأمي الوضيعة جاءت بي خفية إلى هذه الدنيا. . .

فألقت بي في النهر الذي لم يبتلعني. . .

بل حملني إلى أكّي الذي يسقي الأرض. . .

وأكّي أخرجني من النهر. . .

وأكّي ربّاني. . .

وأكّي جعلني بستانياً عنده. . .

لقد أحبتني الإلهة عشتار. . .

---

(6) تعتبر عيلام امتداداً طبيعياً للزاوية الجنوبية الشرقية من السهول الرافدية. وكان الاحتكاك وثيقاً بينها وبين الجنوب الرافدي منذ أقدم الأزمنة وبالتالي كان تأثرها بحضارة هذا الجنوب السومري عميقاً جداً تجلى في الدرجة الأولى باتخاذها الكتابة المسمارية التي طورها السومريون عدا عن جوانب أخرى ثقافية. ومع ذلك فقد تميزت أغلب الحقب الزمنية بعداء العيلاميين المعلن أو الكامن تجاه بلاد الرافدين الذي انعكس دائماً إما بشكل حروب مباشرة أو بتحالفات معادية.



رأس برونزي بحجم الرأس الطبيعي، لأحد ملوك الأسرة الأكادية، ويعتقد أنه سرجون الأول نفسه (ما بين 2370 و 2316 ق.م). عثر عليه في ركام معبد عشتار في نينوى.

وجعلتني سيداً على المملكة...

وقد سيطرت على الشعب من ذوي الرؤوس السوداء... وحكمتُ وبالبلطات البرونزية حملت على تلك الشعوب في الجبال.

وأخضعتها لسلطتي...»

إن ما في هذا اللوح بعباراته البسيطة يعتبر على درجة كبيرة من الأهمية. فهو نوع مما نسميه ـ أدب السيرة أو التراجم ـ يختصر فيه سرجون الكبير كل ماضيه بهذه الأسطر القليلة. والواقع إن هناك كتابات أخرى تطابق هذه المعلومات وتؤكد أن هذا الرجل

ينحدر من أصل متواضع جداً فتقول أن أباه كان بدوياً وأمه من نوع خادمات المعبد ولدته وقذفت به في النهر الذي حمله إلى أن عثر عليه فلاح فأخذه وتبناه، ونشأ بذلك مجهول الأبوين بين الفلاحين البسطاء. ثم توصل لأن يكون ساقياً في قصر «أور... زابابا» ملك كيش. أما كيف استطاع فيما بعد أن يطيح بسيده عن الحكم ويقفز إلى السلطة ويسمي نفسه «الملك الشرعي»[7] فهو أمر لا توجد عنه معلومات واضحة حتى الآن[8]. وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد واستناداً للمعلومات المتوفرة إنه دخل التاريخ على حين غرّة.

لقد جمع سرجون تحت سلطته لأول مرة أرض الرافدين بكاملها مع بلاد الشام في دولة واحدة كبيرة ومركزية، امتدت من جبال طوروس إلى البحر الأدنى (الخليج) ومن جبال زاغروس إلى البحر الأعلى (المتوسط).

ومما لا شك فيه أنه قد بدا في عيون الناس عظيماً بشكل لا يقاس، إذ احتوى تحت سلطته «نواحي الكون الأربع» بتعبير لغة ذلك العصر.

إن النظرية التقليدية التي سار عليها مؤرخو العصر الحديث منذ حوالى القرنين من الزمن، والتي استندت من أساسها على ظاهرة القرابة اللغوية (بين ما يدعى باللغات السامية بما فيها العربية) وليس على أدلة مادية ثابتة، تتلخص في أن «الساميين» كانوا بالأصل من الأقوام الرحّل التي عاشت في شبه جزيرة العرب والصحراء السورية والسهوب المتاخمة لأرض الرافدين، وأنه في حقب زمنية غير معروفة بدقة (تقدر تخميناً) غادرت جموع كبيرة منهم الصحراء واستوطنت بصورة سلمية أو بطريق القوة في مناطق الرافدين والشام. واستناداً لذلك يُعْتَقَدُ أن أولئك الذين اشتهروا فيما بعد باسم

---

(7) الواقع أن الإسم الحقيقي لسرجون غير معروف أيضاً. وهذه اللفظة «سرجون» التي اشتهرت عالمياً ما هي إلا تحريف لفظي حصل في زمن لاحق للاسم الأكادي الذي أطلقه على نفسه بعد اعتلائه السلطة وهو «شرّو..كين» الذي يعني: الملك الشرعي. وهو عرف كان شائعاً بأن الألقاب التي يطلقها الملوك على أنفسهم تطغى على ذكر الأسماء الحقيقية التي تصبح معرفتها فيما بعد غير ممكنة. وسنلاحظ أمثلة أخرى على ذلك فيما بعد.

(8) هناك في التاريخ القديم قصص تتشابه رغم التباعد الجغرافي والزمني فيما بينها. فهذه القصة التي تخبر عن ولادة سرجون غير العادية وإلقائه في النهر ثم انتشاله من قبل أحد الفلاحين ونشأته المتواضعة ثم وصوله إلى الشهرة، نرى تقليداً لها وبتفاصيل مشابهة في قصة ولادة موسى التي جاءت بها التوراة بعد حقبة طويلة جداً. ثم نرى شيئاً مشابهاً أيضاً في أسطورة تأسيس مدينة روما وولادة مؤسسها «Romulus».

الأكاديين (نسبة إلى المدينة أكاد) كانوا قد عرفوا حياة الاستقرار الحضاري في بلاد الرافدين خلال الألف الرابع قبل الميلاد. وأن الأموريين الذين يُدعون بالساميين الغربيين(9) انتشروا في بقية المناطق السورية الداخلية خلال الألف الثالث قبل الميلاد وربما حتى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد وأصبحوا على احتكاك وثيق ومستمر مع فلاحي البلاد الذين يشترون منهم الأغنام ومنتجاتها ويبيعونهم ما يحتاجونه. وبمرور الزمن أخذت مجموعات كبيرة وصغيرة من هؤلاء الرحّل تتخلى عن حياة التنقل وتستقر في هذه أو تلك من القرى والمدن. ومنهم من دخل في خدمة الناس بشكل أجراء، ومنهم من امتهن حرفة أو تجارة. وخلال زمن قصير نسبياً أخذوا يلعبون دوراً هاماً في التجارة، سواء الداخلية أو الخارجية فيما بعد. ولكن على الرغم من ذلك كانت عملية تحولهم إلى الحياة الحضارية المستقرة بطيئة تخللتها من حين لآخر غزواتهم المعتادة.

وأغلب جماعات الرحّل كانت تتكلم بلغات سامية. وهذا بالطبع لا يعني أن كل الشعوب الناطقة بلغات سامية كانت من الأقوام الرحل. إذ أنه لا يوجد دليل على أن الأكاديين أو الكنعانيين في الغرب مثلاً كانوا بالأصل من الجماعات الرحل. ليس معروفاً متى كان وجود «الساميين» الأوائل في أرض الرافدين. وكل ما هو معروف بشكل واضح أنهم كانوا في الجنوب أقلية عاشت بين السومريين، وأما في مناطق الفرات الأوسط فكانت لهم قوة ونشاط، وفي الشمال شكلوا على الأرجح نسبة كبيرة بين السكان.

منذ زمن سرجون الأول وتأسيس عاصمته أكاد أصبحت المناطق الوسطى والشمالية من الرافدين تدعى «بلاد أكاد» نسبة إليها، كما أصبح منذ ذلك الحين يستخدم تعبير «سومر وأكاد» للدلالة على كل أرض الرافدين. واللهجة التي تعتبر فرعاً متميزاً من «عائلة اللغات السامية» فرضت نفسها وأصبحت تعرف باللغة الأكادية. وكتبت بالخط المسماري الذي ابتكره السومريون من قبل، الأمر الذي يشهد على الموهبة عند هؤلاء

---

(9) أطلق عليهم السومريون تسمية «مارتو» التي تعني عندهم: الغربيين. وجاءت تسميتهم بالأكادية بشكل «أموروم» وبالمدلول نفسه ـ الغربيين ـ حيث ورد ذكرهم لأول مرة في عصر سرجون الأكادي. فتسمية أموريين أطلقها إذاً جيرانهم عليهم ولا يعتقد بأنها سامية بالأصل.

انظر: Fischer Weltgeschichte, vol.2, p.62 (Frankfurt am Main 1965).

ثم: Arno Poebel, Historical Texts, p.177 (Philadelphia 1914).

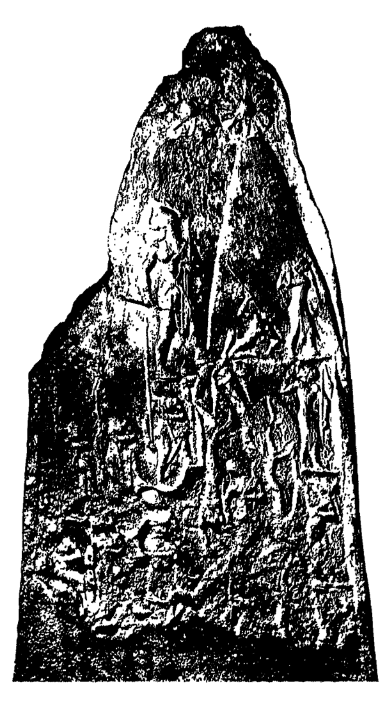
قارن أيضاً: فيليب حتي في: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. بيروت 1958، الجزء الأول ص 70.

الأكاديين، حيث أن اللغتين الأكادية والسومرية كانتا غريبتين عن بعضهما البعض كاللاتينية بالنسبة للصينية. ومن الممكن أن النظام الاجتماعي الأكادي وكذلك النظام السياسي كانا مختلفين عما هو في سومر. ولكن هذا كل شيء. ففي الحياة اليومية لم يتغير شيء يذكر عندما ظهرت القوة السياسية للأكاديين وأطاحت بأول سلالة حاكمة في سومر.

لم تكد تمضي مئة سنة على موت سرجون الأول حتى تصدعت وحدة تلك الأمبراطورية. فبعد فترة حكم طويلة دامت ستة وخمسين عاماً مات سرجون الكبير وخلفه سنة 2284 قبل الميلاد ابنه «ريموش» الذي لم يحكم إلا تسع سنوات قام عليه بعدها خدم القصر وقتلوه ضرباً بالألواح الفخارية. وقامت بعض الأقاليم فأعلنت العصيان. أما دويلات غربي الفرات فقد أعلنت استقلالها الواحدة بعد الأخرى. وانتشر الحوريون في المناطق الشمالية المتاخمة لسلسلة طوروس وقبائل الـ «الولوبي» من الشرق تحصنت في مرتفعات كردستان، وانحدرت أقوام «الغوتيين» المتوحشة من جبال زاغروس باتجاه سهول الرافدين. وخلع العيلاميون الطاعة واحتلوا المعابر الجبلية المؤدية إلى بلاد الرافدين وفرضوا الحصار على وارداتها من النحاس والفضة والقصدير، أي أن طرق البرونز صارت مغلقة.

خلال هذه الفترة خلف «ريموش» المقتول على الحكم أخوه «مَنِشْتوشو» الذي بقي 15 سنة أي حتى 2260 قبل الميلاد حيث خلفه ابنه «نارام سين» الذي طارت شهرته كجده سرجون الكبير. إذ تم له بعد توليه الحكم إخضاع جميع المتمردين. وكان فخوراً بانتصاراته لدرجة أنه أمر بوضع نجم أمام اسمه، وهو تقليد كان متبعاً بالنسبة لأسماء الآلهة. وليس معروفاً إن كان تصرفه هذا نوعاً من جنون العظمة، أو أنه اتخذ هذا الرمز (الإلهي) لأنه لعب دور الرجل خلال مراسيم الزواج المقدس في الاحتفالات الدينية للسنة الجديدة. وعلى كل حال فإنه كجده سرجون دخل سجلّ الملوك الأساطير. وقد خلد انتصاراته في نقش معبر على مسلّة حجرية كبيرة وجدت في سوسه وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر بباريس. يظهر فيها نارام سين بقلنسوة ذات قرون (وهي أيضاً من رموز الآلهة) وفي يده قوسه وقد داس بقدميه أجساد الأموات من أعدائه وهو يتسلق المرتفعات الجبلية.

دام حكم نارام سين سبعة وثلاثين عاماً. وبعد موته أصبح الضغط على حدود الأمبراطورية بالغ القوة. فقد أعلنت عيلام استقلالها مجدداً. وأما ابنه الذي خلفه على



المسلة الصخرية التي تمثل الملك الأكادي نارام سين في انتصاره على أعدائه من الشعوب الجبلية. اكتشفت في سوسه حيث كان العيلاميون قد حملوها إلى هناك.

الحكم ما بين 2223 و 2198 وعرف باسم «شر. . كلّي. . شرّي» ـ شركليشريّ ـ الذي يعني: ملك كل الملوك، فيتضح أنه كان ضعيفاً، ويعتقد أنه قتل أيضاً في اضطرابات داخلية. وانتهت الأسرة السرجونية بملكين آخرين حكما لمدة قصيرة جداً وقتلا في ظروف مشابهة. وفي أوروك وصلت إلى السلطة من جديد أسرة حاكمة سومرية. ولكن بعدما أخذ الغوتيون ينحدرون من مرتفعات زاغروس بدأت الأمبراطورية الأكادية فعلياً بالتفكك.

كان تداعي الأمبراطورية بعد موت الملك القوي مباشرة مؤشراً لما تلاها من نهوض ونهاية امبراطوريات الفترات اللاحقة في الهلال الخصيب. ففي كل مرة نشأت فيها مملكة كبرى كان يعقبها إما تمرد في الأقاليم أو حركة عصيان وثورة في القصر أو حروب حدودية متلاحقة تليها الضربة القاضية من شعوب الجبال. فالسومريون لم يتمكنوا بهذه البساطة من التخلي عن نظام الدويلات المحلية (ممالك المدن) والبقاء تحت السلطة المركزية لحاكم كانوا يعتبرونه غريباً عنهم. ومن ناحية أخرى فإن غنى تلك المدن السهلية المزدهرة كان يغري سكان المناطق الجبلية المتاخمة ويجعلها معرضة للنهب. فالغوتيون الذين يعتبرون أنصاف برابرة كان انقضاضهم على أرض الرافدين الخصبة بمدنها الغنية كالانهيالات الثلجية من المنحدرات الجبلية.

أما اقتصاد المعابد فقد تفكك تماماً وبشكل نهائي. وزالت تلك الاحتكارات التجارية التابعة للأمراء. وكل الكنوز الكبيرة التي كانت بحوزة المعابد والأمراء، ومخازن البضائع والأرزاق، وبيوت الأثرياء، كل ذلك تم نهبه. وحتى القوافل التجارية على الطرق تعرضت للسطو. ولم تنج من النهب حتى تلك الطوافات الخشبية على الأنهار. وكل ما سلم من الخراب والتلف تداوله الغوتيون فيما بينهم ووجدوا له مشترين. أما التجارة والحرف اليدوية فلم يلحق بها ضرر لأنه من المستحيل أن يتجمد العمل التجاري تماماً، خصوصاً وأن الغزاة أيضاً بحاجة إلى المعادن من أجل الأسلحة وإلى الحرفيين من أجل صناعتها. كما كانوا بحاجة إلى المنسوجات ويحبون الحصول على الأحجار المصقولة البراقة. أما التجار فمن المؤكد في ظروف كهذه أن يكونوا قد مارسوا التجارة بمنهوبات قصور ومعابد بلادهم.

ولم ينقض وقت طويل حتى عادت العلاقات التجارية القديمة. كما أن التجارة الخارجية عادت إلى سيرها السابق. حيث أن ما تغير كان هو النظم السياسية فقط. وبدلاً من دور المعبد والأمراء برز في المقام الأول رجال الأعمال وأصحاب الرساميل

الخاصة. ثم تكتل الباعة مع بعضهم البعض مشكلين بذلك جمعيات تجارية (بما يشبه النقابات). والتجار الكبار أفسحوا المجال لشركاء مساهمين. وأصبحت البيوت الكبيرة تمول القوافل لنفسها ولغيرها. وصار إقراض الأموال نوعاً من التجارة، فأعطت البنوك في البداية قروضاً بفائدة مقدارها 25 بالمئة وأكثر. والتجار الذين صاروا أغنياء أخذوا يمتلكون قطع الأراضي الكبيرة.

استفادت بلاد الرافدين من الكميات الهائلة من الفضة والبرونز والأخشاب والحجارة التي تم استيرادها على مدى أكثر من مئة سنة خلال العصر الأكادي. وهناك أعداد كبيرة من أسرى الحروب الذين كانوا بمثابة العبيد استخدموا كأيدٍ عاملة رخيصة.

أخذت ممالك المدن المحلية القديمة تقترب من نهايتها. وبدأ يقترب عصر الدول المركزية الكبيرة والقوية. وأفكار السومريين وتقاليدهم القديمة بدأت تدريجياً بالتحول إلى ذكريات. أما ملوك الأسرة الثالثة في أور، الذين ساعدوا سومر للمرة الأخيرة في إعادة أيامها القديمة فلم يتمكنوا من الوقوف في وجه هذا التحول ولم يكن في وسعهم إلا اتباع النظم الاجتماعية والاقتصادية التي وضعها سرجون الكبير ومن جاء بعده.

نهضة سومر الأخيرة أو العصر السومري الجديد

ليست هناك إلا معلومات قليلة جداً عن «الغوتيين» على الرغم من أنهم سيطروا على أرض الرافدين حوالى المئة سنة حتى تمّ إخراجهم. فحوالى سنة 2120 قبل الميلاد تم الانتصار على هؤلاء الغرباء الذين أسماهم أهل البلاد «العقارب القارصة»، وذلك عندما قام ملك أوروك مع أمراء المدن الجنوبية بتجميع جيش كبير تمكن من إجلائهم عن البلاد.

غير أن ملك أوروك هذا لم يبق طويلاً، إذ تمكن من الإطاحة به أحد أتباعه الذي كان حاكماً على مدينة أور والذي أسمى نفسه «أورنمّو». وهذا الاسم ليست له علاقة بمدينة أور وإنما له مدلول «خادم الإلهة نمّو». والواقع أن أورنمو برز كإحدى الشخصيات الهامة في العصر البابلي القديم وكمؤسس للسلالة الحاكمة الثالثة في أور التي دامت من 2113 حتى 2006 قبل الميلاد والتي عاشت بلاد الرافدين في عهدها واحدةً من أزهى حقبها التاريخية القديمة. ومن الواضح أنه كان رجلاً كبير الشأن كثير المواهب، استطاع إعادة النظام إلى نصابه. ووضع مجموعة من القوانين هي أقدم ما

عُرف حتى الآن من التشريعات، ولو أن تشريعات حمورابي فيما بعد تفوقت عليها في ضخامتها وشهرتها. ومد يد المساعدة للاقتصاد الزراعي، وحسن طرق المواصلات، وأعاد تحصين المدن بعد أن كان سرجون قد هدم أسوارها، وأعاد للتجارة الخارجية مع بلدان الخليج نشاطها مجدداً. وكان إلى جانب ذلك مهتماً بفنون البناء إلى حد كبير. وفي الداخل نشطت العلاقات التجارية وشملت «قطْناً» ـ إحدى الدويلات الداخلية في وسط بلاد الشام ـ[10] واشتركت دويلات المدن مع أور في الأعمال التجارية كافة، حيث كان يتم التقاء أصحاب التجارات الخارجية والسماسرة والقوافل والسفن، وتنظم لوائح حسابات الباعة مع الكشوف الشهرية وتقديرات العائدات السنوية، وكل ذلك بموجب إيصالات، وتجري الحسابات وأعمال الجرد الدورية تماماً كما هو الحال في عصرنا هذا.

كان يأتي النبيذ من بلاد الشام واللازورد وأحجار كريمة أخرى من أفغانستان عبر طريق خراسان، وما يدعونه «عيون السمك» أي اللؤلؤ من دلمون (البحرين)، ويتم تطريق النحاس والفضة في ورشات أور، والحجارة الثمينة النادرة القادمة من الهند استخدمت في صنع الحلي.

ومن جهة أخرى اتخذت إجراءات تنظيمية هامة، إذ أُنشئت نقاط للشرطة على طرق القوافل التجارية لإقرار الأمن، حيث لم تعد هناك حاجة لرجال مسلحين يرافقون القوافل. ونتج عن ذلك أن خفَّت تكاليف نقل البضائع. وتم تحديد مواقف ثابتة لتسليم واستلام الرسائل من قبل سُعاة البريد.

على الرغم من الأعداد الضخمة من الألواح الفخارية المكتشفة فإن البنية الاقتصادية ما زالت غير معروفة من كل جوانبها وبالدقة الكافية. فالرُقُم التي تمت دراستها حتى الآن من مكتشفات المواقع السومرية يوجد بينها ما يقرب من ستة عشر ألفاً من النصوص التي تحتوي على عقود تجارية وحسابات مصرفية ورسائل إقراض أو استقراض ولوائح أجور ولم يتم حتى الآن تنظيمها وتبويبها بشكل واضح وحسب الاختصاصات.

وعلى كل حال يمكن القول بلا شك إن التجارات الخاصة والملكيات الفردية كان

---

(10) يتكرر ذكرها في النصوص المسمارية بشكل «قا. .طا. .نوم» وأحياناً «قطْنا». وأغلب الدلائل حتى الآن تشير إلى أنها كانت في موقع تل المشرفة شمال شرقي حمص.

لها دور أساسي في الاقتصاد وهام جداً. غير أنه في الوقت نفسه يتعذر علينا أن نعرف الحجم الحقيقي الذي كان للقطاع الاقتصادي الخاص. ولكن ما هو معروف بالمقابل أن أعداداً كبيرة من الأشخاص والشركات كانت تمتلك قطع الأراضي والبيوت والمواشي والعبيد. وكان بالإمكان التصريح بذلك في كل وقت عن طريق العقود الكتابية.

أما الأسعار التي ترتفع وتنخفض بالطبع، تبعاً لنوعية السلعة وللمكان والزمان، فكانت تدفع بالفضة، ولو أنها في حالات نادرة كانت تحسب بالحبوب أيضاً. فعلى سبيل المثال كان الرجل من العبيد الصحيح الجسم يقدر ثمنه بحوالى أحد عشر شاقلاً من الفضة (أي ما يقارب 90 غراماً). وكان يمكن للإنسان اقتراض الحبوب من الدولة بفائدة 20 بالمئة. في حين أن مانحي القروض الخاصة كانوا يتقاضون عن القروض القصيرة الأجل فائدة مقدارها 33 بالمئة أو أكثر. ولم يعثر بين النصوص المكتشفة على ما يشير إلى وجود تنظيمات قانونية ضد المرابين. وإذا وقع الإنسان في ضائقة وأثقلته الديون اضطر لبيع أولاده في سوق العبيد. لذلك كان قسم هام من السكان يفضل، من أجل الحصول على الحبوب والطعام واللباس، أن يعمل لدى الدولة عوضاً عن أن يكون تابعاً لصاحب أملاك أو رجل أعمال قد يستغله إذا وقع في ضائقة.

وأما ما تبقى من اقتصاد المعابد بعد هذه التطورات فأصبح تحت السلطة الملكية، وحقّت عليه الضرائب. وصار المعبد مجبراً إذا ما حصلت أزمة اقتصادية في البلاد أن يضع ممتلكاته كافة تحت تصرف الدولة.

لو نظرنا إلى هذا الوضع بدقة لرأينا فيه اقتصاداً موجهاً من الدولة إلى حد كبير، خضعت فيه المشاريع الخاصة لبعض القيود، وكان القسم الأعظم من السكان منظماً في لوائح، ولكن نمو التجارة والصناعة والاقتصاد الزراعي كان كبيراً ومستمراً.



«غوديا/جوديا» أشهر ملوك العصر السومري الجديد. حوالى 2144-2124 ق.م.

تراجع سومر عن المسرح السياسي

مع أواخر الألف الثالث قبل الميلاد كان كل شيء يبدو جيداً ويوحي بالطمأنينة في مدن الجنوب السومري. إلا أن أولئك الجنود الساهرين على حماية الطرق الصحراوية كانوا وحدهم يلاحظون أن جماعات القبائل المنتشرة هنا وهناك في حركة دائمة ومشبوهة، وأن مجموعات صغيرة منها تتسرب باستمرار عبر الفرات والخابور إلى الوديان الخضراء بأسرع مما كان يتصور الإنسان لينشأ منها تجمع كالسيل الجارف لا يستطيع أحد إيقافه.

لم يظهر الأموريون فجأة في الهلال الخصيب، بل كانوا منذ زمن غير معروف بالضبط منتشرين في أراضي البادية السورية الواسعة، وكان السومريون على احتكاك معهم. وحوالى سنة 2006 قبل الميلاد أخذت جموعهم الكبيرة بالتوغل من البادية باتجاه الشرق والجنوب الشرقي عبر الفرات للاستيلاء على المدن السومرية الواحدة بعد الأخرى. أما سوسة عاصمة العيلاميين فقد أعلنت استقلالها من جديد.

وانتشرت المجاعات بعدما استولى الأموريون على نقليات الحبوب. ومن الشرق استغل العيلاميون الفرصة، وهم الأعداء الألدّاء لسومر، فانقضوا عليها وضربوا حصاراً على مدينة أور واحتلوها رغم الأسوار الجديدة التي وصفها «أورنمو» بأنها «عالية كجبل يلمع في الشمس». وبعد أن نهبوا المدينة تماماً أشعلوا فيها النيران. بعد ذلك بسنين عديدة، وبعد أن صارت أور من جديد مدينة مزدهرة، اعتُبر تدميرها كارثة وطنية وأقيمت المراثي بأصوات عالية. وليس هناك ما هو أكثر تعبيراً وتأثيراً في النفس من هذا النص على لوح فخاري:

« . . عندما يطلع نجم السنة متجهاً إلى الغرب. . .
ثم ينظر في السماء. . .
وعندما لا تصفر الرياح. . . سيكون هناك جوعٌ كبير. . .
وسيلاقي الحاكم مصير إبي سين ملك أور. . .
الذي اقتيد بالسلاسل إلى أنشان. . . »

كانت تلك الفترة نقطة تحول هامة ونهاية للعصر السومري الجديد الذي يعتبر نهضة سومر الأخيرة. وانتهى دور كياناتها السياسية في الجنوب الرافدي، وذاب السومريون شيئاً فشيئاً في بحر الجماعات الأمورية «السامية» ولم يظهر لهم بعدها أي

دور يذكر. وحتى اسم السومريين اختفى عن مسرح السياسة وبقي في ذمة التاريخ.

ولكن هذا لا يعني أن كل شيء قد مات، فالبابليون أو الأكاديون والآشوريون والحثيون وغيرهم في مناطق الهلال الخصيب وجواره نهلوا كلهم من الثقافة السومرية. والقادمون الجدد (الأموريون) أخذوا عنهم تقريباً كل شيء مما له علاقة بالحياة المتحضرة: الديانة شكلاً ومضموناً، والمؤسسات السياسية والاجتماعية، وتنظيم إدارة الخدمات العامة والقانونية، والصناعة والفنون، والتربية والعلوم المختلفة، وحتى الخطّ المسماري الذي وفقوا بينه وبين لغتهم وكتبوها به، وأخذوا حتى بطريقة بناء الزقورات، تلك الأبراج الغريبة الشكل في المعابد، والتي كان لها شكل شرفات تتدرج في الارتفاع. وفي أوقات لاحقة بنيت تلك الشرفات المنحدرة بالقرميد الصلب ربما حتى الدور السابع. ومن الممكن أن بناء الزقورات كان فوق مغارة أو قبر، واعتبرت مستقراً للشمس وآلهة الخصب في الليل أو خلال رقادهم في الجبل شتاءً. ويبدو أنه كانت للحياة اليد العليا على الموت. وعلى كل حال ففي مدينة نيبّور كان المعبد يسمى «بيت الجبل» وفي كل من لارسا وسيبّار دعي: «الرباط بين السماء والأرض». وكان «غوديّا» ملك لاغاش قد سمى معبده: «ديمغال/ ديمجال» ويفسر تقريباً بما معناه: عمود الوصل الكبير. والزقورات كانت على هيئة السلّم ومصعدها من الخارج عبارة عن طريق مدرّج أصبح في أوقات لاحقة يصعد من طابق إلى آخر بشكل حلزوني إلى الأعلى حيث مجمع الآلهة.

إن تلك السهول الفسيحة في بلاد الرافدين قد وجهت نظر الإنسان إلى العلاء حيث تبين النجوم وعرف أسرارها. واتخذ السومريون النجم كرمز للألوهية بشكل عام. وكانت الزقورة برجاً حقيقياً لمدينة بابل قصدوا الوصول منه إلى السماء. وفي أعلاه كانت تقام في كل سنة مرة واحدة تلك المراسيم المقدسة لعرس الخصوبة في البلاد. وهناك في الأعلى كان الملك الكاهن يفتتح السنة الجديدة.

تطور الأحوال العامة
مع التركيب السكاني الجديد

بعد سقوط أور بزمن قصير تم طرد العيلاميين من جنوب الرافدين. أما الجماعات الأمورية فقد توطدت سلطتها في البلاد.

خلال القرنين الأولين من الألف الثاني قبل الميلاد كان خليط كبير من الدويلات في تنافس مستمر للسيطرة على أور والتحكم بالطرق التجارية الكبرى. كما لم يتوقف دخول مجموعات جديدة من القبائل الغربية إلى أرض الرافدين، حيث توغلوا عميقاً باتجاه الشرق ومنهم من ضربوا خيامهم على تلك التلال المنتشرة عند السفوح الغربية لسلسلة زاغروس. ثم إن قبائل أخرى منهم أسست لنفسها دويلات جديدة لم تلبث أن دخلت في النزاع المستمر للسيطرة على التجارة.

غير أنه في هذا الخليط الكبير من المتنافسين يمكن التمييز بين طرفين رئيسيين: فهناك الأكاديون الذين كانوا منذ حقبة طويلة هم الكثافة السكانية الكبرى في المناطق الوسطى والشمالية من أرض النهرين الكبيرين ومضى على حضارتهم المتطورة قرون عدة منذ أواسط القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. ثم الأموريون الذين توغلوا في أرض الرافدين من أواسط بلاد الشام وباديتها. وكانت فيهم أغلبية قبلية من الرحّل. إلا أنهم سرعان ما أخذوا الحضارة عن السومريين والأكاديين. ولكن في الوقت نفسه كان لقدومهم تأثيرات عميقة في البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في كل بلاد الرافدين. فدويلات المدن لم يعد لها وجود خصوصاً في الجنوب السومري. وبانتهائها اختفت القواعد والأعراف التي كانت ترتكز عليها في وجودها. ولم تعد الأرض والبشر والمواشي تعتبر ملكاً للآلهة كما كان في الحقب القديمة. والحكام الجدد شجعوا الملكية الفردية. وأصبح المعبد بمثابة مالك للأرض كبقية المالكين وعليه دفع الضرائب ككل الناس. وأما الكهنة فقد اختفت امتيازاتهم القديمة وصاروا يشغلون أنفسهم بطقوس العبادة والخدمات الدينية للشعب.

كان الملك يسيّر شؤون الحكم. أما المواطنون فكل منهم كان متابعاً لعمله. وكل اختياره وإمكاناته.

ومما يعرف عن ملك «إيسين» الأموري أنه اعتقل فيما بعد حامية أور واستولى على المدينة التي كانت رغم التدمير الذي لحق بها لا تزال مدينة جذابة وذات اعتبار.

وخلال حكم حفيده امتدت الدولة من سواحل الخليج إلى ما بعد مدينة «سيبّار» في الشمال. وهؤلاء الملوك كانوا يفضلون أن يحملوا لقب «ملك أور» ـ لما لهذه المدينة من مكانة عريقة ـ حيث أعادوا بناء ما خرب من المدينة بسرعة. كما أنعشوا من جديد العلاقات التجارية القديمة مع دلمون (البحرين).

في القرن الأول من الألف الثاني قبل الميلاد كانت مدينة أور، التي استعادت ازدهارها ورخاءها وجُدِّدَ بناؤها، قد اتسعت في كل الاتجاهات على ضفتي الفرات. وليس من الصعب تصور منظر المدينة بزقورتها التي كان أورنمو قد بناها بالقرميد ومنازلها الجديدة ونشاط السفن التجارية والزوارق في النهر وعلى ساحل الخليج، والسور الذي كان يقع بين أرصفة الميناء والمدينة الحقيقية ويحيط بقطاع الباعة ومنطقة التجارة الحرة حيث كان أصحاب التجارات الخارجية وأصحاب السفن والسماسرة يملكون مستودعات للجمارك ومخازن للبضائع ومكاتب وبيوتاً للنقابات.

وقد بقيت في تلك الفترة لغتان إلى جانب بعضهما البعض، السومرية والأمورية (من عائلة اللغات السامية). إلا أن الأموريين، كالأكاديين قبلهم اتخذوا الخط السومري في كتابة لهجتهم، وخصوصاً لتسيير الأمور التجارية.

فالأموريون لم يكونوا فقط أصحاباً لقطعان الماشية، بل أيضاً أصحاب تجارات واسعة. وكان بأيديهم قسم هام من التجارة ما بين البحر الأعلى (المتوسط) والبحر الأدنى (الخليج)، فقد عرفوا جيداً طرق القوافل في غربي الهلال الخصيب وعرفوا كيف يتعاملون مع قبائل البادية التي تربطها معهم روابط قرابة ويساومونها على أتاوات الطرق وعلى حماية أنفسهم وبضائعهم. يضاف إلى هذا أنهم كانوا قد اكتسبوا في بلاد الشام مهارة تجارية وخبرات في أمور هامة مثل: سرعة الإحساس بالأسواق الجديدة وبالتغيرات في العرض والطلب وتطور الأسعار والتمهيدات لأحداث سياسية وغيرها. وكان كل ذلك قد جلب عليهم الثروة. وقد أصابوا في اختيارهم لموقع نشاطهم، فمدينة أور كانت هي الميناء الكبير والمكان الذي يجري فيه التفريغ والشحن إلى كل البلدان الواقعة على جوانب الخليج.

كانت في جانب المدينة محطات واسعة تجهز فيها القوافل التجارية لرحلات البادية. وغير بعيد عنها كان ذلك القسم من المدينة المسمى «كاروم» الذي يعتبر قسم الأعمال التجارية أو الاقتصادية عموماً. حيث وجدت قاعة لرابطة الحرفيين وأخرى لرابطة التجار ومراكز للبيوت التجارية الكبرى ومقر أصحاب السفن والقباطنة الذين كانوا



صورة جوية لموقع مدينة أور

يُبْحرون إلى دلمون ويحملون منها البضائع إلى أور. هذه التجارة البحرية التي كانت قائمة منذ حقبة طويلة لم تفقد شيئاً من أهميتها خلال التطورات السكانية والسياسية التي حصلت. وكل ما هنالك أنه دخلتها عناصر جديدة. فالاضطرابات السياسية سببت توقفها بصورة وقتية، ثم دخل الأموريون كشركاء للسومريين وسيطروا على المكانة الأولى فيها. وأصبحت دلمون طرفاً رئيسياً في تجارة الخليج. وتوقفت السفن التي كانت تبحر مباشرة من أور إلى «ماكان» ـ على الجهة الجنوبية الشرقية من الخليج ـ لإحضار النحاس، كما توقفت السفن في الاتجاه المعاكس. وصارت دلمون تعتبر ميناءً مستقلاً لتجارة الترانزيت. وأخذ عمالها يمنعون السفن من الرسوّ ولا يزودونها بالماء والأغذية، أي أنه كانت تتم فقط عمليات التفريغ والتحميل في الجزيرة ثم ترسل البضائع إلى أور أو «ماكان» أو حتى إلى منطقة نهر الهند. أما السفن القادمة من «ماكان» ومن الهند فكانت تفرغ حمولتها من النحاس والذهب والعاج والأصبغة والعقيق واللازورد، وتبادلها في السوق الكبير على الشاطىء بالصوف والفضة والمنسوجات وبعض المفروشات التي كان تجار دلمون يحضرونها من مدن الرافدين.

غير أن تجار أور من الأموريين المعروفين بيقظتهم لم يقفوا طويلاً موقف المتفرج وسرعان ما عمدوا إلى شراء أملاك ثابتة في دلمون ممّا أتاح لهم أن يصبحوا تجاراً وأصحاب سفن في آنٍ واحد. فانخفض بذلك عدد السفن التابعة للدلمونيين التي تأتي إلى أور، بينما تزايدت سفن الأموريين من سكان أور وحققوا بلذلك أرباحاً أكثر مما سبق، سواء منهم التجار أو أصحاب السفن أو أصحاب البنوك.

بالنسبة للمواد الكمالية الآتية من الهند كان يترتب على أصحاب التجارة والقوافل دفع مبالغ باهظة. وكانت تسلم الأسعار بالفضة التي يجري وزنها بالأوزان المعتادة المصنوعة على شكل بطة كما بينا سابقاً. وقد بيع النحاس بأسعار جيدة في المدن الكنعانية الساحلية حيث كانت للأدوات النحاسية المصنوعة جودة عالية. ولو تصورنا أن الحجارة الكريمة والعاج كانت تأتي من الشرق الآسيوي بأسعار بخسة وأنهم على الرغم من ذلك حصّلوا ببيعها أسعاراً خيالية وبسهولة لعرفنا مقدار أرباحهم. ومن الغريب أن الوضع اليوم لا يختلف في شيء عن ذلك الزمن القديم، فما زالت منتجات بلدان الشرق الأقصى في أيامنا هذه معروفة بأسعارها المتواضعة جداً بالنسبة لغيرها، الأمر الذي يجعل التجار في بلدان أخرى يحققون بها عشرات الأضعاف من الأرباح.

في ظل هذا الرخاء الاقتصادي كان قد مضى على موجة الأموريين أجيال عدة أي

حوالى القرن من الزمن. ويبدو أنه لم يكن يهمّهم كثيراً من الذي يعتلي الحكم بمقدار ما يهمهم استقرار تجاراتهم وازدياد الأرباح. وكان كبير الكهنة يتجنب النزاعات السياسية. وعلى الرغم من أن ظروف الحياة كانت تبدو جيدة في عهد الحاكم الأموري «غونغونوم» فقد كان الجميع يحاولون اتقاء «أور نينورتا» ملك إيسين الجديد، ولم يكن مؤكداً بعد، إن كان ملك لارسا الذي احتل أور قبل بضع سنوات سيمكنه الاحتفاظ بالمدينة أم لا...

الواقع أن تحول السلطة من شخص إلى آخر لم يكن يضايق التجار ما دامت قوافلهم تتابع رحلاتها في مختلف الاتجاهات.

حتى ذلك الوقت لم يكن استخدام الجمل معروفاً، ولم يكن قد استُورِد الحصان من المناطق الجبلية إلى السهول. وإنه بالواقع لا يكاد يصدَّق كم كانت تلك القوافل، في المناطق التي لا تسلكها العربات، تحضر على ظهور الحمير من مختلف البضائع الثقيلة: كالفضة والمرمر من جهات مختلفة، ثم الكتان من مصر، وأخشاب الأرز من جبل لبنان والأمانوس، والبخور من مناطق جنوبي الجزيرة العربية (انظر ملحق الكتاب) والنحاس وغير ذلك. يستثنى من كل هذا الحجارة النفيسة والعطور الغالية التي كان يحملها قادة القوافل وعمال التجار في أكياس معهم.

لم يكن كل شيء يتم دائماً حسب ما يشتهي الإنسان، ولم تكن رحلات القوافل دائماً مضمونة السلامة. وليس أمراً نادراً أن يكون دم البعض ثمناً للأرباح، أو أن تنقلب الأرباح إلى خسارة جسيمة أحياناً تضطر صاحب التجارة لإعلان إفلاسه. وكم يكون سعيداً في هذه الحال إذا أمهله أصحاب الديون ولم يجبروه على بيع نفسه وأفراد عائلته كعبيد لتسديد ديونه، وهو أمر كان منذ القدم معروفاً ومتبعاً، وتذكر النصوص حالات من هذا النوع.

لقد وجد بين الأموريين عدد غير قليل من الذين جاؤوا إلى بلاد الرافدين تباعاً في فترات لاحقة خلال عدة عقود من الزمن واستوطنوا بالقوة. وكانت عودتهم سهلة إلى ممارساتهم القديمة لأعمال السطو والسلب التي كانت في الصحراء شيئاً معتاداً. بين قبيلة وقبيلة أو بين عشيرة وعشيرة أو حتى على نطاق أضيق، أي بين العائلات كانت كثيراً ما تنقلب الأحلاف إلى نزاعات أو العكس. وهي أمور بقيت محدودة في مناطق وديان الأنهار والمراكز الحضارية حيث السلطة قوية، ولكن لا شيء يقيدها في أقاصي المناطق المأهولة وأطراف الصحراء حيث كانت الرقابة معدومة. فكان سكان الأماكن

الحدودية مضطرين دائماً لحماية ممتلكاتهم القليلة، وغالباً ما سلبوا خصومهم شيئاً مما يملكون، ليعودوا بعدها إلى الاتفاق معهم على مهاجمة قرية ونهبها سويةً أو اعتراض قافلة تجارية وسلبها. كان أولئك الناس لصوصاً وتجاراً في آن، ولا يدفعون مالاً إلا إذا كان لا بد منه ولم يجدوا مجالاً للتهرب. ويأخذون أموالاً مقابل المرور على الطرق التي تطالها أيديهم. وكثيراً ما أوعزوا إلى قبيلة مجاورة بمهاجمة قافلة تجارية ليقاسموها الغنائم بعد ذلك بالتساوي.

في ظل ظروف كهذه كان لا بد من المقدرة والمهارة، وربما الحظ الجيد أيضاً، لإيصال قافلة تجارية إلى هدفها والعودة بها إلى حيث انطلقت.

وليس معروفاً كم من التجار ورجال الأعمال كان يلحق بهم الدمار المالي نتيجة لهذه الظروف، ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا حالات نادرة. فالألواح الطينية يكثر فيها الحديث عن توقف المدفوعات بصورة مفاجئة كإشارة إلى ضياع الأموال أو إعلان الإفلاس.

الفصل الرابع

وسط الرافدين
والتمهيد للعصر البابلي

المدينة العالمية الميتة

إلى الجنوب من بغداد على بعد حوالى تسعين كيلومتراً، وعلى مقربة من مدينة الحلّة تقع خرائب المدينة القديمة بابل، التي ملأ اسمها العالم القديم وكانت على مدى حقب زمنية طويلة مدينة عالمية بكل معنى الكلمة، واعتبرها بعض المؤرخين أنها كانت خلال حقبة ازدهارها دماغ العالم القديم.

وإنه مما يترك أثراً عميقاً في النفس أن «شهرة الأثرياء وعظمة الأبهة الكلدانية» ـ كما كانت بابل تصف نفسها ـ يُشار إلى موقعها اليوم بلافتة عادية بسيطة. ففي بغداد يعتقد بعض الناس أن الرحلة إلى هناك شاقة وغير مجدية ولا يوجد بالأساس ما يستحق المشاهدة. على أنه توجد في العالم أماكن لها تأثير عميق في النفس رغم أنها لا تستحق المشاهدة.

إن القصور والبيوت السكنية والمعابد والشوارع قد خربت وانتشرت بقاياها بشكل عشوائي بجانب بعضها أو فوق بعضها البعض. ومن الأسوار التي كانت تسير فوقها فيما مضى أربع عربات حربية مشدودة إلى جانب بعضها، ومن هياكل المعابد التي كان يحرق فيها سنوياً من البخور ما يعادل وزنه بحسابات ذلك الزمن ألف «طالن» ـ أي ما بين 24 و 26 طناً[11] لاكتساب مرضاة الآلهة وعطفها، من هذا كله لم يبق شيء باستثناء بوابة عشتار من زمن نبوخذنصر، والتي كان ارتفاع أبراجها القرميدية أكثر من أربعة عشر

(11) سبق ذكر الطالن وتوضيحه في الحاشية رقم (5).

متراً. كما كانت قطع القرميد المبنية في الجدران تزينها بأكثر من خمسمائة من أشكال الحيوانات، يتناوب فيها ظهور الثور والتنين وقد خلت من الألوان وبريق الطلاء الزجاجي التي كانت فيما مضى تغطي ذلك القرميد العاري. وقد صممت أشكال الثيران وهي تخطو برشاقة إلى الأمام، وتبدو فتيّة ولديها من القوة ما يكفي لدكّ بوابة محصنة. أما التنانين ذات القرون بألوانها البني والأصفر والأبيض على أرضية زرقاء، فليست أقل جمالاً من تلك الثيران. هذه الحيوانات الرمزية التي تخص الإله مردوك ربما كان القصد منها دب الرعب في قلوب الميديين والفرس.

أما ذلك الموقع الذي كانت تنتصب فيه زقورة بابل أو برج المعبد الذي يعتقد الآثاريون أنه برج بابل الشهير نفسه، فيتراءى اليوم للناظر كما لو أن زلزالاً قوياً قد هزّه. ومن المحتمل أن بقايا القناطر المحطمة الموجودة هناك كانت تحمل قاعة الاحتفالات في أيام نبوخذ نصر.

وهناك صمت ثقيل جداً يطبق على عدد لا يحصى من التلال الترابية والحجرية أو القرميدية. وبتعبير دقيق فإن بابل عبارة عن أكوام من الأنقاض. أما الأراضي السهلية المحيطة بها فتمتد أمام الناظر حتى الأفق على وتيرة واحدة. حتى الماء يبدو وكأنه قد تخلى عن المدينة، إذ أن الفرات يجري بمنأى عنها بين بعض أشجار النخيل ولم يعد له ذلك الخرير عند أسوار المدينة كما كان فيما مضى، فيبدو اليوم كما لو أنه يشهد على زوال المدينة إلى الأبد. ومن بابل يمكن للإنسان السفر باتجاه جنوب شرقي إلى أور التي يبعد موقعها اليوم كثيراً عن ساحل الخليج حيث كانت فيما مضى. والمعتقد في الأوساط التاريخية أن «المجوس الثلاثة»[12] قد كانوا بالأصل فلكيين بابليين.

قبل بضعة آلاف من السنين كانت السفن تنتقل في مياه الفرات صعوداً وهبوطاً. وكانت الأراضي المحيطة به جنائن غناء. وتلك المواقع التي يخيم عليها اليوم صمت المقابر كانت مليئة بالحركة والنشاط. في هذه الأيام تنتشر الرمال فوق الأماكن الخربة، وقد اختفت الأوحال من أقنية الري التي جفت منذ زمن بعيد لتتحول أرضها إلى أخاديد يابسة متشققة تعشش فيها الأفاعي والعقارب.

---

(12) أصل هذه التسمية من الفارسية وانتقلت إلى اليونانية والعربية. ويقصد بها بالأساس ذلك الذي يمارس أعمال التنجيم والعرافة والكهانة وإلى جانب ذلك السحر. واصطلحت التسمية على ثلاثة ممن اشتهروا بذلك في بلاد الرافدين. وانتقلت إلى الآداب العالمية، حيث يستخدم أحياناً تعبير «الحكماء الثلاثة» وأحياناً «الملوك الثلاثة» أو «الملوك المقدسون الثلاثة»... إلخ.

لقد تضافرت كل عوامل الطبيعة، عدا عن استغلال الموقع كمصدر لمواد البناء، قروناً عدة خلت، وإذا بها قد أزالت معالم إحدى أعظم المدن في العالم القديم.

المواقع الشمالية الهامة والطرق التجارية

ما بين أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد كانت حرّان التي تبعد حوالى الألف كيلومتر إلى الشمال الغربي من أور قد أصبحت تحتل مكانة هامة كمركز كبير آخر للشحن والتفريغ بالنسبة لأمبراطورية الرافدين التجارية. وفي حين كانت أور مركزاً ساحلياً هاماً أصبحت حران مركزاً قارّيّاً بارزاً. وهي موقع تجاري قديم جداً. وطريق القوافل بينها وبين أور كان معروفاً كطريق تجاري منذ زمن موغل في القدم. وبالقِدَم نفسه كانت أيضاً العلاقات التجارية بين المدينتين. وفي حران كانوا أيضاً يعبدون «سين» إله القمر.

وخلال الزمن الذي كان فيه الاقتصاد بإشراف المعابد قام كهنة معبد الإله سين في كل من المدينتين بتبادل مستمر وواسع للبضائع كانت نتائجه، كما توضح الألواح الطينية، مرضية للطرفين.

ومثلما اشتهرت دلمون (البحرين) كمركز للنحاس الآتي من «ماكان» فإن حران كانت أيضاً مركز تفريغ وشحن للفضة والمعادن الأخرى القادمة من مرتفعات طوروس.

يعتبر من المؤكد أن التجارة مع حران خلال القرنين الأولين من الألف الثاني قبل الميلاد كانت كلها تقريباً في يد الأموريين، ذلك لأنه كانت لهم السيطرة على الطرق في وادي الفرات. ورحلة القوافل من أور عن طريق ماري الواقعة على التّقوّس الكبير للفرات فالرقة ثم بمحاذاة البليخ إلى حران كانت تستغرق في المتوسط ما يقارب الشهرين إذا سارت الأمور بشكل طبيعي.

من الظاهر أن التقلبات السياسية في الجنوب البابلي لم تكن تسبب أية عراقيل للمواصلات التجارية حيث لا يمكن، كما ذكرنا سابقاً، أن تشل الحركة التجارية لحاجة الجميع إليها.

وما زاد في أهمية حران أيضاً أنه كانت تمر فيها إضافة لذلك، طرق القوافل القادمة من وادي دجلة والتي قامت عليها العلاقات التجارية النشيطة بين آشور وآسيا

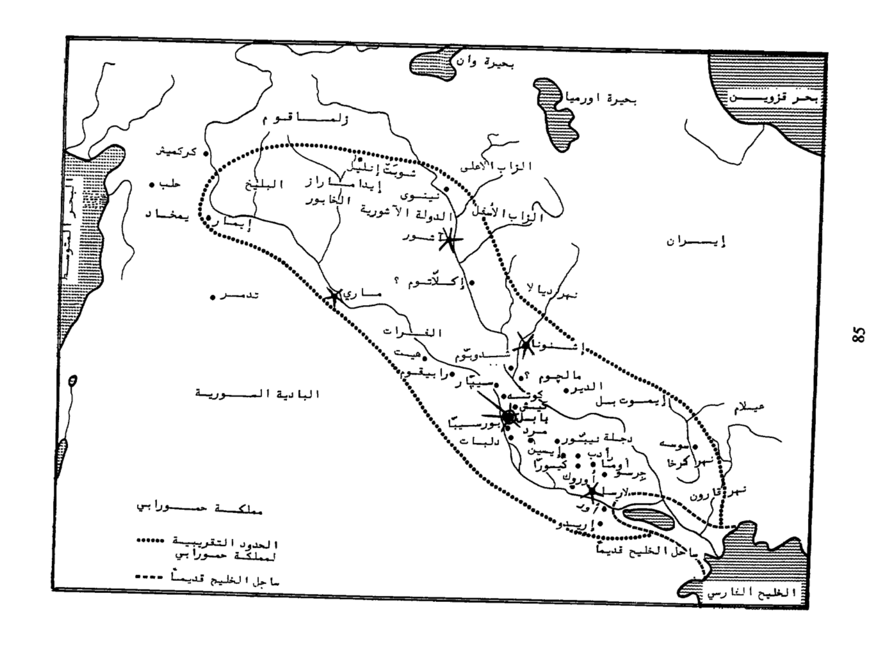
الصغرى التي يربطها طريق مع حران (كما سنرى في فصل لاحق). كما يربط بين حران وبلاد الشام في الغرب طريق تجاري يعبر الفرات عند موقع كركميش قديماً (جرابلس الحالية) ماراً بعدها بجانب حلب حتى يصل إلى منخفض العاصي حيث تلتقي معه طرق أخرى منها ما يؤدي إلى دمشق والجنوب السوري ومنها ما يصل إلى ساحل البحر غرباً. وعلى هذا الطريق كانت القوافل تحضر العطور وخشب الأرز والنبيذ من الممالك الكنعانية والأمورية الداخلية مثل «يمخاد» و «قطنا» و «كركميش» إلى حران. إلا أنه من غير المعروف إن كانت القوافل نفسها تتابع سيرها بهذه السلع إلى أور أو كانت تتولى ذلك قوافل أخرى، أو إذا كانت البضائع تنتقل إلى أيدي تجار آخرين في سوق حران يتولون تصديرها إلى الجنوب. فالواقع أن الرُقُم المعروفة تفتقر إلى معلومات بهذا الصدد.

صعود شمس بابل

مملكة حمورابي

خلال النزاعات العسكرية المتلاحقة التي بدأ فيها نجم أور ينحدر للغروب تزايدت كثافة الجماعات السكانية من الأموريين في مناطق الفرات الأوسط. وتوصل بعض شيوخهم لأن يصبحوا ملوكاً محليين في بعض المدن. وكان واحد منهم قد اتخذ لنفسه في سنة 1894 قبل الميلاد مدينة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات كان يتولى شؤونها حاكم في عهد سلالة أور الثالثة. إلا أنه لم تكن لها أهمية تذكر في عصر السومريين، أو بالأحرى لم تلعب دوراً سياسياً يذكر. وتذكرها الكتابات السومرية باسم «كا.. دينغور.. را» الذي يعبر عنه في الكتابات الأكادية بلفظ «باب.. إيليم» وأحياناً «باب.. إيلاني» بحيث يفسر الإسم بمعنى «باب الإله» أو «باب الآلهة». وكثيراً ما تناولته نصوص التوراة بالذكر بشكل «بابل» الذي نعرفه، والذي نتج عن دمج الاسم المركب في كلمة واحدة مع تخفيف اللفظ. أما صيغة الاسم التي استخدمها اليونان «بابيلون.. Babylon» وانتشرت من ثم إلى مختلف لغات العالم المعاصر فمن الواضح أنهم أخذوها عن اللفظ الأكادي أو المحلي مباشرة.

هذا الشيخ الآنف الذكر، الذي يدعى «سومو.. أبوم» كان قد مهد خلال أعوام عدة خلت بتجميع عدد من القرى والمدن الصغيرة مشكلاً بذلك شبه اتحاد. ثم أن خلفاءه تابعوا تدريجياً توسيع مناطق نفوذهم تارة بالحكمة والأناة وتارة باستخدام القوة


البحر المتوسط
بحيرة وان
بحيرة اورميا
بحر قزوين
زلماقوم
كركميش
حلب
يمخاد
إيمار
البليخ
إيدا ماراز
الخابور
شوبت إنليل
نينوى
الدولة الآشورية
الزاب الأعلى
الزاب الأسفل
آشور
إيران
إكلاتوم ؟
نهر ديالا
تدمر
ماري
الفرات
هيت
رابيقوم
إشنونا
شدوبوم
مالچوم ؟
سيبار
الدير
كوته
كيش
بابل
بورسيبا
مرد
دلبات
البادية السورية
إيموت بل
عيلام
دجلة
نيبور
إيسين
أدب
أوما
كيسورا
سوسه
نهر كرخا
جرسو
أوروك
لارسا
أور
إريدو
نهر قارون
ساحل الخليج قديماً
الخليج الفارسي
مملكة حمورابي
الحدود التقريبية لمملكة حمورابي
ساحل الخليج قديماً

عند الضرورة. واستمروا على ذلك حوالى سبعين سنة. على الرغم من ذلك فإن «سين مُبللط» والد حمورابي ترك لابنه مملكة صغيرة متواضعة بالقياس لممالك جيرانها التي كانت أوسع بكثير وأقوى. وقد تحولت تلك الأحلاف القبلية إلى نوع من الدويلات الصغيرة الطموحة تصطلي بنار المنازعات وينظر بعضها إلى البعض الآخر بعين الريبة والحذر.

لم تزل تواريخ أغلب الفترات الزمنية تقريبية نظراً لعدم وجود التدوينات الدقيقة لذلك الزمن. ولكن أغلب الآراء في السنوات الأخيرة تجعل بداية حكم حمورابي في سنة 1792 قبل الميلاد شبه مؤكدة.

راقب حمورابي في بداية عهده الوضع المضطرب في بلاد الرافدين وانتظر برباطة جأش. ثم حزم أمره وقرر اتباع سياسة الخطوات. فأخذ يشن هجمات صاعقة على هذه الدويلات الواحدة بعد الأخرى، مبتدئاً بتلك الواقعة في السهول البابلية، ثم عيلام في الجنوب الشرقي وفيما بعد آشور في الشمال وأخيراً صديقه القديم وحليفه الأموري «زمري ليم» ملك ماري على الفرات الأوسط.

أصبحت بلاد الرافدين دولة حقيقية بكل معنى الكلمة تحت زعامة بابل. ولكن هذه الدولة بالطبع لم تبلغ في اتساعها ما بلغته امبراطورية سرجون الأكادي قبلها أو امبراطورية الملوك الآشوريين فيما بعد، ثم الدولة البابلية الجديدة عقب ذلك.

أما حمورابي فقد أطلق على نفسه ألقاباً عدة مثل: «الملك العظيم» ـ «ملك بابل وسومر وأكاد» ـ «ملك جهات الكون الأربع». وكان شخصية على جانب كبير من الدهاء والحكمة. فهو لم يقم بقتل الملوك الذين أخضعهم وإبادة قبائلهم كما كان يحدث غالباً في ذلك الزمن، بل جعل منهم أتباعاً له وحافظ ولو ظاهرياً على عدم إذلالهم.

ويعتبر عهد حمورابي فترة الاستقرار النهائي لسلطة الجماعات الناطقة بلغات سامية في أرض الرافدين. وكان رجلاً منظماً من الدرجة الممتازة، بل وربما أقدم شخصية منظمة من هذا النوع عرفتها الأزمنة القديمة. كان اهتمامه بتنظيم الجيش معادلاً لاهتمامه بكل إدارات الدولة والقضاء والشأن الديني. ولم يدع مجالاً لإهمال أيٍ من شؤون الحياة العامة. وكان الواجب الأعلى عند الجميع هو الحفاظ على الدولة وحمايتها. وأوجد حمورابي شيئاً جديداً لم يكن معروفاً وهو الخدمة الإلزامية العامة. فبانتهاء جني المحاصيل الزراعية يدعى كل رجل إلى التدريب العسكري. وأصبح حمل السلاح يرمز

إلى مكانة الإنسان وانتمائه إلى طبقة اجتماعية وامتيازاً لكل من كان يملك أرضاً أو تجارة أو مصلحة أخرى منتجة أو يتقلد منصباً في الميادين العامة الرسمية أو الخاصة أو يتميز باكتسابه تدريباً وثقافة معينة.

كل هؤلاء كان لهم الحق أن يدعوا أنفسهم «رجالاً». وأما أعمال الخدمة في الجيش كحمل العتاد والمؤن والطبخ وضرب الخيام فكان يقوم بها أولئك الذين لا ينطبق عليهم شيء مما ذكرناه. واعتبر السلاح الجديد في الجيش هو سلاح المشاة. وقد رأى حمورابي أنه من غير الممكن الاعتماد كثيراً على الملوك الأتباع ومنحهم الثقة، فعين إلى جانبهم مراقبين ممن يثق بهم ويمكن اعتبارهم بمثابة المستشارين بمفهومنا المعاصر، كانوا يوعزون إلى هؤلاء الملوك بتحفظ ودقة بما ينبغي أو لا ينبغي عمله. ويبعثون بالتقارير بشكل منتظم إلى حمورابي في بابل عما سمعوا وشاهدوا. وحتى هؤلاء أيضاً كان حمورابي يراقب إخلاصهم له عن طريق جهاز كبير من المفتشين المتجولين الذين لا يعرف أحد هويتهم ولا مهماتهم.

تعتبر دولة حمورابي بذلك دولة قائمة على نظام مركزي دقيق بكل معنى الكلمة تشبه إلى حدٍ ما بعض الدول البوليسية في العصر الحديث.

واجه حمورابي أمراً آخر لم يكن بهذه السهولة، ألا وهو تعدد الآلهة الكثيرة في المدن. وقد عرف كيف يستخدم الحيلة في وضع حد لذلك. فهاجم الكهنة بطريقة سلمية في أضعف نقطة عندهم ألا وهي المال. وذلك بإصداره أمراً يقضي بأنه يتوجب عليهم اعتباراً من تاريخه إرسال حسابات المعابد كافة إلى بابل بصورة دورية للتدقيق فيها. ولكن هذا كان البداية فقط. فالملك كان يعرف حق المعرفة أن الديانة والمَلَكيّة في البلاد الرافدية أمران ملتصقان ببعضهما التصاقاً وثيقاً وأنه لذلك ينبغي إيجاد وسيلة تساعده على جعل أسرته الحاكمة شرعية في نظر الكهنة والشعب على السواء. فكان حله لهذه المشكلة بسيطاً جداً: حتى ذلك الوقت كان مردوك إله مدينة بابل ليس على درجة من الأهمية كبقية الآلهة. فجعله حمورابي فجأةً على رأس أسرة الآلهة معلناً في الوقت نفسه ببراعة أن ترقية مردوك إلى هذه المرتبة جاءت تنفيذاً لأوامر من الإلهين الكبيرين «آنو» و «إنليل»، أما هو شخصياً فقد أمره هذان الإلهان الكبيران بالسهر على مصلحة الشعب. وبالطبع خضع الكهنة لهذه التعليمات الملكية وغيروا كتابة أنساب الآلهة وتسلسل مراتبها. ولكن دون أن تتغير بالفعل معتقداتهم القديمة المعتادة. وأصبح مردوك بذلك الإله الرئيسي للبلاد البابلية بكاملها. وصار كل الناس يتوجهون إليه بالإجلال والتهيب العميق. وأنشئت المعابد

تكريماً له في كل مكان وأقيمت له شعائر الاحتفالات.

وإضافة إلى ذلك فإن حمورابي قد سجله التاريخ كأكبر مشرع للقوانين في الزمن القديم. والحقيقة أن بلاد الرافدين عرفت مدونات قانونية قبل زمن حمورابي بأكثر من قرنين مثل مجموعة «أورنمو» ومجموعة «ليبت عشتار» ومجموعة «إشنونا» ولكن حمورابي كان أول حاكم وضع قوانين شاملة ومفصلة ومرتبة في مجموعة متسلسلة. ومع ذلك لا تعتبر كتاباً قانونياً بالمفهوم المعاصر للقوانين. ولا يمكن الحديث بهذا الصدد عن إصلاح تشريعي بكل معنى الكلمة حيث أن أغلب أهل الرافدين كانت تسيّر حياتهم إلى حدٍ كبير التقاليد والأعراف المتوارثة التي تكيفت أحياناً مع الزمن بما يتناسب ومتطلبات الحياة اليومية.

وفي وقت لاحق أمر حمورابي بنصب تلك المسلاّت الحجرية الكبيرة السوداء في أماكن عديدة من البلاد وقد نقشت عليها مواده القانونية الكثيرة في صفوف طويلة من الكتابة المسمارية. وتحتوي مسلة مدينة «سيبار» التي اكتشفت في موقع سوسه والموجودة اليوم في متحف باريس على 282 مادة قانونية. وتتحدث هذه القوانين عن حالات من كل الأنواع، في الاقتصاد، والأحوال العائلية، ومسؤوليات العمل، والأجور، والعبيد، والزراعة. وفي ختامها سلسلة من لعنات السماء وعقوبات الآلهة على كل من يلحق الأذى والتشويه بنص القوانين أو يغير فيه شيئاً. والعقوبات المنصوص عليها في هذه القوانين تبدو صارمة وقاسية. ولكن قسوتها لم تكن تتناول كل المذنبين بنفس السَّويّة. وفي حالات كثيرة كان المتبع هو مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» غير أن هذا لم يكن حالة مطلقة أيضاً. إذ كانت مثلاً تقطع اليد اليمنى لطبيب أجرى عملية غير ناجحة لرجل حر فتسبب في موته. أما إذا انهار بيت بناؤه سيِّىء على ساكنيه وتسبب في موت عبد لصاحب البيت فقط فإن المعماري يلزم بالتعويض عليه بعبد آخر. أما قوانين الأسرة فهي تطابق مفاهيمنا الحالية إلى حدٍ ما. ومن الجدير بالذكر أن القوانين تتميز بالتفصيل الواضح والدقة واللغة المهذبة. والشيء الفريد من نوعه هو أن حمورابي وضع هذا القانون ليسري مفعوله في كل أنحاء المملكة. ولكن مما لا يستطيع أحد إثباته، أو حتى الإدعاء به، هو إن كان قانون حمورابي قد لاقى تطبيقاً دقيقاً عند كل الناس بحيث لم يجرؤ إنسان على تجاوزه أو العصيان عليه أو التعامل بما يتناقض معه. وبعكس ذلك يمكن القول إن التجاوز والاحتيال على القوانين وجد في كل زمان ومكان.



حمورابي أمام الإله شمش في أعلى مسلة قانونه

كان العصر السومري الجديد قد انقضى ولم يبق هناك وجود لتلك الممالك. وكما كان على الأرض فقد كان في السماء أيضاً «أكيتو» عيد الإله البابلي مردوك الذي أصبح أكبر احتفال ديني في السنة. فالآلهة السومرية تنازلت، والأصح تمت تنحيتها عن سلطتها لمردوك إله بابل تماماً كما تنازل ملوك المدن السومرية للملك البابلي الكبير.

لا بد هنا من ذكر نقطة هامة، هي أن انتقال سلطة الدولة وما رافقه من انتقال للرخاء من الجنوب إلى العاصمة الجديدة بابل على الفرات الأوسط، ثم ما تبع ذلك من تراجع للنشاط التجاري البحري عبر الخليج، كان له بلا شك آثاره السلبية على أصحاب التجارة الخارجية في أور.

وبشكل عام حصلت تطورات لم يكن حمورابي قد وضعها في حسابه، وبالتأكيد لم يكن يريدها إطلاقاً. إذ أصبح مثلاً بموجب القانون الجديد للدائن ميزة أكثر من ذي قبل إزاء مدينيه، وأصبحت للمموّل مزايا أفضل إزاء شريكه الذي يعمل لديه. وعند عجز المدين عن سداد ديونه لم يعد يكفي أن تُرهن ممتلكاته وكل ما لديه كما كان في السابق، بل وجب عليه في أسوأ الأحوال بيع زوجته وأولاده وإن احتاج الأمر بيع نفسه أيضاً في سوق العبيد إذا طلب الدائن ذلك. وهذا في الواقع لم يخلقه عصر حمورابي، بل كان متبعاً قبل ذلك في المدن السومرية مما ورد ذكره فيما سبق (انظر: **تطور الأحوال العامة مع التركيب السكاني الجديد**)، وإنما الفرق أنه أصبح في عهد حمورابي منصوصاً عليه في القانون. أصبح أصحاب الحرف الحرة أكثر ارتباطاً بتاجر الجملة الذي يؤمن للحرفي المواد الأولية الضرورية ويسعى لتصريف منتجاته، ويقدم له القروض والسلف. ومن احتاج لاقتراض الشعير، المادة الغذائية الأساسية، دفع فائدة بنسبة 35 بالمئة، ومن اقترض مالاً كانت فائدته 25 بالمئة. علماً أن الفوائد بنسب قريبة من ذلك كانت معروفة أيضاً خلال العصر السومري الجديد كما ذكرنا هناك.

لم يمض زمن طويل حتى ارتفعت الأسعار بشدة، الأمر الذي يعتبر إحدى حالات التضخم المالي بمفهومنا المعاصر. ورغم أن حمورابي وضع حدوداً قصوى للأسعار فإنه سرعان ما كانت تُنتَحل مختلف الوسائل لتجاوزها. وهو بالضبط ما نعيشه في عصرنا هذا وفي الحياة اليومية، وهو ما يحدث حتى في البلدان الأكثر تطوراً، حيث أن أصحاب المصالح التجارية لديهم دائماً أساليبهم الخاصة مهما كانت رقابة الدول.

ما زالت فترة حكم حمورابي وتاريخ موته بالضبط موضع مجادلات في الأوساط التاريخية. وبشكل أساسي أصبح من المتفق عليه مبدئياً، بعد دراسة كتابات ألواح

ماري، أن عهد حمورابي أحدث بحوالى القرنين من الزمن مما كان يعتقد سابقاً. غير أنه لا يوجد إجماع حتى الآن على التواريخ الدقيقة. فالباحث الأميركي «ألبرايت Albright» يقترح الفترة ما بين 1728 و 1686 قبل الميلاد. بينما يعتقد «أندريه بارو. . . André Parrot» المشرف على حفريات ماري أن الأصح هو الفترة ما بين 1792 و 1750 ق .م. وتأريخ بارو له ما يبرره، إذ أنه اعتمد على حوادث مدونة تحدد وقائعها وتواريخها في مصادر أخرى موجودة. ورغم أن أغلب الباحثين يعطي هذا التأريخ الأخير الأفضلية فإنه لم يصبح حتى الآن حقيقة نهائية قاطعة. وبانتهاء عهد حمورابي انقضت حقبة من السلام والاستقرار في بلاد الرافدين.

الفصل الخامس

تدهور السيادة البابلية
ـ العصر البابلي الوسيط ـ

تصدّع مملكة حمورابي وعصر سيطرة الكاشيين
ـ العصر البابلي الوسيط ـ

من المحتمل أنه لم يفاجأ أهل الرافدين بالتحولات الكبيرة التي حصلت بعد موت حمورابي، سواء ما كان منها داخل المملكة أو على أطرافها. حيث أن هذه التحولات لم تكن الأولى والأخيرة.

فالهلال الخصيب الذي جاورته شعوب قبلية على درجة دنيا من الحضارة، وتهددته في كل لحظة، والذي لم يستطع التغلب على تقاليد الزعامات المحلية ودويلات المدن، كان يُنتظر أن يتعرض للهزات القوية بعد موت كل حاكم كبير. الأمر الذي حصل بعد موت سرجون الأول وتكرر بعد موت حفيده نارام سين، كما رأينا سابقاً، وها هو يحصل بعد موت حمورابي.

فالحثيون الذين كانوا قد استوطنوا آسيا الصغرى وسعوا نفوذهم ومكنوا سيطرتهم على السكان المحليين. وانتشر الحوريون في المناطق الشمالية من الهلال الخصيب. وفيما وراء جبال زاغروس كان الكاشيون يتطورون بسرعة من قبائل بسيطة إلى شعب محارب ولكنهم لم يكونوا خطراً بهذه السرعة على المملكة التي خلفها حمورابي.

ثم بدأت التغيرات الخطيرة تتلاحق:

فظهرت التصدعات في المملكة وصارت نقاط الضعف ملحوظة في زمن ملوك أسرة حمورابي. ودب التململ في مدن الجنوب التي كانت مزدهرة فصارت تشعر

بالاهمال وضعف الملوك. وانتشرت أعمال الشغب والفتن إذ اختفت أليد القوية التي كانت تثبت النظام.

بعد مضي مئة وخمسين سنة على موت حمورابي انهارت مملكته عندما استطاع الحثيون بقيادة ملكهم «مورشلي» الأول احتلال بابل في سنة 1594 ق .م. ونهبوها وأشعلوا فيها النيران وقتلوا الملك وساقوا كثيراً من أهلها إلى أسواق العبيد في آسيا الصغرى.

عند وقوع هذه الحوادث كانت بابل المدينة قد فقدت أبهتها وأهميتها منذ زمن بعيد.

في تلك الأثناء تدافع الكاشيون منحدرين من جبال زاغروس فدخلوا بابل واستولوا على عرشها الخالي، إلا أنهم أعادوا إلى المدينة شيئاً من بهائها السابق. وامتد سلطانهم في بلاد الرافدين أكثر من أربعمائة سنة. أدخل الكاشيون معهم حصان العربة وتلك العربات الحربية السريعة ذات العجلتين، التي قلبت طريقة الحرب رأساً على عقب. وغيروا التقويم البابلي. ونصبوا حجارة الحدود التي تدعى بالأكادية «كودورّو»، وهي بالحقيقة أعمال فنية من الحجارة تعتبر وثائق معبرة بصورة ممتازة عما كان يهبه ملوك الكاشيين من إقطاعات الأراضي. وكانت تحفظ في المعابد بينما النماذج المنحوتة تقليداً لها استخدمت كعلامات لبيان حدود الأراضي.

في المناطق الشمالية امتدت ما بين الحثيين في آسيا الصغرى والكاشيين في بابل مملكة الحوريين المعروفة باسم «ميتاني» ووصلت من أطراف سلسلة زاغروس في الشرق حتى البحر المتوسط في الغرب. وخلال الحروب الكبرى بين الحثيين والمصريين والحوريين في تنازع السيطرة على بلاد الشام لم يحاول الكاشيون أن يلعبوا دوراً يذكر بل وقفوا موقف المتفرج.

في ظل هذه التحولات بقي الطريق الكبير على الفرات مفتوحاً للقوافل باستثناء المقطع الأخير منه الواقع في آسيا الصغرى. واكتفت دولة ميتاني بتحصيل الجمارك ورسوم الطرق في مناطق نفوذها. أما الحثيون فلم يكونوا يريدون رؤية أي تاجر غريب عنهم. ومارسوا التجارة في الشمال بأنفسهم. ومن أراد الوصول من وادي الفرات إلى ساحل المتوسط كان عليه أن يتجه من التّقوّس الكبير للفرات غرباً عبر أراضي البادية الشامية الشاقة وغير الآمنة من هجمات البدو. وعلى كل حال فإن تجار الرافدين المهرة

زقورة «دوركوريجالزو» ـ المسماة اليوم عقرقوف ـ عاصمة ملك الكاشيين كوريجالزو الثاني 1345 - 1324 ق.م

كانوا دائماً في مثل هذه الظروف يعرفون السبيل إلى الإبقاء على التجارة سواء كان بواسطة تجار جزيرة كريت الذين يأتون إلى موانىء الساحل السوري، أو كان عن طريق الاتصال المباشر مع سكان الجبال الشمالية الذين لم يتوقفوا عن استخراج فلزات المعادن وتحضير السبائك ريثما يأتي التجار.

نموذج غريب
في العلاقات الاقتصادية

خلال عصر سيطرة الكاشيين بعد انتهاء مملكة حمورابي حصلت تغيرات كثيرة في الحياة العامة من مختلف الوجوه. والواقع أن المكتشفات من الآثار الكتابية لا تغطي كل فترة هذه السيطرة التي دامت أربعة قرون. إلا أن أهم ما في ذلك مجموعة كبيرة من الألواح الفخارية تقدم فكرة واضحة عن العلاقات الاقتصادية والقانونية والتقاليد ونظم المعيشة التي كانت سائدة في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد في بلاد الرافدين. وقد اكتشفت هذه الألواح خلال حملة الحفريات التي قام بها باحثون أميركان ما بين العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي في موقع يدعى اليوم «يورغان تِپه» إلى الجنوب من مدينة كركوك. وقد تبين أن ركام هذا الموقع يخفي تحته آثار مدينة كانت تدعى «نوزي» وأحياناً «نوزو»، وأنها هي نفسها المدينة المعروفة قديماً باسم «غاسور/جاسور» التي احتلها الحوريون بين القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد وغيروا الإسم إلى «نوزي/نوزو» وأخذوا عن السكان الناطقين بالأكادية لغتهم ونظم حياتهم وجعلوا من المدينة مجتمعاً مزدهراً حافظ على الروابط القديمة البابلية ـ الآشورية والتقاليد الاجتماعية.

ومجموعة الألواح المذكورة هذه كانت عبارة عن أرشيف كامل لعائلة تدعى «تهيتيلاّ» عاشت هناك في تلك الحقبة.

بعض ألواح هذا الأرشيف يبين بدقة ووضوح أنه في ذلك الزمن كانت تجري عمليات البيع والشراء بالدفع على أقساط بعد تنظيم خطة ثابتة ودقيقة للدفع، الأمر الذي يبين لنا أن التعامل الذي نعرفه اليوم ليس من ابتكار عصرنا هذا. ويظهر من هذه الألواح أن النشاطات المالية لتلك المدينة الصغيرة قد تجاوزت حدود أرض الرافدين.

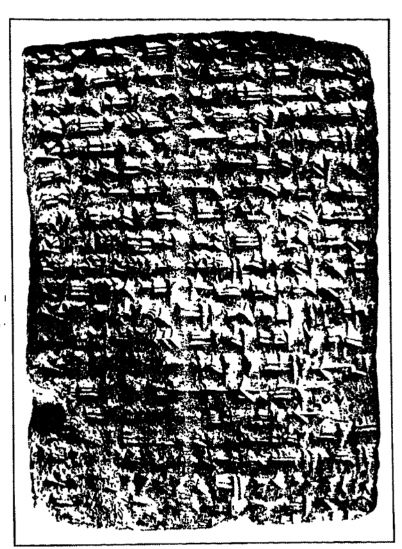
من الثابت أن أفراد هذه العائلة كانوا أثرياء جداً. وعلى الرغم من عدم وجود

معلومات عن نشأتها فإنه يبدو كما لو كان مؤسس هذا البيت التجاري ـ المصرفي قد آل إليه إرث من الأملاك أو ثروة استخدمها ببراعة وخبث ليؤسس لنفسه شبه مستعمرة تجارية. ومن الواضح أنه كان رجل أعمال يستخدم الوسائل كافة التي تنسب الآن لعصر الرأسمالية القديمة. وقد لا يعني هذا أنه كان رجلاً متجاهلاً للقوانين المعمول بها، بل ربما كان يعرف كيف يستغل تلك القوانين بما يخدم مصالحه الخاصة. ومن خلال هذه الألواح يمكن اعتباره رجلاً داهية. كما يتضح أيضاً أن أبناءه وأحفاده كانوا تلامذة نُجَبَاء له. غير أنهم في وقت لاحق لم يتمكنوا من وقف التراجع والتبدد في أملاكهم بعدما صارت تتكرر هجمات الخصوم من الشمال لتسوق معها قطعان الماشية وتنهب المدينة التي انتهى استقلالها وصار كل ما لديها من نفوذ وسلطة وغنى يتقلص بعد كل هجمة إلى أن انهارت بعد هجوم كبير وشبت فيها النيران.

أما من كان أولئك المهاجمون... فهو أمر غير معروف، إذ أن الألواح نفسها لا تذكر شيئاً عن هويتهم.

وأما عن سير الأمور في «نوزو» حتى ما قبل خرابها فتقدم الألواح معلومات واضحة. فملكية الأرض كانت تعتبر بمثابة رأسمال مُسْتَثْمَر ومضمون. ولذلك نظرت عائلة «تهيبتيلا» إلى تنمية هذه الملكية على أنها واجب أساسي، الأمر الذي نجده أيضاً عند جماعات غنية أخرى في «نوزو». وعلى كل حال كان لا بد لهذه العائلة من اتباع طرق ملتوية لتحقيق غايتها، لأن القانون لم يكن يسمح للفلاحين بالتخلي عن ملكية الأرض أو بيعها أو التصرف فيها بما شابه ذلك، ربما حرصاً على زراعات الفلاحين وبالتالي معيشتهم وتأمين دفعهم للضرائب. فتمكنت هذه العائلة وأمثالها من إزاحة هذه العقبة وتدبر الأمر بأساليب ذكية.

فمنذ زمن طويل جداً كان أمراً عادياً ومألوفاً في بابل وآشور أن يريح الإنسان نفسه من هموم الشيخوخة والعجز عن طريق التبنّي. فعندما يصبح زوجان بلا أولاد في مرحلة من العمر يتعذر معها العمل في الحقل يلجآن إلى تبني رجل شاب ويضعان تحت تصرفه أملاكهما مقابل التزامه برعايتهما وتأمين كل احتياجهما طيلة حياتهما. وهو ما يمكن أن ندعوه: تقاعداً حياتياً. وكانت نسبة هذا الالتزام تتوقف على قيمة الأملاك. فإن احترم هذا الشاب المتبنى كامل تعهداته وقام بتنفيذها حتى موت الأبوين آلت إليه الممتلكات بالوراثة، أي بصورة قانونية ودون أية قيود. وهذا ما فعله أفراد عائلة «تهيبتيلا». فلم يكونوا إذاً بحاجة لتجاوز القانون الذي يمنع بيع الأرض، بل التفّوا عليه بذكاء مستفيدين



أحد الألواح المستخرجة من موقع «نوزي». يحتوي على عقد تبنّي لأحد أفراد العائلة المسماة «تهيبتيلاّ» من عصر الكاشيين (القرن 15 ق.م).

منه ومن تقاليد التبني بآنٍ. وعمدوا إلى البحث هنا وهناك عمن يتبناهم من الفلاحين العجزة، وما أكثرهم!... لتؤول إليهم في النهاية ملكية قسم من الميراث ـ إذا كان للفلاح أولاد حقيقيون منه ـ أو الإرث بكامله ـ إذا كان الفلاح بلا عقب ـ وهو ما كانوا يفضلونه طبعاً. وكان الأحب من هذا وذاك بالنسبة إليهم إذا فضل الفلاح ـ أو الزوجان ـ الحصول على تعويض مالي بدلاً من الإعالة. وفي هذه الحال كان التعويض يسجل في العقد ولكن يستخدمون له تسمية «هدية شيخوخة».

ويبدو أنهم لاقوا نجاحاً بهذا الأسلوب. فإذا أردنا الاعتماد على عدد الألواح الفخارية التي دونت فيها وقائع التبني هذه، للحكم من خلالها، لوجدنا أن اثنين أو ثلاثة من أفراد هذه العائلة كانوا أبناء بالتبني لمئاتٍ عدة من الفلاحين الفقراء، أي أنهم

أصبحوا بهذا الأسلوب الخبيث وباستخدام القانون نفسه إقطاعيين بكل معنى الكلمة.

ولكن من الملاحظ في الوقت نفسه أن الأمور لم تكن دائماً وأبداً بهذه البساطة، حيث وُجدت حالات من الخلاف والمنازعات الشديدة والخصومات القضائية أيضاً، عندما يحاول ذلك الإبن - المتبنى - الاحتيال على الاتفاق المكتوب أو العبث به معتقداً أن بإمكانه التملص منه. وتوجد بالفعل ألواح قضائية تقدم لنا فكرة عن تصرفات تنم عن المكر والخداع. وهذا الأسلوب كما يبدو تمت ممارسته على نطاق واسع. فهناك ألواح تتكرر فيها الإشارة إلى أن الفرد من هذه العائلة كان إبناً متبنى لخمسة أو ستة من الفلاحين الفقراء في آن واحد.

كما تبين بعض الألواح أن مِن هؤلاء الفلاحين مَن كان يضطر لمواصلة العمل في الحقل لإنتاج قوته بعد أن تنازل بالطبع عن كل حق له في الملكية بموجب العقد. وهذا يعني أن حالات كهذه أدت بالتدريج إلى وجود أعمال السخرة في الوقت الذي كان القانون يحاول منعها.

لم يكن من الممكن إلغاء التبني. واستناداً لذلك فإن حالة الملكية بالنسبة لهذا الإبن - المتبنى - تعتبر مضمونة وشرعية. وهذا يوضح لنا لماذا أصبح هذا الإجراء الخبيث والمحمي قانونياً طريقة مفضلة لتوسيع الملكية عند جماعة مثل «تهيبتيلاّ» الذين كانوا ملاكي أراضٍ وتجاراً كباراً ومصرفيين في آن.

كان بعض الفلاحين الذين لا يطمئنون إلى طريقة التبني يفضلون عند الضرورة اقتراض أموال حتى الموسم القادم مقابل رهن حقولهم. إلا أنه لم يكن رهناً بالمعنى المعروف لدينا اليوم بل يتم التعامل بهذا الشكل:

لقاء المال المعطى كسلفة يملّك الفلاح الأرض لدائنه على أن يسترجع الملكية بعد انقضاء مهلة متفق عليها. ولا يدفع فوائد عن القرض، بل يعمل في الأرض خلال هذه المهلة ويزرعها ويقدم للدائن حصة معلومة من المحاصيل. فإذا لم يستطع تسديد القرض بانقضاء المهلة يبقى أمامه إما أن يأخذ قرضاً جديداً أعلى من السابق أو يقبل كبديل لأرضه قطعة أرض أخرى سيئة أو يقبل بكوخ بسيط بدلاً من بيته. وإن صادف ووقع الفلاح في مرضٍ ولم توجد عنده مواسم وليس لديه شيء آخر ليرهنه فإنه يسلم نفسه أو أولاده لدائنه أو يبيعه ابنته ليستطيع هذا تزويجها إلى من يريد. والألواح الفخارية ترد فيها عبارات صريحة بهذا الصدد إذ جاء في بعضها:

«. . .يستطيع الدائن أن يأخذ الإبنة لنفسه أو يعطيها لأحد أبنائه، أو حتى لأحد عبيده، فإن مات الرجل الأول الذي تزوجها يمكن أن تعطى لثانٍ. . . وثالث. . . و . . خامس أيضاً، إذ لا يسمح لها بتاتاً أن تترك بيت مشتريها. . .»

هكذا كان القانون في تلك الحقبة، ونص العقود كان يتمسك بحرفية القانون. ولكن على الرغم من أن ثمن البيع كان متدنياً فقد قرر البعض أنه لا يجوز بتاتاً إعطاء المرأة لعبد، لأن زوجة العبد تصبح أيضاً عبدة وكذلك كل ذريتها.

إنه من الخطأ أن نستنتج من هذه الأمور أن منزلة المرأة كانت وضيعة. فبالواقع كانت لها نفس حقوق المواطَنة التي للرجل. وكانت لديها القدرة على القيام بالأعمال دون قيود. والعقود التي تنظمها معترف بها. ولتوقيعها صفة الإلزام القانوني في كل المجالات.

ومن الجدير ذكره عن عائلة «تهيبتيلاّ» بهذا الصدد أن زوجة أحد أفرادها كانت إبنة - بالتبني - لعدد كبير من الفلاحين وأن تجارة التبني هذه كانت تجيرها لحسابها الخاص على نطاق واسع وأنه بشطبة ريشة منها كان يتلقاها أكثر من عشرة آباء في آن واحد.

لقد حرصت النساء على تحديد حقوقها بالتفصيل في عقود الزواج. إذ يرد في الألواح أنه لم يكن للزوج الحق في أن يتزوج امرأة ثانية في حال عدم وجود ذرية له، ويجب عليه في هذه الحال أن يكتفي بخادمة زوجته ويقبل بأولادها، أو يربي أولاد عبدته كما لو كانوا أولاد زوجته الشرعيين.

إن هذه الألواح المكتشفة في أرشيف عائلة «تهيبتيلاّ» لَتبدو من خلال استعراض معلوماتها وكأنها رواية اجتماعية مشوقة، وذلك بكل ما فيها من لوائح حسابات ومراسلات واعتمادات ومدونات للمخزونات من البضائع وحساباتها وخلاصات الحسابات السنوية التي ترد في ألواح كثيرة. كل ذلك يروي لنا قصة بيت مصرفي وتجاري وإقطاعي بكل أبعاده، وذلك قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة بكثير.

تحولات أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وعصر الحديد

كان أواخر ملوك الكاشيين على درجة كبيرة من الضعف. ففي سنة 1174 قبل الميلاد اجتاح العيلاميون الأراضي البابلية واحتلوا مدينة بابل نفسها. واستطاع ملك الكاشيين أن يصمد ثلاث سنوات أخرى في عاصمته «دور كوريجالزو» التي كان قد سبق تأسيسها منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد في زمن حكم الملك «كوريجالزو» الأول وجعلها مقراً للحكم بدلاً من بابل[13]. ولكن بعد ذلك كانت نهاية سيطرة الكاشيين في أرض الرافدين.

وبدخول العيلاميين تعرض البابليون لأقسى مذلّة عرفوها في تاريخهم. فحتى تمثال الإله مردوك حمله العيلاميون إلى عاصمتهم سوسه كغنيمة.

في تلك الأثناء كانت مملكة الحثيين أيضاً قد زالت.

أما بلاد الشام فشهدت استقرار الفلسطينيين في المناطق الكنعانية الجنوبية منذ زمن بعيد، وانتشار الآراميين في أكثر البقاع السورية حتى المناطق الآشورية في شمال الرافدين.

ثم أن الجماعات الهندو ـ أوربية أدخلت الحديد إلى غربي آسيا مثلما كان أسلافها قد أدخلوا الحصان. وبهذا انتهى عصر البرونز في بلاد الرافدين وبقية مناطق آسيا الغربية.

تبعت هذه الأحداث حقبة من الفوضى لا تزال المعلومات التفصيلية عنها شبه معدومة.

وكانت السيادة الآشورية تمتد بين الآونة والأخرى لتشمل المناطق البابلية، والآراميون والكلدانيون في تحركات مستمرة.

كل هذا ولم تتعرض الحركة التجارية لأضرار فعلية. وبتحسن وسائط النقل تقلص الزمن الذي تستغرقه القوافل. وصارت العربة ذات العجلتين التي تجرها الخيول بمثابة

---

(13) يدعى موقعها حالياً «عقرقوف» وتبعد بضعة كيلومترات إلى الغرب من بغداد.
Barthel Hrouda, Vorderasien I, Mesopotamien, Babylonien, Iran und Anatolien. P.185 (Muenchen 1971).

سيارة العصر القديم لمن استطاع اقتناءها كالشخصيات الكبيرة والتجار الأغنياء وأصحاب المراتب الرسمية العالية. وبينما كانت القافلة حوالى سنة 1800 قبل الميلاد تحتاج في رحلتها من الفرات عبر البادية إلى «قطْنا» في أواسط بلاد الشام إلى أكثر من عشرة أيام صارت تقطع هذه المسافة بما لا يبلغ الثمانية أيام، أو بما لا يتجاوز السبعة أيام إذا كان الطقس مناسباً ولم يعترضها قطاع الطرق.

واتسع بذلك مدى التجارة. ففي المدن الساحلية الكنعانية كان يلتقي أصحاب التجارات الخارجية ووكلاؤهم والبحارة والسماسرة ومتعهدو النقليات من جزيرة قبرص وكريت ومصر ومن أواسط بلاد الشام ومنطقة آشور وبابل، حيث تجري عمليات البيع والشراء واستلام وتسليم الطلبات والاطلاع على السلع الجديدة والمبتكرات الحديثة بعد أن أصبح الحديد معروفاً، ذلك المعدن الذي أعطى اسمه لحقبة حضارية جديدة ـ عصر الحديد ـ. وخلال ذلك الزمن كان الكتّاب والموظفون والمحاسبون في شركات التجارة البابلية قد سهلوا طريقة الحساب وأوجدوا نظاماً يمكنهم بدقة نسبية من حل مشاكل الحسابات. إلا أنه ظل غير كامل إذ كانت تنقصه قيمة الصفر التي توصلوا إلى استخدامها في أواخر الألف الأول قبل الميلاد. وكان الأساس في هذا النظام هو العدد 60 الذي يمكن تقسيمه إلى عناصر كثيرة. وقد توصلوا في حساباتهم بشكل عام إلى نتائج مدهشة.

في تلك الحقبة نفسها توصل الإنسان في الهلال الخصيب إلى تسهيل طريقة الكتابة باستخدام الأبجدية. وبالطبع كان التجار في طليعة الذين أدركوا أهمية هذا التجديد ورحبوا به وحققوا منه فوائد جمة. وسواء كانت مُساهمتهم في نشر هذا النظام الجديد في الكتابة والحسابات لخدمة المصلحة الاقتصادية بالدرجة الأولى أو لمصلحة إنسانية عامة، فإن هذا لا يغير شيئاً من نتائجه الكبيرة التي عمت البشرية كلها. والتجار هم الذين أدركوا قبل غيرهم المزايا التي يقدمها الحديد، هذا المعدن الجديد العجيب. ومن الطبيعي أن التطلع لتجارته وأرباحه كان له الدور الأساسي في سرعة نشرهم له.

أما النحاس والقصدير المستخدمان في تحضير البرونز فلم تهبط قيمتهما إلا فيما بعد. إذ أن مناطق وجودهما ليست كثيرة، فضلاً عن كونها أراضٍ جبلية يصعب التنقل فيها، بينما توجد خامات الحديد في أماكن لا تحصى وبكميات كبيرة.

وكان استخدام الحديد صعباً قبل ابتكار المنفاخ الذي بدونه لم يكن ممكناً الحصول على تلك الدرجة العالية من الحرارة لتليين المعدن. والحديد المحمى بهذه

الطريقة لا يمكن تصنيعه بسكبه مثل البرونز، وإنما فقط بضربه بالمطرقة في عمل متعب. أما كيف ومتى وأين بدأ إنتاج الحديد فأمر غير معروف. ومن المحتمل أن الحثيين هم أول شعب كان يتزود بالحديد وبكميات قليلة لا يعرف مصدرها.

وتوجد رسالة موجهة من أحد ملوك الحثيين إلى فرعون مصر يعتذر فيها الحثي لعدم تمكنه من إرسال السيوف الحديدية المطلوبة منه في ذلك الوقت حيث لا يوجد عنده الحديد الجيد. ولكن هذا لا يعني بالضرورة إن كان الحثيون أنفسهم قد أنتجوا الحديد أو لا. . . وربما كانوا يستوردونه من أرمينيا المجاورة لهم حيث لا يستبعد أن تكون إحدى القبائل الجبلية هناك هي التي اكتشفت طريقة عملية لاستخراجه وصنعه. وهذا مجرد احتمال يتوقعه البعض فقط من دون أدلة.

وعلى كل حال فمن الطبيعي والمؤكد أن يكون انتشار هذه المعرفة في الاستخراج والتصنيع قد تطلب وقتاً طويلاً. علماً أن الخبرة الطويلة التي اكتسبها الإنسان في التعامل مع النحاس لا تفيد شيئاً في صناعة الحديد. فالحرفيّ لا يكفيه أن يتعلم تطريق المعدن بعد إخراجه أحمر متوهجاً من الموقد، بل لا بد له من اكتساب المهارة في تشكيله وتكييفه حسب المطلوب.

من المعتقد أن البدايات الأولى لظهور الأسلحة الحديدية كانت حوالى 1500 قبل الميلاد. ولكن الواقع هو أن المعدن الجديد لم يصبح معروفاً تماماً في العالم القديم ومنتشراً في الصناعة إلا بعد انقضاء خمسة قرون أخرى تقريباً. فحوالى سنة 1000 قبل الميلاد وجد دون شك من المعدات وأدوات العمل الحديدية ما هو أكثر من الأسلحة. بينما بقيت المصنوعات الحديدية بالنسبة لدول أوربا الشمالية حتى بدايات العصر المسيحي (القرن الأول الميلادي) أمراً نادراً.

ومن المعروف عن حكام دولة ميتاني (الحوريين) الذين استخدموا عمال الحديد التابعين لورشات الدولة كعناصر عسكرية في الوقت نفسه أنهم استطاعوا لفترة معينة المحافظة على سرّ الإنتاج والتصنيع وبالتالي احتكار التجارة بالسلع الحديدية. ولكن ذلك لم يدم طويلاً ولم يتمكنوا من وقف انتشاره. وبهذا الانتشار كان لا بد أن تهبط أسعار النحاس. ففي زمن حمورابي كان الإنسان يحصل مقابل شاقل واحد من الفضة على 120 شاقلاً من النحاس. وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد أصبح السعر 180 شاقلاً من النحاس. وفي تلك الفترة كان يمكن تبديل شاقل واحد من الفضة بـ 225 شاقلاً من الحديد الأمر الذي يشير إلى توفره بكثرة وانتشاره الكبير.

ومن المحتمل أن محلات تجارة النحاس التي لم تتحول بسرعة إلى الإتجار بالحديد قد لاقت جموداً، على الرغم من أن تجارة الحديد كما يبدو كانت أقل مردوداً لأن مؤسساته انتشرت في كل مكان. ولأن تصنيعه محلياً جعل الحرفي مرتبطاً بتأمين المادة الخام الضرورية بنفقات كبيرة.

والانتشار الذي حققته الأدوات الحديدية كان كاسحاً. فكل فلاح لا بد له من سكة محراث وعدة أدوات عمل أخرى من هذا المعدن الذي تميز عن البرونز بقوة الاحتمال ورخص الأسعار.

ثم أن الجيوش التي كانت فيما مضى بأسلحتها البرونزية قوةً لا تُهزم أصبح من الممكن قتالها والتغلب عليها بالأسلحة الحديدية. ولم يكن ذلك إلا بداية عصر الحديد.

الفصل السادس

شمال الرافدين
والعصر الآشوري القديم

ملامح العصر الآشوري القديم

ما يميّز دراسة الفترة القديمة للدولة الآشورية أنها لاتزال تفتقر إلى المصادر الأصلية التي تساعد في تكوين فكرة عامة عن الزمن الذي نشأت فيه هذه الدولة والظروف التي ساعدت على ذلك. فالوضوح الذي رأيناه سابقاً في الإطار التاريخي العام للعصر السومري ثم العصر الأكادي فالعصر السومري الجديد وبعده العصر البابلي القديم ما زلنا نفتقده بالنسبة لآشور العصر القديم.

رأينا في الفقرات السابقة انتهاء العصر السومري الجديد وانتقال مركز الثقل في بلاد الرافدين إلى بابل حيث كانت بداية العصر البابلي القديم. وفي تلك الفترة نفسها أخذت تتشكل ملامح زعامة أخرى في الشمال كانت نواة للقوة الآشورية التي بقيت على مدى قرون عدة في تنازع مع بابل على مركز القوة في بلاد الرافدين وفي الهلال الخصيب ككل، وذلك بعد انتهاء سيطرة الكاشيين على بابل وانهيار مملكة الحثيين في شمال بلاد الشام وآسيا الصغرى. وأما مراحل هذا النزاع مع بابل فنبينها في فقرة لاحقة.

تكشفت معالم القوة الآشورية خلال الفترة التي حكم فيها الملك «شمشي حدد» الأول بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد وعاصر حمورابي البابلي. وعلى الرغم من أن هذا الملك وصل في حملاته إلى البحر المتوسط واستطاع السيطرة على ماري لفترة معينة فيبدو أن آشور لم يكن بإمكانها في تلك الحقبة السيطرة على كامل أرض الرافدين. إلا أنها بالمقابل استطاعت تكوين ما يشبه

الأمبراطورية التجارية بإنشاء عدد كبير من المستوطنات التجارية خارج نطاق الهلال الخصيب (كما سنرى فيما يلي) التي أصبحت العامل الأساسي في حيوية آشور وقوتها في تلك الفترة، الأمر الذي يجعل شبهاً بينها وبين الأمبراطورية التجارية للكنعانيين وخصوصاً القرطاجيين الذين كانت مراكزهم ومستوطناتهم التجارية خارج الوطن الأم هي المحور الأساسي في حياتهم الاقتصادية وقوتهم السياسية عموماً.

غير معروف على وجه الدقة متى نشأت هذه المراكز التجارية. إلا أن النشاط التجاري الذي كان قد ابتدأ بالباعة المتجولين يعود إلى زمن موغل في القدم. فسكان الرافدين عندما تزايدت متطلباتهم بتطور الحياة أخذوا يشعرون بالحاجة الشديدة للمواد التي تفتقر إليها أرضهم كالحجارة والمعادن والأخشاب. وحصلوا عليها منذ أزمنة قديمة عن طريق مبادلتها بما تنتجه أرضهم وحرفهم من السلع. وكان يقوم بذلك أولئك الباعة من ذوي الإقدام الذين يتوغلون في مناطق بعيدة مجهولة، حيث أصبحت التجارة الخارجية ظاهرة حتمية لا غنى عنها في الحياة الاجتماعية وتطور المراكز الحضارية من النواحي كافة.

ربما في الزمن نفسه الذي ظهر فيه الباعة المتجولون، أو بعده بقليل، عمد بعضهم إلى اتخاذ أماكن يستقرون فيها ببضاعتهم، الأمر الذي شكّل الخطوة الأولى في نشوء المراكز التجارية. وبحكم توسع المعاملات التجارية وازدياد الاستهلاك والكثافة السكانية فقد تطور هؤلاء الباعة إلى تجار كبار كانوا في الوقت نفسه أعضاء في مجموعة مهنية واسعة النفوذ. وما من شك في أهميتهم بالنسبة لبلدهم، الأمر الذي كانوا يدركونه بأنفسهم. واستطاعوا بعدها أن يطوروا هذه المراكز إلى مستوطنات حقيقية بكل معنى الكلمة كما سنرى في فقرة لاحقة[14].

ومما لا شك فيه أيضاً أن الضرورة وحب الاستطلاع في آن قد دفعا بإنسان بلاد

---

(14) يمكن القول إن عوامل نشوء وتطور هذه المراكز (المستوطنات) التجارية القارّية شبيهة بعوامل نشوء المستوطنات التجارية الكنعانية على سواحل المتوسط الغربي والسواحل الأطلسية والأرض الأفريقية.

ارجع إلى كتاب: الفينيقيون وأميركا ـ فصول شغلت العالم ـ د. عبدالله الحلو. ص 23 طبعة بيروت 1991.

وانظر بهذا الصدد: Franz Karl Movers, Die Phoenizier, vol. II, 2, p.26-27 (Berlin 1850-1856).

الرافدين إلى التوغل في المرتفعات الجبلية الشمالية منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى قبل ذلك. فهناك مدونة على أحد الألواح الفخارية لحاكم أوروك «لوغال زاغيزي» في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد يقول فيها: إن الإله إنليل قد فتح أمامه الطرق من البحر الأسفل إلى البحر الأعلى (أي من الخليج إلى البحر المتوسط. وسرجون الأكادي الكبير مؤسس أول امبراطورية عالمية في غربي آسيا قام بحملة عسكرية إلى آسيا الصغرى لأن تجاراً أكاديين يقطنون هناك في منطقة تدعى «بوروشخاندا» كانوا قد التمسوا مساعدته. ففي رسالة على لوح فخاري من ممثلهم «نور داجان» جاء ما معناه:

« . . نحن لسنا محاربين. . . بل نعيش كتجار دون حماية في بلد غريب. . . »[15].

وتزايد الاضطرار لافتتاح الشمال الغنيّ بالمعادن عندما بدأت المصنوعات النحاسية تحل محل الأدوات والأسلحة الحجرية على نطاق واسع.

النحاس
دعامة التجارة الآشورية

كان أهل مدن الرافدين منذ حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد قد اكتشفوا أن إضافة القصدير بنسبة 10 إلى 12 بالمئة إلى النحاس ينتج عنها معدن جديد ذو مزايا أفضل من النحاس الخالص، وهو البرونز. إلا أنه انقضى أكثر من قرنين على ذلك قبل

(15) تشير كل الدلائل إلى أن منطقة «بوروشخاندا» المذكورة هنا قد وقعت ما بين سلسلة طوروس وبحيرة الملح أي في قلب الأناضول. وهذا يعني البقعة الجغرافية نفسها التي انتشرت فيها مستوطنات العصر الآشوري القديم فيما بعد. ولكن موقعها بالضبط لم يتم التعرف إليه بصورة أكيدة حتى الآن.

انظر بهذا الصدد: Fischer Weltgeschichte, vol.2, p.103; vol.3, p.104 (Frankfurt am Main 1965/1966).

Barthel Hrouda, Vorderasien I, Mesopotamien, Babylonien, Iran und Anatolien. p.137 (Muenchen 1971).

قارن أيضاً الاختلاف في كتابة الاسم: «بوروشختّوم» و «بوروشخانتا» عند:

Wolfram von Soden, Einfuehrung in die Altorientalistik, p.14 (Darmstadt 1985).

أن يجد هذا الخليط انتشاراً واسعاً ويصبح مستخدماً بصورة عامة. وهذا حصل بعدما ثبت للإنسان أن الأدوات والأسلحة المصنوعة من هذا الخليط هي أصلب وأكثر احتمالاً من تلك التي كانت تصنع من النحاس الصرف.

وكانت محاولتهم في التكتم على سر هذا الاكتشاف دون جدوى، كما كان الحال قبل بضعة قرون عند اكتشاف طريقة استخراج النحاس وإمكانات صهره وتصنيعه. والنحاس بقي زمناً طويلاً يحتل المكانة الرئيسية بين السلع التجارية كافة.

لا يستبعد أن يكون الإنسان في البداية قد ظن الكتل النحاسية الخام نوعاً متميزاً من الحجر لا يمكنه فقط كسره وشحذه كالصوان، بل وأيضاً حنيه وتغيير شكله بالطُرْق وتحويله إلى صفائح وتقطيعه. ثم اكتشف فيما بعد أن هذه المادة الغريبة يمكن إحماؤها على النار وصهرها، وأنها تأخذ بعد الصهر شكل الوعاء الذي سكبت فيه، وتحافظ على هذا الشكل بعد التبريد، وتعود إلى صلابتها الأولى، كما يمكن شحذها أيضاً بعد ذلك.

لا نعلم كم من الزمن انقضى قبل أن يبلغ الإنسان بذلك مرحلة متطورة. ولكن في طريقه إلى هذه المرحلة تم اكتشاف الموقد ثم المنفاخ الذي دفع بالعمل إلى مرحلة أسهل وأكثر إنتاجاً.

ولا شك أن الحاجة للنحاس، هذه المادة الخام الجديدة الغريبة، قد وصلت بسرعة إلى مستوى مدهش، وأن أسعاره تبعاً لذلك قد تصاعدت بسرعة مشابهة.

والبلد الوحيد المنتج لخامات النحاس كان آسيا الصغرى حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد عندما اكتشفت أماكن غنية به في جزيرة قبرص. والسباق في تجارة النحاس ربحه الآشوريون، إذ كانت لهم منذ زمن طويل مستوطناتهم في آسيا الصغرى (كما سنرى في فقرة لاحقة)، وكانت لديهم عدا عن ذلك مادة للتبادل لم تتوفر عند غيرهم، ألا وهي القصدير الذي لا يمكن تحضير البرونز من دونه. ولكن غير معروف من أين كانوا يحصلون عليه.

ومن المحتمل أنهم كانوا بأنفسهم يستخرجونه من البلدان الجبلية المجاورة لهم، أو أن جماعات غيرهم كانت تستخرجه من جبال زاغروس الفارسية أو جبال أذربيجان القريبة منها، وأنهم ربما كانوا يمولون عمليات استخراجه، الأمر الذي وجد شبيه له في آسيا الصغرى. فالذين كانوا يشترون النحاس المستخرج دون مشاركة مباشرة في عمليات استخراجه المحفوفة بالأخطار والكثيرة الأرباح، هم إما شركاء يساهمون بأموالهم أو

مصرفيون يقدمون السلف مكتفين بفائدة ثابتة.

ومركز التفريغ والشحن للمادتين، ولكن بالدرجة الأولى القصدير، كان في آشور العاصمة القديمة للامبراطورية. فهناك رسالة من فترة حكم شمشي حدد الأول، وهو أموري تولى السلطة بعد زوال الأسرة الأولى في الدولة الآشورية القديمة على أعالي دجلة، ومارس الحكم من عاصمته آشور بين 1813 و 1780 قبل الميلاد. وفي نص الرسالة تأكيد لأحد المشترين أن بإمكانه أن يطلب في آشور أي كمية من القصدير يرغب فيها. وكانت القوافل التجارية تحضره بانتظام على طريق مجهد من المناطق الجبلية في شرقي بحيرة أورميا.

خلال ذلك الزمن الذي نحن بصدده كانت التجارة بين بلاد الرافدين وآسيا الصغرى قد انتظمت منذ وقت بعيد، وكانت مستوطنات التجار الآشوريين في أسيا الصغرى قد تخطّت فترة ازدهارها الأولى.

طبيعة وحجم النشاط التجاري

من الواضح أنه قد وجد في آشور المدينة القديمة عدد كبير من المؤسسات التجارية. وفي الغالب كانت شركات عائلات أكثر منها مشاريع أفراد. ويديرها شيخ العشيرة[16]. وكانوا يرسلون أمهر أقربائهم وموظفين قادرين إلى مختلف المناطق لإقامة الارتباطات وإنجاز الصفقات التجارية وتأسيس المستوطنات أو إدارتها. وقد وردت في نصوص الألواح الفخارية أسماء بيوت شهيرة، من الممكن اعتبارها بمثابة مؤسسات أو شركات بمفهومنا الحالي، خصوصاً وأن بعضها استمر عبر أجيال عديدة متوالية وبصورة ممتازة. منها على سبيل الذكر لا الحصر: «بوشو ...كو» - «بوسوتّا» - «طاب ...أخوم» - «لوزينا» - «كيكي». وكانوا في البداية وقبل كل شيء أغنياء مارسوا التجارة وتعاملوا بالذهب وكانوا مواطنين مرموقين في مدينتهم وأعضاء طائفة مهنية هامة.

(16) رأينا سابقاً في فقرة - نموذج غريب في العلاقات الاقتصادية - مثال تلك العائلة المسماة «تهيتيلا» التي عاشت في نوزي/ نوزو خلال عصر السيطرة الكاشية على بابل وكانت بمثابة شركة عائلية على مدى أجيال عدة. كما سنرى فيما بعد في فقرة - بابل في أوج القوة التجارية - مثالاً عن العائلة المسماة «موراشو» في مدينة نيبور على الفرات الأوسط. والواقع أن وجود شركات اقتصادية بيد عائلات تتوارثها جيلاً عن جيل هو أمر انتشر منذ الألف الثاني قبل الميلاد وما زلنا نرى نماذج كثيرة له في أيامنا هذه.

وتمسكوا ببقية رمزية من ذلك الزمن المنصرم الذي كانت فيه التجارة وقفاً على المعابد ثم صارت محصورة بالدولة. فكانت لديهم التزامات عامة تجاه الحكومة أو تجاه الأمير الذي ينجزون له الصفقات التجارية وتُجرى حساباتها بصورة مستقلة وتدفع لهم تعويضات بسيطة. وهكذا فمن المحتمل أنهم استفادوا من كونهم أمناء على مخزون فائض ومكدس من البضائع مصدره الضرائب والرسوم. لكن هؤلاء كانوا يعتبرون بشكل أساسي أصحاب مشاريع خاصة يعملون لمصالحهم الفردية وتحت رقابة رسمية، أي أنه وجد في ذلك الزمن ما يسمى في عصرنا هذا بالاقتصاد الفردي الموجه.

إن العدد الكبير للمستوطنات التجارية الآشورية في آسيا الصغرى قد يبعث على الظن عند البعض أن «التجارة تذهب حيث يرفرف العلم»، أي أن هذه المستوطنات كانت نتيجة لحملات عسكرية آشورية واحتلالات ولكن هذا ليس هو الواقع(17)، حيث أن إقامة العلاقات التجارية تستند في أساسها إلى عقود بين ممثلين عن الدولة الآشورية وبين أمراء محليين في آسيا الصغرى. وكانت تتضمن دائماً اتفاقات حول حق إقامة المستوطنات و «حق الدولة الأكثر رعاية». والواقع أنه لم توجد أية إشارة في أي من المصادر إلى وجود حاميات عسكرية آشورية في الأناضول بذلك الزمن. والآشوريون

---

(17) ما هو معروف عن المدن الفينيقية وخصوصاً منها صور وقرطاجة (امبراطورية البحار) أنها أنشأت عدداً من المستوطنات والمراكز التجارية لم تحققه أية دولة أخرى سواء في العصور القديمة أو الحديثة. وأن مستوطناتها ومراكزها انتشرت على كل سواحل البحر المتوسط والسواحل الأطلسية وفي الأرض الأسبانية والأفريقية. وكان تأسيس هذه المستوطنات نشاطاً تجارياً بحتاً. ولم يعرف عن المدن الفينيقية أنها جهزت حملات عسكرية لينتج عنها إنشاء مستوطنات في أي مكان. وأبرز مثال على ذلك رحلة حنون القرطاجي الشهيرة حول السواحل الإفريقية وإقامة المراكز هناك. وأغلب المعلومات في هذا الصدد جاءت في كتابات أحد أكبر الكتاب الموثوقين في العصر القديم وهو الكاتب اليوناني «إراتوستنس Eratosthenes» الذي يستشهد بأقواله «سترابون Strabon» نفسه. وكانت هذه المستوطنات قد نشأت بشكل مراكز تجارية وتطور بعضها إلى مدن حقيقية.

انظر لذلك:

Franz Karl Movers, Die Phoenizier, vol. II, 2, p.10-11; 26-27 (Berlin 1850-1856).

انظر أيضاً ما جاء في كتاب «الفينيقيون وأميركا ـ فصول شغلت العالم» د. عبدالله الحلو. ص 22ـ 23 ثم 151ـ 163. (طبعة بيروت 1991).

والواقع أنه على الرغم من الفارق الكبير بين المستوطنات الآشورية التي انحصرت في الأناضول بآسيا الصغرى وبين المستوطنات الفينيقية التي انتشرت بهذا الشكل الذي رأيناه، فقد كان لها كلها الدور الأساسي في اقتصاد الوطن الأم.

كانت عندهم رغبة أساسية في أن تُفتَتَح لهم آسيا الصغرى كبلاد مورّدة للمعادن وكسوق لتصريف منتجاتهم. وقد تم لهم بالفعل ما لم يتم لدولة أخرى من الدول التي قامت في الهلال الخصيب. بمعنى أنهم استطاعوا دون حرب أن يؤسسوا شبكة واسعة من المستوطنات التجارية في بلاد غريبة. ومن الواضح أن الآشوريين قد شابهوا أهل المدن الفينيقية في المهارة التجارية والمثابرة والاجتهاد والإقدام والقدرة على التكيف مع كل الظروف. ولولا ذلك لما كتب النجاح لتجارتهم. أما الحكومة الآشورية فقدمت ما عليها: كحماية الطرق التجارية، وتأمين إيصال الأخبار بصورة سريعة ومضمونة، وأجهزة خدمات إدارية عامة لتأمين الارتباط الدائم المنتظم بين المستوطنات بعضها مع البعض الآخر من جهة وبينها وبين العاصمة آشور من جهة أخرى. وهذا كله تيسر إنجازه من دون أية عمليات عسكرية.

والعدد الأكبر من المستوطنات الآشورية انتشر في كبدوكيا ـ أي النواحي الشرقية من آسيا الصغرى ـ. وثبت أن نجاح واستمرار التجارة فيها كان سببه إلى حدٍ كبير هو التنظيم الممتاز والتوزيع الدقيق للأعمال.

والمؤسسات الكبيرة التي كان مركزها في مدينة آشور عمدت إلى إمداد التجار والباعة المتجولين بالمال والبضائع للقيام بالأعمال التجارية لمصلحتها. وغالباً ما تكتل بعض أصحاب المشاريع التجارية في جمعية للقيام بمشاريع كبيرة تتجاوز الامكانات الفردية لكل منهم، أو تبدو المجازفة فيها كبيرة بالنسبة لمؤسسة فردية. وعندها يتقاسمون الربح أو الخسارة كل بنسبة مساهمته. وبعض رجال الأعمال الأغنياء ممن لم يمارسوا الاستيراد والتصدير لحسابهم الخاص فتحوا مراكز مصرفية ومنحوا القروض المالية لمن يثقون بهم، وكانت في العادة ذهباً أو فضة. وبنهاية المهلة المتفق عليها يتوجب على المدين أن يعيد مبلغاً يتناسب مع الزمن المنصرم الذي قد يكون أياماً أو أشهراً أو سنوات. وما فاض عن هذا المبلغ اقتسمه الدائن مع المدين الذي يحق له الثلث على الأقل. أي أن الفائض عملياً هو الربح الناتج عن التجارة التي قام بها المدين.

نرى مما تقدم أنه قد وجدت كل أنواع الاتفاقيات. وللتقيد بها كانت الثقة هي الشرط الأساسي. ويبدو كما لو أن الإخلال بها لم يكن يحدث إلا نادراً. ولكن لو أردنا الحكم على ذلك من خلال محتويات الألواح الفخارية لوجدنا بالطبع بعض حالات التأخر في التسديد وبعض الإنذارات بالدفع وأمثلة عن الاعتراض على بضاعة معينة أو

انتقاد شيء فيها[18]

كانت كل الأعمال التجارية يسيطر عليها عدد بسيط من المؤسسات الكبرى التي تدعم بعضها البعض. وأغلب أصحاب هذه المؤسسات كانت تربطهم القرابة الدموية أو قرابة المصاهرة. وجرت العادت أن يرسلوا الشباب من عائلاتهم بضع سنوات خارج البلاد لإدارة أعمال مستوطنات آسيا الصغرى قبل دخولهم إلى إدارة الأعمال المعقدة في العاصمة آشور. ومن هذا القبيل يرد ذكر في الألواح لأحد أفراد عائلة «بوشو...كو» الغنية الواسعة النفوذ، أنه بقي طوال سنوات عدة في آسيا الصغرى يدير الأعمال التجارية الواسعة بينما تعيش زوجته مع أبنائها الأربعة وابنتها في آشور.

من المرجح أن أسلاف هؤلاء التجار الآشوريين الكبار كانوا قد استوطنوا أعالي الرافدين خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، أي في الفترة نفسها التي استقر فيها أقرباؤهم الأكاديون بشكل نهائي في أواسط الرافدين. وتقويمهم يشير إلى أنهم يتحدرون من أصول فلاحية. ولذا فمن المحتمل أنهم كانوا في بدايات عهدهم يكسبون عيشهم كفلاحين ورعاة قبل أن يأخذوا بالحياة الحضرية التي تأثرت إلى حد كبير بالحضارة السومرية الأقدم عهداً، مثلما تأثر بها الأكاديون أيضاً.

ليس هناك ما يدل على أن الآشوريين قد مارسوا أعمال المناجم واستخراج المعادن. ولكن من المعروف أنهم عملوا في تصنيع المعادن وطوروا بنتيجة ذلك تجارة كبرى بالمصنوعات المعدنية، وأنشأوا صناعة منسوجات راقية قدمت لهم مختلف أنواع الأقمشة التي ساعدت على تسديد نفقات مستورداتهم. مما لا شك فيه أنهم تكلفوا كثيراً من الوقت والجهد حتى وصلوا إلى هذا المستوى من التطور. وإن انهيار مملكة السلالة الثالثة في أور ـ في أقصى الجنوب ـ كان أهم عامل ساعد في تخليهم عن الظروف الحياتية القديمة بين أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد واتجاههم للاستقلال. هذا وأن محاولاتهم لبسط سلطة دولتهم على الجنوب عن طريق الحملات العسكرية كانت تفشل دائماً كفشل جهودهم لتوسيع نفوذهم السياسي بين دويلات المدن المتنافسة باستمرار. ولذا اقتصرت دولتهم على رقعة صغيرة نسبياً وتجنبوا الاصطدامات مع الدول الأمورية المتنامية على الفرات وفي مناطق الرافدين السفلى قدر المستطاع ـ

(18) والحقيقة أن أموراً من هذا النوع موجودة في كل زمان ومكان إذ رأينا أمثلة عن ذلك في الحديث عن الحقبة السومرية ثم الأكادية فالبابلية.

باستثناء سيطرتهم على ماري لمدة محدودة في زمن شمشي حدد ـ واكتفوا مبدئياً في تلك الحقبة بتقوية العلاقات التجارية من استيراد وتصدير على نطاق واسع مع شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى حيث كان الدور الأساسي لتلك الشبكة من المستوطنات.

فكرة عن التنظيمات التجارية وقوافل النقل

إن المعلومات التي قدمتها الألواح الفخارية بهذا الصدد وما احتوته من أمثلة على كل الأمور التجارية قد أثبتت باعتراف الباحثين في هذا الميدان أن تجارة عصرنا هذا ليست أفضل في تنظيمها مما كانت عليه عند الآشوريين.

كان ضبط الأعمال التجارية يشرف عليه أرباب التجارة الكبار في العاصمة آشور وممثلوهم المباشرون في كبدوكيا بآسيا الصغرى. وأما تنفيذ الأعمال فكان يقوم به أناس موضع ثقة في كبدوكيا وموظفون يرافقون كل قافلة تجارية. ووجد لذلك أشخاص لكل منهم مهمة مثل: الوكيل، والسمسار، والمُبلغ أو المعلن، ورازم الطرود... الخ. ولم تُترك وسيلة فنية وإدارية مما هو متبع في تجارة اليوم إلا وكان معمولاً بها: كرسائل الاعتمادات، وتعليمات الدفع، وتبدل الأسعار، والضمانات والأرصدة، وفواتير الشحن، وبوليصة النقل... الخ. وكانت تُرسَل مع كل شحنة من البضائع الألواح الفخارية التي تحتوي معلومات مفصلة عن نوع البضاعة المشحونة وحالتها ووزنها أو عددها وتبيان كيفية التعبئة والمرسِل والمرسَل إليه. وعدا عن ذلك تذكر الشروط التي تمت الصفقة بموجبها.

والعمال الموثوق بهم لدى البيوت التجارية كانوا يهتمون بانجاز كل شيء بدقة تامة، وبتجهيز الطلبات في الوقت المحدد لها. وكانوا يستَبِقون قيام القافلة بإرسال رسالة مستقلة يحملها ساعٍ مستعجل يخبرون فيها المرسَل إليه عن البضائع القادمة ونوعها وكمية الشحنة ـ وزناً أو عدداً ـ ويوم انطلاق القافلة واسم قائدها. وقبل ذلك يتم التفاهم معه حول طريق الرحلة والتكاليف والرسوم وأماكن التوقف والاستراحة والزمن الذي تستغرقه الرحلة. ويتم تثبيت ذلك كله في محضر رسمي وبوجود شاهدين من واجبهما التأكد من صحة محتوى النص وموافقة الطرفين، ثم وضع الأختام عليه.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يعثر على أية وثيقة دون أن تكون مذيلة بأختام الشهود.

كما كانت تحرر نسخ مصدقة عن الوثائق الأصلية وتحفظ لدى دائرة رسمية. أي أن ما نراه اليوم من حفظ لنسخ العقود عند كتّاب العدل في المحاكم، إن هو إلا استمرار لتلك الترتيبات التي وجدت منذ ذلك الزمن.

كان نقل البضائع في تلك الأزمنة يتم على قوافل طويلة من الحمير. إذ أنه لم يكن يصلح إلا الحمار للنقل على الطرق الوعرة والشعاب المنحدرة والمسالك الضيقة التي يقع أغلبها في مناطق جبلية مليئة بالأحراش. ثم عبور المجاري الجبلية الجارفة والأنهار على مخاضات ضيقة، أو على قوارب مسطحة أو طوافات. واعتبرت الحمولة المعتادة لحمار النقل 130 مينه من النحاس أي حوالى 65 كيلوغراماً.

كل ما ظهر حتى الآن من ألواح فخارية وتم تفسير نصوصه يدل على أن حركة القوافل كانت تتم بانتظام جدير بالتقدير. وفي بعض الأحيان، وحيث تقتضي الضرورة يتم استئجار قادة محليين للقوافل، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بمخاضات يصعب تحديد مكانها أو زمان عبورها، أي مخاضات الأنهار المتغيرة باستمرار، أو يتعلق بمنطقة جبلية أصابتها أمطار قوية فأزالت سيولها آثار المسالك. على العموم تعتبر حياة قادة القوافل وسائقي الحمير وجماعات المرافقة خلال أسابيع الرحلات الطويلة حياةً من أقسى ما نتصور. أما إن كانت أجورهم تتناسب وهذه القسوة فهو غير معروف. فالألواح المكتوبة لا تقدم تفاصيل بهذا الصدد، كما لا توجد فيها أخبار عن القوة الشرائية للمال آنذاك ولا عن تكاليف المعيشة.

إن صاحب حمير النقل، الذي كان بمثابة متعهد شحنيات أو صاحب مؤسسة نقليات لم يكن يقل ذكاءً ومهارة ودقةً في الحسابات عن أصحاب مهنته في زمننا هذا، وكان يعمل لحسابه الخاص. والأمور التي اعتبر مسؤولاً عنها هي: إعداد الحيوانات وجمعها، وتحميلها بشكل صحيح، وتأمين العلف وأماكن الاستراحة، وإيجاد أكفأ الجماعات للمرافقة، والتقيد بالمواعيد المتفق عليها، وتسليم البضاعة المكلف بنقلها طبقاً للموعد المحدد وبحالة سليمة وجيدة. وإذا ما حصل أمر سيّىء، كفقدان أحد الحيوانات المحملة، أو تدهور أحد الأحمال في المنحدرات الجبلية وتلف البضاعة، أو تأخر القافلة عن الوقت المحدد للتسليم، فهو الذي يتحمل الأضرار والتعويض عنها. حيث أنه في ذلك الزمن لم تكن قد وجدت مؤسسات التأمين. وإذا سارت كل الأمور على ما يرام يتقاضى الربح الذي يكون صاحب التجارة قد أعده له. أما إن أصيب بخسارة فلا يبقى أمامه إلا عقد اتفاقية نقل جديدة والحصول على سلفة من التاجر إن

أمكنه لتسديد التكاليف، أو الدخول في خدمته كعامل بالأجرة عند الضرورة.

طرق المواصلات

على الرغم من كل ما قدمته كتابات الألواح الطينية من معلومات عن سير الأمور التجارية وتنظيم القوافل والإجراءات الإدارية وغيرها، فمن الطبيعي أن تكون هناك ثغرات في هذه المعلومات بحيث لا تغطي جوانب البحث كافة. وإحدى هذه الثغرات هي المسألة الجغرافية في التجارة، أي مواقع الطرق واتجاهاتها بشكل مفصل. فالطرق كانت عبارة عن دروب ومسالك ترابية داستها الأقدام، زالت معالمها إلى حد كبير بمرور الزمن، إما لظروف مناخية، أو لظروف سياسية كانت تؤدي لإهمال بعض الطرق وبالتالي اختفاء آثارها.

والألواح الطينية المعروفة حتى الآن لم يعثر فيها على كتابات تصف المواقع والاتجاهات باستثناء ما يرد أحياناً من ذكر لبعض المستوطنات والمراكز التي أمكن التعرف إلى مواقعها. ولذا فإن وضع مخطط لشبكة طرق ذلك الزمن غير ممكن. ومعظم الطرق التي سلكتها قوافل الحمير ما تزال غير معروفة، وتحديدها قائم على التخمينات التي تعتبر قريبة من الواقع في بعض الأحيان، لأن هذا التحديد يستند إلى أمور منطقية ثلاثة هي: أولاً مواقع تلك المستوطنات التي ما زالت معروفة. ثانياً بعض الأجزاء من الدروب التي لم تختف تماماً والتي منها ما زال مستخدماً حتى اليوم. وثالثاً هو أن الإنسان منذ البداية عند اختيار الطريق راعى أن يكون اجتيازه سهلاً قدر الإمكان، فتجنب المرور في الوديان السحيقة أو المستنقعية والمعابر الصخرية المجهدة والضيقة والأماكن الشديدة الانحدار والأدغال الكثيفة. وعدا عن ذلك يجب أن يكون قد عرف مسبقاً أماكن مخاضات الأنهار التي عليه عبورها.

وعلى العموم هناك أمور لا تحتاج إلى أدلة، فمن الصعب مثلاً أن نتصور إرسال القوافل على الطرق خلال أوقات الشتاء الصعبة. والمرجح أيضاً أن الإنسان لم يجازف برحلات خلال موسم الفيضان أثناء ذوبان الثلوج وخصوصاً في الوديان الكبيرة. وهناك بعض الأمور الثابتة التي اعتبرت بمثابة إرشادات دائمة: ففي الوديان الجبلية وجب اتباع الأطراف الجافة من الوادي. وفي المجاري المائية وجب البحث عن أقصر الطرق وعن الموقع المناسب قبل مصبات الأنهار الفرعية (الروافد) وليس بعدها من أجل العبور أو التزود بالماء.

من المواقع الجغرافية للمراكز التجارية الكبيرة والصغيرة نستنتج بصورة شبه واضحة وجود بعض الطرق التي كانت فيها قطع صعبة في آسيا الصغرى تجتاز سلاسل طوروس. وهذه الطرق كانت تلتقي في الزاوية الشمالية الشرقية من سوريا الحالية، أي فوق منطقة روافد الخابور، حيث تنطلق القوافل وسعاة البريد من هناك على طريق واحد رئيسي إلى آشور.

استناداً إلى الألواح الطينية والحفريات الأثرية والاستنتاجات، وبالمقارنة بين مختلف المصادر، ونظراً لقلة الممرات الممكنة العبور، يُرجح أن يكون الأمر كما يلي:

كانت غالبية المراكز التجارية الآشورية، وربما كلها، مرتبطة ببعضها البعض، بينما كانت كلها من جهة أخرى مرتبطة بأكبر وأهم مستوطنة وهي «كانش»[19] الواقعة على خط يربط بين الميناء التركي «صمصون» على البحر الأسود وبين طرسوس في كيليكيا، ماراً إلى الجنوب من التقوس الكبير للنهر المعروف قديماً باسم «هليس Halys» والمسمى حالياً «كيزيل إرماك Kizil Irmak» أو النهر الأحمر، وعلى بعد حوالى 20 كيلومتراً شمال شرق قيسارية، وذلك بواسطة شبكة كاملة من الطرق والمسالك.

أما من «كانش» فقد أمكن اتخاذ أحد طريقين لعبور سلاسل طوروس، الأول شمالي والثاني جنوبي.

فالشمالي كان على الأرجح يأخذ اتجاه الطريق الحالي نفسه المار بمدينة «ملاطية». وكمحطة استراحة وشحن وتفريغ يرد ذكر «حاحوم» على مقربة من بلدة «خربوط» المعروفة اليوم. ولكن ليس مؤكداً إن كانت مستوطنة «حاحوم» قريبة من الفرات الأعلى، أو أبعد إلى الشرق. وعلى العموم كان اتجاه القوافل بعد ذلك هو مضيق «إرغاني Ergani» الجبلي، ثم عن طريق مدينتي ديار بكر وماردين لدخول منطقة المجاري العليا لروافد الفرات والوصول إلى الطريق الكبير المتجه إلى آشور. إلا أنه كان من الممكن أيضاً الانعطاف جنوباً فيما وراء سهول ملاطية للوصول إلى وادي الفرات والسير على جانبه الغربي ثم عبور النهر عند كركميش (جرابلس). والطريق الجنوبي تطلّب من القوافل عبور المضيق الجبلي «غوز بل Göz Bel» أو مضيق آخر أكثر صعوبة

---

(19) والواقع أن أهمية هذه المستوطنة ووظيفتها تلاحظ من خلال الاسم نفسه. فالأصل الثلاثي «كنش» له في الآشورية والأكادية والآرامية أيضاً مدلول التجميع والإخضاع والسيطرة. والإسم عبارة عن صيغة اسم الفاعل بمعنى: المنطقة المسيطرة وما إلى ذلك.

هو «غوك بل Gök Bel»، وذلك قبل الوصول إلى بلدة «غوك سون Gök Sun» الحالية. وللوصول إلى مرعش توجب أيضاً عبور نهر «بيراموس Pyramos» القديم ـ وهو جيحان حالياً ـ، ثم هناك إمكانية أخرى وهي أخذ الاتجاه الشرقي مبدئياً وعبور مضيق «كورو جاي Kuru Gay» واتباع النهر الصغير هناك حتى الموقع المعروف باسم «إلبستان Elbistan» ثم المرور على الكتف الغربي لجبل «بروت Berut» وعبور المجرى الأعلى لنهر سيحان قبل الوصول إلى مرعش. ويبدو أن الطريق هناك كان يمر بمستوطنتين هامتين يرد ذكرهما باسم «ماما» و «أورشو» قبل أن يصل إلى كركميش ويلتقي مع الطريق الشمالي الرئيسي إلى آشور[20].

ويبدو أنه كان متروكاً لقادة القوافل أن يختاروا الطريق المناسب تبعاً لخبراتهم وللظروف المختلفة. وهناك لوح فخاري موجه إلى أحد الآشوريين المسمى: «آشور. .نادا»، والواضح أنه أرسل إليه من العاصمة، يتضمن تعليمات تحثه على تقسيم قافلته إلى ثلاث قوافل صغيرة يقودها تباعاً عبر المضائق الجبلية مستقلة بعضها عن البعض، مع التأكيد عليه أن ينتظر خبر وصول القافلة الأولى قبل السماح للثانية بالانطلاق على الطريق.

بشكل عام كانت كل الطرق والمسالك الجبلية تلتقي مع طريق رئيسي يقود إلى بلاد الرافدين مجتازاً شمالي بلاد الشام والمجاري العليا لروافد الفرات ـ البليخ والخابور ـ إما باتجاه الشرق إلى دجلة ثم يماشيه حتى آشور، أو بانحراف جنوب شرق على مقربة من جبل سنجار ومباشرة باتجاه آشور ميناء القوافل الكبير وعاصمة الامبراطورية التجارية.

فكرة عن السلطة الآشورية

كانت الحكومة الآشورية تمارس في العاصمة رقابة مركزية عليا، ولها دائماً القول الفصل في كل ما يتعلق بالتجارة التي هي شريان الحياة في الدولة. ولم تنحصر سلطة

---

(20) هذه المنطقة المسماة «أورشو» والتي يعتقد أن موقعها كان إلى الغرب من مجرى الفرات الأعلى يتكرر ذكرها في الألواح، حتى منذ زمن حكم «غوديا» ملك لاغاش في القرن الثاني والعشرين (ق.م.) كأحد المصادر الهامة للمواد الأولية والتي ترد إلى جانب مناطق أخرى عديدة.

قارن مع: Fischer Weltgeschichte I, p. 118, 127, II, 117.

الحكومة ضمن حدود البلاد، بل شملت رعاياها المقيمين في المستوطنات والمراكز التجارية كافة في آسيا الصغرى.

والمقام الأعلى، أو المكان الأول في تسلسل المراتب في العصر الآشوري القديم كان يحتله الـ «رُباؤم» أي الأمير، الذي فضل أن يكتفي في الشؤون الرسمية كافة بلقب «ممثل الإله آشور على الأرض». وهذا اللقب يدل على أن آشور، الذي هو أعظم آلهة الآشوريين كان يعتبر بمثابة الحاكم الأعلى المطلق وأن الأمير الدنيوي ليس إلا ممثله أو والياً لمدينته. ولكن يبدو على كل حال أن الأمير أو الرباؤم كان يعتبر نفسه أيضاً «شرّوم» أو «شرّاؤم» بمعنى ملك، وأن الآشوريين كانوا يخاطبونه على هذا الأساس.

وكان يساعده في أعماله مجلس يعتبر بمثابة حكومة تمثل كل المواطنين الأحرار في المدينة. والتجار الكبار أصحاب النفوذ الواسع ورجال البنوك كان لهم صوت مسموع في هذا المجلس. فهم الذين يساهمون في خلق الرخاء الاقتصادي للدولة والمحافظة عليه إلى أقصى الحدود. وقد مارس الأمير (الملك) والمجلس معاً حقوق السلطة العليا التي شملت أيضاً المستوطنات خارج الوطن الأم. وجمعتهم ارتباطات واضحة ومفصلة. وكانت الحقوق والواجبات صريحة وثابتة. والتعليمات التي تصدر والقرارات والأحكام كانت لها قوة القانون.

واستناداً إلى النظم الآشورية المعمول بها كانت المنازعات التي تتولد بين التجار في آسيا الصغرى ترفع إلى المحكمة العليا في آشور كآخر مرجع قضائي للبت فيها، إذا تعذّر حلها في المستوطنة. وقبل الشروع في المحاكمة بأي مستوطنة كانت يُطلب من المتخاصمين أداء اليمين باسم المدينة واسم الملك (لأنه ممثل الإله آشور). وتعبيراً عن سلطة مدينة آشور يضع القاضي قبل إصدار الحكم السلاح المقدس للإله آشور (وهو الخنجر) وشعار الدولة (وهو بشكل كلّاب) على طاولة خاصة.

ليس المقصود بذلك أن مدينة آشور كانت لها السيادة على آسيا الصغرى، ولكنها مارست حقوق السيادة الآشورية كاملة على مواطنيها المقيمين في البلاد الغريبة وبصورة جدّية ودقيقة. وبتعبير آخر رتبت آشور لرعاياها وضعاً لا يخضعون فيه لسلطة وقوانين البلاد المقيمين فيها. ومن الواضح أن هذه التنازلات من قبل السلطات المحلية والحكام في آسيا الصغرى كان يتم الاتفاق عليها وتثبيتها كتابياً في كل العقود.

كان المركز الرئيسي للرقابة والتوجيه بالنسبة للتجارة في بناء يدعى «بيت المدينة»

يعتبر في الوقت نفسه بمثابة دار للبلدية، إذ احتوى على شؤون التعامل الاقتصادي كافة. ففيه مكان لمراقبة وضبط الأوزان وحفظها، ولاختبار حالة البضائع المعدة للتصدير، ومكان لحفظ السجلات الرسمية التي تحتوي على تصفيات الحسابات السنوية والموازنات لجميع التجار الواجب تسجيلها من أجل التدقيق الرسمي الدائم. وفيه مصلحة الضرائب ومكتب الجمارك ومكتب تصفية المدفوعات، وأرشيف لحفظ الوثائق المودعة من كل الأنواع، وبورصة للبضائع والأموال، ومكتب لمراقبة دخول وخروج البضائع. ومن المحتمل عدا عن ذلك أنه وجد فيه مستودع، فهناك ما يشير إلى إمكانية التزود بالمعادن في حالات الضرورة المفاجئة. من الواضح أن الآشوريين لم يهملوا شيئاً على الإطلاق من كل ما يدعم نجاح التجارة التي حققت للدولة فوائد كبرى من خلال الضرائب والجمارك والرسوم ومختلف أنواع التقديمات. كل ما كان على عاتق الفرد هو إدارة الأعمال التجارية وتنفيذها ضمن إطار التعليمات والنظم المقررة. فهو الذي يقوم بمغامراتها ويكدس الأرباح، والدولة من جانبها ترعى الشؤون التنظيمية والأمنية كافة وغيرها وتستقبل المدفوعات بكل أنواعها. ومن الواضح أنها كانت طريقة ناجحة ومثمرة.

موادّ التجارة الآشورية

ليس هناك ما يقدم لنا فكرة كاملة عن كل المواد والسلع التي شملتها التجارة في العصر الآشوري القديم. فما جاء في الألواح الفخارية يفهم منه أن آشور كانت لديها مادتان أساسيتان للتصدير هما المنسوجات ومعدن القصدير. ومع ذلك كانت هاتان المادتان ممّا يلائم التجارة مع آسيا الصغرى بصورة ممتازة. فالمنسوجات التي كان أغلبها من المنتجات الكتانية، والتي حازت على شهرة في آسيا الصغرى لجودة أنواعها، تم إنتاجها عند الآشوريين أو جُلبت أحياناً من مدن أواسط الرافدين حيث كانت مهنة النسيج قديمة جداً ومشهورة. ووجدت مختلف الأشكال والأصناف والنوعيات. فالألواح الفخارية تتحدث عن أنواع ناعمة رقيقة وأنواع طرية وأنواع ثقيلة، وعن أنسجة للمفروشات وأخرى للملابس. أما وحدة القياس التي استخدمت فغير معروفة. ولكن على ما يبدو كانت تتم عمليات البيع والشراء بشكل لفّات محدودة الطول والعرض. ومن الواضح أن الملبوسات الجاهزة شكلت نسبة كبيرة من المواد التجارية. ومن خلال ألواح الأسعار يتبين أن التجار الآشوريين حرصوا عادة على وضع نسبة من الربح على

سعر الكلفة تعادل مئة بالمئة، علماً أن هذه النسبة تقتطع منها الضرائب وتكاليف النقل. ومع ذلك فمن المؤكد أن ما يبقى لهم كربح صاف ليس بالقليل.

والمادة الرئيسية الثانية كانت القصدير. وكان يعبأ في أوعية كبيرة نسبياً وعليها خاتم المسؤول عن التعبئة والخاتم الرسمي للحكومة الآشورية: وفي الأوعية يتم تنضيد السبائك بعناية. ومن المعروف أيضاً أن التجار الآشوريين بشكل عام بادلوا القصدير بالفضة بنسبة عشرين إلى واحد، وأنهم سلموه إلى زبائنهم في آسيا الصغرى الذين كانوا بحاجة ماسة إليه لتحضير البرونز، بنسبة لا تتجاوز العشرة وغالباً الستة إلى واحد. أما الفضة التي لم تكن سلعة تجارية بقدر ما كانت وسيلة نقدية فقد اعتادوا تداولها بأشكال مختلفة، مثل الأسلاك والسبائك والخواتم والحلقات والصفائح والأهلّة. وقبل التداول كان يتم وزنها وطبع الختم عليها، حيث أن الوزن ونقاء المعدن كان دائماً يُرمز إلى ضمانهما المطلق بالختم الرسمي للحكومة. وبين الحين والآخر كانت تسلم للمراسلين وقادة القوافل رزم مختومة بعد أن يتم تثبيت معلومات دقيقة عن محتواها في لوح طيني مختوم أيضاً، مما يعتبر أكثر دقةً من إرسال الطرود البريدية في عصرنا هذا.

أما الذهب فكانت الحاجة إليه من أجل المدفوعات الكبيرة فقط. وكان تناسب قيمته مع قيمة الفضة شبه ثابت وهو واحد إلى ثمانية مع تقلبات خفيفة جداً صعوداً أو هبوطاً.

هناك مادة أخرى ثمينة يرد ذكرها باسم «أموتوم» وأحياناً «أسيوم» ولكن يبدو أن التجارة بها كانت نادرة جداً، حيث عادلت قيمتها أربعين مثلاً من الفضة، واستخدمت في صناعة الحلي. كما جاء ذكرها غالباً مقترناً بذكر مادة أخرى ثمينة تدعى «حوساروم». ولا توجد حتى الآن أدلة على حقيقة هاتين المادتين. إلا أنه لا يستبعد أن تكون إحداهما هي حجر الكهرمان الذي كان منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد معروفاً في منطقة حوض المتوسط وله قيمة عالية. كما لا يستبعد أن تكون الثانية هي سلكات المغنيزيوم التي استخرجت في ذلك الزمن من جبال آسيا الصغرى. وسواء هذا أو ذاك فإنه لم يزل مجرد افتراضات.

من جملة البضائع الأخرى يرد كثيراً ذكر الحجارة الكريمة والحجارة النفيسة النادرة من آسيا الصغرى، والتي كان يحملها عادة إما قادة القوافل أو جماعات مرافقة موثوقة من قبل المؤسسات التجارية مباشرة. وتوضع في أكياس من الكتان كانوا يحملونها في صدورهم. ثم تذكر الألواح أحياناً القش الذي يتم كبسه بشكل رزم كبيرة، ثم الشعير،

وحتى العسل وزيت الطعام، بعد أن يتم حفظه في جرار مختومة ومحكمة الإغلاق مخصصة لنقله.

إلا أن كل هذه المواد التجارية تفوّق عليها النحاس. ولكن الألواح المعروفة حتى الآن تفتقر إلى المعلومات الواضحة عن كيفية تسوّق الآشوريين بالنحاس في آسيا الصغرى. وهناك احتمالات بأنهم عمدوا غالباً لإقامة علاقات تجارة مباشرة مع أصحاب مناجم النحاس وتحملوا تكاليف إضافية ومجازفات نقله من المناطق الجبلية البعيدة. وربما كان القرار الفصل بهذا الخصوص للحكومة في العاصمة آشور. فهناك الكثير من الدلائل التي توضح لنا أن تجارة النحاس الآشورية بكاملها وضعت باستمرار تحت رقابة الدولة، هذا إن لم نقل أنها كانت تديرها بنفسها. فمع كل حرية الحركة المعطاة للتجارة يبدو أن أهمية التزود بالنحاس للاقتصاد العام كانت سبباً كافياً لإبقاء عمليات استلامه وتنظيم أسعاره تحت الرقابة الرسمية.

ووجدت من النحاس أصناف تجارية عدة: فالنوع النظيف المُنقّى جيداً كانت كل 45ـ 70 وزنة منه تعادل وزنة واحدة من الفضة. والأصناف من الدرجة التالية تقابل كل 100ـ 200 وزنة منها وزنة واحدة من الفضة. أما النوع المسمى بالنحاس الأسود فكان أرخص من ذلك.

وطريقة التداول التي استخدمت هي السبائك، وأحياناً الأسلاك. وهنا أيضاً تم توثيق الكميات والنوعيات بأختام رسمية على السبائك وبوليصات شحن مختومة ومرفقة مع البضاعة. ومما يجدر ذكره أن الغش أو التلاعب اعتبر بهذه الطريقة مستحيلاً.

الدور التاريخي للمستوطنات الآشورية

إن المطلع على تاريخ المدن الفينيقية وانتشار مستوطناتها التجارية في كل حوض المتوسط وخارجه ودور هذه المستوطنات في حياة الفينيقيين التجارية[21]، ثم انهيارها فيما بعد، يجد صورة مشابهة في بلاد الرافدين، مع اختلاف في طبيعة النظم الإدارية وشكل الانتشار الجغرافي ومداه. فأمبراطورية الآشوريين التجارية لم تكن لها تلك

(21) ارجع إلى: طبيعة وحجم النشاط التجاري، وما ذكرناه في الحاشية (17) هناك.

الأهمية الكبيرة لولا تأسيس المستوطنات في آسيا الصغرى. وقد اختلفت من هذه الناحية جذرياً عن امبراطورية الأكاديين السياسية بزعامة سرجون الأول وحفيده نارام سين قبل ذلك بخمسة قرون وعن امبراطورية حمورابي خلال القرن الثامن عشر. فامبراطورية العصر الآشوري القديم هذه كانت تجارية بالواقع وكانت مستوطناتها في آسيا الصغرى بمثابة المجال الحيوي، حيث أوجدوا لها نظاماً لم يكن معروفاً في أي مكان من العالم حتى ذلك الزمن.

ومن خلال كل المعلومات المتوفرة يتبين أن اكتفاء الآشوريين بالبلد الوحيد المجاور (آسيا الصغرى) مبدئياً يعود سببه إلى أنه قدم أفضل شروط النجاح التجاري بالنسبة للجهتين. فقد توفرت فيه مقادير كبيرة من خامات النحاس، كانت آشور وكل بلاد الرافدين بحاجة ماسة إليها. وبقي من جهة أخرى مستهلكاً كبيراً ودائماً للمنتجات التي أعدها الآشوريون محلياً، كمواد الغزل والنسيج والألبسة، أو التي حصلوا عليها بسهولة وكثرة كالقصدير.

لم تترك الدولة الآشورية العلاقات التجارية الخارجية وشأنها بصورة مستقلة، بل أسست في آسيا الصغرى بطرق سلمية هادئة شبكة ضخمة متكاملة من المحطات والمراكز كان مسموحاً لها من قبل الأمراء والحكومات المحلية بممارسة ما يشبه الحكم الذاتي طبقاً للقوانين الآشورية.

من خلال الألواح الطينية المكتشفة تمت معرفة ما يزيد على العشرين من أسماء هذه المواقع. وقد ارتبطت كلها مع بعضها البعض بصورة وثيقة. وكانت خيوط العلاقات تلتقي كلها في «كانش» أهم هذه المستوطنات[22]، حيث تتم الاتصالات الرسمية كافة عن طريقها بين العاصمة آشور وبين المستوطنات. فكان المراسلون يحضرون التوجيهات والتنظيمات والأوامر والنصائح من آشور إلى «كانش» حيث يقوم من ثم بإيصالها المبعوثون كل إلى موقعه. وبالمقابل ينقلون إلى العاصمة طلبات المساعدة والنصائح والإرشاد والشكاوى والتقارير كافة المتعلقة بأمور المفاوضات والاتفاقيات مع الحكام المحليين للتصديق عليها في آشور من قبل الملك ومجلس المدينة.

كل المؤسسات الرسمية في آشور كانت لها صلاحيات نافذة في المستوطنات،

(22) ارجع إلى فقرة: طرق المواصلات. وانظر ما ذكر في الحاشية (19).

والنظم الإدارية المعمول بها سرى مفعولها أيضاً هناك. ويمكن القول بأن آشور هي الرأس المدبّر الذي لا يتم أي شيء بدونه، وأنها كانت تشكل مع مراكزها الخارجية وحدةً إدارية واقتصادية متكاملة. وهذا لا يعني بالطبع أنه قد كانت لآشور بشكل أو بآخر سيطرة سياسية على الأمارات التي تقع فيها المستوطنات، بل بالعكس، حيث لم تحاول إطلاقاً التعرض للسيادة المحلية لتلك الأقاليم. كما تبين الألواح أن كل الرسوم والضرائب التي كان يطلبها الحكام المحليون تمّ تقديمها دائماً وبانتظام.

ليس هناك ما يشير حتى الآن إلى الزمن الذي نشأت فيه هذه المستوطنات، ولكن من الطبيعي أن نشوءها لم يتم دفعة واحدة أو خلال وقت قصير. فالأختام التي عثر عليها في آسيا الصغرى يتبين منها أن الباعة المتجولين من بلاد الرافدين كانوا منذ حوالى 3000 قبل الميلاد قد تجاوزوا جبال طوروس في تجاراتهم[23].

ويبدو أن المعلومات التي عادوا بها عن الإمكانات التجارية قد انتشرت بسرعة بين أهل الرافدين. وعندما نشطت الرحلات التجارية تبين للبعض منهم أنه من الأفضل لو تركوا أشخاصاً يقيمون في تلك البلاد الغريبة لتمثيل مصالحهم بشكل دائم. ومن ذلك تكونت بمرور الزمن الجماعات التجارية المستقرة. ومن هذه الجماعات ما يرد ذكره حوالى سنة 2400 قبل الميلاد. غير أنه بانقضاء قرون عدة أخرى أخذت هذه الجماعات تبرز بشكل مستوطنات تجارية آشورية صرفة تمارس نشاطاً منظماً كما رأينا، بحيث أصبح ازدهارها لا يعوقه أي عائق. وهذا يعود إلى الارتباط المباشر بينها وبين الدولة الآشورية.

خلال فترة عظمة الدولة الآشورية القديمة عاشت المستوطنات التجارية أعظم سنوات نشاطها. وكان ذلك في عهد ملوك الأسرة الأولى التي ابتدأت بملك يدعى «بوزور آشور» حوالى 1960 قبل الميلاد وانتهت بفترة شمشي حدد الأول بين 1813 و1781 قبل الميلاد الذي اعتبر مغتصباً للحكم[24].

---

(23) عندما يرد ذكر لأسماء مراكز تجارية في آسيا الصغرى منذ زمن حكم الملك السومري «غوديا» ملك لاغاش خلال القرن الثاني والعشرين (ق.م.) (ارجع إلى الحاشية رقم 20)، وعندما تؤكد أخبار حملة سرجون الأكادي إلى آسيا الصغرى في القرن الرابع والعشرين (ق.م.) وجود تجار أكاديين مستوطنين هناك (ارجع إلى الحاشية 15)، فهذا يعني بوضوح أن الباعة المتجولين يجب أن يكونوا قد سبقوا مرحلة الاستيطان التجاري بقرون عدة.

(24) تعتبر هذه الفترة واضحة نسبياً بالمقارنة مع الفترة التي سبقت «بوزور آشور» والفترة التي عقبت «إشمى دجن» ابن شمشي حدد. إذ أمكن التعرف إلى أسماء عشرة من الملوك ابتداء من =

ثم أن الإضطرابات السياسية التي حصلت في آسيا الصغرى كلها وأعمال العنف التي رافقتها قضت على ازدهار «كانش» أكبر المراكز الآشورية. ولم يقتصر التخريب على المدينة بل تناول المحطة التجارية أيضاً. والمصير نفسه لاقته أكثر المستوطنات الأخرى. إلا أن ذلك لم يثبط من عزيمة الآشوريين وأعادوا بناءها من جديد. وعادت الأعمال التجارية كسابق عهدها. كما أن شخصيات جديدة في آشور عمدت إلى تنحية الأسرة الحاكمة القديمة. ولم يكن اهتمام الحكام الجدد بالإيرادات المالية للدولة أقل من اهتمام سابقيهم.

في تلك الآونة بدأ الانحدار التدريجي لتلك الأمبراطورية التجارية. وذلك عندما أخذ الحثيون في آسيا الصغرى بتأسيس مملكتهم، وأخضعوا لسيطرتهم الأمراء والملوك الصغار تارة بالاتفاقات والدبلوماسية وتارة باستخدام القوة. وفي الجبال المتاخمة لأراضي الرافدين أخذ الحوريون يضيقون الخناق على الطرق التجارية الواصلة بين آسيا الصغرى وبلاد الرافدين ويعملون لبسط سيطرتهم عليها.

لم يطل الأمر كثيراً في تلك الأثناء حتى انبعثت المملكة البابلية القديمة وبرزت كأكبر قوة على الفرات ودجلة ولم يبق مكان للدويلات الصغرى.

في سنة 1750 قبل الميلاد امتدت سلطة حمورابي البابلي على آشور وجعل من الدولة الآشورية القديمة ولاية تابعة له، والأصح امتداداً للدولة المركزية في بابل، وترك فيها أميراً بمثابة حاكم يدير شؤونها حسب تعليمات بابل.

إلا أن خلفاء حمورابي لم يتمتعوا طويلاً بالسلطة على الأمبراطورية التجارية للآشوريين. إذ أن الحثيين والحوريين، إضافة للدويلات الجديدة التي أعلنت استقلالها في بلاد الشام، أفسدوا عليهم حقبة الازدهار ونازعوهم النفوذ التجاري والسياسي. وفقدت المستوطنات التجارية الآشورية أهميتها تماماً وهجرها أهلها. وحتى كانش التي كانت أكبرها وأهمها أصبحت على هامش الحياة. أما الحثيون الذين شملت مملكتهم الجديدة آسيا الصغرى كلها تقريباً فقد أصبحوا ورثة الآشوريين فيها. مما يلاحظ أن

= «بوزور آشور» وحتى «شمشي حدد» على الرغم من أن تواريخ حكمهم لم تزل افتراضية بحتة. كما أنه لا توجد أدلة قاطعة على أنهم كانوا كلهم فعلاً متسلسلين من أسرة «بوزور آشور» نفسها أو كان بعضهم من خارجها كما هو الحال بالنسبة لـ «شمشي حدد».

قارن ذلك مع: Fischer Weltgeschichte, vol.2, p.130-131; 178-179.

المراكز التجارية الآشورية في آسيا الصغرى على مدى قرنين تقريباً من الازدهار والحيوية لم تستطع أن تصنع من دولة آشور القديمة قوة سياسية ضخمة بالمعنى الصحيح، كما كانت المملكة الآشورية الجديدة التي قامت على القوة العسكرية فيما بعد، الأمر الذي نستطيع مقارنته مرة أخرى بمراكز ومدن الفينيقيين التجارية في الغرب، التي لم تستطع أيضاً رغم كثافة انتشارها أن تجعل من قرطاجة أو غيرها من ممالك الساحل أمبراطورية سياسية في البحر المتوسط.

لمحة عن المستوطنات المعروفة
الحياة والنظم والعلاقات العامة

إن كل ما تقدم من معلومات عن مستوطنات الآشوريين التجارية وكل ما هو معروف تقريباً عن التجارة العالمية للأشوريين يرجع الفضل فيه إلى عدد ضخم من الألواح الفخارية يتجاوز العشرة آلاف، اكتشف معظمها في ركام التلّ المسمى اليوم «كُلتِبه Kültepe» في قلب الأناضول. وما زال حتى السنوات الأخيرة قسم هام من هذه الألواح لم تتم دراسته بعد. والتل الذي بدأت فيه سلسلة من الحفريات المنظمة منذ 1948م. وبرزت أهميته يقع على بعد حوالى 20 كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من مدينة «قيسارية Kayseri» على الطريق المتجه إلى «سيواس. . Sivas»، أي في موقع متوسط من سهول الأناضول. والتل الترابي المذكور «كلتبه» يبلغ طوله حوالى 550 متراً وعرضه 450 متراً، ويصل ارتفاعه عن سطح الأرض المجاورة له حتى 23 متراً، وقد احتوى على ركام مدينة صغيرة كانت عاصمة لأحد الأمراء المحليين. وإلى جانبه تل آخر أقل منه اتساعاً وارتفاعاً، يغطي بأتربته أنقاض المستوطنة الآشورية «كانش» التي كانت مقراً إدارياً ونقطة تجارية متوسطة لأكثر من عشرين من المراكز الآشورية في الأراضي التركية المرتفعة، والتي عثر على أسمائها في الألواح الفخارية، أو تم التعرف عليها من خلال الحفريات[25]. هذا وتشير بعض الدلائل إلى أنه قد وجدت «كانش» أخرى غير هذه حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. ولكن لا توجد معلومات عن تاريخها قبل قدوم الآشوريين. وحتى عن تاريخ «كانش» الآشورية هذه ما زالت المعلومات غير كافية.

---

(25) بصدد موقع «كلتبه» والتحريات الأثرية فيها ومكتشفاتها أنظر:
Barthel Hrouda, Vorderasien I, p.110; 170-174.

كانت للمستوطنات تسميات، والأصح درجات مختلفة باختلاف أهميتها. فاستناداً إلى ما قدمته الألواح الفخارية وجدت في آسيا الصغرى خلال تلك الحقبة إحدى عشرة مستوطنة أعطيت (إلى جانب أسمائها الفعلية) اسم أو صفة «كاروم»، وعشر مستوطنات أخرى أعطيت اسم «وبراتوم». ومن خلال هذا الاصطلاح نستنتج شيئاً عن مكانة المستوطنة ونفوذها وصلاحياتها. حيث أن الـ «كاروم» كانت أكثر أهمية وفي مقدمتها تأتي «كانش» ـ كاروم كانش ـ.

والـ «كاروم» هي الصيغة اللفظية الأكادية/الآشورية للكلمة السومرية «كار» التي تعني بالأصل الحاجز أو السد. واستخدمت قديماً بمدلول المخازن الواقعة جانب الأنهار، التي تطورت مع الزمن لينتج عنها نوع من الأسواق التجارية، أدت بدورها إلى تكتل الباعة والتجار في جمعيات اتخذت لها مركزاً هناك بشكل مستوطنة. هذه المراكز أطلقت عليها تسمية «كار» التي غلب عليها اللفظ الأكادي/الآشوري «كاروم» وصارت تعني في كل بلاد الرافدين: الحي التجاري وسكانه(26). إلا أن الآشوريين وسعوا مدلول هذه التسمية إلى مدى أبعد بكثير. فالمستوطنة الكبدوكية كانت جمعية تجارية، وفي الوقت نفسه جمعية سكان آشوريين بأنظمة آشورية في بلد غريب. إذ مارت المستوطنة الشؤون القضائية ومثلت آشور لدى الأمراء المحليين. وكل الحقوق والواجبات حددتها الاتفاقيات المعقودة بدقة ووضوح.

بشكل عام كانت المستوطنة الآشورية تقع على مقربة من المدينة خارج خطوط تحصيناتها. وقد استخدم سكان المستوطنة لغتهم الأم في الحديث والكتابة، كما استخدموا تقويمهم وأوزانهم ومقاييسهم ومكاييلهم وحسبوا بعملتهم وعاشوا حسب تقاليدهم وعبدوا آلهة وطنهم وخضعوا للقوانين الآشورية. ومع ذلك لم يكن بوسعهم أن يبقوا بمعزل عن محيطهم. فأثبتوا قدرتهم على التكيف مع نظم الحياة المحلية وعلى تعلم لغة البلد الغريب والتحدث بها إذا لزم الأمر. إن تفوق ثقافتهم كان بالنسبة إليهم أمراً لا نزاع فيه، ولكنهم حرصوا على التعامل الطبيعي مع جيرانهم من الشعوب الأخرى. ويفهم مما ورد في كتابات الألواح أن الذين تركوا وراءهم زوجاتهم الشرعيات في آشور أخذوا من بين جيرانهم زوجات إضافيات.

---

(26) بخصوص هذه اللفظة، أصلها وتطور مدلولها، قارن مع:

Friedrich Delitzsch, Assyrisches Handwoerterbuch, p. 349-350.

وانظر أيضاً: Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.180.

ويتضح من الحفريات الأثرية أنهم سكنوا في بيوت متقاربة جداً، مكونة من طابقين وفناء داخلي صغير[27]. ومما يعتقد أن بعض مستوطناتهم الكبيرة كان لها إلى حدٍ ما مظهر المدن الأوربية الصغيرة في العصور الوسطى. والمستوطنة كان لها معبدها ومخازنها ومكاتبها واصطبلاتها، وبالطبع أيضاً «بيت كاريم» أي بيت الجمعية. وقد تزود أهلها بكل ما احتاجوه من الفلاحين المحليين، كما اعتمدوا دائماً على العمال والحرفيين من محيطهم.

لا يوجد ما يدل على أن الآشوريين حاولوا استخراج خامات النحاس بأنفسهم على الرغم من حاجتهم الماسة إليه. ومن جهة أخرى بقي الاعتقاد سائداً لزمن طويل أنهم اكتفوا في آسيا الصغرى بتجارة النحاس فقط. غير أن اكتشاف بقايا ورشة كبيرة في «كانش» أثبت عكس ذلك. إذ أن الآشوريين لم يكونوا هناك أصحاب تجارة فحسب، بل وأصحاب صناعة قاموا بانتاج الأسلحة والأواني المربحة من النحاس والبرونز على نطاق واسع وأوجدوا لها تصريفاً منظماً سواء في داخل البلاد أو في البلدان المجاورة.

وقد أتاح الآشوريون للسكان المحيطين بهم الحصول على قروض أو سلف مقابل ضمانات وفوائد يبدو أنها تجاوزت نسبة الثلاثين بالمئة المعتادة. ومن الواضح أنهم لم يكونوا يترددون في ذلك عندما تقدم لهم الضمانات الكافية. وكانت المهلة في السلف والقروض تحتسب من وقت البذار إلى وقت جني المحاصيل. وبين الحين والآخر إلى موسم قطاف العنب، الأمر الذي يشير إلى وجود الكروم في آسيا الصغرى في تلك الفترة المبكرة.

أمر واحد حرصوا على اجتنابه دائماً وبكل حذر، ألا وهو التدخل بأي شكل من الأشكال في الشؤون السياسية للبلد الذي يقيمون فيه. لقد اكتفوا بممارسة نشاطاتهم الاقتصادية وأمورهم الإدارية فحسب. والأكثر من ذلك أن الآشوريين الذين أثبتوا تعقلاً وحكمة كانوا يدللون على نواياهم السليمة بتقديم قسط بسيط من أرباح تجارتهم إلى الأمير المحلي بصورة دائمة. فيملأ خزانته بالمال وتمتلىء نفسه بالرضى.

وكان قصر الأمير بمثابة معبر للبضائع الواردة والصادرة. فتدخل من بوابة ثم تخرج

(27) والواقع أن البيوت المتقاربة والمتلاصقة أحياناً ووجود الأزقة الضيقة ما زلنا نراها اليوم في الكثير من مدننا الحالية. كما أن تلك البيوت المكونة من طابقين ولها فناء داخلي صغير لم تزل موجودة في بعض الأحياء القديمة من مدننا كدمشق وحلب وغيرها.

من بوابة أخرى بعد أن يتم دفع الجمارك وكل الرسوم المعتادة. والنحاس المعد للتصدير إلى آشور وجب أن يخضع للإجراءات نفسها، ولا يستطيع التجار الآشوريون التصرف به إلا بعد إتمام هذه المعاملات.

ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يعثر في أي من الألواح الفخارية على أي إشارة للتذمر أو ذكر لمحاولات التهرب من دفع الجمارك أو إجراءات أخرى. ومما لا شك فيه أنه كانت عند الآشوريين موهبة ممتازة كالتي تمتع بها الفينيقيون في التعامل التجاري وجني الأرباح. ومما لا شك فيه أيضاً أن مجلس المدينة في كانش كان يحظى باحترام المستوطنين واعتزازهم على الرغم من أنه لم يكن إلا مكتباً خارجياً بالنسبة للعاصمة آشور التي مارست عليه رقابة دائمة ومنظمة بواسطة مبعوثيها الذين جرت العادة أن يبرزوا ما يثبت شخصيتهم كمبعوثين مفوضين من مجلس العاصمة، وكان ذلك عبارة عن لوح بشكل بطاقة رسمية تدعى «لوحة المدينة».

وباختصار كانت تلك المستوطنات كلها تابعة لامبراطورية آشور القديمة التي مارست السلطة المركزية من العاصمة، وكل ما أوصت به نفذ بدقة، وقامت كانش بمهمة تلقي تعليمات الملك وإيصالها إلى بقية المستوطنات.

نهاية الامبراطورية التجارية

كل ذلك التنظيم المحكم الذي رأيناه للمستوطنات الآشورية في آسيا الصغرى لم يلبث أن انهار بسرعة عندما ظهرت لأول مرة قوة سياسية كبرى أرادت فرض هيمنتها بالقوة العسكرية المتفوقة والقضاء على الأمارات المحلية العديدة.

فالتجار الآشوريون لم تكن لهم شفاعة عند قوة الحثيين الصاعدة، الذين لم يرحلوهم عن مستوطناتهم، وإنما ضيقوا الخناق على تجارتهم بحيث أصبحت شبه مستحيلة. فالواقع أن الحثيين لم يكونوا يريدون رؤية تجار غرباء عن آسيا الصغرى يجنون أرباحاً كان بإمكانهم الحصول عليها بأنفسهم. فكان أن قطعوا طرق القوافل في آسيا الصغرى، وأوقفوا تسليم النحاس الذي صار تحت سيطرتهم، ورفعوا الأسعار والضرائب معاً، ولم يعودوا يلتزمون بالاتفاقيات التي كانوا قد أبرموها مع الأمراء الخاضعين لهم منذ زمن طويل.

أما الآشوريون الذين عرفوا بما لديهم من مهارة ماذا سيحل بهم، فلم ينتظروا حتى

يأتي الحثيون ويضعوا أيديهم على مؤسساتهم، بل تنحوا عن مراكزهم التجارية هنا وهناك تهرباً من الطرق المكشوفة وأخفوا من أموالهم ما تيسر لهم إخفاؤه.

بذهاب تلك المستوطنات الآشورية كان قد بدأ ظهور الحديد. ومما يعتقد أن المهرة وبعيدي النظر بين أولئك الآشوريين سرعان ما عرفوا كيف يحققون فائدة كبيرة من المعدن الجديد كالتي حققها آباؤهم وأجدادهم من قبل في تجارة النحاس والقصدير.

الفصل السابع

تحولات كبرى في الألف الأول قبل الميلاد

امبراطورية ثقافية جديدة

الآراميّون

خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد كانت قد ازدادت كثافة الجماعات الآرامية المنتشرة منذ زمن طويل على أطراف البادية السورية واتسع انتشارها في مختلف المناطق حتى عم الهلال الخصيب بكل أطرافه.

ومع ذلك فإن هذا الانتشار الكثيف الواسع لم ينتج عنه قيام دولة آرامية مركزية وقوية كما كان الحال عند قيام مملكة سرجون الأكادية سابقاً وتجديدها في زمن نارام سين بعد ذلك ثم مملكة حمورابي البابلية لاحقاً (مما سبق ورأيناه)، بل بقي نظام الكيانات الإقليمية أو الدويلات التي اختلفت في اتساعها وقوتها وأصبح لها في هذه الحقبة طابع دول آرامية متعددة. وظهرت أسماء مقترنة بالآرامية والآراميين فصار يقال: «آرام نهرين» لمنطقة الرافدين الوسطى و«آرام فدان» لمنطقة الرافدين العليا التي كان مركزها مدينة حران و «آرام دمشق» إضافة إلى عددٍ آخر من ممالك المدن الكبيرة والصغيرة كان أبرزها «شمأل» في منطقة كيليكيا بالشمال السوري وكانت بمثابة العاصمة للآراميين[28]. هذا بصرف النظر عن ممالك أخرى برزت فيما بعد وكانت لهجاتها أيضاً آرامية مثل مملكة الأنباط في بترا ثم مملكة تدمر كما سنرى فيما بعد.

والآراميون سرعان ما تكيفوا مع ظروف الحياة وكل النواحي الحضارية وأصبحوا في هذا المحيط الجغرافي الواسع من جملة السكان المحليين. ولكن الأهم من هذا كله

(28) يدعى موقعها اليوم بالتركية «زنجرلي» وهي في وسط الطريق بين أنطاكية ومرعش.

أنهم استطاعوا أن يفرضوا اللغة الآرامية في كل أنحاء الهلال الخصيب وما جاوره. والأرجح أن هذا النجاح الساحق لم يكن مبعثه فقط كثافتهم العددية، بل إضافة لذلك عزمهم على استخدام الأبجدية الكنعانية المبسطة بدلاً من الكتابة المسمارية المعقدة والبطيئة.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد أصبح هناك توازن بين الآرامية وبين اللغة القديمة في شمالي الرافدين إلى أن تغلبت الآرامية فيما بعد.

لم يقف الأمر عند هذا الحد. فحوالى سنة 500 قبل الميلاد كان ملوك الفرس يشعرون بحاجتهم إلى لغة تفاهم شامل لاستخدامها في جميع المناطق الخاضعة لمملكتهم الواسعة. فكان أن اتخذ داريوس الكبير الآرامية لغةً رسمية عالمية ونشرها في كل أنحاء الامبراطورية. فأصبحت لغة متداولة في بقعة تمتد ما بين الهند والحبشة. ودام ذلك حتى فتوحات الأسكندر الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد. ومن هنا فإن الأوساط العلمية (المستشرقين) تطلق على هذه المرحلة من سيطرة الآرامية تسمية «آرامية الأمبراطورية».

والواقع أن قيام هذه «الأمبراطورية الثقافية» من دون أن تكون لأصحابها سلطة امبراطورية سياسية مركزية يعتبر حالة فريدة في التاريخ.

بقيت الآرامية بلهجاتها المحلية المختلفة اللغة السائدة في الهلال الخصيب كله أكثر من خمسة عشر قرناً، أي حتى انتشار اللغة العربية اعتباراً من القرن السابع الميلادي. ولم تزل حتى الآن لغة آداب وطقوس قديمة في العديد من الكنائس كما أنها ما زالت لغة الحديث اليومي على نطاق ضيق في أماكن متفرقة في شمالي الرافدين وفي الجنوب منها، وانحصرت في بلاد الشام أخيراً في منطقة معلولا بجبل لبنان الشرقي.

تطور الأحوال العامة
خلال الألف الأول قبل الميلاد

خلال الحقبة التي انتشر فيها الآراميون في أرض الرافدين واستقروا هناك حصلت بعض الهجرات الأخرى في العالم الآسيوي، حيث انتقلت جماعات هندو أوربية إلى إيران وجماعات غيرها إلى آسيا الصغرى. وزالت ممالك لتظهر ممالك جديدة. أما الأحوال في بابل وآشور فكانت في تذبذب مستمر تقريباً، والحروب تنتهي لتبدأ من

جديد ويتعاقب فيها النصر والهزيمة وتُنهب المدن ويُستعبد البشر، سواء في حروب داخلية أو مع خصوم خارجيين. والطرق التجارية تغلق حيناً لتفتح من جديد. حيث أن هذه الحقبة من الألف الأول قبل الميلاد لم تعرف دولةً مركزية قوية لا في بابل ولا في آشور. ومع كل هذا فإن التجارة لم تتوقف بشكل كامل، إذ كان التجار يعرفون دائماً طرقاً أو أساليب وإمكانات جديدة للاستلام والتسليم، ويكتشفون الأسواق الرائجة ويكيفون أعمالهم مع الظروف المتبدلة باستمرار. وقد تاجروا بكل شيء كثر الطلب عليه، إذ كانت لهم خبرتهم الطويلة في دراسة الأسواق. وهذا بالواقع هو حال التجار في كل زمان ومكان.

هناك بين المكتشفات الأثرية في مواقع مختلفة أعداد كبيرة من القوارير الصغيرة المصنوعة من الحجر أو الفخار أو الزجاج، كانت كما يبدو تستخدم في الاحتياجات المنزلية لدى كل العائلات الميسورة. وفي المعاصر القديمة لم يكن يُكتفى بعصر الزيتون والفواكه فقط، بل كانت تستخرج السوائل العطرية من النباتات الطيبة الرائحة. ويبدو أنه قد نتجت عن ذلك صناعة مواد تجميلية بكل معنى الكلمة وبالدرجة الأولى قبرص، كانت منتجاتها توزع عبر البحر في أسواق الهلال الخصيب وآسيا الغربية كافة. ولا شك أن التجار البابليين تعرفوا على هذه المنتجات في المراكز الساحلية.

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذه الصناعة المبكرة للعطور كانت من الإتساع لدرجة أن مساحات واسعة من الأراضي في مصر وفي قبرص بالدرجة الأولى استخدمت كلها لزراعة أنواع معينة من الورود والنباتات كان مشتروها بصورة ثابتة هم أرباب تلك الصناعة. وهذه القوارير المذكورة كانت لحفظ المواد التجميلية. ومن المحتمل أنها كانت مخصصة للتصدير. ولها أشكال عدة منها مكوَّرة (منتفخة) ومنها مغزلية وطويلة. وكانت كلها مقفلة.

كان روح الأفيون يعبأ في قوارير صغيرة ويرسل إلى مختلف أنحاء العالم. وللقوارير شكل شبيه برأس الخشخاش وعليها زخرفة تشبه إلى حدٍ ما تلك الندبة الكائنة على الجهة الأمامية لرأس الخشخاش صنعت بشكل يتقطر منها السائل. وقد عرفت قبرص كمصدر لهذه التجارة. ويعتقد أن الجزيرة احتوت على صناعة أفيون منظمة حيث أن الطلب عليه كان كبيراً جداً. ومن المحتمل أن استخدام هذه المادة كان شائعاً في الأوساط الاجتماعية المترفة في كل بلاد الرافدين. والألواح الفخارية تثني عليها كوسيلة في علاج الصداع وحالات الغثيان وما شابه. غير أنها استخدمت أيضاً في تهدئة الأطفال

الصغار الذين يصرخون بشدة. والأكثر من ذلك أنهم وضعوها مع الأموات في القبور ظناً منهم أن الإنسان ربما احتاجها في عالم ما بعد الموت. ومما لا شك فيه أن هذه المادة قد عادت على منتجيها وتجارها بأرباح كبيرة. ويبدو أنه لم توجد قيود للحد منها، حيث أن كل الألواح الفخارية المعروفة حتى الآن لم يوجد بينها لوح واحد يشير بالذكر إلى منعها أو تحديد عقوبة للتعامل بها.

نظراً لقلة المصادر عن القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد بالنسبة للمناطق البابلية فلا توجد بين أيدينا تفاصيل جديرة بالذكر. فإنه بذهاب عظمة سومر وأكاد وبابل كانت الأحوال في تدهور مستمر. وكانت كثافة الجماعة الآرامية في ازدياد. وحالات الجوع والفتن والحروب هزت معظم مناطق بلاد الرافدين. وكان الكلدان قد استقروا في وسط وجنوب الرافدين، أي سومر القديمة. وبانقضاء حوالى الثلاثة قرون صار واحد منهم ملكاً في بابل. وفي هذه الحقبة نفسها كانت آشور في الشمال قد مرت في فترة اتساع وقوة عادت بعدها فتعرضت للانهيار والتصدع.

لم تؤثر هذه الأحداث والتغيرات على التجارة، بل على العكس من ذلك اتسع نشاطها وخصوصاً عندما بدأ أثرياء الحروب من الآشوريين ببناء القصور الضخمة.

كان في هذه الفترة قد انتشر استخدام الجمل في نقل البضائع. ورغم أن قدرته على الحمل لم تكن تحقق كل ما يطمح إليه الإنسان فإنها كانت مع ذلك أكبر من قدرة حمار النقل المعتاد. عدا عن أن قناعة الجمل وقلة متطلباته ساهمت في خفض تكاليف النقل التي كانت حتى ذلك الزمن لا تزال مرتفعة.

وربما لأسباب عسكرية أراد الآشوريون إنشاء طرق نظامية. وانتظمت أمور كثيرة خلال الفترة اللاحقة. فصارت طلبات البضائع ترسل سلفاً ليتم تسليم السلع في موعد محدد. ووضعت خطط تحدد زمن انطلاق القوافل ووصولها. ولم يُترك شيء للصدفة. وحتى البريد المستعجل صار يكلف خيّالة بنقله.

مع توسع النشاطات التجارية ازدادت الحاجة للبحث عن مقياس جديد للقيمة بعد التوصل فيما مضى لإيجاد واسطة للدفع، مقياس قابل للنقل والتداول والتحويل في كل لحظة ودون صعوبات، وسهل الحمل ومعترف به من قبل كل الناس. إذ كان الأسلوب المتبع حتى ذلك الوقت أن يتم لدى كل عملية تجارية وزن كمية من الفضة ثمناً لما اتفق عليه. وهناك دائماً خطر التعرض للخسارة إذ يمكن التلاعب بالأوزان أو بالميزان نفسه. أو قد تكون أحياناً سبائك الفضة مخلوطة بمعادن أخرى. وكلا الحالين كان سهلاً

وممكن الحدوث. لهذا السبب عملت الحكومات ما بوسعها فضمنت نقاء السبائك المعدنية ودقة وزنها بوضع أختام حكومية عليها. ولكن لم توجد على الدوام الضمانات المطلقة. وفوق ذلك بقي عبء آخر هو نقل السبائك الثقيلة هنا وهناك.

وفي يوم لا نعرفه حتى الآن تم التوصل إلى تلك الفكرة البراقة: سكّ النقود. وأما ذلك المخترع الداهية فما زال أيضاً مجهولاً. وأول قطع من العملة عرفت حتى الآن كان ظهورها في بداية القرن السابع قبل الميلاد.

إن أنظار كثير من الباحثين تتجه إلى الكنعانيين سكان الساحل السوري كأول من أوجد العملة. ولكن هناك أيضاً مع يعتقد أن اكتشافها يعود إلى سكان مقاطعة «ليديا» على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تجاه اليونان الذين كانت لهم نشاطات تجارية واسعة عبر آسيا الصغرى. والواقع أنه حتى الآن لا توجد أدلة قاطعة على هذا أو ذاك.

هذه الواسطة النقدية الجديدة ساهمت في تسهيل التعامل الاقتصادي بدرجة ممتازة.

وأقدم النقود التي حُددت أوزانها رسمياً بواسطة أختام حكومية كانت تصنع في البداية من خليطة الذهب مع الفضة بنسبة ثلاثة أجزاء من الذهب وجزء من الفضة. ولكن تبين من فحص قطع العملة القديمة أن وزن الذهب كان يتذبذب بقوة بحيث أنه سرعان ما اهتزت الثقة بهذه الوسيلة النقدية الجديدة. فكان لا بد من سك قطع نقدية من الذهب الخالص وأخرى من الفضة الخالصة. وأقدم القطع النقدية كانت تظهر دون كتابات باستثناء القليل منها. ويكتفى بضرب شارة الدولة عليها. وهكذا كانت النقود الليدية مثلاً تحمل رأس أسد وبعض النقود الفينيقية تحمل صورة سفينة أو رأس إله أو صورة حصان وغير ذلك...

انتشر النقد الجديد بسرعة كبيرة في كل العالم المعروف آنذاك. وإن المزايا الكثيرة التي قدمها كانت في ذلك الزمن مدهشة.

من المحتمل أن الطريقة الأقدم في سك العملة كانت بأن تضرب القطعة النقدية على سندان تمَّ نقش الخاتم المطلوب عليه ليعطي الوجه الأول للعملة، في حين نقش على المطرقة ختم آخر ليظهر على الوجه الثاني للعملة. وكثير من النقود القديمة تبدو أشكالها غير منتظمة، الأمر الذي يوضح لنا أن القطعة المعدنية لم تكن توضع دائماً بصورة دقيقة في وسط الخاتم المنقوش على السندان، أو أن سقوط المطرقة لم يكن دائماً بالدقة نفسها.

الفصل الثامن

شمال الرافدين
والعصر الآشوري الجديد

تنازع السيطرة
بين بابل وآشور

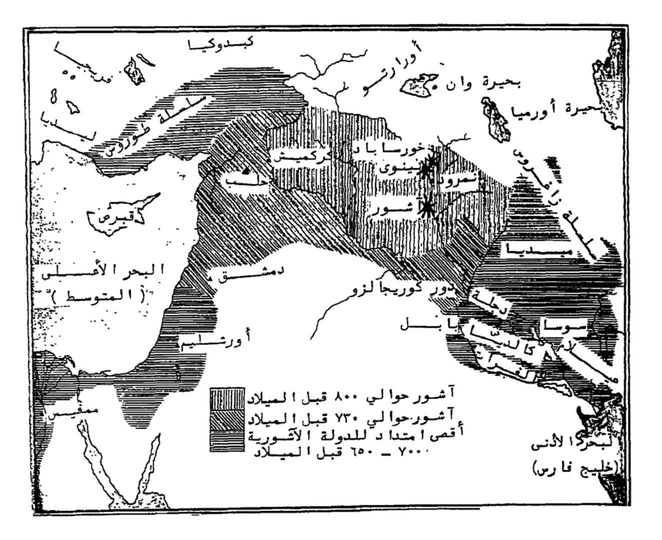
في سنة 729 قبل الميلاد تم للملك الآشوري «تغلات فلاصر» الثالث أن يطرد أحد شيوخ الآراميين الذي كان قد استولى على عرش بابل، وخرب المنطقة التي كانت تستوطنها قبيلته على الفرات الأدنى، وقرر أن يحكم بابل بنفسه.

وأثناء احتفال السنة الجديدة أمسك «تغلات فلاصر» بيد مردوك إله بابل فنودي به ملكاً على بابل.

وفي عهد خلفه سرجون الثاني تمردت جماعات الآراميين وتحالفت مع العيلاميين لإجبار الآشوريين على إعادة فتح الطرق التجارية المغلقة. وتمكنوا بذلك من تحقيق نجاح موقت. وهناك مدونات بابلية تؤكد أن الآشوريين قد خسروا أمام خصومهم. واستمرت بعد ذلك الحرب الباردة.

غير أنه في سنة 710 قبل الميلاد دخل سرجون الثاني بابل من جديد. وكانت لهذا النصر نتائج هامة. إذ أنه لم يجرؤ بعدها أي طرف على عصيان السلطة الآشورية. توطّدت سلطة السرجونيين (خلفاء سرجون الثاني) في كل أنحاء الهلال الخصيب وفي مناطق أخرى من إيران وآسيا الصغرى ومصر. وأمنوا تحت سيطرتهم الطرق التجارية كافة على الفرات ودجلة وعبر البادية السورية وفي سلاسل طوروس وزاغروس وأصبحت لهم نافذة مفتوحة على البحر المتوسط وعلى الخليج في الجنوب. وكل ما

العصر الآشوري الجديد ومراحل توسع الدولة الآشورية





موقع مدينة آشور كما تبدو من جهة الجنوب الشرقي. ويدعى الموقع اليوم «قلعة شرقاط».

احتاجوه وما أرادوا الحصول عليه سلمه إليهم التجار بكل رغبة وكذلك قدمه لهم أتباعهم والخاضعون لهم وحلفاؤهم وهم صاغرون. ويستدل فعلاً من مدونات تلك الفترة أن طلبات الآشوريين ورغباتهم كانت بمثابة الأوامر. وبالمقابل وجهوا عناية كبيرة لأمن الطرق والتنفيذ النظامي الدقيق لكل المعاملات من اقتصادية أو سواها.

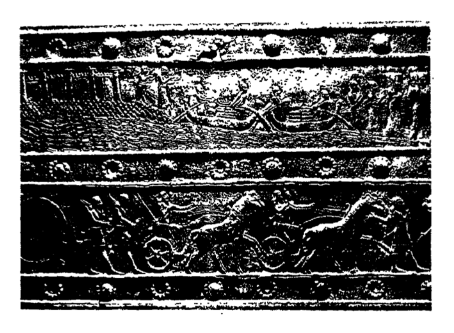
ومن الواضح أنهم كانوا يشعرون بثقة تامة في سلطتهم، حيث من الملاحظ أن أهم تطور حصل، ألا وهو تأسيس مملكة الميديين وراء جبال زاغروس، إما أنه لم يبد في نظرهم أمراً ذا أهمية، أو أن تكون قد غفلت عنه عيون جاسوسيتهم. وبهذا الصدد يمكن القول إن العملاق الآشوري كان يقف على رجلين من الفخار، الأمر الذي تبينت صحته بعد سنة 640 قبل الميلاد بزمن قصير، في حين كانوا في نينوى العاصمة يعتقدون أنهم وصلوا إلى أوج القوة.

في سنة 689 قبل الميلاد كان سنحريب قد قام بما لا يمكن تصوره عندما دمر بابل، المدينة الشهيرة المقدسة، والعاصمة الثانية لامبراطوريته الآشورية، والتي كانت تدعى بالأكادية «الرباط الذي بين السماء والأرض». وقتل من أهل المدينة من قتل وساق الباقين إلى العبودية. وحتى أرضها حيث كانت تقوم المعابد حوّلها إلى مراعٍ للماشية. بعد هذا الحدث بثماني سنوات قام أحد أبنائه بضربه حتى الموت بتمثال أحدَ الآلهة بينما كان يصلّي في أحد المعابد. وفي هذا الصدد تقول مدونة بابلية بكلمات مقتضبة جافة:

«إن آلهة سومر وأكاد لم تترك جريمته تمر من دون عقاب..»

قام خلفه أسر حدّون ببناء بابل من جديد. ولكن المدينة العريقة التي لم يكن التغلب على شموخها بهذه السهولة تعرضت في سنة 648 قبل الميلادللدمار مرة أخرى، ونُصّب فيها أحد الكلدانيين المسمى «كندالانو» بمرتبة نائب للملك. ولكن محاولة إرضاء البابليين بهذه التسمية لم تفلح في تخفيف نزعة الكراهية التي تولدت في قلوبهم ضد سلطة نينوى.

لا نزال نفتقر إلى معلومات مفصلة عن البنية الاقتصادية وعن حجم التجارة الخارجية الكثيفة للامبراطورية الآشورية التي كانت بمدارك ذلك الزمن امبراطورية عملاقة لم تنحصر في حدود الهلال الخصيب الطبيعية كما ذكرنا بل تجاوزتها إلى مناطق في آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران ومصر. وكان هذا أقصى اتساع لها ما بين 700 و 650 قبل الميلاد.



مقطع من أشرطة برونزية تزين أبواب أحد قصور العصر الآشوري الجديد في الموقع المسمى «بلاوات». تصور الزخرفة في الأسفل الملك شلمنصر الثالث بعرباته الحربية خلال حملته على الساحل الفينيقي (858 قبل الميلاد). بينما تصور الزخرفة العليا مدينة صور مرسلةً الجزية في زوارق لإرضاء الملك الآشوري.

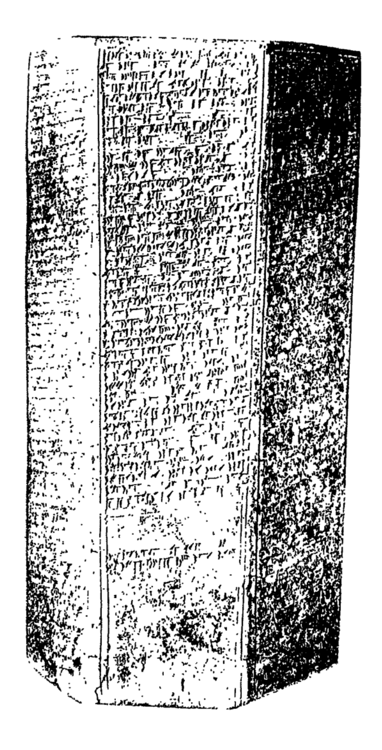


نقش تزييني من قصر آشور بانيبال في نينوى يصور الملك مع الملكة تحت عريشة العنب في احتفال على أنغام الموسيقى بمناسبة انتصاره على العيلاميين، وقد علق رأس خصمه الملك العيلامي المقطوع على الشجرة التي في الجانب الأيسر من الصورة.



سرجون الثاني مع وزيره. العصر الآشوري الجديد. 721ـ 705ق.م.

ـ من محفوظات متحف لندن ـ



نصب الملك أسر حدون الذي وجد في قصره بمدينة نينوى. ومن جملة ما جاء في الكتابة المسمارية حملاته التي سيطر فيها على البلاد السورية الغربية وكيليكيا والساحل الفينيقي ومصر وكل بابل.



نصب الملك الآشوري أسر حدون في «شمأل» المسماة اليوم «زنجرلي» في شمالي بلاد الشام (الخاضعة لتركيا اليوم) ويعود للقرن السابع ق.م.

ـ متحف برلين ـ

بالطبع توجد بعض النصوص من جهات مختلفة من الأمبراطورية. ولكنها لا تكفي لتوسيع وتعميق المعلومات التي تقدمها بضعة عقود تجارية ووثائق من آشور ونينوى وكلخو. وكل التحريات الأثرية التي تمت حتى الآن على أطراف هذه الأمبراطورية مثل الساحل السوري وبعض الأماكن في غربي بلاد الشام وفي أطراف طوروس وزاغروس لم تقدم مكتشفاتٍ فيها أخبار جديرة بالذكر عن الأمور الاقتصادية.

وربما كان لذلك سببان: الأول هو أن أغلب المراكز الإدارية الرسمية للآشوريين لم يتم الكشف عنها حتى الآن. والسبب الثاني والأهم هو أن الكتابة على الألواح الفخارية أصبحت قليلة في ذلك الزمن بعد تطوير أسلوب الكتابة على مواد أخرى كالرق أو البردي (البابيروس)، أي أن كل ما كتب على هذه المواد من أحداث ومعاملات منذ ما بعد القرن الثامن قبل الميلاد قد تعرض للتلف والضياع. وعلى كل الأحوال فإنه من الطبيعي أن تكون العلاقات التجارية قد بلغت في تلك الحقبة حدّاً من الإتساع لم تعرفه من قبل: وبالواقع توجد بين مخلفات أواخر القرن السابع قبل الميلاد خريطة للعالم المعروف آنذاك على لوح فخاري. وهي بالطبع غير دقيقة بمفهوم العصور اللاحقة للخرائط إلا أنها أقدم ما وجد من الخرائط حتى الآن. وتتمثل فيها أرض مسطحة محصورة بنهر يلتف حولها يدعى «النهر المرّ» وفي وسطها نهر الفرات. أما البلدان الغربية في جهات الأرض الأربع فقد عبر عنها ببعض الكلمات. والبلاد التي في الشمال أعطيت لها تسمية: «البلاد التي لا ترى فيها الشمس»، الأمر الذي يدعو للاعتقاد أن البابليين والآشوريين كانوا قد سمعوا شيئاً عن أيام الشتاء القطبية، وربما عن طريق تجار الكهرمان الذين يعرف عنهم أنهم في أزمنة مبكرة وصلوا بتجاراتهم حتى البحر الأسود وربما حتى أواسط آسيا الصغرى حيث التقوا بتجار بلاد الرافدين.

في سنة 631 قبل الميلاد مات «آشور بانيبال» آخر ملك قوي من الآشوريين. وكانت مذكراته قد انقطعت فجأة قبل موته بمثاني سنوات.

ويروي المؤرخ اليوناني هيرودوت أن «السكيتيين المتوحشين»[29] انقضّوا على

(29) كان السكيتيون شعباً بدائياً بعضهم قبائل رحل وبعضهم فلاحون. انتشروا منذ القرن الثامن قبل الميلاد في سهوب روسيا الجنوبية على البحر الأسود على مساحة واسعة لم تعرف حدودها الشمالية ووصلوا من الغرب حتى نهر الدانوب. ولم يستطع الفرس بقيادة داريوس التغلب عليهم. والأرجح أن ما ذكره هيرودوت من توغلهم حتى أطراف فلسطين من الجنوب يتفق مع ما ورد في نصوص العهد القديم في وصفهم كشعب قادم من الشمال قاسٍ لا يرحم. والجدير =

البلاد وأعملوا فيها السلب والنهب. ويبدو أنهم توغلوا حتى فلسطين دون أن تقف في وجههم قوة تذكر. وعاثوا في البلاد فساداً ثم انسحبوا باتجاه الشرق.

أخذت تظهر الدلائل على تضعضع الجيش الآشوري. ففي بابل قام الحاكم الكلداني «نبو بولاصر» سنة 627 قبل الميلاد بتزعم حركة ثورة سريعة. وبعد ذلك بسنة واحدة جلس على عرش بابل. وخلال عشر سنوات هاجم كل المدن التي حصنها الآشوريون في جنوبي الرافدين واحتلها الواحدة بعد الأخرى. كما احتل في سنة 616 قبل الميلاد مدينة نيبور وزحف باتجاه أعالي الفرات ودجلة ولكن دون أن يستطيع احتلال مدينة آشور. بعد سنتين فقط استطاع الميديون بهجوم مفاجىء احتلال آشور[30]، فقتلوا القسم الأعظم من سكانها ونهبوا المدينة تماماً. وجاء وصول البابليين متأخراً بعد أن كان الميديون قد انتهوا من كل شيء. وفي مدينة آشور توصل الطرفان إلى عقد تحالف ضد الدولة الآشورية. وفي سنة 612 قبل الميلاد زحف المتحالفون سوية ضد العاصمة الآشورية الجديدة نينوى التي سقطت بأيديهم بعد حصار دام شهرين فقط، نهبوا المدينة ثم خربوها تخريباً تاماً. وفي نهاية تلك السنة زالت الأمبراطورية الآشورية التي دوخت العالم القديم وتركت انطباعاً من الرهبة والقوة لم تتركه دولة غيرها في تلك الحقب أو قبلها. وكتب «بنو بولاصر» في مذكراته:

«..لقد ذبحت أهل البلاد العالية. وحولت تلك البلاد العدوانية إلى خرائب. وألقيت عبئها عني إلى الأبد...».

وهكذا فإن الامبراطورية الآشورية لم تتمتع بحقبة طويلة من الاستقرار بل بقيت سلطتها بين مدّ وجزر إلى أن عاد مركز الثقل مجدداً إلى قلب الرافدين بابل، وأصبح الملوك البابليون من الكلدانيين على مدى عقود عدة من الزمن سادة الهلال الخصيب، وعادت بابل المدينة لتظهر بمثابة عاصمة عالمية خلال الحقبة التي تدعى عصر الدولة الكلدانية أو البابلية الجديدة.

= بالذكر أن مدينة بيسان حملت لفترة قصيرة اسم «سكيثوبوليس Scythopolis نسبة إليهم.
أنظر: ارميا، الإصحاح السادس: 22-23.
انظر أيضاً في تعريفهم: Woerterbuch der Antike, p.692 (Stuttgart 1989).

(30) يعتبر الميديون بالأصل أبناء عم الفرس. وكانت منطقة انتشارهم فيما وراء سلسلة زاغروس إلى الجنوب الشرقي من بحيرة أورميا حيث نشأت مملكتهم. وباتحادهم مع الفرس فيما بعد نشأت الأمبراطورية الفارسية الكبرى.

الفصل التاسع

وسط الرافدين والعصر البابلي الجديد

العصر البابلي الجديد
بابل مركز إشعاع عالمي

بعد موت «نبو بولاصر» اعتلى عرش بابل ابنه «نَبو كودُورّي أُصُر» ـ ويعني هذا الاسم بالأصل: الإله نبو حامي الحدود ـ. غير أن اللفظ الذي شاع استعماله عالمياً هو «نبوخذ نصر» المعروف، والذي نتج عن تحريف لفظي للاسم الأصلي.

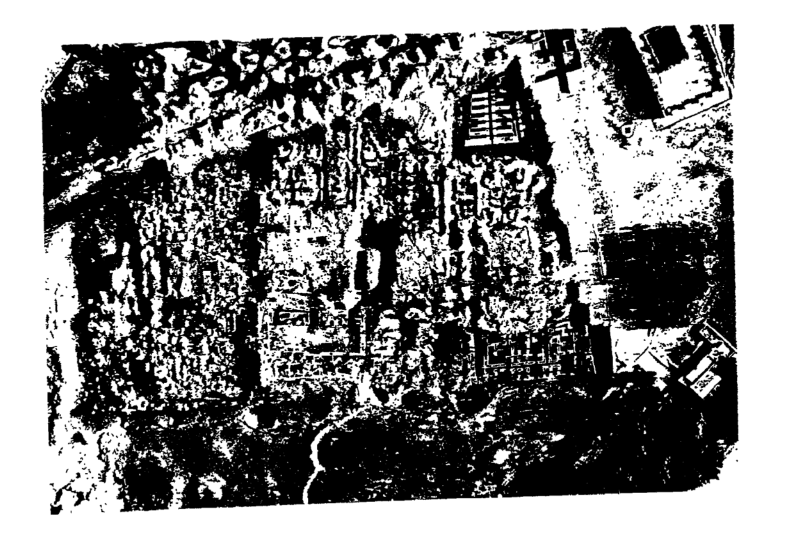
وقد استمر حكمه من 605 حتى 562 قبل الميلاد.

أخرج نبوخذ نصر بلاد الشام من تحت السيطرة المصرية، وضرب اليهود في فلسطين ضربة قاصمة ونفاهم إلى بابل، وألحق بسلطته منطقة كيليكيا. وأصبحت بابل في عهده مركز امبراطورية جديدة شملت كامل الهلال الخصيب واعتبرت امبراطورية عالمية. غير أنها لم تعمر طويلا.

في خريف سنة 539 قبل الميلاد أثناء حكم «نابونيد» الذي كان ملكاً ضعيفاً هاجم الفرس (في عهد قوروش الثاني) بابل واحتلوها في الثاني عشر من شهر تشرين الأول. وعلى غير عادتهم عامل الفرس المدينة باحترام كبير وحاولوا عدم الإساءة للبابليين. واعتبر قوروش نفسه خليفة للملوك الكلدانيين وأحاط مردوك إله بابل الكبير بكل أنواع الاحترام.

لقد أثبتت المكتشفات الأثرية صحة الوصف الذي جاء عند كتاب ذلك الزمن عن بابل في عهد السيادة الكلدانية القصيرة الأمد.

قام بنوخذ نصر بإعادة إعمار المدن السومرية والأكادية كافة من سيبار حتى أور



صورة جوية لجانب من موقع مدينة بابل وهو ما يسمى بالقلعة الجنوبية وذلك حوالى القرن السابع قبل الميلاد.

وأوروك. وبابل المدينة حظيت باهتمام كبير منه. فقد جعل منها أعجوبة العالم لدرجة أن النبي اليهودي إرميا يسميها «إناءً ذهبياً في يد الإله» وهيرودوت الذي زار المدينة سنة 460 قبل الميلاد هتف مدهوشاً:

«إن أبهتها تفوق أبهة أية مدينة أخرى في العالم...».

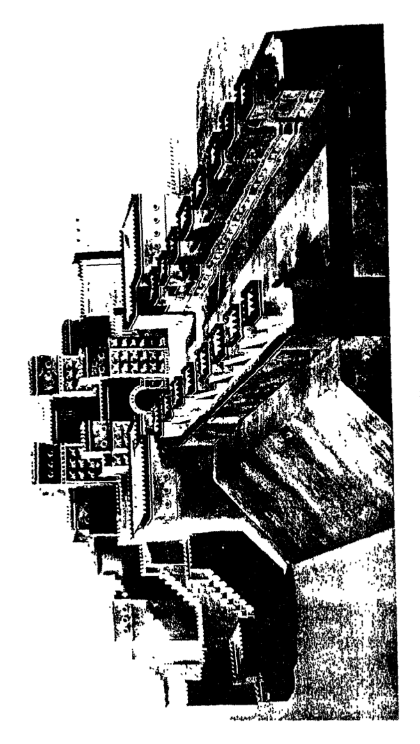
كانت بابل التي يقدر أن مساحتها بلغت 200 هتكاراً تعتبر بمفهوم ذلك الزمن مدينة ضخمة بالفعل. والأخبار التي ترد عند هيرودوت وفي الألواح الفخارية تذكر أن المدينة كان فيها 1179 من المعابد والقصور وأحتوت على نصف مليون من السكان.

وسور الدفاع المزدوج الذي افتخر به الملك يتضح أنه كان في ذلك الزمن نظاماً دفاعياً يعتبر تجاوزه شبه مستحيل. ولم يستطع قوروش الفارسي دخوله إلا بالحيلة. وكانت قد غطته الأبراج الكثيرة على أبعاد منتظمة. وبلغ طوله خمسة عشر كيلومتراً. أما عرضه فكان يتسع لعربتين حربيتين تسيران بجانب بعضهما البعض علماً أن ما ذكرناه في فقرة سابقة (المدينة العالمية الميتة) من أن عرضه كان يتسع لأربع عربات حربية إنما يقصد به بعض الأجزاء من السور فقط. وكان من السهل توزيع الامدادات هنا وهناك بسرعة. ورماة السهام كانوا يحرسون بشكل مستمر على الأبراج الملاصقة لأبواب المدينة. وقد بنيت الأبراج والأسوار من القرميد المشوي. ومن الخارج كانت أقنية مائية تحمي الأسوار. وكان معظم المساحة ما بين السور الخارجي والسور الداخلي مسكوناً. وسكانه كانت لهم بيوت صغيرة مبنية من الطوب تتخللها الحدائق وأشجار النخيل. ولا يستبعد أن هذه البيوت الصغيرة الواقعة بين السورين الداخلي والخارجي كانت لسكنى الجنود الذين يدافعون عن المدينة. والمرجح أنه في المنطقة نفسها أيضاً كان يقع القصر الصيفي لنبوخذ نصر ومعبد احتفالات السنة الجديدة. وفي السور الداخلي ثماني بوابات سميت كل منها باسم أحد الآلهة، وتؤدي إلى داخل المدينة. كانت أشهرها بوابة عشتار في الجهة الشمالية الغربية التي سلمت من الخراب أكثر من بقية البوابات وكان لها دور بارز في الحياة الدينية للمدينة. وقد كسيت بالقرميد المطلي بمادة زجاجية زرقاء تزينه رسوم الثيران والتنانين. وفي هذه البوابة كان يمر شارع المواكب المبلط وله من العرض تسعة عشر متراً، يؤدي إلى معبد مردوك وإلى الزقورة العليا. ويعتبر هذا الشارع بمعابده وقصوره أحد أفخم الشوارع في عالم ذلك الزمن.

خلف سور المدينة يوجد ما دعاه الآثاريون «القلعة الجنوبية» التي وصفت في الألواح المسمارية بأنها «أعجوبة البشرية ومقر الملك المشرق ومركز البلاد» وذلك تعبيراً

بوابة عشتار كما كانت في العصر البابلي الجديد
وفي الخلف معبد ننماخ بعد ترميمه.





بوابة عشتار العائدة للعصر البابلي الجديد.
- كما أعيد تركيبها في متحف برلين -

عن القصر الذي بناه نبوخذ نصر والذي كان له مدخل وحيد واسع من جهة شارع المواكب.

لم توجد تماثيل حجرية ولا تزيينات محفورة بل أشرطة من البلاط المطلي بالزجاج تزينها صور حيوانات ونباتات وأعمدة. وخلف الأسوار كانت ثلاثة أبنية متميزة دعاها الآثاريون: القلعة الشمالية والقلعة الرئيسية والاستحكام الأمامي. والمرجح أنها كانت مراكز دفاعية. وبين ركامها وجدت قطعة فنية اشتهرت باسم: أسد بابل، وهي عبارة عن لوحة حجرية رائعة نقشت عليها صورة أسد يدوس رجلاً حتى الموت.

وكان شارع المواكب يصل إلى نهر الفرات في نقطة أقيم عندها جسر ارتكز على دعائم فقط. ويعتبر بالنسبة لذلك الزمن إنجازاً مدهشاً.

للمدينة شكل مربع تقريباً والشوارع والأزقّة مستقيمة. والقادم إليها من الشمال كان أول ما يعبر واحات النخيل والبساتين وبيوت الضواحي حيث الازدحام الشديد، فهناك التجار والمتجولون وراكبو العربات بأنواعها. فإذا اجتازها الإنسان دخل بوابة عشتار حيث يرى الشارع الفخم العريض. وغير بعيد عن البوابة كان معبد عشتار الذي يقع في القسم السكني من المدينة وهو أقدم أقسامها. وكانت بيوته كلها تقريباً ذات شكل موحد ومربعة في الغالب وسقوفها مسطحة. ومن المؤكد أنه كان مأهولاً بكثافة كبيرة إذا كانت المدينة فعلاً قد احتوت على نصف مليون إنسان.

إن اللغز الذي ما زال يشغل الباحثين ولم يفسر حتى الآن هو موضوع الحدائق المعلقة في بابل، رغم أنه ليس خرافة أو من نسيج الخيال. فالمؤرخون القدامى كانوا يدعون القصر الملكي في بابل: «منطقة حدائق سميراميس المعلقة». وكان اعتقادهم أن الملك نبوخذ نصر أمر بإنشائها تكريماً لـ «أمييتس» ابنة ملك الميديين التي أصبحت زوجة له، وليذكرها بأشجار وأزهار مسقط رأسها في بلاد فارس. وكانت هذه الحدائق من عجائب العالم القديم. وبعض الأساطير القديمة تنسبها إلى ملكة عاشقة غامضة من آشور. ويذكر الكتّاب الكلاسيكيون أن بعض الناس كانوا يأتون من بلدان نائية لمشاهدة هذه الأعجوبة ما بين السماء والأرض فوق سطوح بابل. إلا أنه حتى الآن غير معروف بالضبط ماذا وكيف كانت تلك الحدائق بالفعل.

في أحد الألواح الفخارية يتضمن النص ذكراً لأحد الملوك البابليين قائلاً أنه نظراً لمحبته للنباتات أمر بإنشاء حديقة مدهشة.

أما شارع المواكب الكبير فكان مرصوفاً بالحجارة فوق طبقات متعددة من القرميد. وكل قطعة قرميد تم عزلها بالأسفلت بصورة نظيفة ومتقنة. والطبقة العليا التي هي أرض الشارع الحقيقية رصفت بقطع كبيرة منحوتة من الحجر الكلسي تخالطها حجارة حمراء مربعة الشكل. وأهم ما في هذا الشارع أن كل حجر فيه نقشت عليه هذه العبارة:

«أنا نبو كودورّي أوصور بن نبو بولاصر مالك بابل. أنا أمرت بتبليط هذا الشارع من أجل مواكب الإله مردوك...»

وفي وسط ساحة عامة كبيرة غير بعيدة عن القصر الملكي كانت تقوم الزقورة العملاقة المسماة «معبد السماء والأرض» والتي عرفت عالمياً باسم برج بابل. إلا أنه لم يكد يبقى شيء ذو قيمة من هذه الأعجوبة. وكل التصورات الموجودة عن شكل البرج تستند إلى وصف هيرودوت الذي شاهده وإلى قياساته المذكورة في أحد الألواح الفخارية. وكما يعتقد باحث الآثار الفرنسي «بارو Parrot» كان يبلغ طول كل من جهاته عند الأرض حوالي ثلاثين متراً. وقد تكوّن من سبع طبقات وبلغ ارتفاعه الاجمالي حوالي تسعين متراً، بحيث كان له شكل الهرم المدرّج وله على قمته قاعة للمذبح.

كان معبد مردوك، أكبر آلهة بابل، بقبته الذهبية العالية واحداً من أجمل المباني في بابل. وقد صوروا هذا الإله على حجر أسطواني من اللازورد وله قلنسوة عالية مزينة بالريش والورود ولحية طويلة، وشعره الطويل يتدلى بشكل خصل وراء رأسه. ويغطي الجسم رداء طويل يصل حتى القدمين مزين بنجوم مصفوفة على شكل دوائر صغيرة، وقد أمسك بيده اليسرى، المرفوعة، الصولجان والإكليل وباليمنى نوعاً من السيوف المقوسة. بالقرب منه الأفعى الحمراء «سيروش» أي التنين البابلي الذي صوروه بشكل كائن مختلط تمثلت فيه قوى مملكة الحيوان، وكان إلى جانب الآلهة في القتال الدائم ضد القوى الشريرة.

وكان أعظم الاحتفالات في معبد مردوك هو احتفال السنة الجديدة في شهر نيسان، حيث يستمر إثني عشر يوماً ويعتبر من طقوس الخصوبة وكان يشارك فيه الملك. وتبلغ هذه الشعائر أوجهاً في اليوم السابع، يوم الموكب الكبير.

فكرة عن الحياة البابلية

في معظم الأحياء السكنية من المدينة لم يبق ما يدل على شكل واجهات الأبنية التي كانت فخمة دون شك، استناداً إلى وصف المدينة في المصادر القديمة. والبيوت كانت قريبة بعضها من بعض والأزقة ضيقة ولها منعطفات حادة وأرضها ترابية. وبالواقع فإن هذا ما عرفته كل مدن العصر القديم إذ لا نزال نرى هذه الأزقّة حتى اليوم في أغلب المدن الحالية. أما الشوارع العريضة فكانت تؤدي إلى وسط المدينة وإلى تلك الأحياء التي احتوت على المخازن التجارية الكبيرة. هذا ولم يوجد في الحفريات ما يشير إلى الأرصفة أو المجاري. وكان يتم جر مياه الشرب في أقنية على قناطر تتفرع من ثم إلى الأحياء السكنية في أقنية مكشوفة ومطلية بالأسفلت. وبيوت الناس البسطاء بنيت بالطوب المجفف أما بيوت الموسرين فكانت مبنية بالقرميد المشوي. واعتبرت سطوح البيوت المستوية بمثابة الشرفات. وأما جدران البيوت من الخارج فلم تكن عليها زخارف وغالباً ما كانت مدهونة بالأبيض. ويمكن الاعتقاد أن الأحياء السكنية لم تختلف كثيراً بمظاهرها عن أحياء اليوم في أكثر المدن.

وأما عن تجهيزات البيوت فليست هناك معلومات أكيدة إلا من خلال ما يشاهد على الرسوم المختلفة. إذ من الممكن أن الكثيرين وخصوصاً بسطاء الناس كانوا ينامون على فرش محشوة بالحلفا وربما استخدم بعضهم الصوف أيضاً. ويلاحظ أنه كانت لديهم أسرّة عالية شبيهة بالطاولات. كما استخدموا في الجلوس الكراسي والمقاعد ذات المساند لليدين ومسند عميق للظهر. ووجدت عندهم طاولات منخفضة ولكن الأرجح أن أغلبهم كانوا يأكلون على طاولات عالية. وتشير الحفريات إلى أن الحمامات وجدت عموماً في بيوت الناس المترفين والطبقة الوسطى. أما البسطاء فكانوا يغتسلون جانب حوض للماء أو بئر موجود في فناء الدار. كما أن الجميع باستثناء أفقر الناس كانوا يرون من الضروري أن يدهنوا أجسامهم ورؤوسهم يومياً بالزيت لاتقاء جفاف البشرة في حرارة الشمس والمحافظة على مرونتها ولتجنب أذى الحشرات والهوام. ولم يكن الصابون معروفاً بشكله الحالي لذا استخدموا لتنظيف أنفسهم خليطاً من الزيت والرمل الناعم والطين والصودا أو البوتاسيوم.

تميز رجال الطبقة العليا وأصحاب المراتب بلحاهم الطويلة والمقصوصة بشكل مربع، بينما كانت لرجال الطبقة الدنيا لحى قصيرة ولكنها أيضاً مقصوصة بشكل مربع.

وألبسة الرجال بشكل عام عبارة عن ثوب طويل من الكتّان فوقه سترة من الصوف تختلف سماكتها باختلاف فصول السنة ثم قفطان أبيض. ولبسوا في أرجلهم ما يدعى بالصندل. وحملوا بأيديهم عصا مصنوعة بعناية ولها قبضة محفورة على شكل رأس كبش أو شكل وردة أو صقر أو زنبقة. وأما لباس البسطاء كالفلاحين والعمال فيبدو عبارة عن معطف يصل إلى الركبتين وله أكمام قصيرة وحزام في وسطه.

وألبسة النساء كانت بسيطة وتغطي كامل الجسم. وإذا خرجت المرأة من البيت وضعت غطاء لرأسها يستر شعرها ويتدلى من الجانب.

النظم الاجتماعية

احتل الأحرار المرتبة الأولى في الطبقات الاجتماعية. وكان الأساس في العائلة هو الزواج. والقاعدة الثابتة هي الزواج بامرأة واحدة. غير أن الزواج من أخرى (أي ما يدعى الضرة) لم يكن ممنوعاً. واتصفت عقود الزواج بالبساطة، حيث كان الرجل قبل تثبيت العقد الرسمي يأخذ في يديه وشاحاً بحضور الشهود ويغطي به رأس المرأة قائلاً: «ها هي زوجتي». ويحدد القانون مدلول غطاء الرأس هذا بجعله إشارة خارجية مميزة للمرأة الحرة. ولم يكن مسموحاً للمحظية أو الأمة باستعماله إلا في حالة مرافقتها للزوجة الشرعية خارج البيت. وكان عليها بحكم القانون أن تظهر الاحترام الكافي للزوجة الشرعية وتحمل لها كرسيها إلى المعبد وتساعدها في البيت على إتمام زينتها.

وكما في كل المجتمعات الأخرى كان العبيد هم الطبقة الدنيا بشكل عام. فالعبد كان يعتبر بمثابة قطعة من الممتلكات الخاصة. وفي الوثائق والمعاملات كافة يسجل في عداد الأملاك المنقولة. ولم يكن يرد أي ذكر لإسم أبيه. وإن أصابه إنسان بأذى كان لسيده فقط الحق في طلب التعويض. وكان له سعر متفق عليه كأية مادة تجارية حتى أن القانون كان يحدد أسعار العبيد أحياناً. ولكن قتل العبد كان ممنوعاً منعاً باتاً. وكان جلده يحمل وسمة سيده. ومن يستأصل هذه الوسمة يعاقب بقطع يده حيث كان ذلك يعتبر بمثابة الاعتداء على أملاك الغير أو السرقة. وكانت في العادة إضافة لذلك تعلق في رقبته سلسلة تحمل اسمه واسم سيده.

والعبدة لم يكن عليها فقط إنجاز الأعمال المنزلية، بل وحتى تقديم ما يطلب سيدها من احتياجات جسدية، وكان بإمكانه تقديمها للآخرين لهذا الغرض مقابل أجرٍ

يتناوله هو. واعتبر ولد العبد عبداً مثله. ولما كان رجال الأعمال يهتمون دائماً بإكثار ما يملكون من عبيد فقد شجعوا كثيراً حالات الزواج بين العبيد أنفسهم. ومن جملة الأمور التي كانت تهدف إليها الحروب أحياناً الحصول على أعداد من أسرى الحرب الذين يتحولون بحكم الواقع إلى عبيد وبالتالي إلى أيدٍ عاملة رخيصة. والجدير بالذكر أن مختلف الحقب القديمة عرفت نوعاً آخر من العبودية عدا عن ذلك: فمن كان مديناً وعجز عن سداد ديونه ولم يكن لديه ما يرهنه يقع في عبودية الدائن ولو إلى أمدٍ معلوم[31].

مقابل هذه الصورة السلبية تقدم لنا الألواح الفخارية المكتشفة معلومات كثيرة تعكس وجهاً إيجابياً لحالة العبيد ومعاملتهم في بابل يساهم إلى حدٍ ما في تبييض هذه الصفحة السوداء.

فعلى الرغم من أن العبيد كانوا ملكاً لأسيادهم تفاجئنا كتابات الألواح المذكورة بأنهم استطاعوا في بعض الأحيان أن يمارسوا أعمالاً اقتصادية خاصة بهم وأن تصبح لهم أموال. وعلى أيدي العبيد كان يتم قسم كبير من التجارة والتعامل المصرفي. وبهذا الصدد يذكر لوح فخاري بكل وضوح أن أحد العبيد استأجر بيوتاً من امرأة حرة وعاد

---

(31) ما هو معروف تماماً أن كل هذه الأمور المتعلقة بوضع العبيد ومعاملتهم لم توجد حصراً في بابل فحسب. فمن يتتبع تاريخ العبودية في العالم كله وعبر كل الحقب التاريخية يجد أمثلة لا تحصى مشابهة لبلاد الرافدين، لا بل وأسوأ منها بكثير. وحتى في عصرنا الحالي لم تزل هذه المسألة نقطة سوداء في حياة أكثر الدول تطوراً. ولم يزل كثير من البشر في أماكن مختلفة من العالم يعانون بشكل أو بآخر من بقايا عبودية الزمن القديم أو حتى من ألوان حديثة للعبودية بأساليب عصرية. والمؤلفات التي تناولت هذه المسألة سواء قديمها أو ذيولها العصرية لا سبيل لإحصائها.

انظر مثلاً:

W.W. Buckland, The Roman Law of slavery (Cambridge 1908)..... W.L. Westermann, The slave system of Greek and Roman Antiquity (Philadelphia 1955).

H. Volkmann, Die Massenversklavungen der Einwohner eroberter Staedte in der hellenistisch Zeit. 1961.

T.V. Blavatskaja, Die Sklaverei in den hellenistischen Staaten vom 3.-1. Jh. v. Chr. 1972.

H.Klees, Herren und Sklaven, 1975.

M.I. Finley, Die Sklaverei in der Antike, 1981.

فأجرها بفروق مالية جيدة. ويخبر لوح آخر عن تأجير أحواض السمك التابعة لعائلة الصيارفة اليهودية «موراشو» في مدينة نيبور لأحد العبيد المسمى «ريبات» مقابل نصف طالن من الفضة سنوياً مع تقديم سمكة طازجة يومياً لمائدة «موراشو».

والمالك الذي كان يلاحظ موهبة عند أحد عبيده في التجارة لم يكن يتردد في تكليفه بانجاز عمليات تجارية كبيرة أو إعطائه ما يلزم من المال بشكل إعارة لتأسيس مشروع تجاري يستقل به لنفسه. ومن جملة الأمثلة على ذلك أن أحد التجار قدم لعبده 889 شاقلاً من الفضة ـ وهو مبلغ ضخم ـ بفائدة سنوية قدرها 30 بالمئة ليقوم بتجارة خارجية لمصلحته الخاصة مستقلاً عن سيده.

من الطبيعي أن حالات من هذا النوع كانت تنجم عنها ازدواجية بين الوضع المالي الجيد لهؤلاء العبيد وبين وضعهم القانوني كملْكٍ لشخص آخر في آن. وبالطبع كان لهذه الإزدواجية انعكاسها على الطرفين. وهذه المسألة توضحها لنا أيضاً بعض الألواح الفخارية. فالعبد الذي تيسَّر له أن يجمع مالاً ويقتني أملاكاً كان لديه الأمل في الأحوال كافة أن يشتري حريته. وفي هذه الحال كانت تجرى مراسيم براءة رمزية وعلنية أمام شهود يصبح العبد بعدها حراً دون قيد أو شرط.

ما من شك في أن الثراء الهائل الذي حققته بابل كان من جملة عوامله اقتناء العبيد. ففي عصر كانت فيه الآلة غير معروفة يعتبر أمراً بديهياً أن يتعلق إنتاج السلع كافة باليد العاملة. هذا وأن الطلب المتزايد على البضائع احتاج باستمرار إلى اليد العاملة الرخيصة أكثر فأكثر، الأمر الذي عرفه عصرنا الحالي أيضاً. وهذه المسألة أمكن التغلب عليها بأبسط الوسائل التي هي استخدام العبيد. فتشغيل العبيد كان الوسيلة التي ضمنت استمرار الرفاهية وتجميل المدن وتغطية الاحتياجات المحلية وتوسيع الصادرات، وذلك كله دون الحاجة إلى دفع أجور عمل أو التخوف من الإضرابات.

ليست هناك معلومات عن عدد العبيد الذين تم تشغيلهم في بابل. ولو اعتمدنا على بعض التقديرات المستنتجة من المقارنات لتوقعنا أن عددهم كان ربما يتجاوز المئة ألف.

بابل في أوج القوة التجارية

كانت القوافل من كل الجهات تتجه إلى بابل. فالسيطرة الاقتصادية المتميزة التي خلقها نبوخذ نصر شجعت الإحساس التجاري الطبيعي والمهارة عند رعاياه. ويمكن أن نتصور كيف كان أصحاب التجارات الخارجية والمصرفيون يجلسون في مراكز عملهم للتباحث مع وكلائهم وعملائهم التجاريين القادمين من مختلف جهات العالم القديم حول تسليم مختلف السلع، كاللؤلؤ من الخليج واللازورد وأحجار كريمة أخرى من بلاد الصُغد (أفغانستان) والتوابل من الهند وأخشاب الأرز من جبل لبنان والفضة من القوقاز والنبيذ والزيت من بلاد الشام، وبالمقابل المنسوجات البابلية والحلي والتمور والشعير.

وكانت الحركة التجارية قد بلغت درجة ممتازة من التنظيم والدقة. فتم تنظيم القيود للقوافل التجارية وأوقات رحلاتها والزمن المتوقع لوصولها والبضائع التي تنقلها والأموال ورسائل القروض التي تحملها معها. وكانت البضائع الواردة والمعدة للتصدير تكدس في مخازن ضخمة. وأعداد كبيرة من الموظفين تقوم بحسابات الجمارك والضرائب الأخرى وتعطي التأشيرات الضرورية.

لقد ساعدت الحروب في توسيع التجارة. فمدينة صور الساحلية حوصرت وتم الاستيلاء عليها للحد من منافسة التجار الكنعانيين القديمة لمدن الرافدين. وفرضت على المدينة ضريبة سنوية ثقيلة. ولم يتوصل البابليون مع ذلك لتعطيل تجارة هذه المدينة العنيدة. ولكن بعد مرور قرنين ونيف استطاع ذلك الاسكندر الكبير عندما أعطى لمدينة الاسكندرية المقام الأول بدلاً من صور. وعلى كل حال فقد مرت حقبة لم يبق فيها لبابل عملياً أي منافس بالمعنى الصحيح. وساعدت على ذلك شبكة الطرق العسكرية التي أنشأها نبوخذ نصر. على الرغم من كل ذلك أصبح التنافس عبثاً حقيقياً عندما تكون حملة عسكرية طريقاً للسيطرة الاقتصادية البحتة. إذ أصبحت لا تهمّ البابليين الانتصارات العسكرية بحد ذاتها أو الشهرة من خلالها وصارت الحروب تهدف بشكل أساسي إلى تدعيم التفوق الاقتصادي. فوجب بذلك الإنفاق على الجيوش بسبب التجارة والرخاء الاقتصادي ولم يكن الهدف الرئيسي ممارسة البطولة بحدّ ذاتها. ولكن يجب الاعتراف في هذا الصدد بأن الحروب بهدف ممارسة البطولة فقط لم توجد في أيّ من الحقب التاريخية لا القديمة ولا الحديثة، وهي إن وجدت ففي حالات نادرة جداً. فمنذ أقدم

الأزمنة كانت المصالح الاقتصادية هي الحافز الأساسي بشكل من الأشكال لقيام الحروب. وهذه المصالح كانت لها أشكال مختلفة تبعاً لأحوال القوى المتحاربة. فالشعوب التي كانت على درجة دنيا من الحضارة كانت تشن الغارات وتجتاح المناطق المعمورة للسلب والنهب. وقد مرت معنا أمثلة على ذلك فيما سبق. أما الشعوب المتطورة ذات الاقتصاد النشيط فكانت الحروب تخدم استمرار تجارتها من خلال الإبقاء على طرق المواصلات وعلى مناطق نفوذ حيوية وأسواق للتصريف كما نرى في سياق هذا البحث.

وإذا تجاوزنا مثال بابل لوجدنا أن الاصطدام الكبير بين قرطاجة وروما، الذي كان بداية سلسلة أطول وأعنف حروب شهدتها تلك الحقبة، إنما كانت دوافعه هي المصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى. ثم ما تبع ذلك من زوال قرطاجة وسيطرة الأمبراطورية الرومانية على حوض البحر المتوسط، الأمر الذي لم يكن لإظهار بطولات الرومان بقدر ما كان لأجل الإمساك بأعصاب الاقتصاد الخارجي. والأمثلة على ذلك كثيرة.

ولو انتقلنا إلى عصرنا الحالي، منذ بداية الحملات الاستعمارية حتى أيامنا هذه، لما وجدنا حرباً واحدة شنّتها دولة خارج أراضيها إلا وكانت وراءها دوافع اقتصادية حتى لو توهم الناس أن هناك أسباباً أخرى.

ومن المعروف أن الدول العصرية تعلمت الكثير من دول الأزمنة القديمة سواء في هذا الميدان أو غيره. وبتعبير آخر يعتبر الصراع من أجل المصالح الاقتصادية سلسلة كانت بدايتها منذ ما قبل الحقبة البابلية بكثير ولم تنقطع في أي وقت من الأوقات. عاشت بابل مرحلة من تاريخها كانت فيها أشبه بشبكة العنكبوت إذ أصبحت مركزاً امتدت منه الطرق في كل الاتجاهات وبشكل هادىء ومنظم.

فعلى الطريق الشمالي كانت قوافلها تسير إلى إكبتانا عاصمة ميديا (وهي اليوم همذان) ومنها إلى هراة في أواسط آسيا شرقي إيران. كما سارت القوافل إلى بكتيريا (أفغانستان حالياً) والهند. وأما غرباً فكان هناك طريق يماشي نهر الفرات باتجاه الشمال ثم يتفرع منه واحد يصل حتى مصر بعد أن يعبر فينيقيا وفلسطين ومؤاب. وعلى هذا الطريق كان يستورد البخور الذي استُهلك بكثرة في المعابد (انظر تجارة البخور في ملاحق الكتاب).

كما وجد طريق يتجه من الهند عبر جنوبي فارس وأرض العيلاميين كانت تنقل

عليه إلى بابل السلع الهندية كالحجارة الكريمة والتحف المصنوعة من العاج والأنسجة الناعمة والمطرزات والتوابل وخشب الصندل والأصبغة، حيث كانت تتم إعادة تعبئتها لتصدر من بابل باتجاه كيليكيا وفريجيا (في شمالي آسيا الصغرى) وليديا (على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تجاه اليونان). ولم يعرف عن التجار البابليين أنهم أهملوا أي شيء، لا في التصدير ولا في الاستيراد، لا في تجارة الترانزيت ولا في التجارة المحلية، لا في الأعمال المالية ولا في النقليات. حتى أنه وُجِد عند البابليين ما يشبه البورصة التي تحدد فيها الأسعار يومياً. كما وجد ما يدعى في زمننا هذا غرفة التجارة، كانت تقوم بمهمة هيئة تحكيم في المنازعات التجارية وتمثل مصالح أعضائها لدى السلطات الحكومية.

ووجدت حسابات مصرفية وملفّات وسجلات للحسابات والموازنات السنوية. وإن لوائح الحسابات والمراسلات التي خلفتها العائلة المصرفية والتجارية «موراشو» في مدينة نيبور على الفرات (والتي ورد ذكرها آنفاً) تعطينا فكرة عن الإيرادات والأرباح، خصوصاً وأنها كانت في ذلك العصر تعد من كبريات البيوتات التجارية والمصرفية. وكان رب هذه العائلة «موراشو» أحد اليهود الذين نفاهم نبوخذ نصر سنة 587 قبل الميلاد من القدس إلى بابل، وأُرسل منها للإقامة في نيبور. ومن الواضح أن أبناء «موراشو» كانوا على درجة كبيرة من المكر، وإلا لما تمكنوا في المنفى من أن يصبحوا بين كبار أغنياء بابل.

عصر التدهور
ونهاية الأمبراطورية البابلية

ذلك الرخاء العظيم الذي وصفناه فيما سبق لم يستمر طويلاً بعد موت نبوخذ نصر في سنة 562 قبل الميلاد. والواقع أنه منذ السنوات الأخيره لحكمه كانت الدولة قد بدأت تواجه صعوبات مالية نتيجة للنفقات الهائلة التي تحملتها في إعادة إعمار المدن البابلية وتجميلها. ورغم عدم ظهور هذه الصعوبات بشكل مرهق فقد استمرت طيلة الفترة الأخيرة من حكمه.

وفي أيام نابونيد آخر ملك بابلي (556ـ 539) كانت عملياً كل البلدان الشمالية والشرقية باستثناء عيلام قد أصبحت مغلقة في وجه التجارة البابلية. في الفترة نفسها أخذ النفوذ اليوناني في آسيا الغربية يتسع تدريجياً وبشكل أكثر وضوحاً. والمدن الكنعانية

الساحلية التي لا تزال تحت سلطة بابل لم تعد هي المراكز التجارية الكبرى على الساحل السوري بل أخذت تعلو عليها مراكز أخرى في إيونيا (على الساحل اليوناني) وكيليكيا وليديا ومصر.

ويدأ الخلل مع ازدياد نفقات الدولة وتراجع الإيرادات. وأخذ الاقتصاد يرزح تحت كساد متزايد رافقه ارتفاع مستمر في الأسعار. فثمن العبد مثلاً ارتفع من 40 إلى 50 شاقلاً من الفضة. وقيمة الأرض المزروعة تضاعفت. أما أسعار الأغذية واللباس والأجور فقد بلغت مستوى في الارتفاع لم يُعرف فيما مضى. ولكن يلاحظ أن أجور العمل بقيت ثابتة تقريباً، ربما بسبب فرص العمل التي صارت قليلة. فاستناداً إلى ما جاء في الألواح الفخارية كان ولم يزل العامل العادي (غير الاختصاصي أو المتمرن) يكسب في اليوم شاقلاً واحداً من الفضة، أي ما يكفي فقط لإطعام عائلته. والرجل من حراس المعابد يكسب ما يتجاوز الشاقلين بقليل. وبحكم الضرورة لجأ الناس لاستدانة المال بفوائد عالية. وتزايدت الديون وبالتالي كثرت حالات الإفلاس والعجز عن التسديد.

إن المفهوم الذي كان لديهم للمال أو النقد لا يتطابق مع مفهومنا الحالي له. فالعملة المسكوكة كانت حتى ذلك الزمن لم تصبح قيد التداول بين عموم الناس في بلاد الرافدين، علماً بأنها كانت قد أصبحت معروفة بالنسبة لأصحاب التجارة الخارجية. ففي محلات البورصة كان البابليون يحملون معهم قطعاً من الفضة مختلفة الأوزان والأشكال. فالشاقل كان يزن حوالى 8,5 غرام، والمينه (أو المنّه) تساوي 60 شاقلاً أو حوالى 500 غرام، والطالن من الفضة الذي هو 60 مينه يبلغ حوالى 30 كيلوغراماً[32]. إضافة إلى ذلك كان نصف الشاقل وحُبيبة الفضة قيد التداول. وكل القطع المعدنية كانت تحمل خاتماً حكومياً يضمن نقاء المعدن وصحة الوزن.

اتخذت بابل من الفضة معياراً للنقد. وكان تناسب القيمة بين الفضة والذهب ما بين 10 و14 إلى واحد كما يتبين من الألواح الفخارية. وهذا المعيار النقدي الموحد سهّل بالطبع طريقة الحسابات إلى درجة ممتازة وخفف كثيراً من الأعباء في الأعمال التجارية. كما ساعد على تطوير عمليات القروض بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات.

---

(32) إرجع إلى الحاشيتين 4 و5 فيما سبق حيث أشرنا إلى اختلاف هذه الوحدات حسب الزمان والمكان.

فالمؤسسات المصرفية الخاصة عاشت حركة انتعاش لم تعرفها من قبل.
البنوك في بابل صارت لديهم أموال ضخمة من خلال منح السلف والقرو
تراوحت بين 20 و30 بالمئة حتى أنهم أصبحوا أغنى من الدولة. إن بداية الت
وتقدم الأعمال المالية والمصرفية في بابل بالشكل الذي رأيناه يعتبران في ك
تطورات جديرة بالتقدير.

كما ذكرنا في بداية هذه الفقرة كانت أحوال الدولة قد تدهورت ووصل
نابونيد إلى درجة من الضعف السياسي والعسكري لم تستطع معها الوقوف
الفرس الذين تقدموا بقيادة قوروش الثاني واحتلوا بابل دون قتال يذكر. وكا
سنة 539 قبل الميلاد حيث انتهى عهد السيادة البابلية وانتهت به أيضاً رابع الام
التي عرفها الهلال الخصيب لتبدأ من جديد حقب أخرى طويلة من سيد
الخارجية.

من المحتمل أن البابليين ـ أو ربما بعضهم على الأقل ـ أحسّوا باحتا
للبلاد وكأنه مجرد تغير في الأسرة الحاكمة. فلم تتعطل مسيرة الحياة. و
التجارة. والجنود البابليون خدموا في الجيش الفارسي وشاركوه في احتلاله
ذلك. ثم أن ظروفاً جديدة في السنوات التي تلت ساهمت في التراجع السريع
في بابل وبلاد الرافدين بالكامل. فالطريق الكبير الذي يعبر مملكة الفرس «طر
ما بين سوسه عاصمة عيلام القديمة وساردس «Sardes» في ليديا غربي آسي
أهمل بابل تماماً. واحتكر الفرس لنفسهم التجارة مع الهند والشرق الآسيوي بـ

خلال ما يقارب القرن من الزمان تضاعفت الأسعار. وعلى سبيل المثا
أجرة البيت المتواضع من 15 إلى 50 شاقلاً حوالى سنة 450قبل الميلاد.
الفخارية التي تؤرخ الأعوام ما بين 480 و400 قبل الميلاد تعود لذكر أسرة
موضحة أن كل بيت وكل قطعة أرض في نيبور ومناطق الفرات الأوسط كانت
لديها. وبلغت الفوائد التي كانت تأخذها أسرة «موراشو» 40 حتى 70 بالمئة عن
المقدمة إلى الناس الذين لم يجدوا وسيلة أخرى يدفعون بها الضرائب العالية[33]

(33) هذه المعلومات المأخوذة عن ألواح فخارية تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد تقد
واضحة كيف أن اليهود تميزوا في كل زمان ومكان بأنهم كانوا دائماً المستفيد الأول

تشير بعض الدلائل إلى أن البابليين نتيجة هذه الظروف السيئة فقدوا الثقة وشعروا بعبء السيطرة الفارسية. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الكثيرين منهم يغيرون أسماءهم فيتخذون بدلاً منها أسماء فارسية.

ولكن اللغة الآرامية التي كانت مسيطرة في كل الهلال الخصيب بقيت حية. وليس ذلك فحسب، بل إنها كما ذكرنا سابقاً أصبحت بموجب مرسوم تنظيمي صدر عن الملك الفارسي هي اللغة الرسمية لكل المملكة الفارسية والبلدان التي تسيطر عليها. ولذا فقد أطلق على لغة هذه الحقبة في أوساط الدراسات القديمة اليوم اصطلاح «آرامية الأمبراطورية».

وأما الموت الحقيقي بالنسبة لمدينة بابل فقد بدأ في وقت لاحق عندما أسس السلوقيون في القرن الثالث قبل الميلاد مدينة «سلوقية» على نهر دجلة التي أصبحت المركز التجاري الجديد لبلاد الرافدين. وسرعان ما أخذ سكان بابل يرحلون عن تلك المدينة العريقة التي أفل نجمها وتقهقرت إلى الأبد. وسوف نرى في فصل لاحق كيف كان تحول الطرق التجارية هو الضربة القاضية التي نزلت بمدينة بترا عاصمة الأنباط وأنهت وجودها.

عندما توجه القيصر الروماني «سبتيميوس ـ Septimius» في سنة 199 بعد الميلاد إلى زيارة بابل كانت المدينة قد أقفرت من السكان.

= في الأزمات الاقتصادية والسياسية والظروف الاجتماعية الصعبة سواء على مستوى محلي أو مستوى عالمي، وكيف أن طبيعتهم لم تتغير عبر الحقب الطويلة إذا قارنا هذا المثال من العصر القديم بما لهم اليوم من يد طولى في الاقتصاد العالمي وسيطرة على أقنية المال ومراكزه الكبرى في معظم دول العالم المتطور.



نصب تذكاري للملك نابونيد آخر ملوك العصر البابلي الجديد حكم من 556 إلى سقوط بابل في 539 قبل الميلاد.

ـ من محفوظات متحف لندن ـ

الفصل العاشر

حوض الفرات الأوسط
مملكة ماري

مملكة ماري

في حوض الفرات الأوسط، بعد مدينة دير الزور وقريباً من بلدة البوكمال، حيث يأخذ مجرى النهر بالإنعطاف نحو الشرق، كان ملتقى الطرق التجارية القديمة التي ربطت البحر المتوسط وغربي الهلال الخصيب مع بلاد الرافدين. وهناك على ضفة الفرات اليمنى احتلت مدينة ماري موقعاً متميزاً يتوسط الهلال الخصيب ويشرف على سهوب البادية السورية الواسعة. فكانت لها من هذا الموقع علاقات اقتصادية ودبلوماسية متينة ونشيطة مع مختلف دول المدن في جنوب وأواسط الرافدين وفي بلاد الشام، وأغلب الظن مع جزيرتي قبرص وكريت أيضاً. وربما وصلت علاقاتها حتى دلمون (البحرين). وامتدت سلطتها أحياناً إلى قسم من شمالي الرافدين. كما كانت محطة رئيسية لتفريغ وشحن البضائع كالقصدير والنحاس والمنسوجات والخشب والصمغ والحجارة والعطور وزيت الزيتون والخمور.

كانت ماري معروفة من خلال ذكرها في الألواح الفخارية فحسب. وبقي موقعها مجهولاً حتى عهد قريب من القرن الحالي. وعندما بدأت حملة تنقيبات فرنسية في أواخر سنة 1933م. بإدارة «أندريه بارو André Parrot» أعمالها في ذلك الموقع المسمى «تل الحريري»، لم يكن أحد يتوقع أنه سيتم الكشف عن واحدة من أعظم وأهم مدن العصر القديم كله.

فكان أن ظهر تاريخ أسرة حاكمة بكاملها، اعتبرت هي العاشرة بعد الطوفان.

وأزيحت الأتربة عن بناء مدهش في الضخامة والاتساع والتعقيد، يحتوي على ثلاثمائة من مختلف الغرف والقاعات والأفنية، ويمتد على مساحة هكتارين ونصف، مشتملاً على آخر المنجزات الحضارية في عصره، من حمامات ودورات مياه ووسائل الراحة. وقد تبين بعد التحريات الدقيقة أن البناء كان يعمل فيه ثمانمائة من المستخدمين والإداريين رجالاً ونساءً ومعهم مدير أعمال وأمين للقصر. كما وجدت فيه مختلف المكاتب الرسمية وأقسام الوزارات.

كل ذلك كان محاطاً بجدار ضخم في ارتفاعه وسماكته ما جعل الاستيلاء عليه يبدو مستحيلاً. وقد بقي بالفعل قائماً حتى اقتحام جيش حمورابي للمدينة في سنة 1758 قبل الميلاد. في ذلك الوقت أضرمت النار في القصر، والتماثيل الكبيرة طرحت على الأرض وشوهت أو قطعت رؤوسها. وتمثال إلهة المدينة لحق به التشويه أيضاً وقذف بالرأس في حوض الماء. والرسوم الجدارية التي زينت ساحات القصر وأفنيته. والتي كانت أقدم مما في جزيرة كريت تم حكّها وتشويهها. والمكان الوحيد الذي لم تأت عليه معاول الهدم والنيران كان أرشيف القصر. قرابة الخمسة وعشرين ألفاً من الألواح الفخارية، هي إحدى أكبر مكتبات الخطوط المسمارية، نجت من الخراب. لا بل يمكن القول إن حرارة النيران أكسبتها صلابة وساعدت في حفظها. أما النتائج التي أسفرت عنها دراسة رموزها، على الرغم من أنها لم تنته بالكامل، فقد غيرت قسماً من المعلومات التاريخية عن ذلك العصر إلى حد كبير. فحمورابي الذي كانت حياته تؤرخ بحوالى سنة 2000 قبل الميلاد أصبح أحدث عهداً والآن يعتبر شبه مؤكد على ضوء هذه الألواح أنه حكم ما بين 1792 و1750 قبل الميلاد. هذا الجبل من الوثائق، الدبلوماسية والاقتصادية، والمراسلات الخاصة، والمذكرات، والذي هو أرشيف ضخم لإدارة دولة نشيطة، يعطينا بالتدريج أخباراً عن أحداث كانت حتى عهد قريب مجهولة تماماً. وما زال الكثير عن الألف الثاني قبل الميلاد يظهر للنور تدريجياً وبصورة بطيئة. خلال مواسم عدة للحفريات كانت قد تمت إزاحة مقادير ضخمة من الأتربة والرمال في موقع ماري، ولكن ما زالت هناك أتربة كثيرة أيضاً تغطي ركام المدينة. ومن المحتمل أن ما يقع تحت هذه الأتربة يغطي حقبة زمنية قد تصل حتى حوالى سنة 3000 قبل الميلاد. فالمرجّح هو أن ماري كانت موجودة في ذلك الوقت. ولا يستبعد أن بدايات تاريخها تعود حتى الألف الرابع قبل الميلاد. وقد مرت المدينة بفترة ازدهارها الأولى في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. ثم قام أحد ملوك لاغاش، وربما أيضاً سرجون الأكادي

الكبير، بممارسة الضغط عليها وقمع تطورها كمدينة تجارية. ولكن الوسائل التي استخدمت في هذا الضغط غير معروفة. لقد كان بإمكانها تحويل طرق القوافل، ولكن يبدو أنه قد وجدت عراقيل أخرى لم تستطع تحديها. وخلال القرون الثلاثة أو الأربعة التي تلت أصبحت ماري لا تشكل أهمية تذكر، وعاشت فترة على هامش الأحداث.

وحوالى سنة 2300 قبل الميلاد عادت المدينة تنتعش من جديد[34]. حيث بدأ أميرها الجديد بإصلاح المعابد ورد اعتبارها، وعقد تحالفاً مع واحدة من دول المدن الجنوبية هي «إيسين»[35] التي تبعد عن ماري سبعمائة كيلومتراً، وأمن لنفسه السيطرة على مناطق الفرات الأوسط، وبالتالي على الطرق التجارية الكبرى بين الجنوب والشمال والطرق التي تلتقي معها والمتجهة إلى بلاد الشام وسواحل المتوسط. وفي الجنوب السومري صار يرد ذكرها بعبارة «ماري سيدة الطريق الشمالي الكبير». وعلى الرغم من ذلك فإن أمير ماري خلال زمن السلالة القديمة الثالثة في أور لم يبدُ للآخرين أكثر من مجرد حاكم مدينة ماهر، وماري لم تعتبر أكثر من مجرد عاصمة إقليمية في مملكة أور الكبيرة[36].

لم تبق الأمور على حالها زمناً طويلاً. فحوالى سنة 1900 قبل الميلاد هاجرت جموع كبيرة من الأموريين، والأرجح من نواحي حلب الشرقية، فاحتلوا ماري وجعلوا منها عاصمة لمملكة امتدت خلال وقت قصير من مصب نهر الخابور في الفرات حتى منطقة عانة.

أول ملوك هذه الأسرة الأمورية كان يدعى «ياجد ليم» وهو معاصر للملك الآشوري «إيلا. . .كبكبو» والد شمشي حدد الأول الذي حكم في مدينة آشور على دجلة. وقد أقسم كل منهما للآخر يمين الصداقة الذي يبدو أنه لم يستمر طويلاً. فالألواح الفخارية تخبرنا أن الآشوريين خربوا قلعة ماري تخريباً تاماً، وأن «يهدن ليم»

---

(34) وهذا لا يتناقض مع ما ذكرنا سابقاً من أن أمبراطورية سرجون الأكادي في هذه الفترة من الألف الثالث (ق.م.) شملت كل الهلال الخصيب، حيث إن أكاد أصبحت هي السلطة المركزية العليا وصار كل الملوك المحليين والأمراء تابعين لها. أما التحالف التالي مع إيسين فقد وجد طريقه خلال السنوات الأخيرة لحكم سرجون عندما أخذت تظهر بوادر الأخطار الخارجية والتحركات الداخلية.

(35) يدعى موقعها اليوم «إيشان البحريات» وهي إلى الشرق من مجرى الفرات الأسفل.

(36) رأينا سابقاً أن دول المدن في جنوب الرافدين عادت فشكلت قوة سياسية بزعامة أور بعد إنهيار امبراطورية سرجون الأكادي.

ابن «ياجد ليم» لم يستطع استرجاع المملكة منهم إلا بشق الأنفس. ويبدو أن هذا السيد الجديد في ماري كان رجلاً مقداماً. فهو يفاخر بنفسه في إحدى المدونات بالعبارات التالية:

«.. لقد قهرت ذلك البلد على ساحل البحر الكبير (المتوسط) وأجبرته على إطاعة أوامري والخضوع لي... ووضعت عليه جزية أبدية تدفع بانتظام...»

هذا النجاح أساء إلى كبرياء جاره ملك آشور «شمشي حدد» وهو رجل له هيبته، كان نفسه قد وصل أيضاً في حملاته غرباً حتى ساحل المتوسط. وليس معروفاً حتى الآن إن كان هو نفسه الذي حرض على تلك الثورة في قصر ماري، التي ذهب ضحيتها «يهدن ليم» عندما قتله خدم القصر. وسواء كان شمشي حدد وراء ذلك أو لم يكن، فقد اغتنم الفرصة واحتل ماري بحملة خاطفة، وأسند إدارتها إلى واحد ضعيف من أبنائه هو «يسمح حدد» الذي حكمها حتى سنة 1780 قبل الميلاد. وقد عثر على كتابة في أحد الألواح الفخارية موجهة له من أبيه يخاطبه فيها موبخاً إياه بما معناه:

«.. إنك حتى الآن لست أكثر من طفل... ليست لك لحية كالرجال...[37] لم تنشىء عائلةً لك... وبينما يمضي أخوك في الحروب تستلقي أنت مع النساء السيئات... لقد آن لك أن تكون رجلاً...».

وكان في ذلك الوقت معاصراً لحمورابي البابلي، الذي لم يطمئن له كثيراً على الرغم من الرسائل المهذبة التي وردته منه، وذلك بعد أن نُقل إليه أن ذلك الرجل في بابل يضمر نوايا سيئة. وأحد الألواح الفخارية المستخرجة من أرشيف ماري يحمل نص رسالة من أحد جواسيسه في بابل يطمئنه فيها بقوله:

«يمكن لقلب سيدي أن يهدأ الآن، لأن رجل بابل لا ينوي أبداً إلحاق الأذى بسيدي...».

لم تنقض سنوات كثيرة حتى كان حمورابي قد احتل ماري، المدينة التي وقفت عائقاً في طريق خططه الواسعة، وخربها. ولكن عندها كان ذلك الحاكم الآشوري قد غادر ماري منذ زمن طويل.

---

(37) إرجع إلى فقرة ـ فكرة عن الحياة البابلية ـ حيث ذكرنا أن أصحاب المراتب العليا كانوا يطلقون لحاهم ويقصونها بشكل مربع، الأمر الذي كان متبعاً في بابل وآشور على السواء.

زمري ليم

عندما قتل «يهدن ليم» ملك ماري في ثورة القصر ـ كما ذكرنا آنفاً ـ واحتلها جيش آشور، استطاع ابنه «زمري ليم» النجاة بنفسه وهرب إلى حلب، وهي في ذلك الوقت عاصمة دويلة أمورية تدعى «يمخاض». وهناك تزوج الأميرة «شيبتو» ابنة الملك «يريم ليم». وفي سنة 1780 قبل الميلاد ذهبت معه إلى ماري بعدما استطاع بمساعدة والدها استرجاع المدينة وإخراج الحاكم الآشوري «يسمح حدد» منها.

في عهد زمري ليم عاشت ماري فترة ممتازة من الرخاء والرفاهية والاستقرار، ووصلت إلى أقصى اتساع لها خلال تاريخها، وتمتعت بدرجة كبيرة من النفوذ السياسي في كل الهلال الخصيب. وصار جمال المدينة وأبنيتها حديث الناس في مدن الساحل السوري وفي آشور وبابل. ولا شك أن الملكة «شيبتو» كانت امرأة غير اعتيادية. فقد كان لها تأثير كبير على زوجها، ولعبت دوراً هاماً في البلاد. وكما هو الحال عند النساء البابليات، تمتعت نساء ماري بحقوق ممتازة، كالحق في ممارسة الأعمال التجارية وإدارتها، وإيداع الأموال وأخذ السلف والقروض وإبرام العقود. إلا أن الملك زمري ليم سمح لزوجته بأكثر من ذلك بكثير، إذ أنها كانت تمثله في غيابه، وتسهر على إدارة شؤون القصر والمعابد وورشات العمل، وتتفقد شؤون المدينة، وتقدم له التقارير عن كل ما يجري. ويبدو أنها كانت على علم جيد بكل مسائل السياسة الخارجية. ولعبت دور مستشار سياسي عند زوجها.

لا شك أن زمري ليم كان دائماً هو صاحب القرار النهائي، ولكن ما يعتبر مدهشاً هو أن تستطيع امرأة في ذلك العصر ممارسة نفوذ قوي بهذا الشكل على ملك كانت عنده نساء أخريات، ليس في ماري فقط، وإنما في مدن الأقاليم الأخرى. من المؤكد أن الملك أعار اهتمامه لكل مجريات الأمور في بلده وكل ما توجب عمله. كانت طريقته في الحكم، كما تشهد الألواح الفخارية، تعتبر أبوية صرفة. فقد كان يتلقى دائماً الرسائل والتقارير من حكام ولاياته ومن القادة العسكريين ورجال الإدارات والمبعوثين والسفراء والموظفين والمراقبين وشيوخ القبائل وجباة الضرائب والجمارك والتجار وقادة القوافل ومهندسي البناء والكهنة والمفتشين في أرزاق الدولة ومصلحة المياه، وحتى من المواطنين العاديين ـ رجالاً ونساءً. ولم يترك شيئاً دون جواب، سواء في التقارير أو الشكاوى أو التماس المشورة. وقدم النصائح والإرشادات والاقتراحات وأعطى

التعليمات والأوامر، وطلب المعلومات المفصلة والإضافية، وفصل في المنازعات، ولم يبخل بالثناء أو بالنقد والتقريع والعقوبات عند اللزوم. وأصلح بين قبائل البدو إذا تنازعت، واستدعى الموظفين لمقابلته شخصياً في ماري عند الضرورة. واعتبر نفسه بمثابة قاضٍ أعلى. ومارس كل هذه الأمور بمنتهى الجدية[38]. ولم يقف عند ذلك، فأمر أيضاً بالتربية الصحيحة للأطفال، وبتشغيل السجناء بما يناسب، وبانتاج العربات الحربية والأسلحة، وبتحديد صحيح للأسعار، وحماية القوافل، ومعالجة النساء المريضات، وتزويج البنات على قدر المقام.

حول كل هذه الأمور المذكورة وغيرها تقدم الألواح الفخارية معلومات صريحة وكافية، ولكن غالباً بأسلوب رسمي جاف ومقتضب وشبيه بالأوامر.

وبما أن إيراد أمثلة كثيرة بهذا الصدد لا مجال له في هذا البحث بل هو من مهمة بحث مستقل يتناول مملكة ماري بكل جوانبها فقد رأيت الاكتفاء ببضعة نماذج قليلة من هذه المراسلات:

في أحد الألواح يرد ما معناه:

«لقد أصبحت بنات الملك يافعات.. ويجب إعطاؤهن درساً في الموسيقى...».

وفي لوح من حاكم منطقة «ترقا»[39] المسمى «كيبري دجن» موجه إلى القصر في ماري يذكر أنه:

«أرسل سلالاً مملوءة بالجراد لكي يتلذذ بها حلق سيده الملك»

ولوح آخر يقول أن «ياقيم» حاكم منطقة «سجراتيم»:

«اصطاد أسداً ووضعه في قفص خشبي وأرسله إلى سيده في ماري..»

---

(38) والواقع أن هذه الأمور تجعل زمري ليم شبيهاً إلى حد كبير بمعاصره حمورابي البابلي الذي كان أيضاً رجل دولة من الطراز الأول. حيث يرى القارىء المزيد من التفاصيل والأمثلة في كتاب: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي. ترجمة د. عبدالله الحلو. دار شمأل ـ قيد الطبع.

(39) وقعت في منتصف المسافة تقريباً بين ماري ومدينة دير الزور الحالية إلى الغرب من الفرات. وكانت في زمن يهدن ليم والد زمري ليم تحت حكم الملك الآشوري إيلا كبكبو والد شمشي حدد. إلا أنها في عهد زمري ليم صارت من مقاطعات ماري.

وجاء في لوح آخر أن عبدة هربت من القصر، فتلقى حكام المقاطعات أمراً يقضي بالعثور عليها وإعادتها تحت الحراسة[40].

ويخبرنا لوح آخر أن امرأة عوقبت بالنفي إلى حران (في الجزيرة العليا) فتوجهت بكتابة إلى زمري ليم تعرب فيها عن إحساسها بالمرارة والشقاء وترجو منه النظر في أمرها بالعبارات التالية:

«هل لسيدي أن يكتب بضع كلمات يرجعونني بموجبها لرؤية وجه سيدي الذي افتقدته هنا؟...».

ومن الجدير ذكره هنا بشكل خاص تلك الرسالة الموجهة من زمري ليم إلى زوجته «شيبتو»، والتي جاء فيها ما يلي:

«بلغني أن السيدة ننّامه أصبحت مريضة.. وهي لا تكفّ عن مواجهة أناس كثيرين في القصر وتستقبل زائرات كثيرات في بيتها.. لذلك أصدري أوامر مشددة بأن لا يشرب إنسان من كأسها ولا يستعمل إنسان مقعدها أو سريرها... ويجب أن تكفّ عن استقبال سيدات أخريات في بيتها.. إن مرضها من الأمراض المعدية..»[41].

ربما يتساءل المرء: كيف تسنّى للملك زمري ليم كل هذا الوقت ليشغل نفسه بالأمور كافة وأن ينجزها كلها دون تأخير، كما يتضح من الألواح الفخارية؟... إضافة لكل أعماله السياسية من داخلية وخارجية[42].

من غير المستبعد أن زمري ليم كان ينظر إلى منصبه على ضوء التقاليد القبلية التي لم تختف جذورها، ويشعر تبعاً لذلك أنه مسؤول عن كل كبيرة وصغيرة في مجتمعه.

---

(40) ما أشبه ذلك بما يسمى في أيامنا هذه «مذكرة بحث» والـ «إحضار موجوداً». والواقع أن أموراً من هذا القبيل ـ الفرار وغيره ـ وجد ما يماثلها في العصر البابلي أيضاً وفي النظم السومرية. ولو اختلفت بعض التفاصيل.

(41) والواقع أن هذا يعتبر مما ندعوه اليوم بـ «الحجر الصحي» بكل معنى الكلمة.

(42) إرجع إلى الحاشية (38) قبل قليل والمصدر الذي ذكر هناك لتجد أن حمورابي كان أيضاً مهتماً شخصياً بكل شاردة وواردة ويصدر التعليمات ويطلب الناس للتحقيق والمقاضاة ويتلقى الشكاوى والرسائل سواء من الموظفين أو من عامة المواطنين. وذلك أيضاً رغم كل أعبائه في الحكم والسياسة.

يبقى أن نشير إلى أن العلاقات بين ماري والجنوب السومري كانت تعود إلى زمن موغل في القدم. وقد تأصلت هذه العلاقات فيما يخص التقاليد واللباس وبعض الأمور الأخرى.

ولكن سكان ماري ـ بعكس المراكز السومرية ـ بقوا موزعين بين حياة الحضر وحياة البداوة. وعاشت القبيلة والمدينة إلى جانب بعضهما البعض في توتر كامن. وبالطبع كانت السيادة دائماً للأموريين. وأسرة «ليم» الحاكمة لم تنس أصولها والقبيلة التي أنحدرت منها. وكان الملوك على ما يبدو فخورين بهذا التراث، رغم أنهم عاشوا حياة مدنية بكل معانيها. ولذلك تميز حكمهم عن حكم غيرهم في جنوب الرافدين. والملاحظ أنهم لم يعتمدوا كثيراً على رحمة الإله كاعتمادهم على ثقة الشعب الذي اعتبروه بمثابة قبيلة كبيرة هم شيوخها وآباؤها.

الملامح الأساسية للحياة الاجتماعية في ماري

لم يكن هناك اختلاف جوهري في الخطوط العامة للتركيبة الاجتماعية يميز ماري عن بابل وجنوب الرافدين. إذ كانت في ماري أيضاً ثلاث فئات اجتماعية متمايزة. فقد وجد فيها المواطنون الأحرار، ثم العبيد، وفئة ثالثة تدعى الـ «مُشكيِنُم»[43].

كان للمواطنين الأحرار الحق في أن يعملوا ما يحلو لهم، ولكن ضمن حدود القانون. وأهم واجباتهم هو الدفاع عن الدولة. ومن بينهم كان يختار كل الموظفين

---

(43) في حين أن الفئة الأولى تدعى «أويلوم». وهذان المصطلحان استخدما في بلاد الرافدين منذ أواسط الألف الثالث (ق.م.) ثم في العصر الأكادي والعصر البابلي القديم وجاءا في مختلف المجموعات القانونية. إلا أن لفظة الـ «مشكينم» لم يتم حتى الآن الاتفاق على مدلولها الدقيق وما زالت موضع خلاف في الأوساط العلمية. على الرغم من أنها من حيث بنائها اللغوي توحي بمدلول اللفظة العربية «مسكين/ مساكين» حيث أن هنالك أدلة على أن أفراد الـ «مُشكينم» كانوا أحياناً من أصحاب الأموال.

وهذه المسألة ورد بحثها في كتاب: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي. ترجمة د.عبدالله الحلو. الفصل الرابع: قانون حمورابي، فقرة: الجرائم الواقعة على الممتلكات (دار شمأل. قيد الطبع).

قارن أيضاً ما جاء عند الدكتور عامر سليمان في كتاب: القانون في العراق القديم. ص 63 حتى 75. طباعة جامعة الموصل 1977.

والكهنة. ومن حقهم كانت كل الإدارات العامة.

أما العبيد الذين هم على الأغلب من أسرى الحرب، والذين يتم اقتسامهم بين الملك وجيشه، فكانت لهم قيمة متدنية، وقد وجدوا بأعداد كبيرة. لذلك ظل البحث عن اليد العاملة الرخيصة محدوداً بمجال ضيق. ووضعهم بشكل عام تختصره بكل وضوح رسالة من أحد قضاة الدرجة العليا موجهة إلى الملك زمري ليم جاء فيها:

«العبيد ذكوراً وإناثاً، والثيران والحمير ليس لهم الحق في التقاضي أمام محكمة... فهم يعتبرون خارج نطاق القانون.. ولا قانون لهم...».

ويتم التصرف بالعبيد كما يشاء أسيادهم. وبهذا الصدد يخبر أحد الألواح أن زمري ليم وجه تعليمات إلى الملكة تقضي بتوزيع كل أسرى الحرب من النساء على معامل النسيج بعد انتقاء أجمل ثلاثين امرأة منهن والعناية بهن مبدئياً في بيت الحريم. والجدير بالذكر أن صناعة المنسوجات والألبسة في ماري كانت احتكاراً ملكياً. وقد شكلت النساء (من العبيد) الأغلبية الساحقة من العاملين في ورشات النسيج التي احتاجت دائماً إلى عدد متزايد من العاملات تبعاً لزيادة الطلب على المنسوجات، التي تعود إلى عاملين: الأول تزايد رفاهية السكان واستهلاكهم، والثاني هو التصريف الجيد في البلدان الأخرى. وقد أدرجت في الألواح الفخارية قوائم طويلة من أسماء نسّاجات كنّ في البداية بين أسرى الحرب واحتفظ بهن في الورشات الملكية. ومن المحتمل أن الواحدة منهن لم تكن تغادر مكان عملها إلا إلى مكان النوم لتعود مع أول الصباح ثانية إلى العمل ليس إلا.

وأما الفئة المسماة «مُشكينُم» فقد شملت أولئك العامة من الناس ومن بينهم أيضاً ما يدعى رعاع القوم وطبقة المعدمين وما إلى ذلك. وكانوا يستخدمون في مختلف الأعمال ويخضعون لعدد من الالتزامات والقيود. إلا أنهم لم يعاملوا معاملة العبيد، إذ كانت تميزهم عنهم بعض الامتيازات البسيطة. ولم يسمح لهم بالسكن في المدينة. وعلى الرغم من اعتبارهم الشكلي أحراراً فلم تكن لهم حقوق مدنية[44].

عدا عن هذه الفئات الثلاث كانت هناك مجموعة أخرى من الناس شكلت شبه طبقة اجتماعية متميزة. وشملت المتنبئين من الرجال والنساء ومفسري الأحلام ومن على

(44) بعض المواد في قانون حمورابي يلاحظ منها أن وضع أفراد الـ «مُشكينم» تجاه القانون كان في بابل أفضل منه في ماري.

شاكلتهم، وكانوا كثيرين. منهم من عمل في المعابد ومنهم من مارس عمله بشكل مستقل. وكانت النساء منهم تشكل الغالبية العظمى. وكلهم كانوا يقومون بأعمالهم من تكهن وتفسير أحلام وقراءة بخت... الخ مقابل أجر معقول، لكنه اختلف أيضاً باختلاف الطبقة، فالتنبؤات التي كانت تقال لنساء الطبقة الاجتماعية العليا لها أهمية خاصة، وبالتالي فإن أجرها أكبر. إلا أنه غير معروف إن كان زمري ليم نفسه قد استمع أيضاً لهذه التنبؤات، وهو الرجل الذي تمتع بذكاء متفوق وموهبة عالية وتفكير واقعي، علماً بأن كثيرين من ملوك الأزمنة القديمة في العالم كانوا يعيرون اهتماماً لأقوال المتنبئين أو العرافين.

اللباس والأزياء في ماري

كان لألبسة الرجال شبه كبير بما عند السومريين. ثوب طويل مصنوع من صوف الأغنام، ويبدو أنه حل محله فيما بعد معطف من النسيج. ويلاحظ أنهم قديماً تركوا القسم العلوي من الجسم عارياً تماماً، ثم صار بعد ذلك يترك أحد الكتفين ظاهراً. وكانت رؤوسهم حليقة تماماً، ولكن كانت لهم لحى طويلة ومقصوصة من الأسفل، ودون شوارب. وفي عهد زمري ليم لم تعد الأثواب تنتهي من الأسفل بتلك الأهداب بل تطورت إلى أشرطة ثم إلى كنار. ويبدو أن الوحيد الذي كان يلبس رداء طويلاً هو الملك.

وثوب المرأة كان خالياً من التزيينات ويصل حتى القدمين. وإما أن يترك الكتف الأيمن عارياً أو تترك فتحة صغيرة عند الرقبة. ويبدو أنه وجد نوع من العباءات بقصة أمامية مستديرة ورقبة صغيرة وفتحتي أكمام. وكما هو معتاد فقد تزينت النساء بالأقراط والأساور والعقود من المعادن والحجارة الكريمة والأصداف. ومن الظاهر أن المرأة في ماري كانت تقضي وقتاً طويلاً للعناية بشعرها. ويستنتج من خلال التماثيل المكتشفة وجود نماذج عدة لتسريحات الشعر. فقد وجد نموذج الجديلة الطويلة الملفوفة على الجبين والصدغين. ووجد شكل العقدة الكبيرة في مؤخر الرأس، كما وجدت طريقة جمعه ضمن شبكة إلى الخلف وغير ذلك... كما يبدو أنه قد استخدمت الأربطة في المحافظة على قصات الشعر أو تجعيده أو تصفيفه وغير ذلك من أشكال الأناقة. وأما غطاء الرأس عند المرأة فكان على الأغلب عبارة عن قلنسوة مستديرة مدببة قليلاً إلى الأعلى، تربط تحت الذقن برباط لتثبيتها.

بهذا اللباس كان مسموحاً للرجال والنساء بالإقتراب من الآلهة في المعبد. وبوقفة ملؤها الإجلال. وكان متروكاً لرغبتهم أن يجلسوا أو يبقوا وقوفاً. كما يجب تشبيك الأيدي دائماً لأن هذا كان تعبيراً عن التقوى والخضوع. أما الركوع فلم يوجد ما يشير إلى اتباعه في ماري.

النحاس والقصدير
عصب التجارة في ماري

من الثابت أن ماري تاجرت بالنحاس بكميات كبيرة. والألواح الفخارية استخدمت غالباً عبارتي «النحاس النقي» و «النحاس النظيف». ويبدو أنه قد كثر استهلاكه، ليس فقط في تحضير البرونز وصنع الأدوات، بل وفي خلائط الفضة والذهب أيضاً.

ترد في كتابات الألواح أكثر من مرة تحذيرات صريحة من القيام بإدخال ذلك النحاس القادم من المناجم في الخلائط إذا كانت لا تزال بعض الحجارة عالقة به. وممثلو الحكومة كانت لديهم تعليمات مشددة تقضي بإعادة شحنات من هذا النوع إلى مصدرها دون أي تساهل.

تذكر الألواح مصدرين للنحاس القادم إلى ماري هما: تيماء في شمال غرب الجزيرة العربية، وجزيرة قبرص. ففي قبرص تم فعلاً استخراج النحاس وتنقيته خلال الألف الثاني قبل الميلاد. أما عن وجود النحاس في الصحراء العربية الشمالية فليست هناك معلومات إطلاقاً. ولذا فالمعتقد في هذه الحال أن تيماء ربما تكون قد استوردت خامات النحاس وعملت على تنقيتها وتصديرها، أو أنها كانت فقط مركزاً لتفريغه وإعادة شحنه. ومن المعروف بهذا الصدد أن تيماء تسلمت النحاس من مناجم وادي العربة التي اشتهرت أكثر خلال الألف الأول قبل الميلاد. ونصوص ماري تشهد لنحاس تيماء بنقاوته المتميزة ونوعيته المتفوقة. ولو أخذنا بعين الاعتبار المسافة الشاسعة بين ماري وتيماء، التي تبلغ قرابة الألف كيلومتراً، والرحلة الصحراوية المرهقة والباهظة التكاليف، لاستنتجنا أن نحاس تيماء تمتع فعلاً بمزايا متفوقة. ومما يدعم هذا الاستنتاج أنه هو النوع الذي اشتغلوا به في ورشات القصر الملكي بماري وأن إدارة القصر لم تتاجر إلا به. وعدا عن ذلك يبدو أن الإنسان في ماري قد اعتاد على قطع المسافات الطويلة. فمن خلال موجودات الأرشيف يتبين لنا أن الأفق الجغرافي بالنسبة لأهل ماري كان واسعاً، يمتد من عيلام في أقصى جنوب شرق الرافدين إلى الحثيين على نهر «هليس

Halys، في الشمال من آسيا الصغرى ـ حيث انتشرت مستوطنات الدولة الآشورية القديمة ـ ومن المرتفعات الإيرانية في الشرق إلى ساحل البحر وقبرص وكريت في الغرب. وكانت العلاقات مع قبرص وكريت تتم إما عبر مؤسسات تجارية في غربي بلاد الشام أو عن طريق وكلاء مباشرين تابعين لماري. أما البضائع فكان يجري شحنها بالطبع من المدن التجارية على الساحل السوري. وقد لعبت كل من حلب وقطْنا دوراً كبيراً في شحن البضائع، لأن كلاً منهما ارتبطت مع الساحل بطريق جبلي، ومنهما كان ينطلق الطريق التجاري الكبير باتجاه ماري وكل بلاد الرافدين.

والمؤسسات التجارية لم توضع لها حدود. ثم أن الصحارى كانت معروفة جيداً بالنسبة لتجار ماري وقادة قوافلها، الذين لم يكونوا أقل إقداماً من تجار بابل وآشور كما رأينا فيما سبق. عدا عن أن الطرق الصحراوية لم تسبب عندهم المخاوف، حيث كانت للروابط القبلية أهميتها وكانوا على علاقة طيبة مع البدو. إلا أن هذا كله لم يضمن بشكل دائم عدم مهاجمة قوافلهم بين الحين والآخر ونهبها من قبل لصوص الصحراء وقطاع الطرق.

ليس واضحاً من خلال الألواح الفخارية ما إذا كانت البضائع القادمة من الغرب والشرق ومن الجنوب والشمال، يتم تفريغها وإعادة شحنها في ماري. إلا أن هذا يبدو مرجحاً، لأن عملية استبدال القوافل كانت تنتج عنها أرباح كبيرة، خصوصاً وأن كثيراً من البضائع لا بد من نقلها بالسفن في الفرات من وإلى المراكز السومرية. وقد كان لماري دور ممتاز في الملاحة النهرية بسبب موقعها في بداية القسم الصالح للملاحة من الفرات.

الدعامة الأساسية الثانية في تجارة ماري كانت القصدير الذي يتكرر ذكره في نصوص الأرشيف. فأحد الألواح يظهر وكأنه ورقة للحسابات بما فيه من أخبار عن تجارة هذه المادة ومرورها في ماري إلى مدن الرافدين. فيذكر النص الشحنات الواردة. ثم يأتي تدوين مرتب لكل الدفعات الصادرة من المخزن الملكي لنقلها إلى مختلف المدن الساحلية السورية. مما يوضح أن الإدارة نفسها قد مارست تجارة القصدير على نطاق واسع.

بين المدن المرسل إليها يرد مرات عدة ذكر أوغاريت. ومن الجلي أن العلاقات بين ماري وأوغاريت كانت ممتازة. فقد تبادل ملوك المدينتين الرسائل والهدايا. وفي إحدى الرسائل يعلن ملك أوغاريت عن زيارة لأحد مبعوثيه إلى ماري ويرجو أن يمكنوه

في هذه الزيارة من مشاهدة قصر زمري ليم أيضاً. ومن علامات الإبقاء على هذه العلاقات الجيدة كانت كما يبدو هدايا من القصدير موجهة إلى بعض أصحاب المناصب الرفيعة، ليس في أوغاريت وحدها، بل في مدن أخرى. فعلى سبيل المثال يأتي ذكر هدية من قصدير الملك زمري ليم إلى السيدة «جاسيرا» زوجة ملك حلب وإلى ابنها وبعض شخصيات البلاط الملكي. وكذلك إلى أعوان «سيبلارباك» ملك عيلام الذي يعبر أحد الألواح عن مخاطبته بعبارة: «أخ زمري ليم». من هنا نرى.أنه كانت للقصدير في ذلك الزمن أهمية كبيرة. وفلسطين أيضاً زودتها ماري بالقصدير، حيث يتبين من تكرار الكميات الكبيرة المرسلة دائماً إلى مدينة «حاصور»[45] أنها كانت مركزاً هاماً للترانزيت وحققت أرباحاً كبيرة من إعادة بيع القصدير إلى مصر وممالك جنوب الجزيرة العربية. كما أن مدينة أخرى في وسط بلاد الشام لعبت دوراً هاماً في تجارة القصدير الواسعة هي «قطنا» التي كان يلتقي فيها التجار من كل أنحاء الهلال الخصيب وغربي آسيا عموماً. ومما يرد ذكره بهذا الصدد أن حمولة كبيرة من القصدير متجهة إلى «قطنا» زودتها ماري بترجمان من قبيل الحيطة، الأمر الذي يتوقع منه أن يكون المرسل إليه شركة نقليات غريبة ـ ربما من آسيا الصغرى ـ. وبشكل عام يلاحظ أن الاستعانة بالتراجمة كانت أمراً مألوفاً. إلا أن استخدامهم كان على الأكثر في أوغاريت التي كانت مدينة سياسة عالمية. وقد جمعوا بين لغات عديدة، سواء في الحديث أو الكتابة، كالحثية والأكادية والحورية والأغريقية، ناهيك عن ذكر اللهجات الكنعانية. وجرت العادة أن يتم الاتفاق مسبقاً على أجرهم الذي يدفع بعد الانتهاء من إجراءات العقود وإنجاز الصفقات. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما يرد عن كمية من القصدير موجهة إلى أمير «حاصور» يرافقها ترجمان ومبعوث خاص من ملك ماري، ويجب تسليمها في حصنٍ هناك إلى شخصية كبيرة لم يتضح أسمها في النص.

من كل ذلك ندرك أن قوافل القصدير كانت في حركة دائمة، وأن ماري تمتعت في ذلك الزمن بمركز رئيسي لا ينازع في هذه التجارة التي تمت على نطاق واسع.

أما إن كان قد وجد في ماري ما يشبه البورصة للقصدير، فأمر لم يتضح من خلال محتويات الألواح الطينية، علماً أنه في ذلك الزمن غير مستبعد. وعلى كل حال

---

(45) كانت مركزاً لإحدى الدويلات الكنعانية في شمال فلسطين غربي وادي الأردن. وعلى الرغم من أن موقعها اليوم غير معروف بشكل مؤكد، فإن أغلب الآراء تشير إلى أنه غربي بحيرة الحولة في «تل القدح» أو «تل وقاص».

فالأرجح أن التسعيرة كانت تحددها ـ أو تشرف عليها إلى حد كبير ـ الإدارة الملكية التي يمكنها بما لديها من احتياطي كبير ومن عقود استيراد طويلة الأجل ومن سيطرة على القوافل أن توجه الأسعار بما يناسب حالة العرض والطلب.

كان المنافسون لماري هم: لارسا الواقعة بين أور وأوروك في أقصى الجنوب، ثم إشنونا على المجرى الأسفل لنهر ديالا في منطقة دجلة الوسطى، وأخيراً آشور في أعالي دجلة، وتفصلهم عن ماري مساحات الجزيرة الشاسعة. وإشنونا التي اعتبرت مركزاً كبيراً لتكديس المعادن، والتي كانت ماري تراقبها دائماً بعين الريبة والتخوف، تلهفت باستمرار لممارسة التجارة المباشرة مع ساحل البحر المتوسط دون الاعتماد على ماري التي تتحكم بالطرق التجارية المربحة المتجهة إلى الغرب. إلا أن الطريق الآخر الذي يصعد عند دجلة شمالاً ثم ينعطف في تقوس كبير باتجاه السهوب غرباً، ويدعى بالطريق الشمالي، لم يكن بديلاً مناسباً لأنه باهظ التكاليف ومحفوف بالأخطار ويستهلك وقتاً كبيراً.

وقد حاولت إشنونا مرة فيما مضى احتلال مناطق أعالي دجلة لتأمين رأس جسر إلى الفرات والسيطرة على طريق القوافل الكبير، دون أن تحقق نجاحاً على المدى البعيد. وفي عهد زمري ليم كانت إشنونا قد أصبحت محاطة بأربع دول قوية هي: بابل لارسا من الجنوب، وآشور من الشمال، وماري في الغرب. وحرصت هذه الدول على وضع عراقيل لا يمكن تجاوزها ضد أي محاولة لتوسع إشنونا. مع ذلك لم يكن زمري ليم مطمئناً تماماً، وبقيت تراوده المخاوف من «رجل إشنونا» كما اعتادت الألواح ذكره بشيء من الإزدراء. وقد قيل عنه أنه يسعى دائماً لتدبير مؤامرات في المناطق العليا من الفرات ودجلة. كما حاول مرة القيام بحملة عسكرية كبيرة على حران في شمال الجزيرة والالتفاف على ماري وعزلها عن المناطق الغربية من الهلال الخصيب، وبالتالي السيطرة على طريق القوافل الكبير، ولكن حملته هذه لم تنجح.

يبدو أنه على الرغم من كل هذه المحاولات كان لا بد من بقاء ماري وإشنونا شريكتين في تجارة القصدير. وكانت ممارسة هذه التجارة في كل من الدولتين امتيازاً للقصر الملكي. ومن الطبيعي حصول بعض المنازعات بين الحين والآخر. ففي أحد ألواح ماري خبر يقول إن أحد حكام المقاطعات التابع لماري قام بإيقاف قافلة تصدير ولم يسمح لها بمتابعة الطريق الذي اتخذته بل أرسلها إلى زمري ليم في ماري.

كانت قوافل القصدير كبيرة، كما هو الحال في النحاس، تكونت في الغالب من

مئة أو أكثر من حمير النقل. وكي لا يقع ذلك المعدن الثمين في يد غريبة كان يرافقها دائماً فريق حماية.

كل ما هو معروف عن مصدر القصدير والطريق الذي يأتي عنه قبل وصوله إلى ماري يتلخص في معلومات بسيطة للغاية وردت في رسالة أحد الموظفين الكبار في ماري يدعى «مِبْتوم» بثلاث كلمات هي:

«درانجيان ـ سوسه ـ إشنونا»

وهذا يشهد على صحة ما يذكره سترابون أيضاً عندما يقول إن مصدر القصدير كان «درانجيان». والأرجح أن المقصود بذلك هو الجبال العيلامية والإيرانية التي أحضر منها تجار سوسه هذا المعدن لإيصاله إلى السوق العالمية في ذلك الزمن. وبالطبع كانت ماري هي المؤهلة من حيث موقعها لأن تكون المركز الرئيسي للتفريغ والشحن بين منطقة الرافدين والغرب وأن تلعب دور الوسيط الكبير في هذه التجارة.

أما عن الأرباح فلا تذكر الألواح شيئاً. ولكن لا شك أنها كانت تجارة رابحة جداً بالنسبة للملك والمعابد وبعض التجار الكبار. ولم يقتصر ذلك على ماري، بل كان بالطبع في أماكن أخرى. فتجارة القصدير اعتبرت كالنحاس امتيازاً للدولة أو القصر. وحتى إن لم تكن احتكاراً تاماً فإن الدولة على كل حال مارست رقابة دقيقة ومشددة عليها أو وضعتها تحت إشرافها المباشر. وكان هذا أمراً منطقياً حيث أن ذلك المعدن مادة لا بد منها في تحضير البرونز الذي صنعت منه الأسلحة، وهذه ساهمت بدورها في توطيد السلطة السياسية وساعدت على تحقيق مخططات سياسية واسعة. ومن الطبيعي أن زمري ليم كان عنده الوعي الكافي لهذه الأمور، فحرص دائماً على تنظيم دوريات عسكرية لحراسة الطرق بكل عناية ومنع محاولات التهريب أو السطو.

لمحة عن
النشاطات المالية الأخرى

بالطبع لم تقتصر أعمال سكان ماري على تجارة القصدير والنحاس. هناك العديد من ألواح الأرشيف التي تخبرنا عن أعمال سماسرة العقارات وعمليات السلف والقروض. كانت الأراضي والبيوت التابعة للقصر أو لأحد المعابد أو لإحدى القبائل (أي ما نسميه ملكية المشاع) تعتبر غير قابلة للتصرف بها، حتى ولو من قبيل الإعارة،

ولم تخضع للقوانين الشخصية. وكانت عند الضرورة تسجل بصفة مستأجرة بالوراثة. ويبدو أن عملية تأجير البيوت اعتبرت نوعاً من التجارة الواسعة الانتشار. وهو أمر كان معروفاً أيضاً في بابل كما رأينا فيما سبق.

من أوفر المعلومات التي تقدمها ألواح الأرشيف هو ما يتعلق بالقروض. وقد وجدت تعليمات دقيقة وثابتة تحدد شكل ومحتوى عقود السلف أو القروض وشروط الضمانات والكفلاء. ووجدت كما في كل مدن الرافدين أيضاً القروض القصيرة أو الطويلة الأجل. وكانت تؤخذ إما لتمويل مشروع تجاري وما شابه، أو لبناء بيت، أو للتغلب على ضائقة موقتة، ريثما تجنى المحاصيل مثلاً. وكانت العادة أن تعطى كمية من الحبوب أو مبلغ من المال (أي مقدار من الفضة). وفي الحالين مقابل فائدة. وكان مانحو القروض هم الخزينة الملكية والمعابد والتجار الكبار وغيرهم من الأشخاص الموسرين. ولا تذكر الألواح إلا في حالات نادرة جداً من أية طبقة اجتماعية أو طائفة حرفية كان المقترضون. ولكن من الطبيعي أن المبالغ الكبيرة أعطيت لتمويل مشاريع تجارية وغيرها، وأن القروض الصغيرة احتاجها غالباً أفراد الطبقة الدنيا أو الفلاحون.

تراوحت نسبة الفائدة السنوية بين 30 و40 بالمئة. علماً بأن القانون لم يضع حدوداً قصوى للفوائد. وكما هو الحال في بابل فإن الأمر كان اعتيادياً وأن مفهوم المرابي لم يكن معروفاً في ماري على الإطلاق.

ولم توجد قروض من دون ضمانات. وقد تشمل الضمانة عند الضرورة زوجة المقترض، إذ يلزمها العقد، إن اقتضى الأمر، بالبقاء في بيت الدائن والعمل عنده كبديل للفوائد حتى يتم تسديد المال المقترض. وقد رأينا ما يشبه هذه الالتزامات في الحديث سابقاً عن المدن البابلية.

إن ما تصرح به الألواح الطينية عن تنظيم التجار ومكانتهم في ماري قليل جداً. ولكن ما هو معروف أنه كان معترفاً بهم من قبل القصر، وأن التجارة المحلية كانت إلى حد كبير في أيديهم، وأنهم شاركوا جزئياً في التجارة الخارجية ولو ضمن قيود. إلا أن الدور الكبير والمتفوق في تجارة الإستيراد والتصدير بقي محصوراً بالقصر والمعبد.

لقد كشفت ألواح أرشيف ماري عن أمور جديرة بالتقدير. ومن أكثر ما يلفت النظر في المعلومات التي جاءت بها هو التنظيم الممتاز للإدارات العامة. إذ يتبين أنه حتى مكتب السجل العقاري كان موجوداً في ذلك الزمن، إضافة إلى كل ما عرفته المدن البابلية.

وقد حرصت ماري على تنظيم علاقاتها مع القوى السياسية والقصور الملكية الأخرى في البلاد بواسطة السفراء الذين تمتعوا على العموم بما يدعى اليوم بالحصانة الدبلوماسية. إلا أن هذه الحصانة لم تمنع بين الحين والآخر من وقوع بعضهم في مأزق حرج، كما حصل مثلاً لذلك السفير الذي رحّله حمورابي من بابل وأوعز لمن يعتقله وهو في الطريق، وذلك لاشتباهه بأنه كان يقوم بالتجسس عليه. أو كقصة ذلك الذي دارت حوله الشبهات بالسرقة، واعتبر نفسه في غاية السعادة عندما اكتشف السارق الحقيقي بعد بضعة أسابيع.

لم يعثر حتى الآن في الألواح التي تمت دراستها على معلومات تتعلق بتجارة الأحجار الكريمة والنفيسة مثل الفيروز والزبرجد والعقيق واللازورد. كما أنه غير معروف كيف وجدت أصداف اللؤلؤ طريقها إلى ماري. يحتمل أن تجارة هذه المواد كانت متروكة للتجار لذلك لم يرد ذكر لها في محفوظات أرشيف القصر. لا شك أن الأحجار جاءتهم من بلدان بعيدة جداً. أما الأصداف فيستبعد أن يكون مصدرها غير دلمون[46].

إلا أنه لا يوجد ما يوضح لنا إن كان تجار ماري قد قاموا بأنفسهم بجلب الحجارة الكريمة من أواسط آسيا مباشرة عبر ما يسمى «طريق خراسان الكبير» أو عبر «الطريق القارّي الفارسي الكبير» المتجه جنوباً إلى سوسة. وهو أمر يصعب تصوره، لأن تجار الأصداف والحجارة الكريمة في جنوب الرافدين لن يفسحوا مجالاً لغيرهم وهم أصحاب هذه التجارة منذ قرون عديدة. وعدا عن ذلك فإن ماري تعتبر سوقاً صغيراً بالقياس لمشاريع تجارية مرتفعة التكاليف من هذا النوع. كما لم يكن بإمكانها التفكير بإعادة تصدير هذه المواد إلى المناطق الساحلية السورية وإلى مصر، لأن مراكز أخرى سبقتها إلى ذلك، وهي الشركات القديمة وورشات التصنيع في جنوب الرافدين. يبقى الاعتقاد المرجح هو أن تجار ماري تزودوا بالحجارة الكريمة والأصداف من شركات الاستيراد القديمة في المدن السومرية ونقلوها مع قوافل القصدير إلى ماري.

---

(46) انظر ملاحق الكتاب حيث أدرجنا فصلاً خاصاً بدلمون (البحرين) وعلاقاتها مع مدن الرافدين.

سكان ماري
أصولهم وعلاقاتهم الخارجية

حتى الآن لم يثبت بشكل نهائي ما هو أصل السكان الأوائل الذين استوطنوا في ماري، رغم أنه يمكن الاستنتاج من خلال أسماء الأشخاص الواردة في الكتابات المكتشفة أن الأرض المحيطة بماري كانت للجماعات الناطقة بلهجات «سامية». ومما يدعم هذا الاستنتاج بعض بقايا الأبنية المختلفة التي أزيحت عنها الأتربة، ومنها أربعة معابد وزقورة ترجع إلى الحقبة القديمة. أحد هذه المعابد يُعتقد أنه كان مخصصاً لإلهة تدعى «نيني. . زازا». والمسلة المخروطية التي وجدت بين الأنقاض والتي كانت رمزاً عند الجماعات «السامية» يشير لوجود الآلهة، وجدت أيضاً في أحد الأماكن المقدسة للكنعانيين. ولكن بالمقابل لوحظ أن التزيينات الجدارية المكونة من أجسام من الأصداف ملصوقة بالزفت تُظهر تشابهاً كبيراً يثير الدهشة مع تلك الموجودة في معابد كل من أور وكيش في الجنوب السومري. والأكثر من ذلك أن الملوك والسكان في ماري قدموا لآلهتهم نذوراً بشكل تماثيل صغيرة برؤوس حليقة وبالثوب الصوفي السومري بوقفة الخشوع ذاتها والأيدي المتشابكة عينها، تماماً كما صورها السومريون الذين يبعدون عن ماري قرابة الألف كيلومتر. أضف إلى ذلك أن نظام الكتابة السومرية هو الذي استخدم في ماري.

إلا أن التأثيرات السومرية لم تتعدّ حدوداً معينة. وبقيت ماري نقطة متوسطة في حضارة الجماعات الناطقة بلهجات «سامية». والإله الكبير «دجن» الذي اعتبر إله المطر والعواصف، وكان بالأصل إله الغذاء عند الأموريين وإله السمك عند الفلسطينيين، لم تستطع الآلهة السومرية إزاحته من مكانته عند أهل ماري، حيث بقوا يعتبرونه سيد كل الآلهة.

إن العلاقات الودية التي قامت بين زمري ليم وبين حكام الأمارات السورية، المجاورة منها والبعيدة، قد يكون مردّها ـ ولو ليس دائماً ـ إلى ذلك الشعور بالأصول المشتركة فيما بينهم. علماً بأن هذه الأمارات تعرضت للتأثيرات السياسية من ماري أيام قوتها. ولقد كثر بينهم تبادل السفراء والمبعوثين، وتنقلهم هنا وهناك، وكثر تبادل الهدايا واتفاقات الزواج. ويُذكر أن ملك كركميش أرسل ـ كما ورد في اللوح حرفياً ـ «خمراً وثياباً جميلة جداً إلى أخيه الملك في ماري»، وسمح له فوق ذلك باستعمال بعض

مناجم النحاس «كما يريد ويشتهي» ـ على حد تعبيره ـ.

وفي إحدى المرات أظهر ملك ماري تجاه ملك «يمخاد» كثيراً من اللطف واللباقة عندما قدم عن طيب خاطر زوارق إلى بعض البدو القادمين من الغرب ليتمكنوا من عبور الفرات مع أغنامهم. وإزاء ذلك أعرب ملك يمخاد عن امتنانه بإرسال بعض الطيوب في مزهرية نفيسة.

في ذلك الزمن كانت ممالك شمالي ووسط بلاد الشام: كركميش ويمخاد وقطنا وتحت التأثيرات الرافدية المستمرة عبر ماري، قد حققت خطوات مدهشة من التطور. فقد بنيت القصور والمعابد وقامت حولها المدن المحصنة. وتماثيل فنانيها نافست تلك التي في بلاد الرافدين. ومن أوضح الأمثلة على ذلك تلك التي وجدت في قصر «يريم ليم» ملك ألالاخ.

ويبدو من خلال ذلك كله كما لو أنه قد وجدت في تلك البقعة الشاسعة ما بين البحر المتوسط والخليج جمعية كبيرة من الدول الأمورية.

قصر ماري
أعجوبة العالم في عصره

كان القصر الملكي، الذي دعي عند الأكاديين «البيت الكبير» قد اكتسب في ماري أهمية خاصة تجاوزت المألوف. فإن تركز السلطة في يد الملك، واحتياجات الإدارة العامة المنظمة بشكل مركزي بحت، ثم مقتضيات الهيبة وتمثيل الدولة، أمور جعلت من مقر الحكم إحدى المنشآت العملاقة لذلك العصر بكل معنى الكلمة. فقد احتوى قصر ماري على ثلاثمائة من قاعات الاستقبال والسكن والعمل والمكاتب والمستودعات والأفنية. وأقيمت جدرانه الخارجية بشكل أسوار دفاعية اعتبرت لأسباب أمنية جزءاً أساسياً من البناء لا بد منه. وقد شمل بشكل عام مساحة من الأرض تبلغ هكتارين ونصف ـ 25000 متراً مربعاً ـ[47].

---

(47) عرفت بلاد الرافدين، خصوصاً في العصر الآشوري الجديد ثم العصر البابلي الجديد قصوراً عدة كانت غاية في التنظيم والضخامة والتناسق الهندسي أيضاً ولو أنها لم تبلغ في مساحتها تماماً ما بلغه قصر ماري. وأهم هذه القصور كان:

(*) القصر الذي بناه سرجون الثاني كمقر لحكمه وإقامته إلى الشمال من نينوى والذي سمي «دور شروكين» ثم دعي في وقت لاحق «خورساباد»، والذي يعكس نموذجاً رائعاً في التخطيط =

وهذا البناء الذي دعي في المدن الساحلية ومدن الرافدين أيضاً «أعجوبة العالم» وجدت بقاياه بعد إزاحة الأتربة عنها في حالة جيدة فاجأت باحثي الآثار.

ونظراً للتخطيط المتناسق والتجهيز الكامل وجمال التزيينات الجدارية والدقة في البناء ما زال الآثاريون يطلقون عليه صفة «جوهرة الفن المعماري للعصر القديم». وهم بذلك لا يختلفون عن رأي معاصري زمري ليم، ومنهم ملك أوغاريت الذي أرسل مرةً أحد أبنائه في هذه الرحلة الطويلة التي تتجاوز الخمسمائة كيلومتر من الساحل إلى ماري لمشاهدة ذلك «البيت الكبير». ويبدو أن تقرير أحد سفرائه قد أثار عنده الفضول. وهناك توقع لم تدعمه الأدلة بعد، أن الـ «مينوسيين/ مينويّين»(48) من سكان جزيرة كريت القدماء قد أتوا حتى ماري وتعلموا فيها. فالحمامات وتمديدات المياه والمنشآت الصحية والأفنية الداخلية المفتوحة والأقواس القرميدية وطريقة البناء، ربما كان كله مثالاً احتذوا به في بناء قصورهم التي وجدت في جزيرة كريت. حيث أن التشابه كان مما

= والضخامة.

(*) ثم القصر الذي بناه آشور بانيبال الثاني في مدينة «نمرود» واسمها القديم «كلخ» على دجلة جنوبي نينوى، حيث يفاخر الملك بنفسه على نصب تذكاري بمناسبة تدشين القصر في كتابة مطولة يرد فيها أنه في تلك المناسبة قدم الطعام إلى 69574 شخصاً.

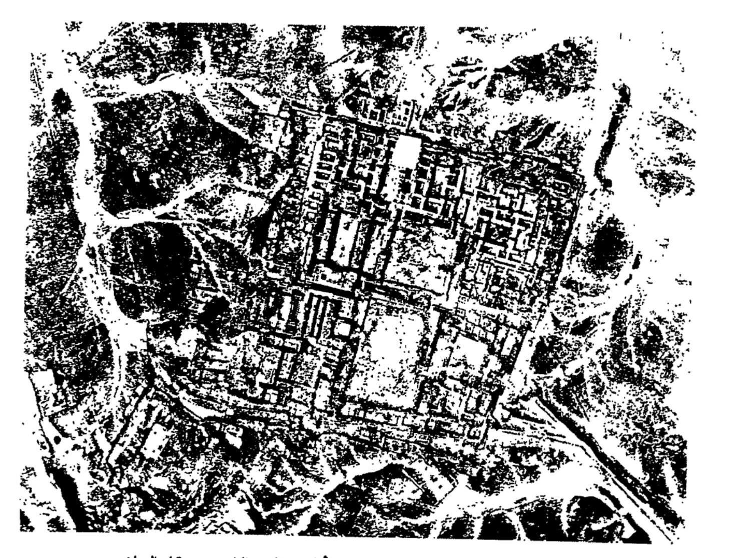
(*) وأخيراً لا آخراً القصر الجديد الذي أقامه نبوخذ نصر في بابل والذي اعتبر أيضاً من أضخم وأجمل منجزات عصره.

قارن لذلك: Barthel Hrouda, Vorderasien I,p. 226-244; 278-283... Seton Lloyd, Die Archaeologie Mesopotamiens, p.208-209; 253-259; 268-273; 286-292.

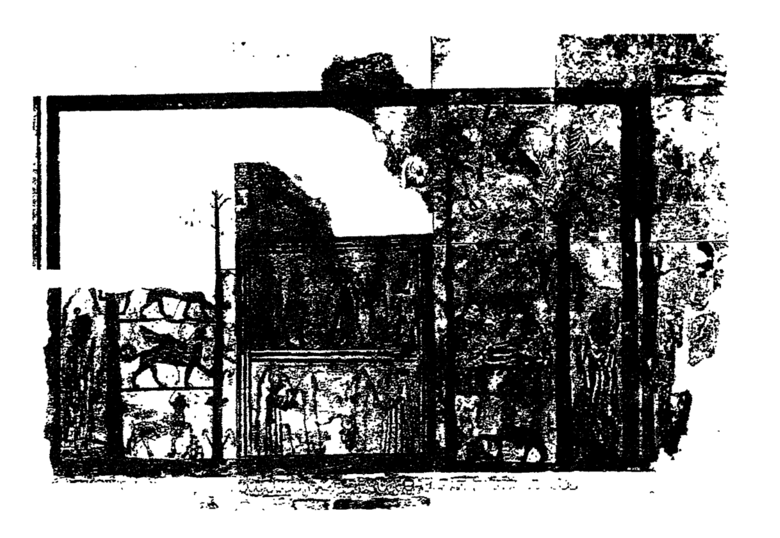
ولكن هناك احتمالاً ما زال قائماً: هو أن القصر الذي بناه سرجون الأكادي الكبير في عاصمته أكاد التي لم تكتشف بعد ـ كما ذكرنا في الحديث عن الأمبراطورية الأكادية ـ ربما كان فعلاً أكبر في مساحته من قصر زمري ليم في ماري إذا أخذنا بعين الاعتبار ما دونه سرجون الأكادي في أحد الألواح بأنه كان لديه يومياً على موائد الطعام 5400 شخصاً من العاملين في قصره بكل المجالات من حرس وخدم وإدارات وغير ذلك...

وانظر بهذا الصدد: Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.110.

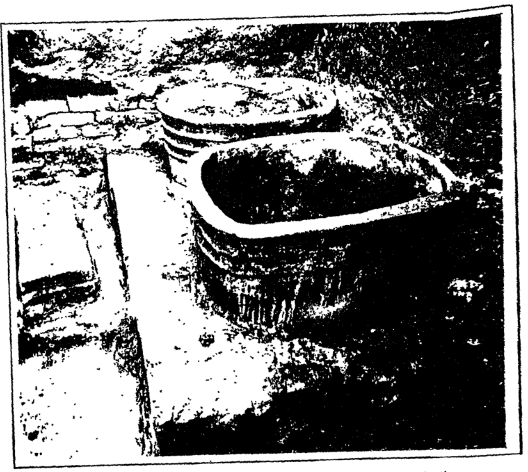
(48) جاءت هذه التسمية من «مينوس Minos» أحد الملوك الأسطوريين في جزيرة كريت. وتقول الأسطوة أن الإله «زيوس Zeus» وقع في حب «أوربا Europa» ابنة الملك الفينيقي «أجينور» فاختطفها عن الساحل السوري وهرب بها إلى جزيرة كريت حيث تزوجها وأقام في مدينة «كنوسوس Knosos» ثم ولد من هذا الزواج «مينوس Minos» وحكم في كريت قبل أن تكون هناك حضارة على الأرض الأوربية. وحضارة «المينوسيين» المنسوبة إليه يقدر أن بداياتها كانت حوالي أواسط الألف الثالث (ق.م.).



صورة جوية لقصر زمري ليم في ماري. العصر البابلي القديم. النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد.



لوحة جدارية من قصر ماري تمثل مراسيم تنصيب الملك زمري ليم. ـ القرن الثامن عشر قبل الميلاد ـ
(من محفوظات متحف باريس)



من جملة ما وجد في قسم سكن العائلة الملكية في قصر زمري ليم بمدينة ماري مرحاض وحوض استحمام أشبه بما يدعى في أيامنا: «بانيو».

يلفت النظر. وهذا ليس كل شيء، فتلوين الفنانين في ماري على الزخارف الجصية وجد ما يشبهه عند المينوسيين، كما أن طريقة تجسيد التصورات الفنية تبعث على الظن أن الرسوم الجدارية في ماري كانت أمثلة اقتدى بها الفنانون في كل من «كنوسوس» و «فايستوس» بجزيرة كريت، على الرغم من أن المواضيع المصورة اختلف بعضها عن بعض. ولكن هذا كله ما زال مجرد توقعات ينقصها الإثبات.

ما بين 1933 و1975 ميلادية كانت قد تمت في ماري أعمال إحدى وعشرين حملة من التنقيبات الأثرية.

وقد لوحظ أن قصر ماري بالأساس كان عبارة عن بناء موسّع نتج عن مضاعفة حجم بناء أقدم منه، يحتمل أن زمري ليم كان قد سكنه في البداية. فالقسم الذي يعود إلى الفترة

الأقدم يضم معبداً وقاعات للعمل والتخزين وصالة للمقابلات وفناء واسعاً يدعى باحة النخيل. وأما القسم الغربي الجديد الذي أنشأه زمري ليم فهو بناء متكامل مع البناء القديم حول فناء مستطيل تزين الرسوم جداره الغربي. ومن أهم مواضيع هذه الرسوم ما يمثل تنصيب زمري ليم ملكاً. وهناك بوابة عالية كانت تؤدي إلى قاعة العرش. وفيما وراء هذا الفناء كانت غرف السكن للعائلة الملكية، وقد جهزت بحمامات ودورات مياه ومواقد للتدفئة وكنارات للزينة وزخارف ورسوم جدارية. وألحقت بالبناء مستودعات وغرف للمؤونة والطبخ ومكاتب وقاعة للأرشيف وقاعات للعمل.

وعلى جانبي المدخل الكبير للقصر كانت غرف للضيوف وغيرها لحراس القصر ومدبري شؤونه وبعض موظفيه. حتى أنه وجدت فيه مدرسة من غرفتين وصفوف من المقاعد تمَّ تركيبها من القرميد. وعلى الأرض تناثرت بعض الألواح التي كانت تستخدم للتمارين الكتابية. ومن فناء التشريفات كانت ممرات عدة مختلفة تؤدي إلى المعبد الذي خصص للإلهة عشتار.

أما الجدران المحيطة بالبناء، والتي كانت لها سماكة غير عادية وارتفاعات تراوحت بين الأربعة والخمسة أمتار، فقد بنيت من الطوب المجفف الكبير الحجم على أساسات من الحجارة. وتمت تقوية الجهة الخارجية ببضع طبقات من الطين ونوع من الطلاء الأبيض. وفي غرف كثيرة، خصوصاً الحمامات وغرف الغسيل، تم استخدام طبقة من الأسفلت كعازل للرطوبة في الأرض والنصف الأسفل من الجدران.

هذا ولم يعثر الآثاريون على أثر للنوافذ في الجدران مما دفعهم للتوقع أنه ربما كان يُكتَفى بالأبواب العالية الواسعة كمصدر للنور، أو أنهم عمدوا إلى حفر فتحات مستديرة في سقوف الغرف كانت تغلق بسدادات مستديرة محكمة. ومن خلال وجود بقايا درج استنتجوا إنه ربما وجد طابق ثان فوق بعض أقسام القصر.

أما تصريف المياه فتم تنظيمه بطريقة جيدة عبر مجارٍ من القرميد مدفونة تحت الأرض تصب في أقنية من القساطل الفخارية معزولة بالأسفلت، تم تمديدها على عمق عشرة أمتار تحت سطح التربة. وكان نظام التصريف من الدقة وحسن التنفيذ بحيث كان العاملون في الحفريات الأثرية يلاحظون بدهشة وإعجاب أن مياه الزخات المطرية الشديدة كانت قلما تعيق أعمالهم لأنها لا تلبث خلال ساعات قليلة أن تختفي تماماً عن وجه الأرض. وهذا بعد مضي ما يقارب الأربعة آلاف سنة على وجود هذه الأقنية تحت الأتربة والرمال.

لا شك أن الرسوم الجدارية في قصر ماري قدمت معرفة جديدة عن فنون العصر القديم.

هناك لوحتان كبيرتان في صالة المقابلات، يشاهد في إحداهما نائب الملك في ماري، الذي ربما كان أحد الأتباع من أور، يبايعه إله القمر. أما المشهد الآخر، الذي تم ترميم قطعة منه (وحفظت في متحف اللوفر في باريس)، فهو يعكس مراسيم تنصيب زمري ليم. الذي وقف أمام عشتار المحاربة، ترافقه إلهة أخرى. وقد صورت عشتار واقفة إلى جانب أسدٍ، يلفها ثوب له فتحة وملون بالأبيض والأحمر والأخضر، وعليها بلوزة بيضاء قصيرة الأكمام مقصوصة عند الرقبة بشكل مثلث، وفي يدها اليمنى عصا بيضاء وخاتم أحمر، وباليسرى سيف مقوس وهراوة وعيدان مقوسة مضمومة إلى صدرها. وعلى رأسها ذلك التاج ذو القرون الذي كان رمزاً للألوهية في كل بلاد الرافدين. كما زينت رقبتها بحلي فاخرة ويداها بأساور.

أما الملك الواقف أمامها فقد ظهر برداء بلون المغرة الصفراء، تدلى أحد أطرافه على ذراعه اليسرى. وتعلو رأسه قلنسوة مرتفعة. وتشاهد الإلهة وهي تقدم له العصا والخاتم رمزي الحكم، بينما هو يرفع يده اليمنى تقديساً لها، ويمد في الوقت نفسه اليد اليسرى إلى الأمام بحيث تلامس العصا والخاتم قليلاً. وهي حركة تعبر عن مراسيم التنصيب من قبل الآلهة. ترافق عشتار في هذه المراسيم إلهتان من مرتبة دنيا تراقبان هذا المشهد دون حركة. وفي القسم الأسفل من الرسم وقفت إلهتان تقدمان الماء وبأيديهما مزهريات تطل من كل منها ورقة نخيل، وخيوط الماء تسيل فوقهما على هيئة قوس مرتفع فيه أسماك صاعدة ونازلة.

ومدلول هذا المشهد يتلخّص في: الماء ـ الحياة ـ الخصب ـ صيد الأسماك الوفير.

ورغم التشوه الكبير الذي أصاب المشهد فإنه يظهر فيه أيضاً شجرة نخيل تسلق عليها رجلان يقطعان عناقيد البلح. وقرب الشجرة وقفت إلهة أخرى. هذا وتبدو في الرسم أيضاً ثلاثة حيوانات خرافية لحقها تشويه كبير.

إن كل ما تبقى من الرسوم الجدارية بشكل عام رغم التشويه الذي أصابها يقدم فكرة رائعة عن جمالها قبل أن تصلها يد الخراب. أما تخريبها فما زال موضع شكوك وجدل ولا يعرف إن كان جنود حمورابي قد قاموا بذلك.

من بين التماثيل الكثيرة المشوهة وجدت نماذج في غاية الجمال. فهناك رأس محارب مصنوع من الرخام. ثم المتعبد الذي يقدم قرباناً من صغار الماعز وقد صنع من الحجر الجصي. والأسد البرونزي الساهر. وتمثال إلهة حاملة لوعاء من الماء صنع من الحجر الكلسي. وهو بالحجم الطبيعي تقريباً. وما تحمله يعبر عن مزهرية فوارة، ولذا دعيت غالباً: «واهبة الماء». وقد تم العثور عليها بين الأنقاض في الفناء الكبير للقصر. وكان قد نجا من التحطيم. وهناك ثقب يمر عبر التمثال والمزهرية من الأعلى إلى الأسفل. حيث وجد قديماً اتصال بخزان للماء بواسطة أنبوب لا يراه المشاهد. والتاج البسيط على رأسها يعبر عن ألوهية من مرتبة دنيا. ويغطي الجسم ثوب كامل لا يظهر منه إلا القدمان. وقد حملت زينة كاملة من العقود في رقبتها وأساور في يديها. وظهر وقوفها طبيعياً تماماً يوحي بالتواضع واللطف. ومن الطبيعي أن الناس القادمين لالتماس الخصوبة من الإلهة كانت تتأثر نفوسهم لدى رؤية الماء المتدفق من مزهريتها.

يلاحظ أن الفنانين في ماري أيام زمري ليم لم يكونوا فقط نحاتين ورسامين ومعماريين ممتازين، بل أتقنوا فن التطعيم بالأصداف لصنع اللوحات التزيينية. ومن الواضح أنهم اقتدوا بالسومريين سادة هذا الفن ومحبيه، والذين وجدت عندهم مشاهد كاملة تم تركيبها من الأصداف والحجارة الصغيرة على ألواح أحيطت بإطارات. وأشهر ما فيها تلك القطعة المسماة في أوساط الآثاريين: «علم أور» المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن، وهي تصور الحرب والسلام. ومن هذا النوع من الفن وُجِدَ في أنقاض قصر ماري لوح مشوه إلى حد كبير، وقد بذلت جهود غير عادية لإعادة تركيبه فلم يكن ممكناً إلا بصورة جزئية. ومثلما كانت الطريقة في أور فقد تم زرع هذه الفسيفساء في لوح من الأسفلت محاط بإطار خشبي. وقد استخدموا شظايا حجرية بلون رمادي مسود لملء الفراغات فيما بين الأجسام المصورة. هذا الموزاييك الذي حفظ نصفه في متحف حلب والنصف الآخر في اللوفر في باريس ما زال يوحي بتأثير قوي.

ويعتقد أندريه بارو صاحب حفريات ماري أن المقصود به لوح تذكاري لانتصار الأموريين في أحد النزاعات المسلحة الكثيرة التي جرت مع السومريين. يظهر الأسرى من السومريين وقد ساروا عراة الأجسام مربوطين بالحبال وأيديهم خلف ظهورهم مستسلمين لمصيرهم. أما الفريق المنتصر فيبدو بلباسه وأسلحته. وقد ارتدى الجنود معاطف لها عقدة سميكة على الظهر وتنتهي بأهداب من الأسفل. وهي طويلة تصل حتى منتصف بطن الساق. وأحياناً حتى الركبة فقط. ويبدو أحد الكتفين عارياً. وفوق

المعطف يحمل الجندي واقية للصدر والبطن. وعلى رؤوسهم قبعات دون واقية، وربما كانت خوذات معدنية. وبذلك يظهر الجنود باللباس الكامل. وفي حين أن رؤوس الأسرى حليقة تماماً، فقد كانت للجنود لحى مستديرة تظهر منها الشفاه والذقون.

هذه القافلة من الغالبين والمغلوبين تسير باتجاه مجموعة من الأشخاص تم تصويرها بأبهة كبيرة، ممّا يدفع للاعتقاد بأن المقصود بها كان الملك وأبناؤه، وقد وقفوا هناك بأردية طويلة منتهية بأهداب. وعلى الكتف بلطة وتغطي الرأس قبعة مسطحة. ويبدو في وقفتهم اعتزاز. والشعر الطويل المسرح بعناية يتدلى فوق الكتفين. وحولهم يقف بعض الوجهاء. وبينهم واحد بجذع عارٍ ورأس حليق يحمل بيده شيئاً يشبه العصا.

لا شك أن لوحة أور ولوحة ماري تمثلان فكرتين متقاربتين تماماً. ولذا فإن الحالة الجيدة التي بقيت عليها لوحة أور قد سهلت كثيراً إعادة ترتيب قطع الموزاييك المخربة في لوحة ماري. وهذا ليس بغريب، حيث أن اللوحتين تعودان إلى حقبة زمنية واحدة، هي أوائل الألف الثالث قبل الميلاد.

من المعروف أن السومريين انتقموا لهزيمتهم، وأن ملك لاغاش احتل ماري. وربما قام جنوده بتخريب هذه اللوحة التي خلدت هزيمتهم السابقة.

ماري والظروف السياسية في بلاد الرافدين

لم يقتصر الأرشيف الملكي في ماري على تقديم الأخبار عن التجارات والمعاملات المالية والشؤون العائلية والإدارات العامة المنظمة بمنتهى الدقة، بل كان أيضاً أهم مصدر للمعلومات في التاريخ السياسي عن فترة حكم آخر ملوك ماري «زمري ليم» وملك بابل، حمورابي، صديقه الحميم، وعدوه اللدود فيما بعد.

كان زمري ليم مدركاً تماماً أن الدفاع عن ماري بصورة مستمرة أمر متعذر. وعلى الرغم من أنه لم يكن يميل إلى حكام آشور الذين أخرجهم سابقاً من ماري، فقد بدا له أن الحكمة السياسية تتطلب منه موقفاً وديّاً تجاه آشور.

وبعدما قام ببعض الحملات الخاطفة والناجحة التي أمن بها السيطرة على مناطق كل من الخابور والبليخ رافدي الفرات، والتي يسميها أحد ألواح الأرشيف «البلاد العليا»، جعل جماعات المشاغبين من البدو تشعر ببطشه، فضرب قبيلة «بني يمينة» التي

تثير الفتن وقتل شيخها بلا تردد، على حد تعبير أحد ألواح الأرشيف. أما تعامله مع ممالك بلاد الشام فقد سادته المودة والعلاقات الطيبة. فكان أبناء الملوك في تلك الممالك يزورون ماري. وزمري ليم نفسه قام بزيارة حلب وقدم تمثالاً باسم إله المدينة. ومن هنا نرى أنه لم يكن يخشى شيئاً من جيرانه الغربيين.

وبين ماري وآشور كانت تحدث بين الحين والآخر بعض الاصطدامات المسلحة، وعلى الأغلب مناوشات حدودية صغيرة. ولكن ماري مع ذلك لم تشعر أن آشور تشكل خطراً حقيقياً يتهددها. وبدلاً من ذلك شعرت دائماً بوجوب مراقبة إشنونا (الواقعة جنوبي آشور) والحذر منها.

المخاوف نفسها من ملك إشنونا وحليفه ملك عيلام كانت تساور حمورابي ملك بابل وأفضل صديق لزمري ليم. وبما أن بابل وماري تسيطران على كل وادي الفرات فإن قيامهما بعمل مشترك لن تكون نتيجته إلا الإنتصار.

كان سفير زمري ليم في بابل، الذي تمتع بالموهبة والدهاء، يخبر سيده بكل مجريات الأمور هناك. وبالمقابل كان سفير حمورابي يخبره بكل ما يسمع ويرى في ماري. أي أن الأمر كان عبارة عن مهمة تجسّسيه مقنّعة بالوظيفة الدبلوماسية من الجانبين تتم بمعرفة وموافقة الملكين.

على الرغم من ذلك كان يجري بين الطرفين تبادل فرق الجنود للمساعدة، مثلما حصل مرةً عندما استقدم زمري ليم فرقاً داعمة من حلب لإنقاذ بابل، وكان الجانبان يحاولان إظهار كل أشكال المعروف والمجاملات المعتادة بين الأصدقاء والجيران. ولكن من يتأمل الأحداث اللاحقة يبدو له كما لو أن المودة التي تعامل بها حمورابي لم تكن تخلو من حسابات خفية لمصلحته الخاصة ـ أو لنقل: لمصلحة بابل ـ وليس من المستبعد أن حمورابي استخدم مبدئياً هذا الأسلوب بذكاء مع صديقه وحليفه ريثما يوطد سلطته.

هذا على كل حال هو ما بينته الألواح التي تمت دراستها من الأرشيف، والتي ساهمت بشكل أساسي في كشف خفايا حمورابي وتوضيح شخصيته كرجل صبور ماكر وداهية وصاحب بصيرة نافذة وسياسة واقعية لخدمة خطة كبرى تجاوزت الحدود الإقليمية، وأوضحت كيف كان يراهن مرة على هذا الأمير ومرة على ذلك، ويراقب الأمور بدقة وحذر، ولا يوجه ضربته إلا في اللحظة المناسبة ليضمن النجاح.

ويبدو أن خصومه قرروا الأخذ بزمام المبادرة واستباق الأحداث بتوجيه ضربة وقائية. فتوصلوا إلى إقامة حلف ضم إشنونا وآشور والعيلاميين والغوتيين[49] وقاموا مجتمعين بمهاجمة بابل في السنة التاسعة والعشرين لحكم حمورابي. والأرجح أن حمورابي على الرغم من كل حذره واطلاعه على الأمور والأخبار كافة كان قد غفل عن مفاوضات هذا التحالف، أو أنه لم تتوفر لديه المعلومات الدقيقة عنه. أما إن كان زمري ليم ملك ماري على علم بهذا التحالف فليس هنالك من دليل، حيث لا تشير نصوص الألواح إلى شيء من هذا القبيل. ولا يستبعد أن حمورابي توقع معرفة زمري ليم بما كان يجري وآخذه على سكوته. وعلى كل حال فالمعروف أن ملك ماري لم يتحرك لمساعدته. الأمر الذي يفسح المجال لاستنتاج معقول: هو أن التزايد المستمر لقوة بابل أصبح في نظر زمري ليم مخيفاً لا يطاق وصار يشعر أن من مصلحة ماري أن ينزل المتحالفون ضربة قوية ببابل.

لا توجد معلومات مفصلة عن هذه الحرب القصيرة. وأما عن نتيجتها فيخبرنا أحد الألواح البابلية بالعبارات التالية:

> «لقد انتصر الملك الذي يحبه مردوك على الجيوش الكبيرة لآشور وعيلام والغوتيين وإشنونا... انتصر بمساعدة الآلهة العظيمة... ووسع قواعد سومر وأكاد...».

في السنة التالية قام حمورابي بهجوم مضاد احتل فيه مملكة لارسا في الجنوب، وطرد ملكها «ريم سين» الذي حكم ستين سنة. وفي سنة 1762 قبل الميلاد حقق انتصارات سريعة متلاحقة على خصومه القدماء أطراف التحالف، الذين كانوا أثناءها يعملون على تجميع جيش جديد موحد ضد بابل. وتابع زحفه شمالاً محاذياً وادي دجلة حتى حدود الدولة الآشورية. وفي تلك الفترة نفسها قضى على دولة إشنونا.

---

(49) رأينا سابقاً في الحديث عن الأمبراطورية الأكادية أن العيلاميين كان لهم دور في إسقاط الأسرة السرجونية وساهموا في هزيمة بلاد الرافدين أكثر من مرة (انظر الحاشية 6) وذكرنا أن عداءهم المعلن أو الكامن تجاه مدن الرافدين لم ينقطع. كما رأينا كيف تدافع الغوتيون من الجبال بعد موت سرجون مباشرة وكيف أنهم بعد انتهاء فترة القوة للأسرة السرجونية سيطروا عى البلاد البابلية قرابة المئة سنة إلى أن تجمعت قوة المدن السومرية بزعامة ملك أوروك واستطاعت ترحيلهم خلال القرن الثاني والعشرين (ق.م.). الأمر الذي لا يعني إنتهاء خطرهم في ذلك الوقت كما نرى هنا.

نهاية ماري

لـم تأت الألواح المعروفة حتى الآن بمعلومات واضحة عن الظرف الذي هيأ للحرب ضد ماري أو كيفية حدوثها. فقد عثر على لوح وحيد يعود إلى تلك الفترة بالذات، ولكنه مشوه إلى حد كبير، باستثناء بداية النص التي أمكن بصعوبة التعرف فيها على هذه الكلمات:

«هكذا يقول حمورابي أخوك. . . .»، والتي استنتج منها أن الرسالة موجهة إلى زمري ليم، حيث جرت العادة أن يخاطب كل منهما الآخر بهذه العبارة. أما إن كانت مقاصد حمورابي هي طمأنة صديقه بالكلام وإخفاء خططه الحقيقية عنه، فهو أمر يتعذر إثباته. ولكن المعروف أن حمورابي لم يكن ذلك الرجل الذي يكتفي بمملكة تضم وسط وجنوب الرافدين. بل إن الأمر الأساسي الذي كان يسعى إليه هو إعادة بناء الأمبراطورية القديمة لسومر وأكاد، امبراطورية سرجون الكبير ثم حفيده نارام سين، التي وجدت قبل خمسة قرون ونيف.

ولذا فالأرجح أنه هاجم ماري على حين غرة ودون أن يبحث عن سبب مباشرة. كانت هذه المرة أيضاً حرباً خاطفة. والغريب أن كتّاب ماري لم يتحدثوا عن ذلك، أو ربما كتبوا ألواحاً بهذا الصدد لم يعثر لها على أثر.

وأما في الجانب البابلي فقد وجد فعلاً أحد الألواح الذي أعطى فكرة مقتضبة عن هذه الحرب الخاطفة بالعبارات التالية:

> «لقد تغلّبَ على ماري في القتال. . . وأرغمها بموجب اتفاق ودّي على إطاعة أوامره اعتباراً من الآن. . .».

هذا كل ما هو معروف. ومن كلمات هذا اللوح القليلة يُستنتج أن زمري ليم لم يفقد عرشه في تلك المرة، بل أصبح أحد أتباع حمورابي.

بعد ذلك بسنتين، أي في 1758 قبل الميلاد، عادت الفرق البابلية إلى ماري، ولكن هذه المرة للقضاء على حركة تمرد فيها. وبذلك انتهت تلك الصداقة القديمة. فخرب الجنود المدينة، ونهبوا قصر زمري ليم وأشعلوا فيه النيران، وانتهت إلى الأبد تلك المدينة الكبرى على الفرات الأوسط وتحولت إلى أنقاض.

هذا وأن الحفريات الأثرية قد ساهمت في توضيح هذه الأحداث. فقد تم تشويه

تماثيل الآلهة والأشخاص وإلقاؤها على الأرض. وخربوا الرسوم الجدارية. وتماثيل الآلهة جدعوا أنوفها (وهي من علامات الإذلال عند القبائل السامية) لحرمانها من القدرة على الانتقام. وكل ما كانت له قيمة اعتبر غنيمة حرب وأخذوه معهم إلى بابل. كما لحق الخراب بالأرشيف الملكي. ولكن لما كان متعذراً إتلاف الألواح الفخارية، فقد اكتفوا ببعثرتها على الأرض.

لم يعثر على أي أثر للملك زمري ليم وعائلته، وغير معروف إن كانت قد التهمتهم النيران، أو قتلوا حالاً لدى اقتحام القصر، أو اقتيدوا إلى بابل. فالألواح البابلية المعروفة لم تذكر شيئاً بهذا الصدد على الإطلاق، وهو أمر لافت للنظر. كل ما في الأمر أن ماري أصبحت خراباً.

بعد ذلك بقرون عدة كان يتعاقب حكام آشوريون على حكم تلك البلدة البسيطة التي تقيم فيها حامية عسكرية، والتي بقيت أهميتها لسبب واحد، هو أنها تمسك بناصية الطريق التجاري والعسكري الكبير المشرف على أراضي الدولة الآشورية. ولهذا فقط احتفظت آشور بعد انهيار مملكة حمورابي بذلك المركز الذي كان موظفوه وجنوده يحسون بالملل، كما تقول المدونات الآشورية، ما جعلهم يمضون وقتهم بتربية النحل والعناية بأشجار النخيل.

الفصل الحادي عشر

إبــلا

إبلا
المملكة الغامضة

يتميز تاريخ مملكة إبلا حتى الآن عن بقية الممالك التي مرت معنا: سومر ـ أكاد ـ بابل ـ آشور ـ ماري ـ، أنه ما زال بين أيدي الباحثين عبارة عن ملامح تاريخ مرئي فقط ولم يصبح تاريخاً مقروءاً بعد، وما زال الباحثون يتلمّسون خيوط هذا التاريخ بجهد وبطء شديدين.

خلال دراسة الكتابات المسمارية للمراكز الرافدية على مدى عقود عديدة من الزمن كان يتردد كثيراً في الرقم الطينية السومرية والأكادية ذكر تلك المملكة المسماة إبلا[50]

(50) في مطلع الستينات، أي قبل اكتشاف ألواح تل مرديخ (إبلا) أعطيت تقديرات متحفظة لمجمل عدد الألواح الطينية المعروفة حتى حينه بحوالى الربع مليون لوح.

انظر بهذا الصدد: D.J. Wiseman, The Expansion of Assyrian Studies, p.8 (London 1962).

ولا أتصور إلا أن الواقع يتجاوز هذا الرقم بأضعاف عدة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكتابة على الألواح الطينية استمرت حوالى الثلاثة آلاف سنة يجب أن تكون قد دونت خلالها أعداد هائلة(بالملايين) من النصوص والوثائق التي تتناول كل شؤون الحياة سواء على الصعيد الرسمي (الحكومي) أو الصعيد الشعبي في مختلف دول الهلال الخصيب. وربما كان رقم الربع مليون هو الألواح المعلن عن وجودها رسمياً في بعض المتاحف العالمية والتي اكتشفت بطرق نظامية على أيدي البعثات الأثرية. علماً بأن أعداداً كبيرة تجمعت بين مخزونات المتاحف عن طريق التجار ولصوص الآثار هنا وهناك على مدى قرنين من الزمن، مما يبدو معه رقم الربع مليون بالفعل متواضعاً.

«تل مرديخ» الذي غطت أتربته إحدى الممالك الكبرى «إبلا»



في سياق التعامل التجاري غالباً ودون وجود أية تفاصيل، ويثير كثيراً من التساؤلات في الأوساط العلمية المختصة بدراسات منطقة الشرق الأدنى القديم.

أما إبلا نفسها فكانت صامتة تحت الأتربة منذ أزمنة طويلة، وبقي هذا الإسم يشكل ثغرة كبيرة من جملة الثغرات التي تملأ التاريخ القديم لسوريا. واستمر ذلك حتى خلال السنوات الأولى من أعمال الحفريات التي بدأها في تل مرديخ الباحث الإيطالي «باولو ماتييه Paolo Matthiae» في أواسط الستينات. فالحطام الكثير من الفخاريات والمنحوتات الذي وُجِدَ في المراحل الأولى أتاح للباحث المذكور من ناحية شكلية فقط التوصل مبدئياً إلى تحديد الطبقات الركامية المتوضعة في تل مرديخ. وبالعثور على قطعة مكسورة من تمثال يحمل كتابة لملك يدعى «إيبّط ليم» أصبح الاحتمال قوياً أن التل يخفي تحت أتربته أنقاض مدينة إبلا بالذات، ولكن بالاستناد إلى استنتاجات أخرى معقدة.

وللتوصل إلى تأريخ تقريبي كان لا بد من تصنيف لحطام الفخاريات ومقارنته مع مكتشفات مواقع أخرى معروفة وخصوصاً في سهل العمق. فوجد هناك تشابه مع بعض المراحل الزمنية في منطقة العمق، التي تعتبر معاصرة للسلالة الأكادية. فقدر ماتيه بذلك أن القصر الذي كشف عن بقاياه في إبلا يعود إلى بدايات النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، على الرغم من أن هذا التقدير كانت تنقصه أدلة ثابتة[51]. إلى أن كانت المرحلة الحاسمة من أعمال التنقيب في أواسط السبعينات، والتي كشفت عن أرشيف القصر الملكي بأكداسه من الألواح الطينية التي جعلت إبلا تتحدث عن نفسها لأول مرة. إلا أن الألواح على الرغم من احتوائها على الكثير من المعلومات، لم تكن تقدم مساعدة تذكر في مشكلة الترتيب الزمني والتفاصيل التاريخية الأخرى.

الواقع أن جهود ثلاثة عقود من الزمن انقضت حتى الآن، أسفرت عن صدور عدد كبير من الأبحاث، تحتوي كلها ما يمكن أن نعتبره ملامح بسيطة لتاريخ هذه المملكة وليس تاريخاً بالمعنى الحقيقي.

فهناك شتات كبير من المعلومات المتفرقة عن أمور اقتصادية مختلفة[52]. ولكنه

---

(51) انظر Matthiae, Biblical Archaeologist (1976) p.97....
قارن أيضاً: Ch. Bermant/M. Weitzman: EBLA, Neu entdeckte Zivilisation im Alten Orient, p. 138 (Frankfurt am Main 1979).

(52) انظر أيضاً نفس المرجع السابق: Bermant/Weitzman, p.117.....

على الرغم من كونه يشكل النسبة العظمى من النصوص فلا يمكن من خلاله تلمس هيكل عام واضح للبنية الاقتصادية بمختلف جوانبها. وهناك شتات من المعلومات المتفرقة عن أمور إدارية لا يمكن من خلاله تقديم صورة واضحة لدولة إبلا وحياتها الاجتماعية. ثم هناك أقل منه عن أمور سياسية وعسكرية لا يسهم إطلاقاً في تكوين إطار عام ولو تقريبي لتطور التاريخ السياسي لهذه الدولة.

من المعروف في هذا الصدد أنه منذ المحاولات الأولى لدراسة الكتابات المسمارية سنة 1802 ميلادية على يد الألماني «جورج فريدريك غروتفند Georg Friedrich Grotefend» انقضى قرابة القرنين من الزمن حتى الآن وقطعت هذه الدراسات شوطاً بعيداً، وصارت علوماً اعتيادية. وعلى الرغم من ذلك فما زال الكثير منها موضعاً للتشكك وعرضة للتبدل في أي وقت كان[53]، وما زالت تكتنفها



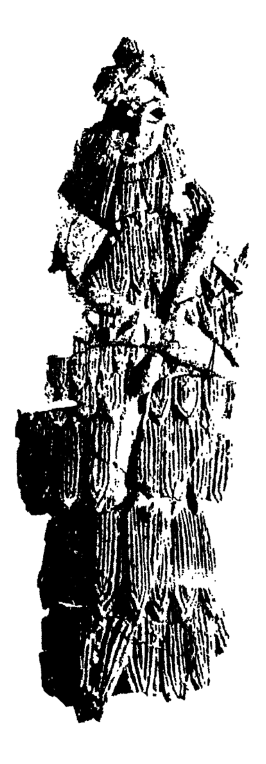
تمثال لثور بري برأس إنسان جسمه مصنوع من الخشب ومغطى برقائق من الذهب.

(53) يكفي من بين أمثلة لا تحصى بهذا الصدد أن نذكر أن حياة حمورابي البابلي بقيت فترة طويلة تؤرخ بحوالي 2000 قبل الميلاد، إلى أن ظهرت ألواح أرشيف ماري وتمت دراستها، فأصبح المرجح على ضوئها أن حمورابي ابتدأ حكمه سنة 1792 قبل الميلاد.



جذع تمثال مكسور يحمل كتابة مسمارية للملك «إيبط ليم» جعلت الآثاريين يجزمون بأن «تل مرديخ» يخفي تحته فعلاً أنقاض مملكة إبلا.

الصعوبات، الأمر الذي يبدو معه طبيعياً أن الدراسات الإبلائية ما زالت بعد مضي عقدين من الزمن في طور نشأتها، وأنها ستحتاج إلى عقود أخرى كثيرة قبل ان يمكن للباحثين من خلالها وضع تاريخ واضح نسبياً لهذه المملكة. حيث أن النتائج التي يتوصلون إليها يوماً بعد يوم هي معلومات معرضة للإهتزاز والتبدل، ناتجة عن رؤيا مبدئية سريعة لميراث كتابي ينطق بلهجة غير مألوفة لديهم فيما تمت دراسته من المخلفات الكتابية المسمارية لأي من المراكز الحضارية الأخرى في الهلال الخصيب.



من الأعمال الفنية الإبلائية. تمثال من الخشب الصلب المتفحم يعتقد أنه لأحد ملوك إبلا من الألف الثالث قبل الميلاد.

ومع ذلك فإن الألواح التي تم التعرف إلى محتواها حتى الآن تقدم فكرة معقولة عن دولة كانت في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد مأهولة بكثافة سكانية كبيرة وذات نشاط اقتصادي تجاري كبير وعلاقات خارجية واسعة.

بعض ملامح الدولة الإبلائية

اتضح في الفقرة السابقة أن الدراسات الإبلائية ستحتاج مزيداً من الوقت قبل أن تقدم صورة جلية المعالم لمختلف جوانب دولة إبلا. وعليه فإن كل ما سنراه فيما يلي إن هو إلا معلومات مبدئية من خلال قراءات لا تزال موضع خلاف لقسم من الإرث المكتوب.

فحتى أواخر السبعينات كان قد تم تصنيف ما يقارب الثلاثة عشر ألفاً من ألواح أرشيف إبلا من حيث محتواها. وبنتيجة ذلك كان القسم الأعظم من هذه الألواح يتعلق بمدونات اقتصادية عامة وحسابات يومية وحسابات جرد لمواد تجارية وغيرها. إلا أن ألواحاً بهذه الكثافة وبهذا المضمون بنيت عليها استنتاجات هامة لتكوين فكرة تقريبية عن وضع مملكة إبلا بشكل عام. إذ يقدر استناداً إلى ذلك أنها كانت دولة مزدهرة تجارياً واحتوت على ما يقارب الـ 260 ألفاً من السكان، بحيث يعتبرها البعض واحدة من أكبر وأكثف مناطق الاستيطان الحضاري للألف الثالث قبل الميلاد في الهلال الخصيب، وربما في العالم القديم كله. يدعم هذه الاستنتاجات التقديرات التي وضعها باحث الآثار «ليونارد وولي Leonard Woolley»[54] عن الكثافة السكانية لكل من محافظتي دمشق وحلب في مطلع قرننا الحالي بحوالى أربعمائة نسمة في كل هكتار من الأرض، واعتقاده أن الكثافة السكانية في المراكز الحضارية في بلاد الرافدين قديماً كانت قريبة من هذه التقديرات، وأنها لم تكن أقل من ذلك في داخل بلاد الشام أيضاً. هذا يعني أن مدينة إبلا كانت تحتوي ضمن مساحتها البالغة 56 هكتاراً على حوالى 22500 من السكان. كما يعني ـ استناداً إلى ما تبينه الألواح الطينية ـ أنه كان يتبعها عدد كبير من الضواحي والقرى القريبة منها والبعيدة[55].

إلا أن ما أثار استغراب الباحثين هو ما ورد في أحد الألواح الطينية عن ضخامة الجهاز الإداري العامل في المؤسسات الرسمية في إبلا. حيث يذكر الرقم 11700، الذي يعني نسبة 4,5 بالمئة من مجموع السكان الذي قدر بـ 260 ألفاً كما ذكر آنفاً[56]. وربما يبدو هذا العدد معقولاً إذا تذكرنا ضخامة الجهاز الإداري واتساعه في كل من بابل حمورابي وآشور.

---

(54) انظر Journal of World History, IV, I, (1957) p.246....

(55) قارن أيضاً عند: Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.117.....

(56) أنظر Paolo Matthiae, Biblical Archaeologist, (1976) p.107....

ويتبين من أحد الألواح أن المدينة كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام إدارية. لأربعة منها أرقام متسلسلة من الأول حتى الرابع، أما الأربعة الأخرى فلم يتضح منها إلا تسمية: «قصر الملك» و «قصر المدينة» - الذي يعتقد أنه كان بمثابة قسم للخدمات العامة الرسمية -. والمرجح أن الأقسام الأولى المرقمة تدل على أطراف المدينة حيث كانت لها إدارات محلية. وأن الأقسام الأربعة ذات التسميات هي التي شملت قلب المدينة وكانت لها إدارة مركزية[57].

هذا وقد أوضحت الحفريات التي تابعها «ماتييه Matthiae» ذلك التقسيم للمدينة السكنية إلى أربعة أقسام. فركام الأسوار التي كانت تحيط بالتل الأساسي لوحظت فيها انخفاضات في أربعة أماكن: في جهة الشمال الغربي، والشمال الشرقي، والجنوب الشرقي، والجنوب الغربي، على الأرجح أنه كانت تقوم فيها أربع بوابات للمدينة. وليس من الثابت حتى الآن أن هذه البوابات، وبالتالي هذه التقسيمات، تعود إلى فترة ألواح الأرشيف الملكي نفسها، أي أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. غير أنه من المعتقد أن صورة تقسيم أحياء المدينة لم تكن قد تغيرت عن تلك الحقبة السابقة، بل قامت على أنقاضها. ويتبين من ذلك أن البوابات الأربع كانت تؤدي إلى تلك الأقسام الأربعة من المدينة السكنية سواء في الحقبة القديمة أو الأحدث[58]. وبهذا الخصوص ترد في بعض الألواح تسميات مثل: «بوابة رشف» أو «حي رشف»، وكان «رشف» إله الحرب والبلاء والشدة في سوريا الغربية[59] حيث قابله الإغريق بإلههم «أبولو. . Apollo». ثم بوابة «سبش»، والأصح «شبش»، والمقصود بذلك «بوابة شمش» إله الشمس. ثم «حي داجان» وكان «داجان/ دجن» معروفاً في مختلف مناطق الهلال الخصيب كإله للأمطار والخصوبة وبالتالي إله للغذاء. وعلى لوح آخر وجدت تسمية «بوابة المدينة» ويعتقد أنها كانت منسوبة للإله «بعل». بحيث يستنتج أن الآلهة الرئيسية (أو الكبرى) في إبلا كانت أربعة. إلا أنه لا يمكن الادعاء من خلال هذه التسميات أن

---

(57) أنظر Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.117....

(58) نفس المرجع Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.118....

(59) وقد سميت باسم هذا الإله قديماً إحدى المدن على الساحل الفلسطيني بشكل «أرشف/أرشوف» حيث احتفظت به اللغة العربية بشكل «أرسوف». وقد دعاها اليونان «أبولونيا Apollonia» - تحقيقات تاريخية ولغوية في الأسماء الجغرافية السورية. د.عبدالله الحلو. (قيد الطبع) -

كل واحد من أقسام المدينة كان يعبد إلهاً خاصاً به[60].

هذا وتعطينا هذه الأقسام الأربعة ضمن امتداد شبه مستدير فكرة عن مدينة ذات تخطيط متناسق إلى درجة جيدة بالنسبة لمقاييس الألف الثالث قبل الميلاد. على رأس الدولة كان الملك. ولكن يبدو أن سلطاته كان يحدّ منها ما يرد ذكره في بعض الألواح بشكل «أبّو» الذي يفسر بـ «آباء» حيث يرجح أن المقصود به «مجلس شيوخ» كانت له ـ حسب ما يرى الباحث بتيناتو Pettinato ـ صلاحيات كثيرة واسعة إلى حد التدخل في شؤون العائلة الملكية. وكان لدى بتيناتو اعتقاد ـ لم تثبت صحته ـ بأن الملكية لم تكن وراثية. ويوضح بهذا الصدد أن واحداً من الملوك كان له ثمانية وثلاثون من الأولاد، مستنتجاً من ذلك أنه كانت له أكثر من زوجة. والإبن الأكبر كان يتولى إدارة الشؤون الداخلية، ويحتمل أكثر من ذلك أنه كان يساهم إلى حدٍ ما في شؤون الحكم إذا تطلبت الظروف. بينما كان الإبن الثاني يتولى الشؤون الخارجية. وعين أحد الملوك أبناءه كنواب له في مدن مجاورة[61].

يبدو أن زوجة الملك احتلت دوراً بارزاً في الحياة الرسمية العامة للدولة، على الرغم من أن هذا لا يوضح لنا شيئاً عن وضع المرأة بشكل عام في مجتمع إبلا. ومن المعروف ـ كما رأينا في فصول سابقة من هذا الكتاب ـ أن المرأة في مختلف المراكز الحضارية في الهلال الخصيب كانت لها مكانة اجتماعية جيدة. وسواء أكان ذلك في زمن الألواح الإبلائية أو بعده.

فقد مر معنا ذكر الملكة الآشورية «شمورامات» التي اشتهرت عالمياً باسم «سميراميس»، ثم الدور الهام الذي لعبته زوجة الملك «زمري ليم» في ماري. وسنرى في فصل لاحق من هذا الكتاب صاحبة الشهرة العالمية «زنوبيا» ملكة تدمر. وأخيراً لا آخر «إليسار» مؤسسة قرطاجة.

كما رأينا في الفصول السابقة أن المرأة بشكل عام استطاعت أن تكون صاحبة

---

(60) أنظر Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.118....

(61) أنظر G.Pettinato, Biblical Archaeologist (1976) p.47....
والواقع أن ذلك لم يقتصر على دولة إبلا بل كان أمراً عادياً أن يعين الملوك أبناءهم نواباً لهم أو حكاماً في أقاليم مختلفة. من ذلك مثلاً الملك الآشوري شمشي حدد في القرن التاسع عشر الذي عين أحد أبنائه ملكاً على ماري بعد احتلالها وترك ابناً آخر يحكم منطقة تدعى «إكلاً توم». انظر لذلك: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي. ترجمة د.عبدالله الحلو (قيد الطبع).

أملاك ولها الحقوق كافة في التصرف بأملاكها حسب ما يطيب لها، وأن تعبر عن رأيها، وتتخذ لنفسها المهنة التي تريدها. وعلى الرغم من أن أرشيف إبلا لم يكشف حتى الآن تفاصيل بهذا الصدد، فمن المرجح أن المرأة هنا كان لها وضع مشابه لما ذكرنا في بقية مناطق الهلال الخصيب. أما عن وضع النساء من العبيد فلا توجد حتى الآن أية معلومات. ولكن يمكن أن نقدّر أنه كان إلى حدٍ ما شبيهاً بالوضع في بابل. كما يمكن الاعتقاد بشكل عام أن العبيد كان لهم دور نشيط في الاقتصاد والانتاج على نحو ما رأينا في المراكز البابلية.

لمحة عن العلوم والكتابة

أكثر ما لفت الانتباه خلال تحريات إبلا هو المكانة الكبيرة التي احتلها تعليم الكتابة. إذ تبين من خلال الألواح الطينية أنه كانت هناك مدرسة لتعليم الكتابة المسمارية كان يقصدها المقبلون على تعلم الخط حتى من خارج المدينة[62].

وكما لاحظنا فيما سبق، في ألواح قصر ماري، فقد وجدت هنا أيضاً ألواح تبين تجارب التلاميذ في تعلم الرموز المسمارية. وقد أمكن للباحثين التمييز بين ألواح تظهر فيها التمارين الكتابية المتقنة التي صنعتها يد المعلم (الكاتب) وألواح أخرى تظهر فيها تمارين المبتدئين، لدرجة أنه لوحظ في بعض الأحيان وجود إشارة الضرب (X) عند الرموز الخطأ كما هو الحال في أيامنا هذه.

وقد أمكن تصنيف عدد غير قليل (بضع مئات) من الألواح التي تعتبر بمثابة الكتب التعليمية، من بينها لوائح بالرموز المسمارية، رتبت في بعضها تلك الرموز المتقاربة في شكلها وفي بعضها الآخر الرموز المتقاربة في قيمتها الصوتية. كما صنفت لوائح أخرى جاءت بالكلمات السومرية مظهرة إلى جانبها المقاطع التي تتركب منها[63]. وهذه المقاطع التي بينت في ذلك الزمن لكتّاب إبلا كيف تلفظ الكلمات السومرية قدمت التسهيلات نفسها لباحثي المسمارية اليوم. وعلى الرغم من أن السومرية كانت قد

---

(62) وهذا هو الأمر الذي عاصرناه حتى عهد قريب من أيامنا هذه عندما كان الكثير من أبناء القرى الصغيرة يقصدون المدن سيراً على الأقدام من أجل التعلم في مدارسها.

(63) يمكن للإنسان هنا أن يقول إن ما يتبع في أيامنا هذه لدى تعليم الصغار الكلمات مع مقاطعها جنباً إلى جنب إن هي إلا طريقة تعود إلى تلك الأزمنة وليست من ابتكار عصرنا هذا.

أصبحت معروفة في الأوساط العلمية منذ القرن الماضي، إلا أنه بقيت فيها كثير من الكلمات الغامضة التي لم يتضح لفظها إلا من خلال ألواح إبلا.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن كل المقاطع المعروفة، والتي تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد والفترة اللاحقة، أي إلى الزمن الذي انقرضت فيه السومرية كلغة محكيّة يعود الفضل في التعرف على كيفية نطقها إلى الكتابات الإبلائية[64].

كان من جملة ما تركته العلوم السومرية هو إعداد لوائح بأسماء الآلهة وأخرى بأنواع المهن المختلفة، وغيرها بأسماء كثير من الأشياء. وقد استمر نسخ هذه اللوائح في أزمنة لاحقة. واكتشفت من ذلك نماذج عديدة من مراكز الجنوب البابلي مثل «شوروباك» ـ التي يدعى موقعها اليوم «فارة» ـ ثم «تل أبو صلابيخ». وهذه الطريقة التي استمرت فترات طويلة في مدارس بلاد الرافدين تعود في قدمها إلى حوالى 3000 قبل الميلاد في كتابات أوروك. ولا شك أن هذه اللوائح كان لها دور هام في تعليم الكتّاب، وما زال الباحثون في المسماريات اليوم يعيرونها أهمية كبيرة، حيث يعتبرها بعضهم الخطوة الأساسية في المحاولة المنظمة للتصنيف العلمي وتبويب المواد، مثل تصنيف النباتات أو الحجارة أو غير ذلك[65]. وهذه اللوائح المرتبة بالسومرية وجد ما يماثلها في أرشيف إبلا: لوائح بالمعادن والحجارة الكريمة وأشياء من الخشب والمعادن، ولوائح بالنباتات والأشجار والحيوانات والطيور والأسماك، وأخرى لأنواع الحرف، وغيرها بأسماء الأشخاص والأسماء الجغرافية.

وقد وجد الإيطالي «بتيناتو Pettinato» نتيجة إحصائه الأولي للنصوص ما يزيد على المئة نموذج من هذه اللوائح التي تشبه اللوائح السومرية في كل من شوروباك (فارة) وتل أبو صلابيخ. إذ كانت هناك لائحة تشتمل على أكثر من ستين نوعاً من المهن اكتشفت في إبلا نماذج شبيهة بها حدد فيها الباحث المذكور ثلاثة وستين نوعاً من الأعمال تبدأ بالمناصب الرسمية العليا في الدولة. وكانت لائحة ثانية تشتمل على 142 رمزاً لأنواع الطيور، وأخرى من شوروباك تشتمل على 150 رمزاً لم تكن كلها واضحة،

(64) أنظر: Ch.Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.119-122....

(65) أنظر: S.N. Kramer, The Sumerians, p229 (Chicago 1963)...

ثم: A.L. Oppenheim, Ancient Mesopotamia, p248-250 (Chicago 1964)....

بينما وجدت في إبلا نسخة مشابهة تميزت عنها باستخدام مقاطع الكلمات. ثم إن لائحة ثالثة كانت قد وجدت في «أبو صلابيخ» تحتوي على أسماء جغرافية معظمها مجهول إلا أنها في أغلبها على الأرجح تتعلق بالجنوب البابلي.

ومما لوحظ أن لائحة الأسماء الجغرافية المكتشفة في أرشيف إبلا تتمتع بحالة أفضل وتحوي ما لا يقل عن 289 من أسماء المواقع. وعلى الرغم من أن أغلب هذه الأماكن لم يتم التعرف عليه بعد، فإن بتيناتو يعتقد أن اللائحة تشمل كافة مناطق الهلال الخصيب، وأنه يمكن اعتبارها بمثابة ـ أطلس جغرافي للشرق الأدنى القديم ـ، ويعرب عن قناعته أن لائحة من هذا النوع أول ما ظهرت في سوريا القديمة، وعلى التحديد في إبلا[66].

وعلى الرغم من أن هذه اللوائح المذكورة وجدت بصورة متفرقة، فما لا شك فيه أنها كانت عبر حقب طويلة تتناقلها الأجيال، وأنها كانت شائعة الاستخدام في كل بلاد الشام والرافدين، وبقي منها هذا النموذج الفريد تحت أتربة تل مرديخ.

إلا أن أكثر ما أثار الاهتمام كان تلك الفهارس الثنائية اللغة التي تشمل كلمات سومرية إلى جانب الكلمات الإبلائية، والتي اعتبرت بمثابة أقدم قواميس لغوية عرفت في الأزمنة القديمة حتى الآن. وقبل ظهورها كانت فهارس الكلمات السومرية الأكادية، التي تعود إلى العصر البابلي القديم ـ أي إلى فترة أحدث من القرن العشرين قبل الميلاد ـ، تعتبر أقدم ما كشف عنه من هذا القبيل.

وبين ألواح إبلا وجد بتياتو أكثر من مئة من هذه الفهارس، رتبت فيها المفردات السومرية شاقولياً، وأمام كل كلمة ما يقابلها بالإبلائية. ولوحظ أن كثيراً من هذه الفهارس مكرر، بحيث يعتقد بتيناتو أنها عبارة عن نسخ لفهارس (أو قواميس) أصلية سومرية إبلائية.

ويقدر أنها تحتوي بصورة إجمالية على حوالى ثلاثة آلاف كلمة كتبت كل منها باللغتين. كما يرجح أن الفهارس الأصلية كانت في البداية وحيدة اللغة (أي السومرية فقط)، ثم اتخذت أساساً لإنجاز فهارس ثنائية اللغة بكتابة الكلمات الإبلائية إلى جانبها، أي أنها لم تكتب منذ البداية باللغتين في آنٍ واحد. إلا أن هذا مجرد افتراض لا تؤيده أدلة مادية أو فنية.

---

(66) قارن لذلك: Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p.122-123....

ولا شك أن هذه الفهارس كانت مصدراً رئيسياً في تعلم اللغة بالنسبة للكتّاب. إلا أن مدرسة الكتّاب في إبلا احتوت عدا عن ذلك فهارس كلمات إبلائية صرفة، وأمثلة عن كيفية تصريف الأفعال بالإبلائية.

من خلال هذه المكتشفات اللغوية اتضح أيضاً شيء من العلاقات الثقافية بين المراكز الحضارية في الهلال الخصيب خلال الألف الثالث قبل الميلاد. فهناك في بعض النصوص النحوية ما يشير إلى أنه قد عُرف في إبلا ما يمكن أن يعتبر بمثابة «المؤتمرات المدرسية»، وكان يشترك فيها معلمون من ماري ومن مدن أخرى. كما يفهم من بعض الإشارات أن كتّاباً من إيمار[67] كانوا موظفين في إبلا، وأن كاتب أحد النصوص الحسابية كان أصله من كيش إلى الشرق من بابل[68].

لا شك أن عمل الكاتب في ذلك الزمن كان عملاً مجهداً، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ضخامة عدد الرموز المسمارية وتنوع أشكالها، وإضافة إلى ذلك استخدام تلك الريشة الرفيعة من القصب، وحرصه على الدقة المتناهية في تدوين آلاف الرموز على اللوح الطيني الرطب[69]. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال ما يرد في أحد الألواح الذي يعدد 175 موظفاً عدا عن 403 أشخاص من ذويهم، ولكل واحد من هؤلاء مقدار نصف «غوبار/ جوبار» من الحبوب[70].

المعتقدات الدينية

لم تقدم الألواح التي تمت دراستها حتى الآن إلا بعض الملامح عن الحياة الدينية في إبلا، التي يُعتقد من خلالها أن هذه المملكة كان فيها تسامح لا محدود بحيث استوعبت تيارات مختلفة من كل معتقدات الهلال الخصيب. وقد تكوّن عند الباحث بتيناتو اعتقاد

---

(67) عرفت في زمن لاحق بالاسم الآرامي «بالش» ثم بالاسم العربي «بالس» وفي العصر الحالي باسم «مسكنة».

(68) انظر لذلك: Akkadica (1977) II, p22....
ثم: Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p123-124....

(69) ارجع إلى: العصر السومري، فقرة: الطين والكتابة المسمارية.

(70) وحدة للكيل لم يعثر على ذكر لها في أي من المراكز الحضارية الأخرى في سوريا القديمة. ويقدر أنها كانت تعادل حوالي عشرين ليتراً.
انظر بهذا الصدد: Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p124.....

لم يؤيَّد في الأوساط العلمية، بأنه توصل من خلال دراسة الألواح لمعرفة ما لا يقل عن الخمسمائة من الآلهة والإلهات، وأنه كان لكل منها أتباعه. وقد ميز من بين الألواح عشرين. واحداً ذات مواضيع تتعلق بالأساطير، وتظهر فيها بعض أسماء آلهة بلاد الرافدين الشهيرة مثل: إنكي وإنليل وإنانا وأوتو (إله الشّمس) وسوئين (اللفظ الأقدم لاسم سين إله القمر)، والأساطير التي ترد هنا ذات أصول سومرية ولكن بأسلوب إبلائي[71]. ويظن بتيناتو أنه وجد على لوح مكسور خبراً مشابهاً لما في سفر التكوين من التوراة عن خلق العالم[72]. وفي مقالة نشرها يضيف أن تكوّن السماء والأرض والشمس والقمر ورد أيضاً في تسلسل مشابه. وأخبر عن اكتشافه لقصة طوفان أخرى يرد فيها أن إنليل أرسل المياه لمدة ستة أيام[73]. والواقع أن الآلهة المذكورة هنا هي سومرية أو أكادية وليست الآلهة الرئيسية لإبلا التي سميت أبواب المدينة بأسمائها.

إن ما ورد في أحد الألواح الفخارية عن توزيع مخصصات شهرية من الطحين (انظر فقرة الحياة الاقتصادية) تستنتج منه بعض المعلومات ولو جزئياً عن أمور متعلقة

---

(71) انظر لذلك: Biblical Archaeologist (1976), p45, 48, 110....

(72) من الجدير بالذكر أنه منذ الاكتشافات الهامة لمخزونات الألواح (الأرشيفات) الكبرى خصوصاً في مواقع أور وآشور وغيرها، ودراسة محتوياتها ثبت في الأوساط العلمية أن هناك قصصاً للخليقة في مختلف الأساطير القديمة للهلال الخصيب، وأن ما جاء بعد ذلك في سفر التكوين من التوراة ليس إلا تقليداً لها أو نسجاً على منوالها. والأبحاث التي صدرت منذ ذلك الوقت بهذا الصدد يصعب إحصاؤها، منها على سبيل الذكر لا الحصر:

Friedrich Delitzsch: Das babylonische Weltschoepfungsepos, Leipzig 1896.

L.W. King: The Seven Tablets of Creation, London 1902.

Erich Ebeling: Das Babylonische Weltschoepfungslied, Breslau 1921.

S.Langdon: The Babylonian Epic of Creation, Oxford 1923.

Sir E.A. Wallis Budge: The Babylonian Legends of the Creation, London 1931.

René Labat: Le Poème babylonien de la création, Paris 1935.

Alexander Heidel: The Babylonian Genesis, The Story of Creation, Chicago/London 1942.

وحتى في أحاديث الهنود الحمر في القارة الأميركية وجدت أساطير عن قصة خلق الإنسان.

انظر كتاب: الفينيقيون وأميركا. فصول شغلت العالم. ترجمة وتحقيق د.عبدالله الحلو. بيروت 1991. ص 42.

(73) ارجع إلى بداية الكتاب ـ فقرة: بلاد الرافدين، أرض الطوفان ـ حيث ذكرت أن أسطورة الطوفان وجدت في الثقافات القديمة لبلدان مختلفة في العالم. وانظر الحاشية رقم (1) هناك.

بالمعتقدات كالتقويم السنوي وعن الآلهة في إبلا. ويستدل أنه كان تقويماً قمرياً يحتوي على أثني عشر شهراً يضاف إليها شهر ثالث عشر حين يتطلب الأمر لمساواتها مع السنة الشمسية[74]. وكانت منها أربعة أشهر منسوبة إلى أعمال هامة رئيسية في السنة مثل: شهر الحصاد، وشهر خزن المؤن. وكانت ستة أشهر أخرى مسماة بأسماء آلهة. ويتوقع بتيناتو أن السنة في إبلا كانت تبدأ في أيلول بشهر يدعى «بِلي» ويترجم هذا الاسم بمعنى «سيدي» أي أن الكلمة أصلاً هي «بعلي». ولكنه يعتقد أن المقصود بذلك إنما هو الإله «دجن» الذي كان أيضاً في زمن لاحق إله الفلسطينيين وأصبح الإله الرئيسي في مجمع الآلهة الإبلائية، وقيل عنه «سيد كنعان». وشهر كانون الأول سمي باسم «حدد» إله العواصف والأمطار. وشهر تموز باسم «عشتار». وشهر آب باسم «كميش» الذي أصبح فيما بعد إله المؤابيين في شرقي الأردن حيث تظهر صيغة الاسم بشكل «كِموش».

ومن اللافت للنظر ما يعتقده بتيناتو أن هناك شهرين آخرين كانت لهما أسماء آلهة حورية هما: «أشتابي» و «أدمّا»[75]. علماً أن الاعتقاد السائد حتى الآن هو أن الحوريين في ذلك الزمن (أواسط الألف الثالث قبل الميلاد) قد اقتصرت منطقة انتشارهم على الأطراف الشرقية من أرض الرافدين ما بين دجلة وسلسلة زاغروس وأن توغلهم في سوريا الغربية لم يبدأ قبل القرن الثامن عشر قبل الميلاد[76]. ولكن إن صح هذا الإدعاء عند بتيناتو فإنما يعني أن معرفة الإبلائية بالآلهة الحورية وتسمية بعض الأشهر بأسمائها دليل على امتداد الحوريين باتجاه الغرب منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

ثم نفاجأ بشهرين لهما تسميتان من نوع آخر. فهناك ما يدعى «شهر المدن» والمعتقد أنه يقصد به كانون الثاني. ثم يليه شهر «حُرْمو» أي شهر التحريم[77].

ويعتقد بتيناتو من جهة أخرى أن التقويم الأقدم كان بالأساس يبدأ في الربيع[78]

(74) أنظر لذلك: Archiv fuer Orientforschung (1977), pp 28-35.....

(75) أنظر نفس المرجع Archiv fuer Orientforschung (1977), pp 28, 29, 35.....

(76) أنظر: I. J. Gelb: Hurrians and Subarians, p 57..... Chicago 1944.

(77) Archiv fuer Orientforschung (1977), pp 29-30.....

(78) الواقع أن السنة كانت عموماً تبدأ في الربيع ـ شهر نيسان ـ سواء في شرقي الهلال الخصيب (بابل) أو في غربيه (كنعان) ومن الطبيعي أن يكون ذلك في إبلا أيضاً. وربما كان توقع بتيناتو الآنف الذكر من أن السنة صارت تبدأ في شهر أيلول ناتجاً عن إرتباك بسبب القراءات غير الدقيقة حتى الآن، ليس فقط بهذا الصدد وإنما في الألواح الإبلائية بشكل عام.

وكان فيه أيضاً أثنا عشر شهراً قمرياً يضاف إليها شهر ثالث عشر بين الحين والآخر. إلا أن أسماء الأشهر كانت تختلف. ويرجح مبدئياً أن مدلولاتها كانت تعود إلى أصول «سامية» وأغلبها كانت له علاقة بالأمور الزراعية أو الطبيعية. فمثلاً شهر «البذور» يقصد به تشرين الأول و«الظل» لكانون الثاني و «القص أو الجني» لحزيران و «القطعان» لتموز و «الحرارة» لآب. وأغلب هذه الأسماء كانت مستخدمة خلال تلك الحقبة (ما بين 2600 و 2200 قبل الميلاد) في مراكز حضارية أخرى من الهلال الخصيب مثل ماري (على الفرات) ونوزي/ نوزو (ورد ذكرها في العصر البابلي وموقعها إلى الجنوب من كركوك) ومناطق وادي ديالا وفي أدب ولاغاش من الجنوب البابلي، بحيث لا يستبعد أن يكون هذا التقويم الجغرافي قد شمل كل منطقة الهلال الخصيب خلال تلك الفترة من الألف الثالث قبل الميلاد.

والجدير بالذكر أن اكتشافات إيلا كان لها الفضل في توضيح العدد الأكبر من هذه التسميات الجغرافية التي لم تكن معروفة من خلال مكتشفات المراكز الأخرى إلا بصورة جزئية بسيطة. ويعتقد أن تغيير هذا التقويم الزراعي حصل في أيام الملك «إبّي... سيبيش». وربما كان السبب هو أنه لم يعد يتلاءم مع شكل الاقتصاد الصناعي والتجاري في إيلا.

تُستنتج من أحد الفهارس (القواميس) اللغوية السومرية ـ الإبلائية بعض الإشارات إلى توزع الأدوار في مجمع الآلهة الإبلائية. وعلى الرغم من أن هذا الفهرس مكون بغالبيته من كلمات سومرية أضيف إليها فيما بعد ما تعنيه بالإبلائية، فإنه قد أدخلت فيه بضعة من أسماء آلهة بلاد الرافدين وُضع ما يقابلها من أسماء آلهة بلاد الشام. إذ يوجد بالسومرية «نِرْجال» ويقابله «رشف» بالإبلائية وكلاهما يعني إله الشدة والبلاء. ثم «أوتو» بالسومرية ويقابله «شيبيش» بالإبلائية وكلاهما يعني إله الشمس. وهذا يعني أن آلهة بلاد الرافدين نتيجة للانتشار الواسع للأساطير كانت معروفة في إبلا أيضاً، وأن إدخالها بهذا الشكل في الفهرس اللغوي ربما كان الهدف منه تبيان دورها، علماً أنه لا يستبعد أنها كانت تُعبد أيضاً في بلاد الشام[79].

لم تقدم الألواح التي تمت دراستها تفاصيل واضحة عن طقوس العبادة. فبعض

(79) أنظر: Biblical Archaeologist (1976) p49... W. von Soden: Zweisprachigkeit in der geistigen Kultur Babyloniens, pp 13-15 (Wien 1960).

أسماء الأشهر التي كانت مستخدمة في تقويم السنة كما مر معنا منسوبة إلى أعياد الآلهة «حدد» و «كميش» و «أشتابي». ومن الواضح أنه كانت هناك تقدمات وقرابين كثيرة من الأطعمة والمشروبات والذبائح. فأحد الألواح يذكر القرابين التي قدمتها العائلة الملكية خلال شهر كامل ويحدد من بينها 11 نعجة قدمها الملك للإله حدد. ولوح آخر سجل عدد الأغنام التي قدمت كأضحيات شهرية خلال سنة كاملة دون أن يذكر باسم من كانت الأضحيات. فكان العدد الإجمالي ـ 20452ـ نعجة. وكانت أعلى نسبة شهرية قد بلغت ـ 4360ـ نعجة مقدمة في الشهر السابع من السنة[80].

وعلى الرغم من أن قراءات الألواح لا تزال سطحية وموضعاً للجدل وإعادة النظر، وعلى الرغم من أنه لا توجد تفاصيل عن الكهنوت، فالمرجح أنه قد وجدت في إبلا كما في ماري وبابل تسميات عدة للكهنة وغيرهم من المتنبئين والعرافين.

خلال أعمال التنقيب قرب واجهة باحة الاستقبال في القصر الملكي وجد الآثاري ماتييه عدداً من أشكال العيون الكبيرة المصنوعة من الحجر الكلسي، كانت لغزاً بالنسبة إليه أثار تساؤلات محرجة: فهي ربما كانت ترمز إلى إله تحيط رؤيته بكل شيء!... أو أنها وضعت في مكان مشرف على الباحة لرد العين الشريرة!... أو أنه قُصد بها أن ترمز نفسها للعين التي توجه النظرة الشريرة!...

ولكن ماتييه يرجح شيئاً آخر، هو أن هذه العيون ربما كانت ترمز إلى حدّة وصلابة القوانين والتعليمات الإلهية والملكية التي كانت تصدر عن هذه القاعة[81].

وقد عثر على قطع فنية كانت على شيءٍ من الغموض. من ذلك شكل أنثوي تم تصويره بهيئات مختلفة تسيطر على أسودٍ وتحمي ثيراناً وتحيط بها أشكال للإنسان

(80) عندما يكون عدد القرابين المقدمة سنوياً فعلاً بهذا الشكل فإنما يعطي فكرة واقعية عن ضخامة ممتلكات إبلا من قطعان الأغنام ـ أنظر فقرة: الحياة الاقتصادية.

(81) والواقع أنه يتعذر الجزم بواحد من هذه الاحتمالات المذكورة. فمن المعروف أن مسألة العين الشريرة هي من جملة المعتقدات التي لها جذور أزلية في كل مناطق الهلال الخصيب، وأنها لم تنقرض حتى أيامنا هذه. إلا أن وضع هذه الرموز في باحة القصر الملكي بالذات ربما كان له فعلاً المدلول الأخير من هذه التساؤلات، بمعنى: العين الساهرة على النظام والقانون والتي توحي بالرهبة.
والجدير بالذكر هنا أن الفينيقيين كانوا يرسمون على مقدمة السفن أيضاً عينين كبيرتين للتعبير عن اليقظة ودب الرهبة في قلوب الأعداء.

الثور. وقد دعاها ماتييه «سيدة الحيوانات» واعتبرها نموذجاً قديماً لإلهة الطبيعة، حيث أن الثيران ترمز إلى الخصوبة والأسود تمثل القوة المعادية لها.

ومن أكثر ما استحوذ الاهتمام هو تمثال نصفي جاثٍ يحمل على رأسه رمزاً معقداً مكوناً من رأسي أسد متصالبين ورأسي إنسان متصالبين أيضاً. واستناداً إلى ما وُجِدَ في التحريات من أن إبلا المدينة كانت مقسمة إلى أربعة أقسام إدارية فقد استنتج ماتييه من ذلك أن الإبلائيين اعتبروا مدينتهم نموذجاً للعالم كله، وأن تصور البشر قديماً عن تكون العالم من أربعة أقسام (أو أربع جهات) ربما كان مبعثه إبلا نفسها، وأن هذا الرمز الرباعي (من أربعة رؤوس) المرفوع على رأس التمثال الجاثي كان القصد منه إظهار ذلك. وهو يعتقد تبعاً لذلك أن «نارام سين» اتخذ لنفسه لقب «ملك الجهات الأربع» بمناسبة احتلاله إبلا[82].

والواقع أن هذا كله سلسلة من التصورات المبدئية تنقصها الدلائل المقنعة.

الحياة الاقتصادية

تمتعت إبلا بموقع متوسط في شمالي بلاد الشام، يتصل من جهة بالتقوس الرطب للهلال الخصيب ويشرف من جهة أخرى على المناطق السهلية الداخلية المتصلة بسهوب البادية الواسعة. بمعنى أنها تميزت بوجودها في منطقة الزراعات المطرية وباستفادتها في الوقت نفسه من الأراضي الرعوية الواسعة، فملكت بذلك مصدرين أساسيين في الحياة الاقتصادية: الانتاج الزراعي والانتاج الحيواني. ومما لا شك فيه أنه كان هناك إنتاج جيد من الحبوب، بالدرجة الأولى الشعير، ثم القمح، من المناطق السهلية، إضافة إلى ذلك وجدت الأشجار المثمرة بصورة كثيفة، وخصوصاً منها الزيتون، ثم العنب والتين، ومن الملاحظ حتى يومنا هذا وجود أشجار الزيتون بكثرة في محيط إبلا.

ومما يدل على كثافة إنتاج إبلا من الحبوب والزيتون وجود العديد من الألواح الفخارية ذات المحتوى التجاري، التي تتحدث عن عمليات استلام وتسليم مكاييل بالآلاف سواء من الشعير أو زيت الزيتون.

وعدا عن استخراج الزيت وجدت أيضاً صناعة النبيذ من العنب. وكانت إبلا بذلك

(82) انظر بهذا الصدد: ...Archaeology (1977), pp 248-249

إحدى المناطق الرئيسية في بلاد الشام التي اعتمدت عليها مدن الرافدين في استيراد الزيوت والخمور.

ويبدو أيضاً أن إبلا تمتعت بشهرة خاصة في صنع البيرة حتى خارج حدودها. ففي أحد الألواح المسمارية التي تعود إلى فترة لاحقة تم التعرف على كتابة حول البيرة ويبدو أن نوعاً منها كان يحمل اسم إبلا[83]. والمعروف أن صناعة البيرة قد عرفت منذ أزمنة قديمة في مراكز الرافدين كلها[84].

ومن خلال الألواح المسمارية يتضح أن إبلا كانت لديها قطعان ضخمة من المواشي، وبالدرجة الأولى الأغنام. علماً بأن العديد من الألواح ترد فيه معلومات إحصائية أغلبها بعشرات الألوف من الأغنام. الأمر الذي لا يستبعد معه أن ثروة إبلا من الأغنام كانت ربما تقدر ببضعة ملايين رأس. وإذا رجعنا إلى ذلك اللوح المسماري الذي أحصى عدد الأضاحي السنوية من الأغنام فكانت 20452 رأساً[85] واعتبرناه مقياساً نسبياً لذلك لتكونت لدينا فكرة قريبة من هذه التقديرات. والواقع أنه مما يساعد على وجود قطعان كبيرة هو اتصال أراضي إبلا بمشارف البادية الواسعة. وكما يتبين من الألواح كانت منتجات هذه القطعان من الأصواف تشكل مورداً لا يستهان به.

ثم إنه من الطبيعي أن يكون موقع إبلا قد مكّنها من فرض شكل من أشكال السيطرة على مناطق الغابات الجبلية في الغرب والتحكم بالطرق المؤدية إليها وإلى جبال الفضة في الشمال الغربي وتحقيق فائدة كبرى من ذلك، الأمر الذي لا يستعبد معه أن تكون قد شكلت عائقاً في وجه امبراطورية أكاد ما أدى إلى مهاجمتها من قبل سرجون الأول ثم حفيده نارام سين كما سنرى في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

ومن الطبيعي أيضاً أن تكون إبلا قد استفادت من مقالع الحجارة في مرتفعات الحص وشبيت التي عرفت منذ أزمنة قديمة كأحد مصادر الحجارة بالنسبة إلى مدن الرافدين. وقد وجدت في إبلا حرف يدوية متعددة. في مقدمتها صناعة المنسوجات.

---

p. Matthiae: Ebla, pp 83-85, 247-249.

(83) قارن لذلك: ..... Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p124

(84) للإطلاع على إنتاج البيرة وكل ما يتعلق به في بلاد الرافدين القديمة أنظر: Wolfgang Roellig, Das Bier im Alten Mesopotamien, Berlin 1970.

(85) ارجع لذلك إلى فقرة ـ المعتقدات الدينية ـ

وتدل بعض المكتشفات على أن الحرفيين كانت لديهم مهارة في المصنوعات من الخشب والمعادن والحجارة الكريمة. وقد تم التعرف إلى العديد من الألواح المسمارية التي تذكر عمليات تسليم مقادير من الأقمشة والملبوسات الجاهزة لأفراد القصر الملكي وغيرهم من وجهاء وكهنة وعن عمليات تصدير إلى مناطق عديدة في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم[86].

والمعتقد أن أصحاب الحرف المختلفة كانوا مرتبطين بالقصر الملكي أو يعملون بتوجيه منه مقابل حصولهم على أجور بشكل مواد تموينية أو حصص معينة من الإنتاج. وبهذا الصدد لم تكن إبلا حالة فريدة، حيث إن ارتباط أصحاب الحرف بالقصر الملكي عرفته أيضاً بلاد الرافدين في أغلب الحقب الزمنية. ولا يستبعد أن تكون إبلا قد عرفت نظاماً اقتصادياً موجهاً من القصر أو شكلاً من أشكال المركزية والرقابة على الإنتاج والتوزيع.

فهناك من بين الألواح ما يشير إلى شيء من هذا القبيل: على سبيل المثال لوح جاء فيه تعداد 175 موظفاً عدا عن 403 أشخاص من ذويهم، ولكل واحد من هؤلاء مقدار نصف «غوبار/جوبار» من الحبوب[87].

وترد في لوح آخر ـ على الرغم من عدم الوضوح الكامل ـ مخصصات الأشخاص العاملين في القصر على النحو التالي:

«390 غوبار من الطحين حصة العاملين عن شهر كميش. . . 540 غوبار حصص من الطحين للعاملين. . . .؟ 250 غوبار من الطحين مؤونة القصر من أجل الرحلة إلى . . .ـ زابو ـ؟. . . في شهر بلي. . .؟ ـ 103 غوبار طحين قربان من الملكة إلى . . .ـ غورا ـ؟. . في شهر أدمّا؟. . . 80 غوبار طحين مخصصة للنسّاجين ـ 50 غوبار طحين من أجل بيت إيشوب دامو . . .ـ. .»[88].

وربما يعني ذلك أن التجارة (الخارجية) أيضاً كانت إما بيد الدولة مباشرة أو تحت إشرافها كما كان الحال في دول الرافدين في تلك الحقبة. وربما أيضاً وجد عدا عن ذلك تجار عملوا لحسابهم الخاص مثلما كان هناك أيضاً. كانت للتجارة أهمية كبيرة كما

(86) انظر ما جاء عند باولو ماتييه في: Akkadica (1977), Nr. 2, p12....

(87) إرجع إلى الحاشية (70).

(88) أنظر: Archiv fuer Orientforschung (1977), pp 1-36... الى ص 234

تبين الألواح المسمارية. وقد بينّا شيئاً عن اتساعها في فقرة ـ العلاقات الخارجية ـ. ومن أهم المواد التجارية كانت المنتجات الزراعية والحيوانية كالحبوب والزيوت والخمر كما أسلفنا، والأصواف على شكل منسوجات وألبسة إلى جانب المنسوجات الكتانية. ثم المنتجات من مختلف الحرف اليدوية التي تشمل المصنوعات الضرورية والتزيينية من المعادن والأحجار الكريمة المستوردة. يضاف إلى ذلك تجارة الأخشاب من المناطق الجبلية الغربية. ومن مستوردات إبلا كانت بالدرجة الأولى المعادن الأساسية في ذلك الزمن وهي النحاس والقصدير والفضة والذهب. وهناك العديد من الألواح ذات المحتوى التجاري التي وردت فيها عمليات استلام أو تسليم لمقادير مختلفة من هذه المعادن المذكورة. هذا وأن تعامل إبلا بالأحجار الكريمة يعني أنها عرفت مصادرها في بلدان أواسط آسيا. أما إن كانت قد اعتمدت على تجارها في ذلك أو على وسطاء من مدن الرافدين، فأمر غير واضح. ومن الطبيعي أن استيراد المعادن المذكورة والأحجار الكريمة لم يكن فقط للاستهلاك المحلي بمقدار ما كان للتصنيع وإعادة التصدير. ويمكن القول بصورة عامة إن نشاط إبلا التجاري ربما لم يكن أقل مما كان عليه لدى المراكز الرافدية الكبرى في ذلك الزمن.

العلاقات الخارجية

على الرغم من الصعوبات التي ما زالت تتخبط فيها دراسة ألواح إبلا والقراءات المختلفة لنصوصها فإنها سلطت بعض الضوء على الخطوط الرئيسية لعلاقات إبلا مع محيطها الواسع، والتي كانت المصالح التجارية بالطبع محورها الأساسي، كما هو الحال لدى كل الممالك الأخرى. ففي العديد من الألواح وجدت إشارات إلى أكثر من مئة من المناطق التي كانت إبلا تقيم علاقات تجارية معها سواء بشكل واسع أو بصورة محدودة. إذ ترد أسماء المراكز الساحلية مثل جبيل وصيدا وعكا والكرمل ودور وأشدود وغزة وحاصور ومجدّو ويافا وجزيرة قبرص. ثم مراكز في اتجاهات أخرى أهمها: ماري وإيمار (مسكنة) وكيش وحران ودلمون (البحرين) وكركميش وحماة وآشور ومناطق أخرى كثيرة أصبحت منسية أو لم تحدد مواقعها بعد، منها في وادي الفرات ووادي دجلة وما خلفه باتجاه الأراضي الإيرانية. كما لوحظ ما يشير إلى وجود علاقات مع مصر أيضاً. هناك اعتقاد بأن إبلا كانت قد وسعت نشاطها التجاري نتيجة لتوسعات عسكرية وأنها لجأت أحياناً إلى الحروب للحفاظ على استقرارها التجاري. والمبرر لهذا

الإعتقاد الذي لا تدعمه أدلة واضحة هو نص في أحد الألواح اعتبره بتيناتو[89] بمثابة بلاغ ـ أو تقرير ـ موجه من قائد جيش إبلا المسمى «إنّا. . دجن» إلى ملكه عن حملة عسكرية ناجحة، والذي يعتقد أنه بنتيجتها كوفىء بإعطائه عرش ماري. وعلى الرغم من عدم اتفاق الآراء حول تفاصيل قراءة النص فإن عباراته عرضت كالتالي:

«. . .مدينة أ. . .بو. . .رو ومدينة إل. . .غي الواقعتان في منطقة بي. . .لان حاصرتهما وانتصرت على ملك ماري. عملت أكواماً من الجثث في أرض لا. .با. .نان. ومدينة تي. . .با. . .لات ومدينة إل. . .وي حاصرتهما وانتصرت على ملك ماري. عملت أكواماً من الجثث في أرض أن. . .غي. . . . . .»

وتستمر قراءة النص على هذه الوتيرة حتى يعدد «إنّا دجن» أكثر من عشر مدن احتلها.

(وربما كان تكرار اسم مدينة ما على لسانه يُفهم منه فشله في احتلالها أول مرة). إنه يذكر بهذا الصدد ثماني مرات انتصاره على ملك ماري. كما يذكر أنه ترك ما لا يقل عن ثلاثين كومة من الجثث.

كان ملك ماري يدعى «إيبلول. . .إيل». وكان هذا الاسم معروفاً من قبل اكتشاف أرشيف إبلا. وتشير بعض الألواح إلى أن «إيبلول. . . إيل» استولى مرة على عرش آشور، التي احتلت ماري فيما بعد وبسطت سيطرتها عليها حوالي 1800 قبل الميلاد[90].

وهناك عبارة في نص التقرير يفسرها البعض بمعنى: ـ وقد حررتُ المستوطنات التجارية ـ، الأمر الذي يدعوهم إلى الإعتقاد بأن ماري نفسها كانت قد استولت على بعض المراكز التابعة لإبلا (ربما على مقربة من إيمار على الفرات) وتسببت بذلك في نشوب الحرب. إلا أن السبب الحقيقي للنزاع لا يكمن في التجارة ضمن البلاد السورية فحسب، بل في محاولة السيطرة على التجارة بمعناها الواسع[91].

---

(89) أنظر: Akkadica (1977) Nr. 2, pp 24-26...
Ch. Bermant/M. Weitzman, Eblam pp 125-126....

(90) وكان ذلك كما رأينا سابقاً في عهد الملك الآشوري «شمشي حدد» الأول حيث عين ابنه المسمى «يسمح حدد» ملكاً على ماري، والذي استطاع زمري ليم فيما بعد إخراجه منها.

(91) وبالواقع كانت السيطرة على التجارة الخارجية الواسعة هي الهدف الذي سعت إليه كل الممالك الكبرى في الهلال الخصيب بدءاً بأكاد ومروراً بمملكة «غوديا» السومرية الجديدة ثم بابل وآشور وماري، ولم يقتصر ذلك على إبلا.

كانت الغرامة التي فرضتها إبلا على ماري ضخمة. فهي كما قرئت في أحد الألواح: 2193 مينه من الفضة (أي أكثر من طن). ثم 134 مينه و26 شاقلاً من الذهب (أي حوالى 70 كيلوغراماً)، وكانت من ذلك كله نسبة 15 بالمئة قد اعتبرت مكافأة للقائد «إنّا دجن» المذكور آنفاً[92]. وقد خلفه إبلائيون آخرون على عرش ماري يُذكر من بينهم: «شورا.. دامو» ابن «إيبروم» مما يدعو البعض للاستنتاج أن سيادة إبلا على ماري قد استمرت بضع عشرات من السنين، في حين يعتقد ماتييه Matthiae أن ماري استعادت استقلالها إلى حين من الزمن لتعود فتخضع لإبلا من جديد[93]. ولكن من الواضح أن الكتّاب في كل من المدينتين بقوا على علاقات جيدة بعضهم مع بعض. ومن غير المستبعد أن بعض محفوظات أرشيف ماري مدينة بالفضل إلى تأثيرات مدرسة الكتّاب في إبلا، على الرغم من أنها كانت مكتوبة بالأكادية الصرفة.

ليس هناك ما يشير إلى أن آشور خضعت لـ «إنّا دجن» على الرغم من أنها كانت تحت سلطة «إيبلول إيل» ملك ماري. والمعتقد أن «إيبروم» بعد ذلك بجيل واحد عقد اتفاقاً مع أحد ملوك آشور المسمى «دو..دي..يا» ـ دوديّا ـ.

من المستغرب أن قائمة أسماء الملوك التي سجل فيها الآشوريون حكامهم تبدأ بأسماء سبعة عشر من الملوك الذين ـ كما تقول القائمة ـ «عاشوا في الخيام» واعتبروا بشكل عام ملوكاً أسطوريين، أو أشخاصاً لا علاقة لهم بآشور. والأرجح أن أولهم كان يدعى «تو..دي..يا» ـ توديّا ـ. وربما لم يكن خطأ لو أن بتيناتو اعتبره هو نفسه «دوديّا» المذكور آنفاً في الاتفاق المعقود[94].

الواقع أن التفسيرات غير الأكيدة لنصوص الألواح الإبلائية ما زال ينتج عنها كثير من الإرباك يؤدي غالباً إلى آراء متناقضة حتى عند الباحث نفسه. ففي سنة واحدة (1976 ميلادية) صدر عن بتيناتو تصوران مختلفان لمحتوى الاتفاق المذكور:

فحسب التصور الأول يبتدىء اللوح بقائمة من المواطنين أصحاب الشأن في إبلا.

---

(92) أنظر ...N.Kramer, Biblical Archaeologist (1976) p 47

Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p126...

(93) أنظر P. Matthiae, Ebla pp 188-189 (Turin 1977)....

(94) أنظر ...Biblical Archaeologist (1976) p 48

Oriens Antiquus (1976) p14

I.J. Gelb, Journal of Near Eastern Studies, XIII (1954) p 209-226.

وهدفهم الرئيسي تأسيس «كارو» جديدة، أي محطة تجارية، وقد وضعت التعليمات المتعلقة بها بشكل مفصل. ولم يرد ذكر لاسم المنطقة المراد تأسيسها فيها. غير أنه يعتقد أنها «كانش» التي كانت لها أهمية اقتصادية تعود إلى القرن العشرين قبل الميلاد (وقد ورد بحثها بالتفصيل في موضوع التجارة الآشورية والمستوطنات). وحسب التصور الثاني يبتدىء اللوح بقائمة لأسماء المدن والمعاقل التابعة لملك إبلا، والتي يسمح لتجار آشور بدخولها. وبعدها يستعرض النص العديد من المراكز التجارية التي اشتركت إبلا وآشور في إنشائها في الأناضول والشمال السوري، ويشير إلى أهمية علاقاتهما التجارية[95]. وكما كان معتاداً في كل العقود في دول الهلال الخصيب والشرق الأدنى القديم عموماً فإن العقد قد اختتم بعبارات تحذير للموقعين من لعنات الآلهة التي ستنزل بمن يخل بمحتوى الاتفاق. ومن غير المستبعد أن تكون نسخة من هذا العقد ما زالت مدفونة تحت الأتربة في أنقاض مدينة آشور.

وجدت عدا عن ذلك نماذج لعقود أخرى منها ما هو مع ملوك حماه وتوتّول (هيت على الفرات الأدنى) وإيمار (مسكنة على الفرات الأوسط). والجدير بالذكر أن ملك إيمار تزوج إحدى بنات ملك إبلا، وضُمت إليه بعض المدن بمثابة هدية لهذا الزواج.

وجدت في بعض الألواح إشارات إلى اسم «كركميش»، حيث يذكر أحدها أن زوجة «إدّي. . كميش» التي تريد الذهاب إلى «كركميش» خُصص لها ثوب مقدس. ولوح آخر مما له علاقة بالاتفاق الآنف الذكر مع آشور يذكر أن الـ «كارو» التابعة لكركميش هي في يد ملك إبلا.

إن مجرد ورود الاسم بحد ذاته في كتابات الألف الثالث قبل الميلاد له أهمية كبيرة. فعلى الرغم من أن الحفريات التي قام بها ليونارد وولي «L.Woolley» أثبتت أن كركميش كانت موجودة في الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أن أسمها لم يظهر إلا من خلال أرشيف ماري الذي يعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، بحيث أن بعض الباحثين توهم أن كركميش ربما كان لها في الألف الثالث قبل الميلاد اسم آخر.

---

(95) أنظر ...Biblical Archaeologist (1976) p 48

Cambridge Ancient History, I, part 2,P 708..

Oriens Antiquus (1976) p 13-14....

أما عن أصل كركميش فإن بتيناتو يرى ما يلي: كانت المدينة تحتوي بالأساس على «كارو» أي محطة تجارية منذ زمن أرشيف إبلا. وقد نُقب عنها ووجدت بقايا منها استخدمت في بنائها قطع القرميد على أسس من الحجارة. وكان أحد الآلهة الرئيسية في إبلا هو «كميش». ومن هنا يرى بتيناتو أن الاسم مركب من «كارو + كميش» أي محطة كميش. ولما كانت إبلا حتى الآن هي المدينة الوحيدة التي ظهرت فيها عبادة الإله «كميش» في ذلك الزمن، فهو يعتقد أن إبلا هي التي أسست المدينة وأعطتها هذا الاسم مستنداً أيضاً إلى ما جاء في اللوح الآنف الذكر من أن الـ «كارو» التابعة لها هي في يد ملك إبلا[96]. والواقع لا أجد في علم الأسماء الجغرافية وتركيبها ما يناقض هذا الرأي، إذ أن مركباً مثل «كارو. كميش» من الطبيعي أن يخفف لفظه إلى «كركميش».

أبعاد دولة إبلا ومكانتها

بما أن الدراسات المبدئية لألواح أرشيف إبلا لم تقدم حتى الآن ما يمكن أن يعطينا صورة عن اتساع هذه المملكة ووزنها السياسي ودورها في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن كل التصورات الموجودة بهذا الصدد مستوحاة من النشاط التجاري الذي تتبين ملامحه من خلال ورود عدد كبير من المدن التي كانت لإبلا علاقات معها في نواحي الهلال الخصيب كافة وما جاوره.

فكما رأينا في الفصول السابقة كانت ممالك بلاد الرافدين، سواء في سومر أو أكاد ثم بابل وآشور وماري، قد خلّفت إرثاً مكتوباً فيه الكثير من الوضوح، سواء على نصب تذكارية أو ألواح طينية، فيما يتعلق بنشاطات الحكام السياسية والدبلوماسية والعسكرية وإنجازاتهم على مختلف المستويات، مما جعل من الممكن رسم إطار تاريخي واضح إلى حدٍ معقول عن معظم الحقب الزمنية.

أما الإرث الكتابي الذي قدمه أرشيف إبلا فالظاهر حتى الآن أنه يفتقر إلى معلومات تاريخية سياسية تقدم فكرة ولو تقريبية عن التطور التاريخي والسياسي لهذه الدولة. وكان ذلك ما دفع بعض الباحثين لاستنتاج شيء عن طبيعة مملكة إبلا ـ على الأقل خلال فترة تشكّل الأرشيف الملكي ـ هو أنها دولة اتسمت بالوداعة والسلام

---

(96) أنظر ...Biblical Archaeologist (1976) p106
Ch. Bermant/M. Weitzman, EBLA, p128...

واتجهت إلى التعامل تجارياً مع كل العالم المعروف في ذلك الوقت. ويعتقد بتيناتو أن ما يدعم هذا الرأي هو أن إبلا قد استخدمت المرتزقة الغرباء، وأن هؤلاء المرتزقة قد شكلوا العمود الفقري لجيش إبلا[97]. هذا وإن تقرير القائد «إنّا دجن» عن حملة ماري العسكرية ووصفه لأكوام الجثث التي عملها (ارجع إلى فقرة: العلاقات الخارجية) ربما لا يعبر عن نزوة عسكرية عابرة وإنما عن استعداد دائم. وقد وجدت منقوشات تزيينية على الخشب تمثل محاربين يضربون بعضهم بالسيوف. ويرى الآثاري ماتييه أن ذلك لم يكن مجرد مشاهد تخيلية بل يعبر عن الحقيقة[98]. والواقع أن الأمبراطوريات التجارية نفسها من المتعذر أن تنشأ أو تستمر في الحياة بالإقناع السلمي وحده، بل لا بد لها من الحروب، وما يصعب تصوره أن إبلا كانت حالة شاذة في هذا الصدد[99]. والواقع أن الألواح التي تم تحريها حتى السنوات الأخيرة يندر أن وجد فيها شيء عن عمليات حربية جديرة بالذكر باستثناء تقرير «إنّا دجن». بحيث تولد عند الباحثين الانطباع بأنه لم تكن في إبلا تقاليد عسكرية جديرة بالذكر، أو أن الجانب العسكري كان له دور ثانوي تماماً في اهتماماتها. وهذه الألواح التي عرف محتواها ولو بصورة تقريبية حتى الآن تأتي على ذكر الملوك والملكات والأمراء والقضاة والكهنة والكتّاب وجباة الضرائب، ويندر أن ترد إشارة منها إلى قائد عسكري. بحيث يتبين مبدئياً أن الاهتمام الأول

---

(97) انظر ما يقول بتيناتو بهذا الصدد في: Biblical Archaeologist (1976) p 48...
والواقع أن إبلا ـ إن صح ذلك ـ لم تكن حالة فريدة بهذا الخصوص. فالمطلع على تاريخ قرطاجة ـ سيدة البحر المتوسط والشمال الإفريقي ـ يرى أنها اعتمدت في كل مراحل تاريخها على الجنود المرتزقة. أنظر مثلاً كتاب: قرطاجة امبراطورية البحر. ترجمة عز الدين عزو. طبعة دمشق 1996.

(98) أنظر بهذا الصدد ما يرى ماتييه في: Orientalia (1975) p 353....

(99) وحتى لو استطاعت امبراطورية تجارية أن تنشأ سلمياً بإقامة المراكز التجارية والمستوطنات خارج الوطن الأم كما حصل بالنسبة للدولة الآشورية القديمة (مما ورد سابقاً) ولقرطاجة، فإنه مع ذلك من المستحيل استمرارها زمناً طويلاً عندما يبدأ صراع المصالح الإقتصادية. الدولة الآشورية القديمة أنشأت في آسيا الصغرى شبكة من المراكز جعلت منها شبه امبراطورية تجارية كما رأينا. واستمرت لعدة أجيال متواصلة وبشكل سلمي. إلى أن بدأ تشكل القوة السياسية للحثيين وأخذوا يضيقون الخناق على هذه المستوطنات، فكانت بذلك نهايتها. وقرطاجة التي انتشرت مستوطناتها في كل غربي المتوسط والسواحل الأطلسية والأرض الأفريقية والأسبانية وبطريقة سلمية عبر التجارة، كان لا بد لها فيما بعد من المواجهة العسكرية الطاحنة مع الرومان عندما اصطدمت مصالح الطرفين.

والأساسي بالنسبة لإبلا لم يكن شهرة المعارك والانتصارات بمقدار ما كان الحفاظ على الرخاء الاقتصادي والمصالح الواسعة[100].

الواقع أنه يوجد في الأوساط العلمية تساؤل هام لم تساعد الألواح الإبلائية في الإجابة عليه بشكل دقيق وواضح وهو: إلى أي مدى كانت قد وصلت مصالح إبلا ومنطقة نفوذها؟... وقد طرحت آراء مختلفة، بل ومتناقضة، حول ذلك. ففي سنة 1976 ميلادية تحدث بتيناتو عن اكتشاف «امبراطورية كبرى كانت المصادر التاريخية القديمة للشرق الأدنى قد نسيتها تماماً». وأن هذه الإمبراطورية كانت قد شملت كل سوريا والأناضول وشمالي أرض الرافدين، وأنها كانت تتلقى الضرائب ـ أو الجزية ـ من مدن بعيدة بعضها عن بعض مثل: كانش في الشمال الغربي وأكاد في الجنوب الشرقي ـ أكاد التي كانت مركزاً لأول امبراطورية حقيقية في التاريخ المعروف ـ. ويعتبر بتيناتو أن منطقة نفوذ إبلا وصلت حتى شبه جزيرة سيناء وجزيرة قبرص. ومن المعروف أن بعض المدن في بلاد الشام كانت لها كياناتها المستقلة. إلا أن بتيناتو يعتقد أن إبلا خلال الألف الثالث قبل الميلاد كانت أكبر قوة في الشرق الأدنى القديم، الأمر الذي يعني في الوقت نفسه أكبر قوة في العالم المعروف آنذاك[101].

ولكن الباحث المذكور يعود ليتحدث في هذا الصدد بشكل مغاير فيقول إن ما هو موجود من المكتشفات لا يبرر الحديث عن امبراطورية بالمعنى الصحيح. فسوريا كانت في تلك الأزمنة القديمة وفي أوقات لاحقة عبارة عن فسيفساء من الدويلات أو ممالك المدن، وكانت من بينها إبلا نفسها. إلا أنها بالتأكيد كانت الأكبر والأقوى بين جيرانها، ومع ذلك فهي لم تحاول ضم هذه الدويلات إليها بل أدخلتها ضمن دائرة سيطرتها التجارية[102]. وهذا لم يختلف جوهرياً عما سبق للباحث «فان لير Van Lire» أن قاله

---

(100) إذا صحت هذه المعلومات بالفعل يجدر مقارنة ذلك بالمملكة السومرية الجديدة في عهد «غوديًا» ملك لاغاش خلال القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد (أي بعد تدمير إبلا) حيث غطت علاقاته التجارية تقريباً خريطة سرجون الأكادي العسكرية نفسها، ودون ورود ذكر لحملات حربية.

(101) أنظر لذلك: Biblical Archaeologist (1976), pp 46, 92, 109...

Reallexikon der Assyriologie, vol. V.pp 9, 12....

(102) ورغم هذا القول المغاير بقي بتيناتو متعلقاً بفكرته السابقة من أن إبلا كانت فعلاً حوالي سنة 2500 مركزاً لمملكة ضخمة.

قارن لذلك: Ch. Bermant/M. Weitzman: EBLA, p 136....

في سنة 1963 ميلادية ـ قبل البدء بحفريات تل مرديخ ـ أن سوريا عرفت قديماً شكلاً من أشكال دويلات المدن شبيهاً بما كان في سومر واليونان.

وعلى كل حال يبدو من خلال الفقرات السابقة وما ورد من أسماء مدن كثيرة ومن علاقات بعيدة المدى أن مملكة إبلا استطاعت فعلاً أن تطال بنشاطاتها التجارية مختلف أنحاء الهلال الخصيب إضافة إلى قبرص وآسيا الصغرى بحيث كانت أشبه بـ «امبراطورية تجارية» يمكن قياسها بأمبراطورية غوديا ملك لاغاش السومرية.

نهاية إبلا

من جملة المسائل الكثيرة التي لم تتضح بعد هي مسألة نهاية إبلا ـ ولنقل: نهايتها كمملكة وكقوة سياسية ـ، والتي أثيرت حولها التساؤلات وتضاربت الآراء. وذلك على الرغم من أنه قد تكونت لدى الباحثين قناعة عامة ببعض النقاط الأساسية في هذا الموضوع، ليس استناداً للألواح الإبلائية نفسها، التي لم تذكر شيئاً عن ذلك، بل من خلال إلى ألواح بلاد الرافدين بالذات ومن خلال اعتبارات جوهرية كما سنرى فيما يلي.

إذا تأملنا مرة أخرى فيما سبق، كيف انتهت مملكة ماري على يد حمورابي البابلي، بعد إخضاعه سلسلة الممالك الإقليمية في بلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكيف لم يبق مكان لتلك القوى السياسية الصغرى. ثم إذا رجعنا قروناً عدة إلى الوراء ـ إلى الزمن الذي لاقت فيه إبلا مصيراً مشابهاً وسكت فيه أرشيفها الملكي ـ، وجدنا أن القوة الكبرى الوحيدة التي كانت في تلك الفترة هي الدولة الأكادية، التي لم يشأ ملوكها الأوائل أيضاً (سرجون وحفيده نارام سين) أن يتركوا مكاناً للدول الصغرى في الهلال الخصيب كله، خصوصاً إذا كانت تتحكم بطرق القوافل التجارية وتحدّ من التفوق الاقتصادي والسياسي لأكاد. وكانت أكاد هي القوة الوحيدة في ذلك الزمن، التي بإمكانها وضع نهاية لمملكة نشيطة مثل إبلا.

ومن جهة أخرى فإن ما لم يحاول أحد من الباحثين نقضه بالأدلة حتى الآن هو أن تخريب إبلا ـ وتدمير القصر الملكي ـ قد حصل خلال الفترة الواقعة ما بين 2300 و 2250 قبل الميلاد، أي في عهد سرجون الكبير أو حفيده نارام سين[103].

(103) أنظر P.Matthiae, Biblical Archaeologist (1976) p 97....

إن النقطة الفاصلة في تاريخ مملكة إبلا كانت تدمير القصر الملكي، حيث إنه في تلك اللحظة بالذات توقف العمل في الأرشيف. الأمر الذي يواجهنا بسؤالين هما:

من الذي دمر القصر الملكي (والمدينة)؟... ومتى كان ذلك؟...

ومن الطبيعي أن الإجابة على السؤال الأول تؤدي تلقائياً إلى الإجابة على السؤال الثاني.

ولهذه المسألة من جهة ثانية تتمة جوهرية هي: من الذي كان على عرش إبلا؟... ومتى؟...

من خلال الدراسة المبدئية لألواح إبلا اعتقد بتيناتو[104] أنه قد تم التعرف على أسماء ستة من ملوكها، ووضع لائحة مبدئية بتسلسلهم على النحو التالي:

«إغريش حلم» - «أر إنّوم» - «إيبروم» - «إبّي سيبيش/إبّي زِكير»[105] - «دوبوحو عدا» - «إركب دامو».

وما زالت هذه اللائحة غير مؤكدة بعد، حيث إن بتيناتو نفسه بعد إعادة النظر في ذلك يرجح أن واحداً من هؤلاء الستة لم يكن على الحكم (أو لم يتسنّ له الوصول إلى الحكم) وهو «دوبوحو عدا»، وأن الأرشيف احتوى فترة خمسة من الملوك فقط، وأن الأصح في ترتيب هؤلاء الخمسة هو:

«إغريش حلم» - «إركب دامو» - «أر إنّوم» - «إيبروم» - «إبّي سيبش/إبّي زكير»[105]. ويعتقد فوق ذلك أن فترة حكمهم الإجمالية استمرت ما يقارب المئة وخمسين سنة، دون أن يكون حتى الآن معروفاً بدقة متى ابتدأت هذه الفترة ومتى انتهت[106].

كان من أكثر ما استرعى الاهتمام بهذا الصدد هو ذلك اللوح الذي اعتبر نسخة عن

---

(104) أنظر بهذا الصدد: G. Pettinato, Biblical Archaeologist (1976) p 47....

(105) لا يوجد اتفاق كامل حول قراءة هذا الاسم إن كان «إبّي سيبش» أو «إبّي زكير» بالفعل.

قارن لذلك عند كل من: Matthiae: Tell Mardikh, Ancient Ebla p 540...

Pettinato: The Archives of Ebla, pp 69-71...

Ch. Bermant/M. Weitzman, Ebla, pp 138-139....

(106) أنظر لذلك: Ch. Bermant/M. Weitzman, Ebla, pp 139-140....

رسالة ذات محتوى سياسي موجهة من ملك إيلا إلى ملك «خمازي»[107]، يُفهم من القراءة المبدئية لها أنها عبارة عن طلب نجدة عسكرية من مملكة «خمازي»، في وقت شعرت فيه إيلا بالخطر. وقد جاءت استناداً إلى قراءة بتيناتو على النحو التالي:[108]

«. . هكذا إيوبو ناظر قصر الملك إلى الساعي ـ اسمع ـ: أنت أخي وأنا أخوك. . . لأجلك يا أخي ألبي دائماً كل طلب يخرج من فمك. . . وكل رغبة تخرج من فمي تلبيها أنت لي. . . إبعث إليّ بمحاربين جيدين. . . أنت أخي وأنا أخوك. . . عشر قطع من الأثاث الخشبي وحليتان أنا إيوبو سلمتهم إلى الساعي. . . إركب دامو ملك إيلا هو أخ زيزي ملك خمازي. . . زيزي ملك خمازي هو أخ إركب دامو ملك إيلا. . .

هكذا كتب تيرا إيل الكاتب ودفع به إلى ساعي زيزي. . .»

الواقع إن هذه الرسالة كان فيها ما يثير التساؤلات. فمن الواضح أن ملك إيلا وجد نفسه في وضع حرج ورأى إيلا مهددة. أما أن يكون طلب النجدة ـ بارسال محاربين ـ في هذه الحال من مملكة خمازي، التي تبعد عن إيلا مسافة تتجاوز الثمانمئة كيلومتراً صوب الشرق، في الوقت الذي كانت تفصل بينهما الدولة الأكادية ـ أو الأراضي الواقعة تحت سلطتها ـ، فهي مسألة تثير الاستغراب وتدعو إلى مزيد من التساؤلات عن مملكة خمازي نفسها. . . إن كانت مستقلة في ذلك الوقت!. . . أو تحت نفوذ الحوريين!. . . ووضعها بالنسبة للدولة الأكادية. . . وعن امتداد الرقعة الفعلية لدولة أكاد في ذلك الوقت. . . وهل بإمكان جنود من خمازي أن يصلوا عبر أراضي الدولة الأكادية!. . . أو أن يعبروا مناطق أخرى تابعة لها!. . . إلخ. فالحقيقة أنه لا يوجد ما يُسْهِم في توضيح هذه التساؤلات. علماً أنه كما ذكرنا آنفاً كانت أكاد هي القوة الكبرى الوحيدة التي يمكن أن تهدد إيلا.

---

(107) لم يعرف حتى الآن بدقة أين كانت تقع مملكة «خمازي». ولكن كل الدلائل تشير إلى أنها كانت على الأطراف الشرقية لأرض الرافدين ويرد ذكر لها في الألواح المكتشفة في بعض المراكز الرافدية مثل كيش ونيبور منذ الألف الثالث (ق.م.). انظر: Reallexikon der Assyriologie, vol. IV, pp 70-71.

(108) أنظر: Pettinato: The Archives of Ebla, pp 97-98....

الواقع أن الدليل الكتابي الذي اعتمد عليه كل الباحثين في هذا الأمر جاء بالفعل من بين ألواح بلاد الرافدين من العصر الأكادي، وليس من ألواح إبلا نفسها.

في مجمل الألواح المسمارية المعروفة، التي قدر عددها في بداية الستينات من هذا القرن بحوالى الربع مليون لوح[109] يرد ذكر إبلا حوالى ستين مرة، أغلبها في أمور متعلقة بالمعاملات التجارية من استلام وتسليم. وأقدم ذكر لها هو ما جاء في مدونة سرجون الأكادي عن حملته العسكرية على بلاد الشام. حيث ورد كما يلي:

«شروكين ملك كيش... الذي انتصر في أربع وثلاثين حملة عسكرية... وحطم أسوار كل المدن حتى ساحل البحر... شروكين الملك ركع خاشعاً أمام الإله دجن في توتّول... ففتح أمامه البلاد العليا... ماري ويرموتي وإبلا... حتى غابة الأرز وجبال الفضة... والإله إنليل لا يدع أحداً يقف في وجه شروكين....»[110].

ثم يرد ذكر إبلا في وقت لاحق، ولكن هذه المرة مقترناً باسم نارام سين حفيد سرجون. فعلى مدقّة حجرية يُعتقد أن أحد أعوان نارام سين أو أتباعه قدمها له كهدية، توجد كتابة هذا نصها:

«يا نارام سين الإلهي!... ملك جهات الكون الأربع... المنتصر على أرمان وإبلا وعيلام...»

وأما تقرير نارام سين نفسه عن ذلك فقد تم نسخه في مدونة طويلة تعود إلى العصر البابلي القديم. وأهم ما ورد فيها بهذا الصدد العبارات التالية:

«في كل الأزمنة... منذ وجود البشر... لم يقم أحد من الملوك بغزو بلاد أرمانوم وإبلا... والآن فتح الإله نرجال الطريق أمام نارام سين الشجاع... ووضع في يديه أرمانوم وإبلا... وسلم إليه غابة الأرز في الأمانوس والبحر الأعلى...»[111].

---

(109) أنظر التعليق على ذلك في بداية هذاالفصل في الحاشية رقم (50) والمرجع المشار إليه هناك.

(110) أنظر لذلك: I.J. Gelb: Old Akkadian Writing and Grammar, p11. (Chicago 1961).
I.J. Gelb: Die altakkadischen koenigsinschriften des 3. Jahrtausends, pp 166-168 (Stuttgart 1990).

(111) أنظر: I.J. Gelb: Die altakkadischen koenigsinschriften des 3. Jahrtausends, pp 255-257 (Stuttgart 1990).

الواقع إن التناقض الموجود بين النصين الآنفي الذكر يسبب الإرتباك. فمدونة سرجون توضح أنه احتل إبلا ووصل إلى البحر في الغرب وجبال طوروس في الشمال ـ وقد رأينا تفاصيل ذلك سابقاً في فصل الأمبراطورية الأكادية ـ. بينما جاءت مدونة حفيده نارام سين تنكر عليه ذلك وتدعي أنه لم يقم أحد من الملوك قبله بغزو أرمانوم وإبلا...

فهل يمكن اعتبار هذا الإنكار نوعاً من جنون العظمة؟... ربما!...

وعليه فلم يزل هذا السؤال موضعاً للنقاش: من هو الذي احتل إبلا بالفعل وهدمها؟... أكان سرجون الكبير الذي حكم بين 2340 و 2284؟... أم كان نارام سين حفيده بعد جيلين، والذي حكم بين 2260 و2223 قبل الميلاد؟...

الملاحظ أن هناك ما يشير إلى أن ألواح إبلا تحتوي على الكثير من العناصر اللغوية والميزات من حيث الشكل وطريقة الكتابة، التي تشبه الشواهد الكتابية التي ظهرت في بلاد الرافدين قبل زمن سرجون وخلال حكمه، وليس بعد ذلك، مما يفسح المجال للاعتقاد أن سرجون كان هو الذي احتل إبلا[112].

يبدو مما تقدم أنه لا بد من أخذ النصين بعين الاعتبار، حيث أستبعد أن يكون أحدهما مجرد ادعاء وهمي، وأرى الاحتمال الأقرب إلى الواقع هو أن إبلا ضُربت مرتين في زمن الأسرة الأكادية، في الأولى هاجمها سرجون وأخضعها، ثم أعاد الكرة نارام سين فأحرقها وخرب القصر الملكي. فقد رأينا سابقاً أن امبراطورية سرجون قد شملت كل الهلال الخصيب، وهذا يعني بالضرورة أن إبلا خضعت لأكاد خلال فترة حكمه. ورأينا أيضاً أن هذه الأمبراطورية ضعفت بعد موته وبدأ فيها التصدع خلال حكم ولديه «ريموش» ثم «منشتوشو» وقامت حركات تمرد وأعلنت بعض الدويلات والممالك المحلية استقلالها من جديد. الأمر الذي يحتمل معه أن إبلا كانت بين الممالك التي خرجت على سلطة أكاد. إلى أن اعتلى العرش نارام سين الذي ضرب الحركات الاستقلالية وشدد القبضة من جديد على امبراطورية جده، فكان من جملة المدن التي هاجمها إبلا.

وبهذا الصدد أرى من المفيد التذكير مرة أخرى بمملكة ماري. إذ رأينا كيف

(112) أنظر لذلك: Ch. Bermant/M. Weitzman, Ebla, p140...

هاجمها حمورابي وأخضعها ثم عاد في وقت لاحق ليدمرها على أثر حركة تمرد قامت فيها[113] ومن الممكن هنا إجراء مقارنة شكلية بحتة رغم اختلاف الزمان والمكان والشخصيات: فهناك بين المدونات البابلية ذلك اللوح الذي عثر عليه، وأشار إلى تلك الحرب الخاطفة ضد ماري بعبارات مقتضبة:

«لقد تغلّبَ على ماري في القتال... وأرغمها بموجب اتفاق ودّي على إطاعة أوامر اعتباراً من الآن...»[114].

ولدينا هنا تلك المدونة التي يوضح فيها سرجون أنه انتصر على ماري ويرموتي و ـ إبلا ـ. ثم إن هجوم حمورابي مجدداً على ماري وتدميرها لم يرد له وصف ـ والأصح لم يعثر على وصف له حتى الآن ـ. بينما لدينا هنا مدونة نارام سين التي يوضح فيها أيضاً غزو إبلا واحتلالها.

وكما رأينا عند تدمير ماري وتوقف الحياة في الأرشيف الملكي فقد حصل ما يشبه ذلك في إبلا. ولكن الفرق هو أن أرشيف ماري احتوى الكثير من وثائق ومراسلات دبلوماسية تكشف عن الأوضاع السياسية العامة التي سبقت احتلال ماري وتنذر باقتراب هذا الحدث. بينما لم يقدم أرشيف إبلا حتى الآن شيئاً بهذا الصدد، بصرف النظر عن الرسالة الآنفة الذكر إلى ملك خمازي، والتي كانت طلباً للنجدة. وما زال هناك أمل للباحثين في اكتشاف موقع مدينة أكاد عاصمة سرجون، حيث لا بد أن ركامها يخفي أكداساً ضخمة من النصوص التي تسلط الضوء على هذه المسألة وغيرها.

وكما أشرت في مقدمة هذا الكتاب فإن استمرار التحريات والكشف بين الحين والآخر عما تخفيه الأتربة من معلومات هنا وهناك، ما يجعل أغلب التواريخ التي بين أيدينا عرضة لإعادة النظر والنقض أو التغيير.

إلا أنه من خلال المصادر المعروفة حتى الآن ومن خلال الاعتبارات الجوهرية

---

(113) ارجع إلى فقرة ـ نهاية ماري ـ

أنظر أيضاً موضوع احتلال ماري في كتاب: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي عن: هورست كلينجل Horst Klengel ـ ترجمة د. عبدالله الحلو. قيد الطبع.

(114) من الجدير بالذكر أن وصف حدث من هذا النوع بهذه العبارة المقتضبة يعتبر طريقة غير مألوفة في المدونات القديمة، فإما أن يكون حمورابي من قبيل الإحساس بالقوة وببساطة هذا الحدث في الوقت نفسه قد أوعز إلى كاتبه بذكره دون أسلوب المباهاة المعتاد، أو أنه ربما توجد ألواح أخرى بهذا الصدد أكثر تفصيلاً ولم يكشف عنها بعد.

التي أوضحناها يتضح أن مملكة إبلا قد تم تدميرها من قبل الملوك الأكاديين وليس غيرهم. وإذا أردنا البحث عن الأسباب وجدنا أن أولها وأهمها هو المصالح الاقتصادية، حيث أن أكاد لا غنى لها عن تلك المواد الأساسية: أخشاب الأمانوس ولبنان، ومعادن جبال طوروس. ولم يكن في مصلحتها كقوة كبرى أن تتحكم إبلا بالطرق المؤدية إلى هناك أو أن تكون وسيطاً للأكاديين في الحصول على هذه المواد. كان تخريب المدن في تلك الأزمنة سهلاٍ، وكانت إعادة بنائها تتم بسرعة، وقد تعرضت معظم مدن الرافدين والشام لذلك (تدمير أور وبابل وغيرها) مما لا مجال لذكره.

ومن الثابت أن إبلا بعد تدميرها أعيد بناؤها بسرعة وازدهرت واستعادت نشاطها التجاري. إذ يعود ذكرها في عهود لاحقة في سياق المعاملات التجارية مع مدن الرافدين خلال القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد في زمن غوديّا ملك لاغاش وما بعده أيضاً.

إلا أنها كانت تعود بين الحين والآخر لتلاقي الدمار من جديد. فهناك ما يدل على تخريبها مرة أخرى حوالي سنة 2000 قبل الميلاد. والذي يرجح أنه كان على يد الأموريين هذه المرة[115]. وعلى الرغم من إنها بنيت مرة أخرى فقد خف ذكرها بعد ذلك، ممّا يدل على أنه لم تعد لها تلك الأهمية في وقت لاحق بعد ظهور دولة يمحاض الأمورية التي سيطرت على شمال بلاد الشام (وصارت عاصمتها حلب) حيث أصبحت إبلا تحت نفوذها وتحولت إلى منطقة عادية على هامش الحياة السياسية. كما يعتقد من خلال التحريات الأثرية أن دماراً آخر لحق بها على يد الحثيين عندما ظهرت قوة مملكتهم واكتسحت شمالي بلاد الشام في أواسط القرن السابع عشر قبل الميلاد وأنهت بذلك دولة يمحاض، وصلت في وقت لاحق حتى بابل نفسها، كما رأينا سابقاً. على الرغم من أن الاستيطان استمر في إبلا بعد ذلك إلا أن وجودها كمملكة ومدينة نشيطة كان قد انتهى إلى الأبد، شأنها في ذلك شأن كل الممالك الأخرى التي مرت معنا والتي ستأتي في الفصول التالية.

---

(115) أنظر لذلك: P.Matthiae: Ebla, pp 113-115, 234...

الفصل الثاني عشر

عصر تحول جديد
السيطرة اليونانية

امبراطورية الاسكندر المكدوني

ذكرت في بداية هذا الكتاب أن منطقة الهلال الخصيب تعتبر - أكبر حقل للمواجهات السياسية والعسكرية خلال كل أدوار التاريخ المعروف قديمه وحديثه -. وما حصل في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، بعد زوال الأمبراطورية الآشورية ثم الأمبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية)، كان حلقة من سلسلة هذه المواجهات الكبرى وتحولاً جديداً، لا في الهلال الخصيب وحده، بل في الشرق الأدنى بكامله من النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية.

كانت نقطة التحول هذه في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، عندما انهارت امبراطورية الفرس المترامية الأطراف في عهد سلالة الإخمينيين التي قدمت ملوكاً أقوياء مثل قورش الكبير وداريوس الكبير. وكانت هذه الأمبراطورية بعد قضائها على الدولة البابلية الجديدة (الكلدانية) في سنة 538 قبل الميلاد - كما مر سابقاً - قد امتدت في ذروة اتساعها ما بين غربي الهند وساحل المتوسط، شاملة بذلك كل الهلال الخصيب ومصر وآسيا الصغرى وشرقي اليونان.

كان فيليب الثاني المكدوني، بعد تحقيقه نجاحات سياسية وعسكرية كثيرة في اليونان، قد وضع خططاً لإخراج الفرس من آسيا الصغرى. لكنه لم يتسنّ له تنفيذها، حيث أنه قتل اغتيالاً في سنة 336 قبل الميلاد. فأخذ ابنه الاسكندر على عاتقه هذه المهمة، ولم يكن قد تجاوز سن العشرين بعد.

جهز الاسكندر جيشاً متوسّط العدد، تراوح ما بين الثلاثين والأربعين ألفاً. وسار على رأسه في سنة 334 متقدماً في آسيا الصغرى ومجتازاً المضائق الجبلية الكيليكية والسهول الممتدة شمال شرقي خليج «إيسّوس Issos» ـ الذي سمي اسكندرون فيما بعد ـ حيث كان داريوس الثالث مع جيش يقارب تعداده المئة ألف قد تمركز هناك. وفي المعركة التي جرت سنة 333 قبل الميلاد حقق الجيش اليوناني نصراً ساحقاً وهرب داريوس نفسه مع شتات جيشه باتجاه الشرق.

وقد خُلّد ذلك الانتصار بتأسيس مدينة على ذلك الخليج دعيت الاسكندرية، ثم غلب فيما بعد اسم اسكندرونه/اسكندرون[116].

بنتيجة معركة إيسوس أصبحت بلاد الشام كلها مفتوحة أمام الأسكندر، فوجه قائده «بارمينيو» لاحتلال دمشق حيث كان مقر قيادة الفرس، وتابع هو تقدمه على طول الشريط الساحلي حيث خضعت له كل المدن بسهولة، باستثناء صور زعيمة المدن الساحلية التي تحدّت سابقاً أقوى ملوك آشور وبابل. فضرب عليها الاسكندر حصاراً مريراً دام سبعة أشهر، لم تتلق المدينة فيها مساعدة من المدن الأخرى، فسقطت بيده في سنة 332 قبل الميلاد، وكان انتقامه من السكان قاسياً.

في أثناء الحصار المضروب على صور قدم له الملك الفارسي داريوس عرضاً مغرياً يتنازل له فيه عن كل ما غربي الفرات (بلاد الشام بكاملها) وأن يعطيه فوق ذلك مالاً كثيراً ويزوجه ابنته. فكان أن رفض الاسكندر هذا العرض، واستكمل إخضاع كل الساحل الجنوبي. وقد تخلل ذلك حصار لمدينة غزة التي صمدت حوالى شهرين. وبعد الانتهاء منها تابع الاسكندر إلى مصر ودخلها دون حرب تذكر. وهناك أسس المدينة التي بقيت تحمل اسمه إلى اليوم ـ الاسكندرية ـ.

بعد أن تم له انتزاع بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى من يد الفرس عاد الاسكندر في أوائل سنة 331 باتجاه الشمال عن طريق ما يدعى سوريا المجوفة (أي سهل البقاع ثم سهل الغاب) ثم تحول باتجاه الشمال الشرقي إلى الفرات. فعبر الجزيرة السورية العليا

(116) أطلق هذا الاسم على المدينة من قبل السكان المحليين فيما بعد. وهو عبارة عن صيغة التصغير الآرامية «فعلون» من الاسم الأصلي بحيث يعني «الاسكندرية الصغرى». وقد حصل ذلك بعد تأسس اسكندرية مصر التي أعطيت لها أهمية كبيرة ونالت شهرة عالمية. ثم إن اسم اسكندرون صار يطلق على الخليج بعد ذلك حتى شمل المناطق المحيطة به في العصر الحديث.

(شمالي بلاد الرافدين) ثم عبر نهر دجلة عند نينوى على مقربة من الموصل متقدماً صوب الشرق. وفي منطقة سهلية غير بعيدة عن أربيل جرت معركة فاصلة أنزل فيها الاسكندر هزيمة منكرة بآخر جيش فارسي كبير في بداية شهر تشرين الأول سنة 331 قبل الميلاد هرب فيها داريوس الثالث للمرة الثانية وتشتت جيشه. فأصبح الطريق مفتوحاً أمام الاسكندر إلى بابل وبلاد فارس. بعد ذلك مباشرة كان هدفه مدينة بابل المقر الرئيسي لحكومة الفرس، فدخلها دون مقاومة، والأكثر من ذلك أن كهنتها ومن كان فيها من موظفين فرس رحبوا به بحماس واستقبلوه بالهدايا. واعتبره الفرس ملكهم الجديد. وكان الملك الفارسي قورش قبل حوالى مئتي سنة قد دخل بابل أيضاً بمثل هذه السهولة.

لم ينقض وقت طويل ما بين شتاء السنة نفسها وأوائل السنة التالية (330ق .م.) حتى كان الاسكندر قد اكتسح كل المناطق الفارسية الممتدة من سوسه (المقر الصيفي للملوك وعاصمة عيلام القديمة) وبرزِه بوليس في الجنوب إلى إكبتانا عاصمة ميديا في الشمال (وهي همذان فيما بعد). في تلك الأثناء اغتيل داريوس الثالث وهو في معسكره. وانتهت معه سلالة الملوك الأخمينيين التي اعتبر الاسكندر نفسه وريثها الشرعي على الأمبراطورية الفارسية.

لم تتوقف مشاريعه العسكرية عند هذا الحد، بل وصل حتى المناطق الشمالية الغربية من الهند. إلا أنه في سنة 326 قبل الميلادحل التعب بجيشه وأحس ببعض التذمر بين ضباطه وجنوده، فعاد إلى بابل وقضى فيها السنتين التاليتين.

ومات الاسكندر في الثالث عشر من حزيران سنة 323 قبل الميلاد وهو مقيم في قصر نبوخذ نصر ببابل. والمعتقد أنه كان قد أصيب بالملاريا.

الجدير بالذكر أن الاسكندر بلغ كل هذا واستولى على أقاليم مترامية الأطراف وأخذ يضع خططاً جديدة لمشاريع عسكرية أخرى ولم يكن قد أتم الثالثة والثلاثين من العمر عند موته.

عدا عن ذلك كان قد وضع خططاً إصلاحية من جملتها العمل على جعل نهر الفرات بمعظمه حتى الخليج صالحاً للملاحة، وإنشاء ميناء كبير لمدينة بابل.

الأحوال العامة بين أواخر السيطرة الفارسية وبداية العصر اليوناني

كانت النظم الإدارية التي أخذها الفرس عن الآشوريين قد استمرت حتى بعد انهيار الأمبراطورية الفارسية. فقد حل محل المرزبان الفارسي[117] مرزبان يوناني. وكانت سلطته محدودة كسابقيه بوجود الحاكم العسكري والمفتشين ومحصلي الضرائب. وقد سرى على المناطق كافة قانون موحد. وأجريت تحسينات على المقاييس والمكاييل والأوزان. كما أدخل تجديد على النظام المالي. واستمر التعامل بالعملة الذهبية التي كان قد أوجدها داريوس الأول. وبقيت أهم واسطة نقدية متداولة هي تلك المسماة «ذهب داريوس» والتي كانت تعادل في قيمتها عشرين شاقلاً (حوالى 160 غراماً) من الفضة.

أما شبكة الطرق الكبيرة التي كانت عند الفرس، والتي يعتبر «طريق الملك» عمودها الفقري، فقد بقيت سليمة. وعلى طول المسافة البالغة 2700 كيلومتراً ما بين سوسه في جنوب فارس و «ساردس Sardes» في ليديا على الساحل الغربي لآسيا الصغرى توزعت على أبعاد متقاربة 111 محطة للبريد كانت فيها دائماً خيول جاهزة ليلاً نهاراً لنقل حاملي البريد العاجل والرسائل الملكية. وكان البريد يحتاج على هذه الطريق كلها مدة أسبوع واحد فقط. أما القوافل فكانت تستغرق حوالى تسعين يوماً. من «طريق الملك» كان يتفرع طريق متجه إلى إفسوس على بحر إيجه. وكانت بابل متصلة مع مصر بطريق يتجه إلى كركميش (جرابلس) ليعبر سوريا الغربية ماراً بفلسطين. وأما باتجاه الشرق فكان يمتد طريق عبر بيسوتون (شرقي كرمنشاه) إلى إكبتانا (همذان)، ثم أصبح في العصر اليوناني يمتد أكثر ليصل حتى كابول، وفيما بعد حتى وادي الهند.

كل هذه الطرق كانت مصانة جيداً وعليها حماية عسكرية. وكانت عمليات تسليم واستلام الرسائل وغيرها مضمونة وسريعة، الأمر الذي كان يساعد عليه تقارب المسافات بين المحطات والجاهزية الدائمة للخيالة. ومن الواضح أن تسيير البريد كان يتم بصورة مدهشة من حيث الدقة والسرعة قياساً لأحوال ذلك العصر.

تميزت هذه الحقبة اليونانية بانتعاش اقتصادي كبير في كل مناطق آسياالغربية. رغم

(117) كان «المرزبان» حاكماً مدنياً. والولاية أو المقاطعة التي يحكمها دعيت «مرزبانة».

أن الفرس كانوا هم المشرفين على توجيه الأمور الاقتصادية. إذ سارت التجارة مع اليونان بشكل جيد. ولأول مرة أصبح جنوب أوربا مرتبطاً بعلاقات نشيطة مع آسيا.

كما أن ابتكار العملة الذي سبق هذه الفترة بعث في المؤسسات المصرفية نشاطاً لم يكن متوقعاً. فخلال حكم السلالة الأخمينية كانت قد أسست بنوك كالتي نعرفها في هذا العصر. ومن الأمثلة على ذلك رجل الأعمال المسمى «إيجبي» في بابل، الذي تم العثور على قسم من حساباته التجارية. وكانت مؤسسته تمول التجارات الخارجية وتفتح حسابات لإيداع الأموال، وتقدم القروض والسلف، وتنظم رسائل الاعتمادات، وتقدم حتى ما يدعى في أيامنا الحالية في البلدان المتطورة بـ «الشيكات السياحية»، والكفالات التجارية. وكل هذا، كما يتبين من لوائح الحسابات، كان يعود بأرباح طائلة.

خلال عصر السيطرة الفارسية كان قد حصل هبوط في الأسعار بالنسبة للخامات المعدنية بأنواعها. وعلى ما يبدو أنه تم التوصل إلى طريقة أسهل وأرخص في عمليات الاستخراج والصهر. وعلى الرغم من أن الأمبراطورية الفارسية كانت تنتج كل شيء تقريباً مما تحتاجه، فقد اتسعت مع ذلك دائرة العلاقات التجارية إلى مدى بعيد وأخذ التجار من ذوي الإقدام يسعون لاكتشاف أسواق غير معروفة وبلدان لم يكونوا قد تعاملوا معها فيما مضى، ويدرسون إمكانات الإفادة منها. فتم لأول مرة قيام علاقات تجارية نشيطة مع شعب «السكيتيين»[118] في جنوبي روسيا عن طريق السواحل الجنوبية للبحر الأسود، التي لم تكن لها قبل ذلك الزمن أهمية تذكر. كما ازداد النشاط التجاري مع الهند.

وأما السلع التي كانت تنقل على هذه الطرق التجارية المختلفة فأهمها: الزيت والخمور والعسل والمواد الطبية ومواد التجميل من عطور وغيرها واللآلىء والأحجار الكريمة والأسلحة والمنسوجات والألبسة الجاهزة والجلود ومصنوعاتها والخشب والرخام والعاج والتوابل ومختلف المنتجات المعدنية والزجاج.

مع هذا كله بقيت التجارة العالمية مقتصرة على بعض المراكز القليلة. وبقيت البلدان النائية في أغلب الأحيان تعيش حياة منعزلة. ومن الجدير بالذكر أن ذلك التطور العالمي للتجارة كان يلاقي اعتراض ورفض الأرستقراطية العسكرية الفارسية التي كانت

(118) سبق ذكر «السكيتيين» في فقرة ـ تنازع السيطرة بين بابل وآشور وتعريفهم في الحاشية رقم (29) هناك.

تعتبر التجارة بشكل عام وسيلة للكسب لا تليق بها. لذا بقيت التجارة في أيدي السكان المحليين من الآراميين بصورة رئيسية حتى قدوم اليونان. إلا أن هناك شيئاً آخر كان يحظى باهتمام وعناية هذه الارستقراطية، ألا وهو الخيول.

وكان يتم جلبها من أرمينيا. وعلى الرغم من أنها كانت أصغر من الخيول الميدية المشهورة فقد كانت تتفوق عليها بالحيوية والصبر. ويروي المؤرخ اليوناني سترابون أن المرزبان الفارسي في أرمينيا كان يبعث سنوياً إلى الملك الفارسي بعشرين ألفاً من صغار الخيل. وربما يبدو هذا العدد مبالغاً فيه، ولكن مع ذلك يستنتج منه أن الخيول الأرمنية كانت مرغوبة جداً عند الخيالة الفرس، وأن تجارة الحصان مع أرمينيا كانت على قدر لا يستهان به. إلا أنه من الواضح أن التجار الآراميين هم الذين كانوا يتولونها وليس تجار أرمينيا. وكل الدلائل تشير إلى أن الأرستقراطيين الفرس كانوا مضطرين على مضض للتعامل مع أولئك التجار.

ومن أرمينيا كانت تستورد بيرة الشعير أيضاً. وكانوا يشربونها بأنابيب القش كما كان الحال عند السومريين قبل زمن قديم جداً. ويبدو أنها كانت محبوبة لدرجة وجدت معها المكاتب الرسمية الفارسية من الضروري إصدار تحذيرات من استهلاكها بكثرة وفرض عقوبات في حالة السكر.

لم يستمر ذلك الرخاء طويلاً. فقد أخذت الضرائب العالية تثقل كاهل الناس. والطلب المتزايد على البضائع من كل الأنواع دفع لارتفاع الأسعار في تسارع كبير ارتفعت معه الفوائد أيضاً. وعندما حلت نهاية القرن الأخير الذي سبق قدوم اليونان كانت تكاليف المعيشة قد تضاعفت، وأصبح السكان في كل مناطق الهلال الخصيب ينتظرون الخلاص من عبء السيطرة الفارسية. ولذا فقد استقبلوا اليونان في أغلب المناطق كمحررين من هذا العبء الفارسي. ولم يكونوا قد حسبوا حساباً في ذلك الوقت أنهم على عتبة الحروب التي ستقع بين ورثة الاسكندر الكبير.

الفصل الثالث عشر

سوريا
في زمن السلوقيين

مملكة سوريا السلوقية

عندما مرض الاسكندر سئل قبل موته: إلى من سيعهد بهذه الأمبراطورية الكبيرة؟... فأجاب: إلى الأكثر جدارةً... الأمر الذي جعل كل واحد من قادته يحسُّ أنه المقصود بذلك، وجرّ إلى حروب طاحنة فيما بينهم استمرت اثنين وأربعين عاماً حرصوا خلالها بعناد على عدم تمكين واحد منهم من إعادة توحيد الأمبراطورية الممزقة. هذه الاضطرابات الدامية التي تخللها مقتل أو اغتيال بعض المتنافسين برز فيها أربعة من القادة الكبار وزعوا الأمبراطورية فيما بينهم مبدئياً كالتالي:

1 ـ بطليموس «PTOLEMAIOS» الذي كان سابقاً مرافقاً شخصياً وصديقاً للاسكندر. أعطي حكم مصر، حيث عرف ببطليموس الأول وعرف كل الملوك من سلالته باسم البطالمة.

2 ـ سلوقس «SELEUKOS» الذي برز بين ضباط الاسكندر من خلال الحملة التي قادها إلى الهند. أعطي في البداية حكم مرزبانة بابل، وأسس السلالة الحاكمة السلوقية في سوريا كما سنرى.

3 ـ أنتيغونس «ANTIGONOS» كان أيضاً من القادة الكبار. وكان يلقب بالأعور. أعطي مبدئياً حكم آسيا الصغرى إلا أنه تابع الحرب وألحق بها بلاد الشام وقسماً من الأرض اليونانية.

4 ـ أنتيباتروس «ANTIPATROS» الذي كان قائداً للملك فيليب الثاني والد

الاسكندر وبقي واحداً من القادة اللامعين عند الاسكندر. وقد أعطي حكم مكدونيا.

ولكن هذا التوزيع لم يمنع استمرار النزاعات الدامية التي جرت الويلات على البلاد السورية. كانت بابل تشكل قلب امبراطورية الاسكندر. وقد أقرّ بها بقية المتنازعين في سنة 321 قبل الميلاد لسلوقس الذي كان قائد فرق الفرسان المكدونية، بعد أن كانوا قد اغتالوا برديكاس «PERDIKKAS» الذي كُلِّف كحاكم موقت بعد موت الاسكندر. لم تكد تمضي خمس سنوات على التوزيع المذكور حتى قام «أنتيغونس» حاكم آسيا الصغرى بمهاجمة قائد الفرسان «سلوقس» واضطره إلى ترك بابل والالتجاء إلى «بطليموس» في مصر. إلا أنه بعد أربع سنوات من ذلك (312ق م) استطاع استرداد بابل بعد التغلب على «أنتيغونس» في غزة بمساعدة «بطليموس» الذي اقتطع من بلاد الشام منطقة فلسطين وضمها إلى دولته المصرية.

أما سلوقس فقد اتخذ لنفسه لقب الملك في سنة 305ق.م.. وفيما بعد سنة (301) أحرز نصراً حاسماً آخر على أنتيغونس عند إيبسوس «Ipsus» في شمالي آسيا الصغرى. وفي تلك المعركة قُتل أنتيغونس نفسه. فضم سلوقس القسم الأعظم من آسيا الصغرى مع بلاد الشام ـ باستثناء فلسطين ـ إلى بابل.

وبينما كان سلوقس في سنة 281 ق.م. يحاول ضم مكدونيا إلى مملكته بعد أن شغر عرشها بموت واحد آخر من قادة الاسكندر، قتل بطعنة خنجر قرب مدينة ساردس «Sardes» غربي آسيا الصغرى. وكان قد حكم قرابة الأربعين سنة. والمعتقد أن الذي طعنه كان أحد أبناء بطليموس مصر.

لم تكن في الأمر أية أهمية بالنسبة لسكان البلاد السورية أن سلوقس لم يتخذ لقب الملك قبل سنة 305. إذ أنه بالنسبة إليهم ابتدأ التاريخ السلوقي الرسمي في رأس السنة الجديدة التي عقبت عودة سلوقس من مصر واسترجاعه لسوريا، أي في 1 نيسان سنة 311 ق.م. ومنذ ذلك الوقت أخذوا يسجلون التواريخ بأرقام متسلسلة متواصلة. وقد عم استخدام هذا التقويم في الهلال الخصيب. وسنرى ذلك في المخطوطات التدمرية فيما بعد.

بعد معركة إيبسوس الآنفة الذكر أصبح سلوقس يسيطر على منطقة مترامية الأطراف امتدت من حدود الهند حتى حدود مصر، ومن ساحل الخليج الفارسي حتى البحر الأسود. إلا أنه كان ينقصها التماسك. ولم تعرف الاستقرار، وبقيت بين مد وجزر حتى

بدأت حوالى سنة 200 قبل الميلاد تفقد الكثير من المقاطعات في آسيا الصغرى وفارس بصورة نهائية. وبعدما استطاع الفرتيون احتلال بابل سنة 126 قبل الميلاد (كما سنرى في فقرة لاحقة) لم تبق للسلوقيين عملياً إلا بلاد الشام، التي استطاع الرومان فيما بعد ضمها تحت سيطرتهم دون صعوبة. وكان ذلك في سنة 63 قبل الميلاد.

حوالى سنة 300 قبل الميلاد جعل سلوقس من أنطاكية عاصمة لمملكته. وكان قد أنشأها على موقع مدينة أقدم منها، وأعطاها من جملة مدن عديدة أخرى هذا الاسم نسبة إلى والده «أنطيوخس».

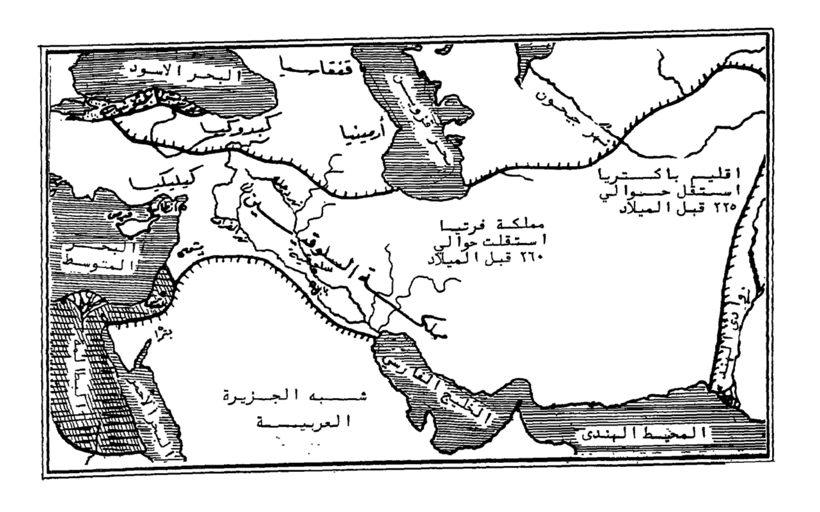
تعتبر مملكة سلوقس الأول أوسع وأقوى الممالك التي نتجت عن تفكك امبراطورية الاسكندر. إذ إنها شملت القسم الآسيوي منها بالكامل تقريباً. وفاقت في اتساعها امبراطوريات الهلال الخصيب في القرون السابقة، التي كانت تقوم بزعامة بابل حيناً وبزعامة آشور حيناً آخر. وأبرز حدث في هذا التطور هو جعل أنطاكية عاصمة لهذه الأمبراطورية. أي أن مركز الثقل السياسي والاقتصادي والثقافي انتقل هذه المرة وبصورة نهائية من منطقة الرافدين إلى سوريا الغربية بزعامة أنطاكية، المدينة القديمة الجديدة. وتوارت كل من بابل وآشور عن مسرح الزعامة في الهلال الخصيب كما كانت المراكز الحضارية الكبيرة الأخرى قد توارت سابقاً مثل أور وماري وغيرهما.

يتبين من تطور الأحداث في السنوات اللاحقة أن السلوقيين لم يكونوا هواة حرب. فبصرف النظر عن محاولات أنطيوخس الثالث لاسترداد المناطق الشرقية التي فقدتها المملكة (مما يرد ذكره في الفقرة التالية)، والتي كانت دون جدوى، يلاحظ أن نشاطاتهم العسكرية والدبلوماسية فيما بعد قد اتجهت بصورة رئيسية تقريباً ضد بطالمة مصر، الذين بقوا مدة طويلة يتنازعون معهم السيطرة على الساحل السوري وخصوصاً مناطقه الجنوبية.

سياسة السلوقيين في سوريا ونظم الحياة العامة فيها

عندما ورث السلوقيون الاسكندر في القسم الأعظم من أمبراطوريته سرعان ما ثبت لهم أنهم أقلية ضئيلة في محيط ضخم من السكان الخاضعين لسلطتهم، وأنهم إذا أرادوا استمرار حكمهم فلا يكفي أن يكونوا أصحاب القوة والسلطة، بل لا بد من التكيف مع

الهلنستية ما بعد الإسكندر وعصر القوة السلوقية خلال القرن الثالث قبل الميلاد



هذا المحيط من السكان وبالتالي اقتناعه بحكمهم. لذلك حكّموا في سياستهم العقل والتساهل بذكاء كبير وأحلّوا التسامح في المسائل الدينية كافة. ولم يغيروا إلا قليلاً في النظم الإدارية الموروثة. فأبقوا على نظام إدارة المرزبان (حاكم الولاية) الفارسية، وسار عليه حكامهم بدقة.

وبما أن تأثير الثقافة اليونانية كان سيقتصر بالطبع على أفراد الطبقات الاجتماعية العليا، وإلى حدٍ ما الطبقة الوسطى، وهم الذين لا تفلت منهم المكاسب من هذه الثقافة، فقد اهتم السلوقيون بالدرجة الأولى والأساسية بالمدن التي أصبحت بالفعل هي العمود الفقري للثقافة الهلنستية التي أخذت بالانتشار.

كان القلب النابض لسوريا السلوقية يتركز على نهر العاصي. فأنطاكية هي العاصمة الإدارية. وفي أفامية كانت القيادة العسكرية. ولم تفصل هاتين المدينتين إلا مسافة بسيطة عن أهم مينائين في ذلك الوقت وهما سلوقية على مصب العاصي[119] ثم اللاذقية.

برزت نشاطات الحكام السلوقيين الأعمق تأثيراً من أي شيء آخر في تأسيس عدد غير قليل من المدن التي أعطوها طابع ونموذج المدن اليونانية، وأسكنوا فيها جنوداً ومهاجرين من مكدونيا ومناطق يونانية أخرى. إلا أنه ليس من الثابت إن كانوا يهدفون بسياستهم هذه إنشاء شبكة من المراكز السياسية والعسكرية لتساعد في تثبيت سلطتهم على المدى الأبعد، أو كانوا يضمرون حقاً نشر الثقافة ونظم الحياة اليونانية في غربي آسيا. ولكن المعروف أن هذه المدن أصبحت بالفعل مراكز نشاط ثقافي واقتصادي. وأغلبها تم تأسيسه قرب الطرق التجارية القديمة وغير بعيد عن المدن والقرى القديمة، وفي بعض الأحيان على أنقاضها. وقد اتبع في تخطيطها وعمارتها النظام اليوناني.

أصبحت أوسع هذه المدن اليونانية على الإطلاق هي سلوقية التي بناها أنطيوخس الأول في سنة 274 قبل الميلاد على نهر دجلة تجاه بابل من الشمال (ويعرف موقعها

---

(119) كانت هذه أيضاً واحدة من مدن عدة أعطيت كلها اسم «سلوقيه». وذلك لتمييزها عن غيرها دعيت «سلوقيا بيريا Seleukeia Pieria» وأحياناً «Seleukeia ad Orontem» أي: «سلوقية على العاصي». في زمن لاحق فقدت أهميتها تماماً بعد أن نشأت السويدية وصارت هي الميناء الرئيسي الشمالي وتغلب اسمها. (تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية: د .عبدالله الحلو/ قيد الطبع).

اليوم باسم: تل عمر). وقد شابهت في فترة ازدهارها المدن العالمية تقريباً بشوارعها المستقيمة المتعامدة على مجموعات كبيرة مربعة من البيوت السكنية.

وعلى النهاية الشمالية للخليج الفارسي كانت تقع مدينة «خاراكس Charax» التي كان قد أسسها الاسكندر وجددها السلوقيون. ثم في وقت لاحق أعاد تجديدها أمير من سكان جنوب الرافدين كان يدعى «سباسينوس Spasinus» ودعاها لذلك «سباسينو خاراكس Spasinu Charax». واستناداً إلى ما يقوله بلينيوس يُستنتج أنها كانت في زمنه (أي حوالي 77 ميلادية) قد فقدت طابعها اليوناني تماماً. وعندما قام الامبراطور الروماني تراجان في زمن لاحق بحملة إلى تلك المنطقة كان يسيطر عليها أمير آخر من السكان المحليين يدعى «أتامبلوس Athambelus». وكانت مدينة أخرى على ذلك الساحل تدعى «أبولوغوس Apologos» أسسها اليونان أيضاً. ويحتمل أن سكان المدينتين «خاراكس» و «أبولوغوس» كانوا خليطاً من أقليات كلدانية ويونانية وعربية وفارسية.

وليس هناك من شك في أن التجارة مع الهند كانت منظمة. وكما يروي بلينيوس وقف مرةً الأمبراطور تراجان على شاطىء «خاراكس» بينما كانت سفينة تنشر قلوعها للإبحار إلى الهند، وقال متحسّراً بصوتٍ عالٍ أنه قد تجاوز بكثير السنّ التي تمكنه من الاشتراك في رحلة بحرية كهذه.

كان الاسكندر في آخر سنيّ حياته قد بعث بثلاث سفن جنوباً في الخليج لتأتيه بمعلومات أكثر وضوحاً عنه. وقد قامت واحدة من هذه السفن باستطلاع أماكن صيد اللؤلؤ عند دلمون (البحرين)، ولكن لم تبتعد أي من السفن الثلاث إلى ما بعد رأس مسندم.

أما سكان «جرّها»[120] التي كانت تسيطر على الساحل الغربي للخليج فيعتقد أنهم كانوا مهاجرين كلدانيين. وقد اعتبروا أمهر تجار في تلك المنطقة. ولم يدعوا أي إنسان غريب يطلع على أسرار تجارتهم. وقد كان لهم نشاط تجاري مع بلاد البخور ومارسوا تجارة نشيطة على الطرق البرية والمائية مع وريثة بابل وجارتها سلوقية التي يتضح أن

---

(120) تذكرها المصادر اليونانية بشكل «Gerrhai» ومن الواضح أنه كانت لها شهرة في ذلك الزمن. وأغلب الدلائل تشير إلى أن ضرائبها تقع إلى جانب بلدة «العُقير» الحالية ـ ويلفظها البدو هناك: العجير ـ

انظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. الجزء الأول ص 175. بيروت 1976. وفيليب حتي. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. الجزء الأول ص 299ـ 300. بيروت 1958.

السفن كانت تصلها عبر دجلة. ولكن غير معروف كيف كانوا يتفقون مع تجار الترانزيت في «خاراكس» شمالي الخليج. وعلى كل حال فمن المؤكد أن حراس «خاراكس» وتجارها، الذين لا يتركون منفعة تفوتهم، كانوا لا يسمحون بمتابعة السير قبل تحصيل رسوم الترانزيت.

في سنة 205 قبل الميلاد قاد أنطيوخس الثالث الكبير حملة عسكرية إلى «جرّها». وقياساً للمتاعب الكبيرة التي لاقتها الحملة وجد أن النتيجة التي انتهت إليها كانت بمثابة هدية من السماء. إذ أن أهل «جرها» بادروه خارج مدينتهم بتقديم هبات كبيرة تألفت من خمسمائة وزنة من الفضة وألف وزنة من البخور ومئتي وزنة من المرّ. ويذكر بوليبيوس في تقريره أن: «أهل جرها رجوا الملك ألا يفسد عليهم ما وهبتهم إياه الآلهة وهو السلام والحرية».

بصرف النظر عن هذه المحاولة العسكرية غير الجدّية لم يعرف عن السلوقيين أنهم بذلوا جهوداً للسيطرة على تجارة البخور وعلى الملاحة في الخليج وبالتالي الطريق إلى الهند. وقد أبقوا على سير الواردات التجارية إلى خاراكس وسلوقية كما كان لأنها كانت تعود بأرباح لا يستهان بها.

ومن المرجّح أن البضائع التي كانت تأتي من الهند على الطريق البري كانت أكثر بكثير وأن أرباحها فاقت أرباح التجارة البحرية، إضافة إلى كون التجارة البرية أسهل وأقل تعرضاً للأخطار. وعلى الطريق نفسه كان السلوقيون بالتأكيد يأتون بالفيلة الهندية التي استخدموها في الجيش.

ظهور مملكة الفرتيين ودورها في المنطقة

بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ظهرت على مسرح الأحداث قوة جديدة لم يكن أحد يتوقعها. ففي سنة 140 قبل الميلاد احتل الفرتيون بابل وسلوقية ووقعت في قبضتهم طرق المواصلات البرية إلى الهند والصين وأغلقوا الطريق المائي عبر الخليج. فاستطاعوا بذلك أن يلعبوا دور الوسطاء الكبار الذين تستحيل التجارة مع شرقي آسيا من دونهم، وذلك بعد أن كانوا في سنة 126 قبل الميلاد قد استكملوا احتلال الأراضي البابلية كافة حتى الجنوب.

بعد زمن طويل حاول الرومان مرة واحدة إزاحة هذا العبء وكسر الاحتكار المرهق بالنسبة للغرب، عندما قاد الأمبراطور تراجان حملة سريعة احتل فيها بلاد الرافدين كلها وأخذ ميناء خاراكس على الخليج في سنة 116 ميلادية[121].

إلا أن انتصاره لم يعش طويلاً، حيث أن الفرتيين سرعان ما تمكنوا من السيطرة مجدداً على أرض الرافدين. فكان لا بد فيما بعد من التوصل إلى اتفاق بعد مفاوضات طويلة تم بموجبه تسهيل حركة التجار من الجانبين، وترك لهم تسيير تجاراتهم على الحدود فقط دون أعباء تذكر. ولكن بقي الطريق إلى الهند والصين مغلقاً في وجه التجار الآتين من الغرب. وبالمقابل كان الطريق إلى غربي سوريا وساحل المتوسط محرماً أيضاً على تجار الفرتيين. فمن كان هؤلاء الفرتيون، الذين لم يستطع لا السلوقيون ولا الرومان بجهودهم اليائسة أن يكسروا عنادهم؟...

يرجع أصلهم إلى قبائل السكيتيين[122] التي كان موطنها في سهوب روسيا الجنوبية بنواحي البحر الأسود، وذلك منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد بدأت قبائل الفرتيين بالظهور على مسرح التاريخ السياسي في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، عندما قادهم زعيمهم «أرشاق Arsaces» مؤسس مملكتهم، التي دعيت «فرتيا»، من مناطق السهوب التركمانية إلى شمالي إيران حيث انتشروا هناك.

وكانت مملكة السلوقيين التي أسسها سلوقس الأول تمرّ في عهد خلفائه بمرحلة من الاضطرابات والضعف كانت للفرتيين فرصة مناسبة. فقاموا بقيادة ملكهم «أرشاق» ضد سلوقس الثاني وهزموه في معركة وقعت بعد سنة 240 قبل الميلاد بوقت قصير. وقد اعتبرت تلك السنة بداية رسمية لتاريخ السلالة الفرتية التي عمرت دولتها قرابة الخمسة قرون.

بعد ذلك بأربعة عقود من الزمن، أي حوالى 200 قبل الميلاد كانت مملكتهم قد وصلت حتى الساحل الجنوبي لبحر قزوين، ولم يمض وقت طويل حتى ضربوا خيامهم في أراضي الفرات العليا ووصلوا في شرقي آسيا حتى وادي الهند إلى الشرق من أفغانستان.

---

(121) كانت قد سبقت هذه الحملة فترة طويلة من التعايش السلمي ابتدأت في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. مما سيأتي ذكره لاحقاً في فصل المملكة التدمرية.

(122) سبق ذكر السكيتيين في الحاشية 118 وتعريفهم في الحاشية 29.

وخلال القرن الأخير قبل الميلاد ثم الأول الميلادي قام العديد من القياصرة الرومان بمحاولات لكسر هذه المملكة، كان منهم «كراسوس Crassus» و «تراجان Trajan» و «ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius» و «سبتيميوس سيفيروس Sepotimius Severus» وكلها دون طائل. كما اضطر البعض الآخر إلى المفاوضات والمهادنة مثل «بومبيوس Pompeius» وفيما بعد «أوغسطس Augustus». إلا أنه قضي على هذه المملكة بظهور قوة الفرس الساسانيين حوالى سنة 224 ميلادية.

سيطرت على إدارة البلاد الخاضعة لهم طبقة من الأرستقراطيين. وقد اتبع الفرتيون سياسة كانت على جانب ملحوظ من الدهاء. فلم يحاولوا أن يغيروا شيئاً في النظم الإدارية التي اتبعها السلوقيون قبلهم. كما اهتموا بالمدن الهلنستية وحافظوا عليها. وحتى الدويلات التابعة تركوا لها إداراتها الخاصة بها.

وبفضل سيطرتهم على الطرق التجارية بين آسيا والغرب بلغوا درجة عظيمة من الثراء. وحرصاً على ذلك حافظوا على الطرق التجارية وآبار المياه الواقعة عليها ومحطات القوافل. ولكن الفرتيين رغم اصطدامهم بالسلوقين واقتطاعهم قسماً كبيراً جداً من امبراطوريتهم، لم يتمكنوا على الرغم من المحاولات العسكرية في السنوات اللاحقة من مد سيطرتهم أبعد من بابل والتوغل غربي الفرات. واستطاعت دولة السلوقيين المحافظة على بلاد الشام.

تركيبة الدولة السلوقية وطبيعة الحكم

كانت امبراطورية الاسكندر الكبير، التي لم تعمر طويلاً، نوعاً فريداً من الأمبراطوريات، بالنظر إلى تركيبتها العرقية والثقافية، بحيث أن أبسط وصف يمكن أن يطلق عليها هو الأمبراطورية العالمية. وبعد تمزقها كما رأينا اكتسبت هذه الصفة العالمية دولة السلوقيين ولكن على نطاق أضيق. إذ كانت أيضاً دولة عالمية يجمعها شخص الملك، الذي كان بمثابة نقطة مركزية ورباط يضم تشكيلة كبيرة من الشعوب المختلفة الأصل والثقافة.

وبعد اتخاذ السلوقيين أنطاكية عاصمة للدولة السورية وانحسار سلطتهم عن منطقة بابل وبلاد فارس وآسيا الصغرى أصبحت تسمية سوريا السلوقية تنطبق عملياً على بلاد

الشام والجزيرة الشمالية فقط.

وفي حين أن أحد البطالمة كان يعتبر سيداً على بلد هو مصر، كان الأمر مختلفاً تماماً لدى السلوقيين في فترة الإتساع والقوة عندما كان أحدهم يعتبر السيد المسيطر على مناطق واسعة تعيش فيها شعوب لها حضارات مختلفة وليس بينها إلا رابط سياسي يتمثل في شخص الملك. هذا بصرف النظر عن محاولة نشر الثقافة اليونانية التي كان الاسكندر قد وضع أسسها وبدأ بتطبيقها قبل موته، والتي لم تسفر عن نتائج بعيدة المدى وبقيت محصورة سواء في الحدود الزمنية أو الحدود الجغرافية.

إن الوثائق المكتوبة التي تركها السلوقيون قليلة جداً. ولكن من المعروف بالطبع أنه كان لا بد للحاكم السلوقي من أن تتوفر فيه صفات أساسية هي الذكاء والحكمة والحزم والقوة حيث إن الولاء للسلالة الحاكمة هو الأمر الوحيد الذي يمكن من الحفاظ على ترابط هذه المملكة المتناقضة. ولذا فإن أكبر الأبناء عندهم لم يكن له بالضرورة الحق المطلق في وراثة العرش. وكان شعار السلالة السلوقية بمناط الأمل. ورمز الهيبة الملكية هو إكليل الرأس والرداء الأرجواني. وكان الملك حاكماً مطلقاً. ولكن سلطته المطلقة لم تكن استبدادية، بل إنها تحلّت بطابع اللياقة.

ولم يكن الحكام السلوقيون أفظاظاً إلا في حالات نادرة جداً، بعكس أولئك الذين حكموا البلاد من القناصل الرومان في فترات لاحقة. والملك كان يختار بنفسه مستشاريه وأصدقاءه المقربين. ورجال خاصته كانوا الوحيدين المسموح لهم بلبس قبعات حمراء، ويدعون لذلك «القبعات الأرجوانية»، وكانوا هم مجلس البلاط الملكي والمستشارين في آن واحد.

تميز ملوك السلوقيين بأنهم كانوا يفضلون المفاوضات على الحرب. وقد عرفوا ببراعتهم وطول صبرهم في المفاوضات. وكانت الحرب آخر وسيلة يعمدون إليها عندما تصبح كل سبل التفاهم مسدودة. وعلى الرغم من أن المتحدثين الشرقيين كانوا مضرب المثل في طول أناتهم فإن مفاوضاتهم مع السلوقيين كانت امتحاناً قاسياً لهم اضطرهم غالباً للتعويض عن المهارة في المفاوضة بالسفسطة والخبث.

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين السياسة والاقتصاد على الدوام. ولكن الاقتصاد كان له دائماً المقام الأول. وهو الذي يتحكم بالتفوق السياسي والقرارات.

عرف عن السلوقيين حرصهم الشديد على النظام والعدل والشجاعة والتربية.

وكانوا فخورين بهذه المثل كلما ارتفع مستواها. ومما يذكر عن الفيلسوف «أبولونيوس Apollonius» أنه في إحدى رحلاته إلى خارج المملكة سأله موظف الجمارك على الحدود إذا كان يحمل معه بضاعة أو ما شابه ذلك، فأجابه بأنه يصطحب معه «فضائل»، فقال له الموظف بارتياب: ولكن التعليمات تقضي بأن الجواري يجب تسجيلهن في السجل تماماً كأي شيء آخر، فرد عليه الفيلسوف: كلا... إن «الفضائل» التي يصطحبها معه ليست جواري وإنما سيدات لها مكانتها الاجتماعية.

التنظيمات العسكرية

وجد في سوريا السلوقية جهاز كامل من المنشآت التحصينية الكبيرة والصغيرة، موزع على كل المواقع الهامة، يساعد في حماية المملكة من الهجمات الخارجية وحركات التمرد التي تظهر في الداخل. وحامياتهم التي أسندت إليها مهمة حراسة الطرق والقوافل التجارية إضافة إلى واجبها في الدفاع وحفظ الأمن كانت قوية بما فيه الكفاية، بحيث تستطيع صد أي هجوم معادٍ وكبح جماح القبائل البدوية التي لا تعرف الهدوء والاستقرار. ولو اتبع السلوقيون أي نظام آخر للسيطرة على أراضي المملكة الواسعة لكان في ذلك خرابهم الاقتصادي.

كان أكبر جيش سلوقي في تاريخهم هو ذلك الذي شكله أنطيوخس الثالث الكبير ضد الرومان في سنة 190 قبل الميلاد وخاض به معركة مغنيزيا الخاسرة[123]. وقد بلغ تعداده اثنين وسبعين ألفاً. وهو عدد كبير بمقارنته مع الخمسين ألف رجل الذين خصصتهم روما بعد ذلك بثلاثة قرون لحماية حدود الفرات خلال فترة من التعايش السلمي مع الفرتيين. ولكن هذا العدد بقي حالة شاذة، حيث إن نظام السلوقيين الدفاعي اكتفى بالفرق الصغيرة نسبياً وبفكرة اللجوء إلى الشعوب المساندة والاعتماد على المنشآت التحصينية ومراكز المراقبة المنتشرة في البلاد. وكان ذلك كافياً للوقوف في وجه خصومهم الذين يعادلونهم في وزنهم العسكري ويشابهونهم في تنظيمهم. وأما إذا اضطروا إلى مواجهة قوة أخرى تختلف عنهم في نظامها العسكري كالرومان أو الفرتيين فكانوا يخسرون أمامها. وقد مروا بهذه التجربة الخاسرة في مغنيزيا.

كانت الفيلة المحاربة هي أروع ما في الجيش السلوقي. وهي السلاح الهجومي

---

(123) Magnesia على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تجاه اليونان. قريبة من إفسوس.

الفعال. وكانت لها مكانة محترمة عند كل الملوك السلوقيين. فلم تخل العملة السلوقية من صورة للفيلة اعتباراً من سلوقس الأول مؤسس الدولة حتى «ألكسندر زابيناس»[124] الذي كان أحد المدّعين بحمل التاج السلوقي (123ـ 122 قبل الميلاد) عندما تقلصت الدولة وفقدت كل مكانتها وسلطتها.

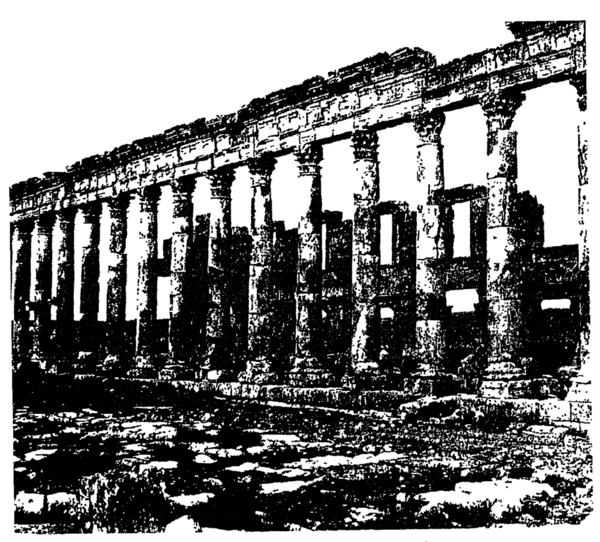
والجدير بالذكر أن معركة مغنيزيا الخاسرة كانت نتائجها وخيمة. ففي اتفاق أفاميه الذي عقب ذلك فرض الرومان على سوريا جزية حربية ضخمة. والأنكى من هذه الجزية هو نزع السلاح، الذي أشرف الرومان على تنفيذه. وكان المقصود بذلك بالدرجة الأولى والأساسية هو ذلك السلاح الهجومي الذي دب الرعب في قلوب الرومان، والذي كان هنيبعل القرطاجي قد استخدمه ضدهم في إيطاليا، واعتبر دبابات العصر القديم، أي الفيلة المحاربة. فكان أكثر شيء أثار حنق السكان وهياجهم وألمهم هو رؤية الرومان وهم يذبحون هذه الحيوانات. مئة وتسعة وثمانون فيلاً، هو كل ما كان لدى الدولة، وجب على أنطيوخس تسليمها للذبح، دون أن يُسمح له بالاستعاضة عنها كما نص عليه الاتفاق. وقد فعل أنطيوخس ذلك، إلا أنه وجد الوسائل والطرق التي مكنته من تأمين فيلة أخرى بدلاً منها. ففي السنوات اللاحقة استخدم انطيوخس الرابع الفيلة في حملته على مصر، إلا أنه تم ذبحها أيضاً عندما علم الرومان بذلك.

كانت منطقة مجرى العاصي هي القلب النابض بالنسبة للمملكة السلوقية. فعلى هذا النهر كان المركزان الرئيسيان للدولة: أنطاكية وأفاميه.

أما أفاميه فهي من المدن التي جدد بناءها سلوقس الأول وأعطاها هذا الاسم «أپاميا Apameia» نسبة إلى زوجته الفارسية «أپاما Apama»، وأصبحت عملياً العاصمة الثانية بعد أنطاكية، أو العاصمة العسكرية. فكان فيها مقر القيادة العامة للجيش، ومقر وحدة المتفوقين من العسكريين، وفيلة الحرب، والمكان الرئيسي لتربية الخيول الذي يؤمن كل احتياجات فرق الفرسان منها.

وتختلف المصادر اختلافات بسيطة في بعض التفاصيل. إلا أن أغلب الكتابات القديمة (خصوصاً عند سترابون) تشير إلى 500 أو 600 من الفيلة التي كان يعتنى بها بصورة ممتازة، وكان لها مدربون خاصون واسطبلات كبيرة وحقول خاصة للتدريب. وفي تلك الأراضي الفسيحة المحيطة بأفاميه كانت تسرح الخيول الشهيرة التي اعتبرت

(124) يرد ذكر هذا الملك لاحقاً في فقرة: بعض ما قيل في حياة أنطاكية، والتعليق على اسمه هناك.



أفاميه.. القسم الشمالي من شارع الأعمدة الكبير
وخلف الأعمدة تبدو واجهة بيت من طابقين.

مفخرة الفرسان السلوقيين.

كانت المدينة كبيرة بمقاييس ذلك العصر. ويقدر أنها احتوت على ما يقارب المئة وعشرين ألفاً من السكان. ويقول سترابون في وصفه لها:

«مدينة محصنة جيداً على تل يتوسط سهولاً واسعة، يغسل أطرافها نهرالعاصي، وفيها فيلة السلوقيين وثلاثون ألف فرس وثلاثمائة حصان من النوع الممتاز...»

إن نظرة نلقيها على الآثار المحدودة التي بقيت اليوم تجعل من الصعب أن نتصور أن مدينة بهذا الشكل كانت في ذلك الموقع، وأن شارعها الرئيسي المحاط بالأعمدة

كان له من الطول حوالي 1,5 كيلومتر.

ويفاجئنا أمر لا يستهان به، هو أن أفاميه، التي كانت مدينة عسكرية بكل معنى الكلمة، قد وجدت فيها مدرسة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، التي اشتهرت عالمياً في ذلك الوقت. وكان أحد فلاسفتها «بوسيدونيوس» الذي جمع بين الفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية ويعتبر من أشهر معلمي عصره وأكثرهم نفوذاً في أيام شيشرون الذي استمع هو وبومبي إلى محاضراته. ثم «نومينيوس» الذي كان من أقدر العالمين بفكر الهندوس في عصر التأملات الفلسفية الذي سبق عصر المسيحية. وكان له تأثير عميق على أكبر مفكري القرن الثالث الميلادي وهو «بلوتينوس».

هذه المدرسة الفلسفية والتكهنات الشهيرة جعلت من أفاميه واحداً من آخر معاقل الوثنية. وفي بدايات عصر المسيحية التي اتخذت طابع العنف استغاث سكان أفاميه أكثر من مرة بالفلاحين في المناطق الجبلية لحماية المقدسات القديمة والمعابد من هجمات المسيحيين المتحمسين. ولكنهم لم يحققوا من ذلك إلا نتيجة وقتية.

ملامح الحياة العامة
وتأثيرات الهلنستية

كانت القوانين والتنظيمات الرسمية اليونانية التي أدخلها السلوقيون إلى مناطق الهلال الخصيب سرعان ما وجدت مناخاً ملائماً تفاعلت فيه مع النظم المحلية وأساليب الحياة عند السكان السوريين، بحيث استمرت سائدة طيلة أربعمائة سنة من السيطرة الرومانية فيما بعد. فإن حرية الفكر التي أحضرتها معها الهلنية بعد مئتي سنة من السيطرة الفارسية المطلقة على سوريا كلها، كانت حافزاً قوياً للترحيب بالثقافة والنظم الجديدة. ولما كانت اليونانية قد أصبحت لغة الحديث في كل مناطق الشرق الأدنى، فقد وجدت الأفكار الجديدة الأرض الخصبة لتنمو فيها بسرعة. وتولّد عند الناس على اختلاف مناطقهم، الشام، بابل، آشور... إلخ شعور بأنهم أشبه بمواطنين عالميين. وبينما كان دور النساء في الحياة العامة والرسمية يقتصر قديماً على شخصيات قليلة أخذت المرأة بصورة عامة تشعر بما لديها من إمكانات فكرية لاستخدامها. واتسع دور النساء في الحياة الاجتماعية والرسمية على السواء.

الواقع أن انتشار التأثيرات الهلنية باتجاه الشرق كان قد تجاوز الفرات، حتى صارت المسرحيات اليونانية تمثل في بلاد الفرتيين. ولكن من المعتقد أن هذا التأثير لم

يكن بالعمق نفسه في كل مكان. وعلى كل حال يبدو أن الفرتيين لم تتعمق فيهم الثقافة الهلنية. ومما يدعم هذا الاعتقاد أن ملك الفرتيين كان قد حُمل إليه رأس القائد الروماني «كراسوس Crassus» الذي قتل في معركة عند حران في الشمال السوري بين الرومان والفرتيين في سنة 53 قبل الميلاد. وصادف في بلاط الملك الفرتي حينذاك عرض لمسرحية «السكيّرات» للمسرحي اليوناني «يوريبيدس Euripides». فأوعز الملك بأن يستخدم الرأس المقطوع بين لوازم المسرح. ويبدو أن روايات الكتاب القدماء ليست من ابتكار الخيال. إذ إن رواية أخرى بهذا الصدد تضيف على ذلك أن الملك الفرتي صب ذهباً مصهوراً في حلق القائد الميت على سبيل التشفّي والسخرية، لاعتقاده أن ما كان يطمع فيه من حروبه هو الذهب.

أما في قلب المملكة السلوقية، بلاد الشام، فإن التطور سار بشكل آخر. فأهل الطبقتين العليا والوسطى من سكان المدن اعتنقوا الثقافة الهلنستية حتى أنهم تكلموا اليونانية بدلاً من الآرامية، خلافاً للفلاحين والبسطاء من الناس، الذين بقيت الآرامية لغة الحديث عندهم. ومع اللغة أيضاً حافظوا على التقاليد والعادات المحلية كافة. أي إن المدن أصبحت إلى حد كبير ذات طابع يوناني بينما بقي الريف آرامياً. مما يدل على أن المحاولة التي قام بها السلوقيون بكل حماس لجعل البلاد السورية يونانية لقيت نجاحاً جزئياً فقط.

بقي السلوقيون طيلة عهدهم منهمكين بحماية أطراف مملكتهم من بطالمة مصر في الجنوب ومن الفرتيين في الشرق، وحماية الطرق التجارية. وكانت جهودهم موزعة بين هذا كله وبين مشاكل النزاع على السلطة ضمن السلالة السلوقية، بحيث لم يتسنّ لهم أن يغيروا وجه سوريا بالشكل الذي كانوا قد خططوا له.

أما في المنطقة البابلية فقد كانت للهلنستية تأثيرات غير منتظرة. ففي المعابد القديمة التي بقيت أو التي أعيد بناؤها بتخصيص مساعدات ملكية وضع الفلكيون والمنجمون تقاريرهم عن مراقبتهم لحركات الكواكب. ودوّن كتّاب المعابد تواريخ أحداث عصرهم، وزينوها بكل ما تناهى إلى أسماعهم من شائعات، وكتبوا مختلف الروايات والأساطير، وأساليب الطقوس والأناشيد بصورة متقنة. وقد اتخذوا بالتدريج أسماء يونانية، إما لأسباب وجدوها منطقية، أو لأنه صار تقليداً متبعاً[125]. لذلك فإنه

(125) هذا ما سنلاحظه لاحقاً في تدمر أيضاً من اتخاذ بعض التدمريين أسماء رومانية.

من الصعب أن نعرف اليوم من كان بالحقيقة ذلك الفلكي أو المنجم أو الكاتب، أهو يوناني الأصل وتعلم الآرامية والكتابة المسمارية؟... الأمر الذي لا نستبعده. أو كان من مواطني بلاد الرافدين الأصليين واكتسب الثقافة الهلنستية؟... الأمر الذي يعتبر هو الأرجح. وعلى كل حال يبدو أن اليونان اهتموا أكثر فأكثر بالعلوم القديمة والعلوم المستعارة عن الكلدانيين. وقد ترجمت إلى اليونانية الأعمال القديمة مثل كتابات «كيدينوس» التي وضعها حوالى سنة 375 قبل الميلاد. ومن الجدير بالذكر أن جماعة من الفلكيين والرياضيين تضم بعضاً من أهل الرافدين وبعضاً من اليونان توصلت لإنجاز مدهش في حسابها للسنة الشمسية بفارق خطأ مقداره 4 دقائق و32 ثانية. وكان «بيروسوس» كاهن الإله القديم مردوك في معبده بمدينة بابل قد وضع باليونانية تلك الكتابات التي هي مزيج من الفلك والمرويات التاريخية بعنوان «بابيلونياكا Babyloniaca» أي: البابليات. وكتب عليها الإهداء إلى الملك أنطيوخس الثاني.

ولا شك أن كثيراً من الموروثات والحقائق العلمية من العصر القديم تمت المحافظة عليها بهذه الطريقة. ولكن في الوقت نفسه أدخلت في تلك الأعمال أمور ثانوية مشكوك بها من المعتقدات البابلية، كمسألة القضاء والقدر، والاعتقاد بالخرافات وغيرها ممّا شوه العلوم الأصلية القديمة إلى درجة لم يعد ممكناً تحديدها بالضبط.

كانت الكتابة المسمارية القديمة قد بطل استخدامها. وأما ما كان خلال حكم السلوقيين قد تبقّى من الثقافة السومرية الأكادية القديمة والكلدانية بمساعدة اللغة اليونانية فإنه دخل عالم النسيان تحت حكم الفرتيين، الذين لم يكن عندهم على الرغم من تسامحهم أي تفهّم لهذه الثقافات. والجدير بالذكر أن آخر نص كتب بالمسمارية كان في سنة 74 أو 75 ميلادية.

ومن المعروف بأن الأماكن المقدسة القديمة كان قد بقي منها عدد قليل. إلا أنه كان لها وجود هزيل وظلت شبه منسية.

عندما قام الأمبراطور الروماني تراجان بزيارة بابل في سنة 115 ميلادية لم يقدم ضحية للإله البابلي القديم مردوك، كما كان يفعل السلوقيون، بل كانت تقدمته إلى روح الاسكندر الكبير. وبعد ذلك بحوالى 85 سنة توجه إلى هناك أيضاً الأمبراطور

والواقع أن اتخاذ أسماء غريبة أمر يلاحظ في كل زمان ومكان. وحتى في عصرنا هذا نلاحظ أمثلة على ذلك بصورة متفرقة هنا وهناك.

«سبتيميوس سيفيروس» فلم يجد إلا مدينة مهجورة تماماً. ولم يكن قد بقي هناك مذبح لتقديم ضحية.

ليس معروفاً بشكل واضح كيف كان توزع الثروات تحت حكم السلوقيين. فالمستندات القليلة المعروفة لا تقدم معلومات بهذا الصدد. ولكن لما كان بديهياً أن الكثيرين من الناس يقطفون ثمار ولائهم للنظام السياسي فمن المؤكد أن الأتباع والأنصار قد كوفئوا بعد تأسيس المملكة السلوقية بتقدمات كبيرة على ولائهم وحققوا شيئاً من الثراء. والبعض عملوا في الاقتصاد والمناصب الرسمية العليا وكان منهم متعهدو ضرائب. والمعتقد أن الجميع كانوا برضى من الملوك يحصلون على مكاسب مالية كبيرة. وهناك بعض الأمثلة التي تعطينا فكرة عن الوضع المالي لبعض الأشخاص. من ذلك أن أموال أحد ملاكي الأراضي الكبار وهو «منيسيماخوس Mnesimachos» في مدينة ساردس غربي آسيا الصغرى، كانت تقدر بـ 1325 ديناراً ذهبياً إغريقياً، وهو مبلغ ضخم يساوي ملايين كثيرة في وقتنا هذا. ويذكر المؤرخ «بوليبيوس Polybios» الموثوق بكتاباته أن «هرمياس Hermeias» وزير أنطيوخس الثالث دفع مرةً من أمواله رواتب جنود الجيش الملكي ليحول دون تمردهم. ويرد في مصادر أخرى أن «ديونيسيوس Dionysios» أحد مواطني أنطاكية كان يملك أواني منزلية من الفضة تبلغ قيمتها مليون دراخما[126] أعارها إلى الملك أنطيوخس الرابع لاستخدامها في احتفال كان قد أقامه. وقد وجدت أعداد كبيرة من الناس الأثرياء في مدن سوريا القديمة كافة، سواء في المدن الساحلية الفينيقية أو مدن سوريا الداخلية أو منطقة الرافدين.

إلا أن ما نجهله هو حجم الطبقة الوسطى من الناس، التي كانت الركيزة الأساسية لنظام الحكم السلوقي. ولكن وضعها الاقتصادي على كل حال كان جيداً. فقد كانت

---

(126) يرد ذكر هذه الشخصية مرة أخرى لاحقاً في فقرة: ـ نبذة مما قيل في حياة الأنطاكيين ـ.

أما الدراخما فكان بالأصل وحدة وزن يونانية عادلت حوالى 4,3 غرامات. ثم أصبح وحدة نقدية. وقد اختلفت قيمته الشرائية من زمن إلى آخر اختلافات كبيرة. ففي بعض الأحيان كانت قيمة 52 ليتراً من القمح تساوي دارخما واحداً. وكانت أحياناً قيمة الثور تساوي 5 دراخمات. وكانت أحياناً معيشة العائلة لمدة ثلاثة أيام يكفيها دراخما واحدأة. ومن هنا نرى أن مبلغ المليون دراخما كان ضخماً جداً. ولا تزال هذه الوحدة النقدية مستخدمة في اليونان حالياً. كما أنها دخلت قبل زمن طويل في الاستخدام العربي بلفظة درهم. وما زال الدرهم متداولاً في بعض البلدان العربية.

الإمكانات متوفرة لديها للحصول على الرخص الرسمية الضرورية للتعهدات والأعمال التجارية كافة بسهولة بالغة، لأن جهاز الموظفين بكامله تقريباً كان من أفراد هذه الطبقة. وعلى العموم كانت مكاسبها المالية جيدة. يدل على ذلك أن البعض كانت أموالهم تقدر بألفي طالن[127]. وهو مبلغ ضخم، إلا أنه لم يكن حالة نادرة.

من خلال هذه المعلومات نستنتج أن الاقتصاد المالي (أو السيولة النقدية) كان عادياً وأن الأغنياء كان لهم نفوذ في الحكم وأنهم بالاشتراك مع الملوك والطبقة الوسطى الميسورة شكلوا الأساس الذي قام عليه ازدهار المدن السورية.

الاقتصاد الزراعي

كان الإنتاج الزراعي والحيواني من المصادر الأساسية للثروة إلى جانب الصناعة والتعدين والتجارة والأعمال المصرفية. واعتبر السلوقيون الزراعة حجر الأساس في اقتصاد الدولة. ولما كان نصيب الدولة من التجارة أكبر بكثير فإن اهتمامها بالزراعة كان يهدف بالدرجة الأولى لتأمين احتياجات السكان الأساسية والحيلولة دون حصول نقص يؤدي إلى الإضطرابات. وقد وجهت عناية لصيانة شبكات الري وتوسيعها. وجرت محاولات لنقل بعض النباتات من منطقة لأخرى. وأنشئت لأجل ذلك حقول خاصة للتجارب. ويذكر «پلينيوس» أن سلوقس حاول أقلمة بعض أشجار الفواكه الهندية في سوريا دون أن تنجح محاولته. إلا أن السلوقيين كان اهتمامهم كبيراً برفع نسبة الغلال وتحسين المحاصيل عن طريق تحسين التربة وتقديم البذور المحسنة وأدوات العمل الزراعي المتطورة. وقد تركت عادة تبوير الأرض من حين إلى آخرى فصارت تزرع سنوياً بالقمح والترمس بالتناوب ـ أي ما يدعى الدورة الزراعية ـ وكان الجيش السلوقي، خصوصاً فرق الفرسان، المستهلك الأكبر لمنتجات الفلاحين وبأسعار مناسبة، وبذلك لم يكن تصريف الإنتاج يعتبر مشكلة لديهم. ونشطت زراعة القنب والكتان بشكل ممتاز نتيجة للطلب المتزايد في مختلف بلدان العالم على هذه المواد التي نالت شهرة عالمية. كما أنتج الزعفران بكثرة لاحتياجه في إنتاج الصباغ وفي المطابخ. وجرت تحسينات على منتجات الأشجار من الفواكه ومن العفص حتى تفوقت من حيث الجودة على منتجات مصر وآسيا الصغرى.

---

(127) ارجع إلى تعريف الطالن في الحاشية رقم (5).

كما وجهت عناية كبيرة إلى الإنتاج الحيواني وخصوصاً الأبقار والخيول. ويرد في بعض الوثائق أن المشتري كان له الحق في أن يختبر لمدة أسبوع كامل مقدار إنتاج البقرة اليومي من الحليب.

وكان للدولة خبراء مزودون بتفاويض خاصة للتجول والترحال هنا وهناك وتقديم كل ما يحتاج الفلاحون من إرشادات وتوجيهات وأدوات عمل وغيرها ابتداءً بأعمال البذار والغراس وانتهاءً بجني الغلال والتخزين.

الإنتاج الصناعي وتطوره

لم تترك لنا المصادر السلوقية تفاصيل دقيقة تمكننا من الإحاطة بكل التجديدات والتحسينات في مجال الإنتاج الصناعي. ولكن من المعروف أنه تم إحراز خطوات هامة من التقدم في مختلف المجالات. فقد قامت الصناعة بخطوة كبيرة من مؤسسات الحرف اليدوية البسيطة والمنزلية إلى مؤسسات ما قبل النهضة الصناعية ووصل الإنتاج إلى درجة عالية من التنظيم. حتى أن بعض الباحثين يعتقد أن سوريا في ذلك الوقت قد عرفت بداية مرحلة الإنتاج بالجملة.

في ذلك الوقت تم ابتكار النول العمودي بدلاً من النول الأفقي الذي مضى على استخدامه آلاف السنين. وكانت لذلك أهمية كبيرة. ووصلت صناعة الغزل والنسيج إلى درجة عالية من الإتقان وحققت باستمرار أرباحاً كبيرة. وكان يتم بشكل أساسي تصنيع الصوف والقطن والكتان. وظهرت طرق متطورة في عمليات الصباغة والتبييض والتلبيد. والمعتقد أن التحفظ والحرص على كتمان الأسرار الصناعية كان شديداً. وتم التوصل من خلال التجارب إلى إمكانية تقليد أنسجة الأرجوان الثمينة، الأمر الذي كانت تخشاه مدن الساحل المعروفة باحتكارها للأرجوان منذ حقب طويلة.

ونتيجة لاستمرار التجارب أيضاً تم التوصل لإنتاج الزجاج الملون الذي وجد تصريفاً مدهشاً وسريعاً لأنه كان مرغوباً حتى عند أبسط الناس.

إلا أن ما يعتبر أهم خطوة مبدعة في ذلك العصر هو طريقة النفخ في صناعة الزجاج، التي تفتقت عنها مواهب الإنسان في مدينة صيدا. وقد كان ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد على الأرجح، إن لم يكن بعد ذلك بقليل. ذلك الابتكار الذي قلب طريقة صنع الزجاج رأساً على عقب، واعتبر ثورة في إنتاج هذه المادة. فأصبحت بذلك

المنتجات الزجاجية رخيصة وبالتالي سلعة يمكن لأكثر الناس الحصول عليها.

وقد انتشرت هذه المعرفة الجديدة بسرعة. وافتتحت الشركات السورية ورشات لها في بلدان مختلفة من أوربا. وكان أشهر منتجي الزجاج في القرن الأول قبل الميلاد هو شخص من صيدا يدعى «إنيون Ennion» - وربما بالأصل «عنيون» - افتتح ورشة كبيرة للانتاج عند مدينة روما، ووجدت أواني زجاجية كثيرة تحمل اسمه في مختلف البلدان الأوربية وجنوبي روسيا ومصر وقبرص، يعتقد أن مصدرها كلها تلك الورشة التي أدارها عند روما. كما توجد دلائل تشير إلى أن منتجاً آخر للزجاج من صيدا أيضاً وصل أبعد من ذلك بتأسيسه ورشة على الراين في كولونيا غربي ألمانيا. لقد حققت الصناعة باستمرار خطوات كبيرة من التقدم وزودت الأسواق بسلع ممتازة. ويمكن القول بشكل عام إن المؤسسات الحرفية قد وصلت إلى درجة من الإتساع والتطور لم تعهدها من قبل.

ومن القطاعات الكبيرة جداً في الصناعة كان قطاع صناعة العطور ومواد التجميل التي صُدِّرت إلى كل بلدان العالم المعروف. ولا تقل عنها في الأهمية صناعة المعادن وبالدرجة الأولى الحديد. وبشكل رئيسي تركزت في أنطاكية صناعة الفضة والذهب لإنتاج الحلي والأواني المنزلية.

وكان كل الناس على السواء بحاجة إلى المصنوعات النحاسية. إلا أنه كانت للحديد الأهمية الكبرى. فمنه كانت أدوات العمل الزراعي والأعمال الأخرى والكثير من الأدوات المنزلية ولوازم صناعة السفن وتجهيزاتها والأسلحة. ومقابل ذلك تضاءل استخدام الخشب. كان أكبر مستهلك للصناعة هو الجيش. وكل الدلائل تشير إلى أنه قد وجدت معامل للأسلحة تابعة للدولة في كل من أنطاكية ودمشق وأوديسّا. وكان الفنيون العاملون فيها بمثابة موظفين رسميين عند الدولة برواتب ممتازة.

واستناداً إلى وصف «أپيان Appian» المؤرخ اليوناني من القرن الثاني الميلادي كانت للمعامل مساحة كبيرة.

المناجم

على الرغم من أن النصوص المتوفرة عن الفترة السلوقية لا تقدم معلومات كافية وواضحة عن المناجم، فما لا شك فيه أن الملوك السلوقيين أعاروها اهتماماً كبيراً نظراً لازدياد الحاجة إلى المعادن بأنواعها.

كان مما أثار قلق السلوقيين أن مناجم الذهب أخذت تنضب شيئاً فشيئاً، بعدما كدسوا في خزينة الدولة كثيراً من سبائك الذهب والفضة. فذهب آسيا الصغرى كان قد نضب وأصبح في ذمة الماضي. والذهب الذي كان مكدساً في خزينة الدولة الفارسية، والذي استولى عليه الاسكندر الكبير، ووزعه وأنفقه بسخاء كبير، كان مصدره مناطق سيبيريا، ولكن منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد كانت هجرات الشعوب الآسيوية قد سدت طرق الذهب السيبيري، ولم يبق إلا ذهب غربي آسيا الذي كان يأتي بكميات شحيحة. ولكن بالمقابل يبدو أن الحاجة الكبيرة إلى الفضة لضرب النقود وصناعة الحلي كان يتم سدها بصورة كافية.

أما النحاس فقد كانت جزيرة قبرص تملك منه كميات تؤهلها لأن تجعل منه احتكاراً يخدم مصالحها بصورة ممتازة. فعند ازدياد الطلب عليه كانت الجزيرة ترفع الأسعار وترفض التفاوض حول ذلك بشكل قاطع وتوقف التصدير حالاً حتى تسلّم شركات الاستيراد السلوقية بالأسعار الجديدة وتوافق فوق ذلك على الشروط التي كانت تنص على دفع القيمة مباشرة عند استلام النحاس في الميناء القبرصي. وكانت الشركات السلوقية مضطرة على الرغم من ذلك للإعتماد على نحاس قبرص إذ أنه لم يكن هناك من طريق آخر سوى تلك المناطق الجبلية الوعرة النائية في شرقي آسيا الصغرى.

وقد سهل كثيراً هذه الصعوبات استخدام الحديد في مختلف مجالات الحياة ووجوده بكثرة في العديد من المناطق. واعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد أخذ الفرتيون يطرحون في الأسواق كميات إضافية من الحديد أخذوا لأول مرة يحصلون عليها من الصين عن طريق مرو عاصمة خراسان.

أما العمل في المناجم فكان يقوم به العبيد والمجرمون. ولم يكن أحد من الناس غيرهم يقبل بممارسة هذا العمل. وكان ذلك ولم يزل يعتبر نقطة سوداء في تاريخ الحقبة الهلنية. فقد كتب سترابون مذكرات مرعبة عن حالات الموت في مناجم الفضة الخانقة في آسيا الصغرى.

ولكن يبدو أن عمل المناجم عند بطالمة مصر كان أقسى بكثير استناداً إلى وصف أحد معاصري تلك الفترة من اليونان وهو «أغاترخيدس Agatharchides» الذي يقول:

= . .كان بطالمة مصر يشغلون في مناجم الذهب التي يديرونها في منطقة النوبة ليس فقط العبيد والمجرمين المعاقبين بل وأسرى الحروب أيضاً فالشباب منهم كانوا يحملون المصابيح ويزحفون على ركبهم وهم يشقون السراديب الضيقة بأيديهم ويمعاول بدائية في الكتل القاسية متتبعين عروق الذهب فيها. . ثم يسحب الأطفال الكتل المكسرة خارج السراديب ويقوم الكبار في السن من الرجال بتكسيرها بالمطارق. ويجري بعد ذلك طحن هذه الكتل المكسرة قبل غسلها، وذلك بواسطة رحى حجرية ضخمة لا يستخدمون في إدارتها الثيران بل النساء. وعلى كل خشبة كانت تقيد ثلاث نساء بالسلاسل تعمل على إدارة الرحى باستمرار، وقد وقف حارس نوبي مسلح يجلدهن بالسوط كلما وهنت قواهن. وكانت تلك النساء تعمل طوال النهار دون راحة. ويلاحظ الإنسان أن كل واحدة منهن كانت تشعر بالسعادة والإرتياح عندما تحس بدبيب الموت. . .=

التجارة والتجار

في العهد السلوقي كانت التجارة تعتبر بالأساس حرة. إلا أن الرغبة المستمرة عند الدولة في تطبيق سياستها الرامية إلى تأمين احتياجاتها بنفسها قدر الإمكان كانت تعرقل إلى حدٍ ما هذه الحرية التجارية وتضع لها حدوداً بين الحين والآخر. وطالما أن الدولة كانت تعتقد أن الاقتصاد المنظم بشكل قوي يمكن أن يدعم أهدافها السياسية فقد طبقت سياسة الحماية الجمركية وفي بعض الأحيان الحد من الاستيراد والتصدير أو إيقافهما وفرض الرقابة على العملات. إلا أن هذه الإجراءات كلها لم تكن تستمر طويلاً إلا في حالات نادرة، خصوصاً وأنه ثبت للدولة أن التجار سرعان ما يجدون الثغرات في الأنظمة التي تضعها ومختلف أساليب الالتفاف على التعليمات. فأصحاب التجارة كانوا في كل زمان ومكان يعرفون كيف يتعاملون مع ظروف الساعة. ولم يحدث مرة أن التجارة توقفت تماماً. وقد رأينا ذلك في الحديث عن تجارات البابليين والآشوريين سابقاً. يبقى أن ما تتعذر معرفته بدقة هو طبيعة تنظيم التجارة وخفايا هذا التنظيم الذي كان دون شك على درجة ممتازة. وأكثر ما تجلى ذلك في دقة نظام القوافل التي هي

أساس كل شيء. وكان قائد القافلة الذي يسيطر عليها طوال الطريق بصلاحيات مطلقة ويقودها من محطة إلى أخرى، كان رجلاً متميزاً بالكفاءة والمقدرة حاز على ثقة أصحاب المؤسسات التجارية والمصرفية الذين كانوا يتكتلون ليتحملوا معاً أعباء تلك المغامرات المالية الكبيرة. وكانوا عدا عن ذلك يتضامنون مع مؤسسات مالية أخرى ومع مؤسسات تأمين على أساس المعاملة بالمثل.

وكان الذين لعبوا دوراً هاماً بالنسبة لهذه الأرستقراطية المالية والتجارية هم الصيارفة الذين ما زلنا نراهم اليوم في مختلف البلدان يتداولون كل عملات العالم. ثم مقرضو الأموال الذين كانوا بمثابة البنوك بالنسبة إلى عامة الناس.

كانت المؤسسات المصرفية في مصر ملكاً لدولة البطالمة. أما في سوريا السلوقية فكانت أملاكاً خاصة. وأما عن بنوك المعابد البابلية القديمة فلا توجد تفاصيل واضحة. إلا أن بعض الدلائل تشير إلى أنه دخل فيها مساهمون يونان ودلائل أخرى تبين أنها غيرت أسماءها القديمة إلى أسماء يونانية. وبصورة عامة كانت البنوك منظمة إلى درجة ممتازة وراقية. وكانت لها علاقات وثيقة ببقية المؤسسات المالية في عالم ذلك الزمن.

والفوائد كانت تتأثر بالأحوال السياسية والاقتصادية وتخضع إلى حالة العرض والطلب. ففي الأحوال العادية تراوحت الفائدة السنوية بين 8 و10 بالمئة. أما في أوقات الأزمات والمخاوف والأخطار فكانت تصل حتى 15 وربما حتى 20 بالمئة.

وكان الإقبال على تداول العملة المسكوكة أكبر منه في السبائك. وكانت العملة الفضية والنحاسية أكثر رواجاً من الذهبية. وبشكل عام كان العالم القديم مقسوماً من حيث العملة الأساسية المتداولة إلى منطقتين: فالاسكندر كان قد أوجد «الدراخما الأتيكية» التي عم تداولها عدا عن اليونان في المملكة السلوقية وآسيا الصغرى والبلدان الشرقية حتى الهند. ثم الدراخما التي أوجدها بطالمة مصر وانتشر تداولها في قرطاجة ورودس ومرسيليا وسيراكوزه. ولكن كان كلاهما متداولاً في التجارة العالمية.

تميز التجار السوريون بمن فيهم الأنباط وتجار المدن الساحلية الفينيقية في العالم القديم كله بكونهم مهرة ومرهوبي الجانب. ولم يتوفر عند غيرهم من أهل العالم القديم ذلك الإقدام وقوة الحدس والحذق والمكر.

شهدت تجارة العصر السلوقي تنوعاً كبيراً في البضائع وبالتالي أرباحاً ضخمة. بالنسبة للمواد الغذائية احتلت الحبوب المقام الأول. ومن غير المعروف عن تلك الفترة

إن كان قد وجد تنافس بين بلاد الرافدين ومصر بالنسبة لهذه المادة وأين كان يذهب الفائض الكبير الذي تنتجه بلاد الرافدين. وهناك احتمالات عدة في تصريفه: فإما أن يكون محصلو الضرائب هم الوسيلة لذلك، أو أن الدولة كانت تشتريه لتوزعه على المحتاجين من السكان، أو كان يتم بيعه في مناطق المرتفعات الإيرانية المعروفة بقلة مواردها الغذائية.

وأفضل أنواع الخمور هي التي كانت تنتجها بلاد الشام، حيث كانت كروم العنب فيها قدر من الأرباح خمسة أضعاف ما يأتي من حقول الحبوب التي تناقصت لهذا السبب سنة بعد أخرى. كما كانت تنتج زيت الطعام من الأنواع الجيدة. واشتهرت مرتفعات طوروس بانتاج أفضل أنواع الجبن. واشتهرت أنطاكية بإنتاج التين المجفف الفاخر وبيروت بالعنب الطيب ودمشق بالخوخ الممتاز. وأصبح جنوب سوريا أكبر منافس للاسكندرية بالمنتجات الكتانية. كما وجدت في بلاد الشام صناعة للأصواف نافست تلك التي في آسيا الصغرى. واحتلت آشور مرتبة ممتازة في تصنيع القطن.

وكانت تأتي أوراق البردي (البابيروس) من الاسكندرية والزجاج من صيدا والأسفلت من بابل على الفرات والأخشاب من جبال آسيا الصغرى. وفي مدن الساحل السوري كانت تنتج الجلود الجيدة. وصدرت الهند الشاش والخشب الطيب الرائحة وخيوط القطن والعاج الذي احتكر استيراده الملوك السلوقيون وعاد عليهم بأرباح خيالية حتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عندما أخذ بطالمة مصر يطرحون في أسواق العالم كميات كبيرة من العاج الأفريقي مما ضيع على السلوقيين الأرباح الكبيرة من هذه المادة. ومن الهند أيضاً كان يأتي الياقوت الأحمر ومن أفغانستان اللازورد ومن البحر الأحمر الياقوت الأصفر ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ. ومن أهم المواد التجارية وأوسعها انتشاراً كانت التوابل الهندية وبخور جنوب الجزيرة العربية، حيث فاقت بأرباحها كل مادة تجارية أخرى. وقد احتلت مدينة الاسكندرية موقعاً مركزياً في هذه التجارة وكانت مخازن التصدير إلى العالم في رودس. كما أن المعامل الملكية كانت تنتج العطور ومواد التجميل والمراهم التي صدرت إلى كل مناطق العالم المعروف في ذلك العصر. ومن الهند كانت تأتي القرفة المرغوبة في كل العالم. ومن هيمالايا زيت الخزامى. ومن آسيا الصغرى الصمغ. وقد استأثرت أريحا في غور الأردن بانتاج البلسم حيث اقتصرت زراعة هذه النبتة على حدائق خاصة. ويعتبر من مهازل السياسة ما فعله الأمبراطور الروماني ماركوس أنطونيوس في زمن لاحق عندما قدم منطقة أريحا مع قسم كبير من

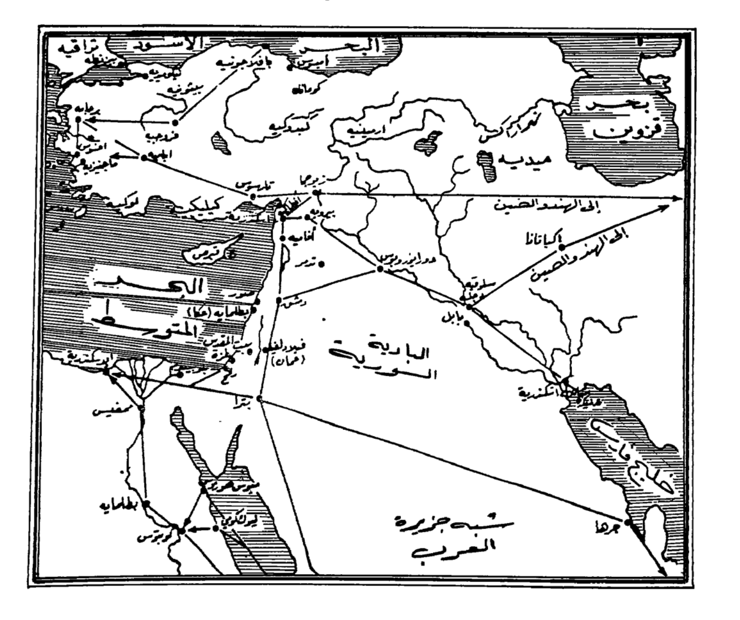
سوريا المجوفة والساحلية بمثابة «هدية» إلى عشيقته كليوباترا.

وقد ظهرت تجارة الحرير بعدما بدأ ملوك الصين بإقامة علاقات وثيقة والاهتمام بالتجارة وفتح الطرق مع الغرب. والمعتقد أن ذلك ابتدأ حوالى سنة 115 قبل الميلاد. وكان أن حقق الفرتيون فائدة كبرى من الحرير الذي احتل بسرعة مكاناً مرموقاً في الأزياء، لأنهم كانوا مسيطرين على الطريقين القاريين القادمين من الشرق الآسيوي، ويحددون رسوم الترانزيت التي تلائمهم. وكان الحرير يصل إلى سلوقية دجلة حيث ينتقل من تاجر إلى آخر. وقد أصبح إحدى أكبر التجارات في العالم القديم. ففي روما تعالت أصوات التذمر للأموال التي تبذل من أجل هذا النسيج المترف الذي تبدو فيه النساء وكأنهن عاريات على حد تعبير كل من بلينيوس وسينيكا. ومن الطريف في هذا الصدد أن مجلس بلدية إحدى المدن اليونانية أصدر تشريعاً في سنة 91 قبل الميلاد يقضي بمنع النساء من ارتداء الألبسة الحريرية الخالية من الحشمة أثناء الذهاب إلى المعابد. وقد استجابت النساء لذلك على مضض معتبرات أنه تصرف عتيق باطل.

وكما هي العادة كانت التجارة تتلاءم مع الأعراف والتقاليد والطلب. وبهذا الخصوص لم يحاول السلوقيون وضع العراقيل في طريقها لأنها ساهمت إلى درجة كبيرة في رخاء دولتهم، وفي ازدهار المدن. وسلوقية التي كانت أهم مدينة تجارية بين قارتين ونقطة تقاطع لأهم الطرق وصل عدد سكانها في أوج ازدهارها حتى ستمائة ألف. ففيها كان يتم تفريغ وشحن البضائع القادمة من الشرق إلى الغرب وبالعكس، كالرصاص والنحاس والزجاج وأواني القصدير وحتى العملات الذهبية. ولأول مرة أصبحت التجارة تعتبر عالمية بالمعنى الواسع.

ثم أن تداعي الأمبراطورية السلوقية في الهلال الخصيب وإغلاق الطرق الآسيوية والفوضى السياسية أدت كلها إلى هزة عنيفة. ومع ذلك فإن تطور التجارة السورية إلى تجارة عالمية لم يتوقف، وكل ما حصل هو تحول مراكز الثقل. فسلوقية دجلة لاقت المصير نفسه الذي لاقته من قبلها أور وأوروك وبابل وآشور وبعدها بترا وتدمر، وأصبحت في ذمة التاريخ.

الطرق التجاريه الرئيسيه في العصر الهلنستي



طرق المواصلات

أبقى السلوقيون على شبكة المواصلات التي كان قد أنشأها ملوك الأخمينيين ووسعها الاسكندر. كان أحد هذه الطرق، والمسمى «طريق الملك»[128] يبدأ من ميناء «إفسوس Ephesus» على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ماراً بمدينة «ساردس Sardes» الليدية ومتجهاً شرقاً حتى يصل إلى أعالي الفرات عند ملاطيه. ومن هناك يصل إلى نصيبين، ثم يعبر مخاضة على نهر دجلة عند الموصل حتى ينتهي في كل من إكبتانا (همذان) وسوسة في جنوب إيران (عاصمة عيلام قديماً). وطريق الملك هذا كان يتممّه طريقان آخران في الشمال السوري، أحدهما يمر في أوديسّا (أورفه اليوم) والثاني يمر في سهول الجزيرة إلى حران وأراضي الخابور، ثم يعبر الإثنان نهر دجلة في المناطق السهلية ويلتقيان مع طريق التجارة الآشوري القديم الذي كان يعبر دجلة عند مدينة آشور. ومن هذه الطرق الثلاثة كانت تتفرع طرق عرضانية في اتجاهات مختلفة تعبر الفرات على جسور متعددة إلى مدن سميساط وكركميش (جرابلس) ومنبج[129]. وكانت طرق متعددة أيضاً تصل مناطق الفرات الأعلى والأوسط بساحل البحر المتوسط.

ويمكن القول إنه قد وجدت شبكة مواصلات بكل معنى الكلمة بين كل من سلوقية على دجلة وحطرا[130] ونصيبين وأورفه (أوديسّا) وأنطاكية وسلوقية الغربية على مصب العاصي. ويتمم هذه الشبكة الطريق الذي كان يمتد من الشمال إلى الجنوب في منخفض العاصي ماراً بحلب وأفاميه ودمشق ويربط أنطاكية بفلسطين ويصل إلى مصر.

كانت النقطة الأساسية، أو ملتقى هذه الطرق مدينة سلوقية على دجلة، حيث كان ينتهي إليها الطريقان القاريان الكبيران الآتيان من الشرق الآسيوي والطريق القادم من الخليج الفارسي باتجاه الشمال. وتنطلق منها الطرق المتجهة إلى الشمال والغرب. كان السلوقيون في إدارتهم للمواصلات يأخذون في اعتبارهم شيئاً أساسياً، هو توجيه التجارة في مناطق تقع خارج نفوذ المصريين الذين كانوا على نزاع شبه دائم معهم من أجل

---

(128) ارجع إلى فقرة ـ الأحوال العامة بين أواخر السيطرة الفارسية وبداية العصر اليوناني ـ حيث ورد ذكر هذا الطريق البالغ طوله 2700 كيلومتراً مع عدد كبير من المحطات البريدية.

(129) دعاها اليونان «هيرابوليس Hierapolis» وتعني: المدينة المقدسة. وكانت مدينة أخرى في فريجيا بآسيا الصغرى تحمل هذا الإسم.

(130) موقعها إلى الغرب من آشور. وقد جرت فيها تحريات أثرية اعتباراً من العقد الأول من هذا القرن. انظر بهذا الصدد: B.Hrouda: Vorderasien I,p. 294-295.



القطعة المتبقية عند كفركرمين (غربي حلب) من طريق يعود للعصر الروماني كان يصل مدينتي أنطاكية وقنسرين. وطول هذه القطعة المتبقية حوالي 1200 متراً. أما عرض الطريق فكان حوالي 6,50 متراً. وقطع الحجارة المرصوفة تبلغ أبعادها 1,25 × 0,80 متراً.

السيطرة على فلسطين والمدن الساحلية الجنوبية.

بعض هذه الطرق المذكورة كان قد أصبح قديماً جداً. والبعض لا يتعدى كونه مسالك ترابية داستها الأرجل. وقد وجه السلوقيون اهتماماً لإصلاحها وجعل حركة البضائع أسهل وأسرع. فقاموا بترميم بعضها، حتى أنهم في شمالي سوريا رصفوا بعضها بحجارة البازلت، لتكون مقاومة لعوامل الطبيعة. وبعض هذه الطرق قامت بتجديده وتحسينه فيما بعد الحاميات الرومانية. ولا تزال أجزاء منها ظاهرة للعيان حتى يومنا هذا.

وأغلب هذه الطرق كان جيداً في ذلك العصر. فقد كانت القافلة تستغرق ما بين

سلوقية دجلة وأنطاكية من ثمانية حتى تسعة أسابيع. وكان يمشي الرجل عليها بمعدل ثلاثين كيلومتراً في اليوم. وأما الفارس فكان يقطع ضعف هذه المسافة. إلا أن نقل البريد كان بالطبع أسرع بكثير (ارجع إلى فقرة الأحوال العامة بين أواخر السيطرة الفارسية وبداية العصر اليوناني). وكان وقت النهار للرحلات، أما الليل فكانوا يقضونه في محطات القوافل.

بذل السلوقيون جهوداً كبيرة لضمان أمن الطرق، وقاموا بإنشاء المعاقل المحصنة في المواقع الحدودية المعرضة للخطر والأماكن التي لا يحيط بها النظر جيداً ومعابر الأنهار والنقاط المهمة عسكرياً، وبشكل خاص في مناطق الفرات الأعلى. ومن أهم هذه المواقع على الفرات كانت كركميش (جرابلس) ودورا أوروبوس (الصالحية)، موضوع الفقرة التالية.

دورا أوروبوس

تقع على الجانب الأيمن من وادي الفرات الأوسط ما بين دير الزور والبوكمال فوق مرتفع صخري مشرف على الفرات يحيط به واديان يكسبانه منعة طبيعية.

في سنة 300 قبل الميلاد أسس الحاكم السلوقي لسوريا الشرقية «نيكاتور Nikator» بتكليف من سلوقس الأول نيكاتور حصناً في ذلك المكان، سرعان ما تحول إلى مركز تجاري ومدينة صغيرة.

كان الموقع معروفاً منذ زمن طويل باسم «دورا»[131] فأضاف إليه «أوروبوس Europos» وهو اسم المدينة المكدونية التي ولد فيها ملكه سلوقس الأول.

بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد احتلها الفرتيون عندما سيطروا على منطقة الرافدين. وفيما بعد استرجعها الرومان وأدخلوها ضمن مقاطعة سوريا الرومانية. وكانت

---

(131) والتسمية أصلها في الأكادية «دورو» أو «دور» بمعنى الجدار أو التسوير. والأصح هنا: التحصينة. وقد أنشأ عدد من ملوك دول الرافدين خلال حقب مختلفة اعتباراً من العصر البابلي القديم ثم العصر الآشوري الجديد مواقع دعيت «دور» كان بعضها أحياناً بمثابة مقر للحكم. من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر: «دور شولجي» في أقصى الجنوب السومري عند ساحل الخليج. ثم «دور سمسويلونا» التي أسسها سمسويلونا بن حمورابي وخليفته في منطقة نهر ديالى. ثم «دور كوريجالزو» مقر حكم الملوك الكاشيين شمالي بابل. و«دور شلمانصر» ثم «دور شروكين» مقر حكم سرجون الثاني. هذا وقد ورد ذكر أغلبها في فصول سابقة.

في سنة 167 ميلادية مقراً لحامية رومانية. وبعد ذلك بحوالى مئة سنة حاصرها ملك الفرس الساسانيين أردشير. وبعده احتلها شابور الأول.

ولم تطل كثيراً سيطرة الفرس عليها حتى تخلوا عنها لسيطرة رمال البادية. وقد توقف عند خرائبها الأمبراطور الروماني جوليان في سنة 363 ميلادية أثناء حملته العسكرية ضد شابور الثاني. وفي العهد العربي أعطي الموقع اسم «الصالحية».

خلال هذه الفترات المتعاقبة استوطن دورا عدا عن السكان المحليين مكدونيون وفرتيون ورومان. وبقيت مدينة صغيرة متميزة اعتبرت حامية حدودية على طرف ثقافتين مختلفتين هما الهلنستية والفرتية.

وقد جرت في دورا حفريات خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن كشفت عن بعض ما حفظته الرمال مثل بعض الحجارة المنحوتة والفخار والمصنوعات الخشبية وبقايا منسوجات ونصوص مكتوبة على أوراق البردي (البابيروس) وعلى الجدران. تقع القلعة على حافة منحدر صعب. ولها موقع مسيطر بشكل واضح. وأقدم أجزائها يعود إلى بداية عهد السلوقيين. وقد زاد في البناء حولها السلوقيون والفرتيون. وهناك أجزاء تساقطت في الفرات منذ عهد بعيد.

وكان الموقع يسيطر على طريقي الفرات الرئيسيين: الطريق الذي يماشي وادي الفرات، والآخر الذي يصل الفرات بتدمر.

وقد كشفت الحفريات عن بقايا معبد لـ «أرتميس» التي تقابل الإلهة البابلية «نانايا». كما وجدت بقايا معبد للإله التدمري «عثرعثه». وبقايا كنيسة صغيرة ملونة، يقدر أن بناءها يعود إلى ما بين 232 و 240 ميلادية. وتعتبر أقدم بقايا كنيسة اكتشفت حتى الآن.

كانت دورا بلدة مختلطة، فهي مركز قوافل وحصن ومقر حامية في آن. ووجد فيها من الرسوم الجدارية مشاهد عدة بعضها دينية وبعضها عسكرية. وعلى الرقّ رسوم غيرها تصور بعض ملوك الفرتيين والحكام والأمراء. ومن أهم الكتابات المكتشفة نص وثيقة مداينة تشبه في شروطها ما كان معروفاً في وثائق الديون البابلية. وفي تلك البلدة وجد جيل من مواليد أولئك المستوطنين المكدونيين الأوائل وعاش بسلام مع السكان الأصليين واحتفظ بالأسماء والتقاليد القديمة. وقد أصبح من هؤلاء المكدونيين ملاك أراضٍ ومنهم من استفاد من تجارة القوافل. وكان لباسهم جيداً وتزينت نساؤهم بالحلي الفاخرة. وعلى الرغم من أنهم احتفظوا باللغة اليونانية فقد أصبحوا في عداد السكان

المحليين. كما كانت نساؤهم من بين السكان السوريين. وقدسوا كغيرهم خليط الآلهة من بابلية وفرثية وفارسية وأعطوها أسماء يونانية. والمرجح أنه كان لهم نوع من الإدارة الذاتية المحدودة فيما يتعلق بشؤون جمعيتهم وكان يسهر علي حمايتها حاكم البلدة. ويبدو أن التعايش بينهم وبين السكان السوريين اتسم بالبساطة والمرونة. وبعدما صارت سوريا ولاية رومانية لم يتردد هؤلاء في إضافة بعض الأسماء الرومانية مثل «سيفيروس» أو «سبتيميوس» و «أوريليوس» إلى أسمائهم الأصلية اليونانية أو السورية كما كان يحدث في تدمر. ولم يلاقوا صعوبة في العيش بظل القوانين الرومانية.

عندما شلت حركة القوافل التجارية عبر دورا بسبب الاضطرابات والحروب في بداية القرن الثالث الميلادي اضطر أهلها للاكتفاء بإدارة الأملاك التي كانت لديهم واقتراض الأموال. وشغلوا وقتهم بالتنجيم، الذي يبدو أنه كان أحب شيء عندهم لملء الوقت. وقد وجدت دلائل واضحة على ذلك. ولما كان الورق غير متوفر لديهم فقد كتبوا كل هذه الأشياء من قراءة الطالع والحسابات والاتفاقات على الجدران البيضاء بمنازلهم التي بقي بعضها ظاهراً للعيان حتى عصرنا هذا.

وحتى بعد توقف القوافل التجارية كان بعض الرحالة يأتون إلى دورا. فقد وجدت على جدران بعض الغرف أسماء أشخاص مع عبارات توضح من أين أتى أصحابها وإلى أين يقصدون. وقد جرت العادة أن يقف حارس على بوابة البلدة كان قد ورث هذه الوظيفة، ومهمته تحصيل رسوم على الدخول. ثم يجب المرور بعدها على رجال الشرطة الذين يحصلون أيضاً كما يفعل بواب البلدة.

وكان الكاتب اليوناني «فيلوستراتوس Philostratus» ما بين القرنين الثاني والثالث الميلادي قد ترك في كتاباته وصفاً لهم وللرشوة التي يتناولونها والمضايقات التي يتحملها الرحالة الآتون إلى دوراً قبل أن يسمح لهم أخيراً بدخول البلدة التي تثقلهم خانات المبيت فيها بالمدفوعات أيضاً.

هذا وإن معظم ما تم إيجاده في دورا كان قد حفظ في متحف دمشق. ومن الواضح من خلال المكتشفات أن الرسامين كانت لهم أهمية في دورا. وقد تركوا أسماءهم على الرسوم التي عملوها.



بعض من آثار بلدة دورا أوروبوس – (الصالحية) على الفرات –





بعض من آثار بلدة دورا أوروبوس ـ (الصالحية) على الفرات ـ

وادي الفرات

في بعض الفترات التاريخية لعب نهر الفرات دور الحد الفاصل بين طرفي الهلال الخصيب. إلا أنه خلال عصور القوة الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية أو البابلية الجديدة كان يصبح مجرد تيار مائي. ويعدها اعتبر في أكثر الأحيان حداً سياسياً بين السلوقيين ويعدهم الرومان خلال سيطرتهم على بلاد الشام وبين الفرتيين والفرس الذين سيطروا على بلاد الرافدين. وخلال هذه الفترة كلها، ما بين دخول الاسكندر الكبير ودخول الموجة العربية الإسلامية، أي حوالى تسعة قرون من الزمن، كان هذا الوادي يعتبر خطاً عسكرياً ساخناً شهد كثيراً من حملات الجيوش والقادة السائرين بمحاذاته إما إلى النصر أو إلى الهزيمة والموت. كانت المشكلة في الغرب دائماً هي كيفية حماية هذا الخط المائي الطويل. ولقد شغلت هذه المشكلة السلوقيين ثم الرومان قروناً عدة. وقد قاموا بتنظيم الخطة الدفاعية بما يتلاءم وطبيعة الأرض. فلم يكن هناك خط متواصل من الحواجز الدفاعية، بل معاقل محصنة في المواقع الاستراتيجية والنقاط التي اعتبروها هامة. مثل «زوغما» عند كركميش حيث يعبر الطريق الشمالي النهر، ثم قرقيسيا عند مصب الخابور في الفرات، ودورا أوروبوس موضوع الفقرة السابقة. وقد وجدت معاقل أخرى حصينة متعددة، إلا أن هذه الثلاثة كانت أهمها. وكانت على عاتق جنود الحاميات في هذه المعاقل مهمة أساسية هي الحرص على عدم تعرض قوافل التجارة لأية أضرار أو مخاطر. حيث إن التجارة كانت هي عماد الرفاهية في المدن مثل أنطاكية وغيرها. ولذا كانت هناك تعليمات دقيقة تقضي بأن سلسلة القوافل المتواصلة يجب الحفاظ على سيرها بانتظام، وإلا دب الجمود في التجارة، وأن تؤمن صيانة موارد المياه على الطرق ومحطات الاستراحة والمبيت للإنسان والحيوان على السواء وتزود بكل ما يمكن أن يحتاجه الرحالة أو القوافل.

وقد توفر في ذلك الزمن للرحالة وقادة القوافل نوع مما يدعى اليوم: دليل الرحلات، فيه توضيح عن طبيعة الطرق وأماكن التوقف، وحتى بعض المعلومات عن الأعراف والتقاليد عند السكان استناداً إلى مشاهدات شخصية. وكانت هذه المعلومات تقدم بلا شك خدمة جيدة للتجار في تخطيط رحلاتهم بشكل أكثر دقة. وغالباً ما كان لهذه الكتب أسلوب ممتع وجذاب.

أنطاكية كمدينة عالمية

عند المقارنة مع المدن السورية الأخرى نرى أن تاريخ مدينة أنطاكية قصير نسبياً. وقد شهد هذا التاريخ القصير تقلبات عديدة واختلاط ثقافات وفترات زمنية متألقة، ليس على مستوى سوريا فحسب، بل وعلى مستوى عالمي.

لقد تعاقب عليها في تاريخها القديم (الأسطوري) كل من الآلهة «زيوس ZEUS» و «أبولو APOLLO» و «أفروديت APHRODITE». ثم عرفت المسيحية والقديسين. وتطورت فيها الثقافة الهلنستية إلى مستوى مدهش. وتلاقت فيها الأعراف والتقاليد اليونانية مع السورية من أصول آرامية وكنعانية. وفيها لعبت بدايات تاريخ المسيحية دوراً هاماً.

وأهمية أنطاكية في تاريخ البشرية ما زالت حية حتى بعد اضمحلالها وتراجعها إلى بلدة عادية. عندما دخلت الموجة العربية ـ الإسلامية بلاد الشام في القرن السابع الميلادي هاجر كثيرون من سكان أنطاكية (وربما أغلبهم) إلى جهات أخرى من الدولة البيزنطية وإلى أوربا. وفقدت المدينة تلك الشهرة العالمية لتصبح مدينة بسيطة منعزلة محلياً. إلا أنها برزت مجدداً أثناء الحروب بين البيزنطيين من جهة والفرس أو العرب من جهة أخرى. ثم أثناء الحروب الصليبية مرة أخرى، لتعود بعد ذلك وتصبح أشبه بقرية كبيرة بين الآثار الواسعة القديمة، وذلك قروناً عدة. وحوالى أواسط القرن الحالي، وبعدما صارت المدينة تحت السيطرة التركية وتم تتريكها إلى حد كبير، بقيت بلدة عادية يغلب عليها طابع الإهمال. وكان لا يزال باقياً من آثارها بعض من السور القديم وقلعة من الفترة الصليبية وبقايا مجرى مائي مرفوع عل قناطر وأجزاء من أساس حلبة لسباق الخيل وصورة على الصخور متآكلة وجسر قديم. هذا كل شيء تقريباً مما يذكر بتلك المدينة التي كانت خلال العصر اليوناني والروماني واحدة من أشهر وأجمل مدن العالم على الإطلاق. والتي بلغ عدد سكانها خلال فترة ازدهارها نصف مليون نسمة. وكان شارعها الرئيسي تضيئه المصابيح عندما تظلم المدن الأخرى في الليل. وحتى أواخر القرن الثامن عشر كان منظر المدينة مختلفاً، وكان لا يزال فيها الكثير مما يشهد على عظمتها، وذلك قبل أن تعمل يد التخريب فيها وتلقي بحجارتها الجميلة وأعمدتها وتيجانها وتماثيلها في أتونات المكالس وتستخدم بقايا حجارة الآثار في بناء البيوت العادية.

هذا وإن ما كان باقياً في المدينة من أوابد حتى ذلك الوقت خلّده الرحّالة الفرنسي «Louis-François Cassas» في لوحة محفورة على النحاس، عندما زار أنطاكية سنة 1785م. وعلى كل حال فإن أنطاكية القديمة ما تزال خالدة في الآداب اليونانية واللاتينية والسريانية، حيث يمكن تتبع تاريخها. هذا وأن ما يوجد فيها من المرويات وتراجم السِيَر والأخبار التاريخية والقوانين والعقود والمراسلات والمراسيم الكنسية يتكون منه إطار عام للمدينة وحياتها. وقد قام اللغوي الألماني «كارل أوتفريد مللر Carl Otfried Mueller» بدراسة لآثار المدينة مستنداً إلى كل المصادر المعروفة عنها. ووضع في سنة 1839م. أول كتاب حديث وشامل عن المدينة ودعاه باللاتينية «Antiquitates Antiochiae»: تاريخ أنطاكية القديم.

لا شك أن المنطقة التي بنيت فيها أنطاكية كانت مأهولة بالسكان منذ حقب قديمة. وفي سهل العمق حيث قامت المدينة كانت تمر تلك الطرق التجارية القديمة التي ربطت آسيا الصغرى بمصر ومدن الرافدين وكل من حلب ودمشق، والتي شهدت على مر العصور حركة تجارية نشيطة. وقد شهد الميناء الموجود على مصب العاصي حركة تجارية بين الساحل والداخل. والمعتقد أنه قد وجد فيه نشاط للتجار اليونان منذ حوالى 2000 قبل الميلاد، قاموا بتجارة النحاس مع قبرص. وقد بقي ذلك الميناء حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. والأرجح أنه في ذلك الوقت قدم بعض اليونان للاستيطان في نواحي أنطاكية حيث أعجبهم المناخ وخصوبة الأرض ووجدوا الموقع مناسباً للحركة التجارية ومراقبة الطرق.

من المعتقد أن امتداد السيادة الآشورية على سوريا الغربية خلال القرن التاسع قبل الميلاد هو السبب الذي دفع بالمؤرخ الأنطاكي «ليبانيوس Libanius» ليذكر في تاريخه أن الملكة الآشورية سميراميس قد أقامت للإلهة «أرتميس» معبداً قريباً من أنطاكية. والأرجح هو أن المعبد بني للإلهة الآشورية «أنيتس» التي يساويها اليونان بإلهتهم «أرتميس». وأما «سميراميس» فهي الملكة التي عرفت في الوثائق الآشورية باسم «شمورامات» ما بين 844 و782 قبل الميلاد. ومن المعروف عنها أنها بعد موت زوجها حكمت باسم ابنها القاصر الذي عرف باسم «أدد نيراري الثالث». وقضت فترة طويلة من حياتها في سوريا الغربية. وإليها تنسب الحدائق المعلقة في بابل كما مر سابقاً. وأما أهل أنطاكية فكانت عندهم تصورات عن فترة ما قبل التاريخ الواضح لمدينتهم التي تعتبر بمثابة الأساطير. ويرويها كل من المؤرخين الأنطاكيين «ليبانيوس» و «ملالاس».

نبذة من أساطير أنطاكية

تقول إحدى هذه الأساطير أن الإله اليوناني «زيوس Zeus» كان قد وقع في حب «إيو Io» إبنة «إناخوس Inachos» ملك منطقة «أرغوليس Argolis». فقامت «هيرا Hera» زوجة «زيوس» الغيورة وأرغمت «إيو» على الفرار من وطنها. فهامت على وجهها، حتى وصلت أخيراً إلى جبل «سيلبيوس Silpius» الذي أصبح فيما بعد مكاناً مقدساً في أنطاكية، وماتت هناك. في تلك الأثناء أرسل والدها «إناخوس» جماعة للبحث عنها. فوصلوا في تجوالهم أيضاً إلى الجبل المسمى «سيلبيوس» ولم يعثروا على «إيو». غير أن الطبيعة هناك سحرتهم فأقاموا في المكان وأسسوا مدينة دعوها «إيو پوليس Iopolis» ـ أي مدينة إيو ـ. وقد وجدت في أحد بيوت دفنه، ضاحية أنطاكية الشهيرة، لوحة فسيفساء تمثل «إيو» يقوم على حراستها «أرغوس Argos».

وتضيف الأسطورة أن مستوطنين آخرين قدموا عندما قامت الآلهة بتحريض «كاسوس Kasos» ابن الملك «إناخوس». فاتجه أولاً إلى جزيرة كريت ومنها إلى ذلك الموقع الذي سمي فيما بعد أنطاكية. وقد استقبله الأرغوسيون جماعة والده بحماس ومودّة، فأسس على سفح الجبل مدينة سماها «كاسيوتس Kasiotis». وحسب رواية المؤرخ «ليبانيوس Libanius»[132] تزوج «كاسوس» من «أميكِه Amyke» ابنة الملك القبرصي «سلامينوس Salaminos». ويرد في رواية المؤرخ الآخر «ملآلاس Mallalas»[133] أن «أميكه» دفنت بعد موتها في مكان يبعد ثلاثين كيلومتراً عن مدينة «كاسيوتس»، ولذا دعي هذا المكان «أميكه». غير أن ما يدعو للاستغراب هنا هو وجود علاقة لغوية بين هذا الاسم اليوناني «أميكه Amyke» وبين «العمق» الاسم السوري المعروف منذ أزمنة قديمة جداً للسهل المحيط بأنطاكية. حيث أنه كان يلفظ باليونانية أيضاً: «Amyke». فإن لم يكن قد حصل التباس عند كاتب الأسطورة، فإنما يعني هذا التشابه بين الإسمين أن أميرة قبرصية قد أعطيت إسماً سورياً في ذلك الزمن الموغل في القدم.

---

(132) كان ليبانيوس واحداً من أشهر فصحاء أنطاكية وله وصف مفصل وجميل لتلك المدينة. وقد كانت حياته ما بين 314 و393 ميلادية. ويلاحظ أن لإسمه علاقة مع اسم لبنان.

(133) من مؤرخي القرن السادس الميلادي. عاصر واحداً من أعنف الزلازل التي أصابت أنطاكية في ذلك الوقت وكتب عنه. واسم «ملالا» ـ أضيفت إليه اللاحقة اليونانية S ـ هو آرامي يعني الخطيب أو الواعظ.

وتقول أسطورة أخرى أن «يوريستيوس Eurystheus» ملك «ميكينيا Mykenai» ـ إحدى مدن البيلوبونيز في اليونان ـ قد نفى أبناء «هيراكلس Herakles» فراحوا هائمين على وجوههم يبحثون عن وطن جديد في أوربا وآسيا حتى اهتدوا أخيراً إلى أرض أنطاكية وأسسوا مدينة «هيراكليا Herakleia» في ذلك الموقع الذي قامت فيه فيما بعد ضاحية دفنه.

ويذكر المؤرخ «ملالاس» بعد ذلك أن «برسيوس Perseus» الذي هو ابن «دانا» إبنة «أكريسيوس Akrisios» ملك «أرغوليس» قام بزيارة الأرغوسيين في مدينة «إيوبوليس» وأقام لهم معبداً باسم «زيوس» الإله الراعد. من خلال هذه الأساطير يستنتج أن موقع أنطاكية كانت فيه سابقاً ثلاث مستوطنات. إغريقية قديمة: الأولى هي «أيوبوليس» التي قامت فوقها أنطاكية وكانت فيها معابد عدة. والثانية «كاسيوتس». والثالثة «هيراكليا» الموقع القديم لضاحية دفنه. إن تأليف قصص من هذا النوع كان يرافق في كل زمان ومكان نشوء المدن القديمة. وكان الهدف منها إعطاء طابع الأهمية لأصل المدينة وسكانها بربط هذا الأصل بالآلهة والأشخاص الأسطوريين. ومن المعروف أن شهرة النسب كان لها دور هام في كل الأزمنة القديمة وتركت آثارها حتى يومنا هذا.

لا يستبعد أن يكون هؤلاء الأبطال الأسطوريون من ميكينيا وكريت وقبرص بالأصل من قدماء التجار الإغريق الذين جاؤوا إلى مجرى العاصي وسهل العمق وأحضروا معهم أساطيرهم وأسماء آلهتهم. وإنه بالتالي تصور منطقي أن تكون الطبيعة في تلك البقعة قد أعجبتهم فاستوطنوا فيها. ومن موقع أنطاكية إلى الميناء على مصب العاصي كان النهر قديماً مناسباً للملاحة وبالتالي كان نقل البضائع ممكناً على قوارب وطوافات. علماً بأن المسافة يمكن قطعها في يوم واحد. كما أن نقل البضائع بالاتجاه المعاكس أيضاً، أي من البحر إلى سهل العمق لم يكن صعباً لكون تيار النهر هادئاً في مجراه الأسفل. وعليه يمكن أن نتوقع أنه قد وجدت منذ زمن قديم جداً محطة ساحلية خارجية للتجار الكريتيين واليونان والقبارصة.

قصة نشأة أنطاكية

يؤكد المؤرخ الأنطاكي ليبانيوس قائلاً إن تأسيس أنطاكية يعود إلى الاسكندر الكبير. ويروي القصة كما يلي:

= بعد انتصاره الساحق في معركة إيسّوس بشهر تشرين الأول سنة 333 قبل الميلاد تابع مسيره باتجاه الساحل الفينيقي. توقف عند عين يتدفق ماؤها من جبل سيلبيوس فشرب منها وشبّه ماءها بحليب والدته. ولذا أعطى تلك العين اسم «أوليمبياس Olympias» نسبة إلى والدته وأمر ببناء بئر حولها. ثم تجول في الأرض المحيطة به فسحرته طبيعتها وعبر عن رغبته في بناء مدينة بهذا الموقع. وبما أنه لم يكن راغباً في تأخير زحفه باتجاه الجنوب فقد اكتفى بوضع حجر الأساس لمعبد ألإله زيوس، ثم حجر أساس آخر لبناء قلعة هناك أسماها «إماتيا Emathia» باسم مسقط رأسه في تراكيا بمكدونيا =.

يبدو أن مقصد ليبانيوس من هذه القصة هو إرضاء نزعة الخيلاء عند مواطني مدينته، الذين يتوقع أن يستقبلوا أخباراً من هذا النوع بترحاب وفخر. إذ أنه في ذلك الزمن بالذات كان من أهم دواعي الاعتزاز أن يكون الإنسان مواطناً في مدينة أسسها الاسكندر الكبير.

إنه بالحقيقة من غير المستبعد أن يكون الاسكندر قد توقف على جبل سيلبيوس ولاحظ موقعه الاستراتيجي، واعتبر بالتالي أنه يحسن به في المستقبل إنشاء مدينة هناك. وربما يكون قد صرح بذلك أمام قادته وغيرهم. إلا أنه لم يكن هو الذي أسس أنطاكية بالفعل. وقد بقي هذا الأمر لواحد من جنرالاته فيما بعد. هذا ويخبر المؤرخون عن الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة تأسيس أنطاكية.

بعد أن انتصر سلوقس الأول على خصومه ـ كما ورد سابقاً ـ ودخلت سوريا في مملكته أسس أربعاً من المدن في الجزء الشمالي الغربي من سوريا الذي خرج من تحت سيطرة خصمه «أنتيجونس». وكانت كلها فيما بين منخفض العاصي وساحل البحر المتوسط، وهي: أنطاكية، سلوقيا پيريا[134]، أفاميه[135]، اللاذقية[136] وبنيت على أنقاض مدن أقدم منها.

(134) ارجع إلى هذه التسمية «Seleukeia Pieria» في الحاشية 119.

(135) وردت هذه التسمية في فقرة ـ التنظيمات العسكرية ـ علماً بأن اسم «أباميه «Apameia» أعطي أيضاً إلى مدينتين أخريين خارج البلاد السورية.

(136) كانت هذه اللاذقية أيضاً واحدة من خمس مدن دعاها سلوقس كلها «لاوذيكيا «Laodikeia» نسبة لاسم والدته «لاوذيكي Laodike».

يبدو أنه كان في تصور سلوقس مخطط كامل لبناء مدينة أنطاكية. وعلى كل الأحوال فإن تنفيذ البناء يدل على أن اثنتين على الأقل من هذه المدن الأربع هما أنطاكية واللاذقية قد وضع مخططهما المهندس نفسه. حيث أن توزيع الشوارع ومجموعات البيوت من ناحية الشكل والحجم له النظام نفسه في المدينتين على السواء. أما التقرير الذي سجله المؤرخ الأنطاكي «ملالاس» عن إنشاء مدينة أنطاكية فقد جاء على النحو التالي:

= في اليوم الثالث والعشرين من شهر «خانتيكوس = نيسان» سنة 300 قبل الميلاد صعد سلوقس مع حاشيته جبل كاسيوس المقدس، وقدم ضحية للإله زيوس وسأل: أين ينبغي تأسيس المدينة الجديدة: . . . فظهر صقر في السماء، وهو طائر الإله زيوس، انقض على لحم الضحية وحمله حتى ساحل البحر، مما اعتبر رمزاً لموقع المدينة الجديدة. فسارع سلوقس إلى تأسيس المدينة هناك وأعطاها اسم سلوقيا پيريا. بعد انتهاء مراسيم التأسيس في سلوقيه كان سلوقس حريصاً على تقديم قرابين للآلهة المحلية فاتجه إلى إيوبوليس. وبعد ثلاثة أيام، أي في اليوم الأول من شهر «أرتميسيوس = أيار» عند شروق الشمس قدم ضحية للإله زيوس كرونيوس. ثم اتجه إلى مدينة «أنتيغونيا Antigonia» التي كان خصمه الأسبق «أنتيغونس» قد بناها على بعد ثمانية كيلومترات من «إيوبوليس»، ليقدم ضحية على المذبح الذي كان «أنتيغونس» قد أقامه للإله زيوس. وبالاشتراك مع الكاهن «أمفيون Amphion» تضرع سلوقس إلى الإله زيوس وطلب منه المشورة، فيما إذا كان يجدر به أن يستولي على «أنتيغونيا» ويعطيها إسماً آخر، أو ينبغي عليه أن يبني مدينة جديدة في مكان آخر فظهر الصقر ثانية في السماء وانقض على لحم الضحية وانتشله من النار الملتهبة محلقاً به في السماء مرةً أخرى. فدعا سلوقس ابنه أنطيوخس ليركب حصاناً ويتتبع اتجاه طيران الصقر. واتجه الصقر حيث يقع مذبح «زيوس بوتيايوس» فدار في الفضاء ثم انقض باتجاه الأرض ملقياً باللحم على المذبح. فكانت بذلك إشارة لإرادة الإله زيوس ببناء مدينة في هذا المكان. وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه، في السنة الثانية عشرة من حكم سلوقس قام بالإشتراك مع الكاهن «أمفيون» بوضع حجر الأساس للمدينة الجديدة في

ذلك الموقع. وأعطاها اسم «أنطيوخيا» باسم والده أنطيوخس...=.

كان من بين ما احتواه متحف بيروت القسم العلوي من دعامة جدارية من القرن الرابع الميلادي عليها تصوير يرمز لتأسيس أنطاكية. ويظهر فيها مذبح للقرابين، بقربه الإلهة اليونانية «تيخِه Tyche» إلهة الحظ، وعلى يدها تمثال صغير يمثل أبولو إله دفنة. وإلى الجانب الآخر من المذبح صورة لسلوقس يتقدم للتضحية بثور وفوقه صقر الإله زيوس.

تخطيط أنطاكية وتنظيماتها

عهد سلوقس بتخطيط منشآت المدينة إلى مهندس يدعى «خيناريوس Xenarios» وقد اختار هذا المهندس لمساعدته ثلاثة مراقبين هم: «أتايوس Attaeos» و «بيريتاس Perittas» و «أناخيكراتس Anaxikrates».

واتبع في تخطيطها النظام الذي كان معتاداً، حيث وضعت الفيلة في الأماكن التي ستكون للأبراج. وأشير إلى اتجاهات الشوارع بحبوب القمح. وكان قسم من الأحياء السكنية مقرراً للمهاجرين اليونان والمكدونيين وأهل أنتيغونيا، إلا أنه صرف النظر عنه. والقسم الآخر للسكان السوريين. وكان كل قسم محاطاً بجدار. هذا وأن بقايا الأسوار الرئيسية التي كشف عنها في الحفريات الأثرية وتطور مخطط المدينة في أوقات لاحقة تبين منه أن أنطاكية في فترة ازدهارها كان لها من المساحة حوالى 220 هكتاراً. كما أن التحريات الحديثة أثبتت أن مخططات الشوارع في المدن السلوقية الأخرى في سوريا شديدة الشبه بأنطاكية، الأمر الذي يعتبر تأكيداً لما كان يقصده الاسكندر وخلفاؤه من خلق مدن هلنستية متشابهة في آسيا. ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة ثابتة هي أن موقع أنطاكية قد تم اختياره بدقة وتبصّر، وأنه من أفضل مواقع المدن في العالم القديم عموماً. فالطبيعة هناك جميلة وتربتها خصبة للغاية والمناخ معتدل ولطيف. وكانت تربطها مع العالم شبكة كاملة من الطرق ويقابلها على الساحل ميناء مناسب. والواقع أن ما مر معنا في الأساطير السابقة من إعجاب الآلهة أو الأبطال الأسطوريين بتلك البقعة لا يعكس خيالاً أدبياً بمقدار ما يعبر عن مزايا حقيقية تجعلها واحدةً من أفضل البقاع السورية كلها. الأمر الذي أدركته الدولة التركية في النصف الأول من هذا القرن واستطاعت من خلال الظروف الدولية حينذاك فصل هذه البقعة عن البلاد السورية.

ومكان المدينة له مزايا جيدة. فهناك جبل سيلبيوس الواقع إلى الجنوب منها يرتفع حتى 1600 متراً. ويخترقها نهر العاصي، الذي كان فيما مضى خطاً حيوياً للملاحة. وفي البداية تم استيطان الجانب الأيسر من النهر. ولكن فيما بعد ضمت أسوار المدينة تدريجياً الضفة اليمنى أيضاً. وكان الطريق من المدينة إلى ميناء سلوقية يبدأ عند جسر على العاصي ويحاذي الضفة اليمنى للنهر.

وكانت الأرض التي قامت عليها المدينة ما بين النهر والجبل سهلية بغالبيتها. وكان لمخططها تقريباً شكل مربع غير منتظم تغير في مساحته وشكله بمرور الزمن وتبعاً لتوسع المدينة.

كان يبدأ عند الباب الشمالي الطريق المتجه إلى حلب وداخل بلاد الشام. ومن الباب الجنوبي كان يتجه طريق إلى الضاحية الشهيرة دفنه ثم يعبر الجبال متجهاً إلى اللاذقية. وعبر مضيق في جبل سيلبيوس كان طريق آخر يصل إلى العاصمة العسكرية أفاميه. وكان وعراً بعض الشيء وصعباً جداً في الشتاء.

أما تنظيم شوارع المدينة فقد تم بعناية. وروعي في ذلك أن تكون محمية من الرياح قدر الإمكان وأن تنال قسطاً من شمس الشتاء وظلال الصيف. وكان نسيم الصيف الذي يهب من البحر عبر وادي العاصي يصل المدينة ويلطف من جوها. وأما عن المباني العامة كالمعابد والحمامات والثكنات والمدارس وإدارات الدولة والمدينة فلا توجد مستندات كافية. ويتضح من ذلك أن اهتمام المؤرخين القدامى بالتماثيل والنصب التذكارية كان أكثر، وأشهر ما في ذلك كان تمثال الإلهة «تيخه Tyche» إلهة الحظ في أنطاكية[137]. وبما أن تجسيد الحظ في العصر الهلنستي كان يعكس الاعتقاد بقوى ما وراء الطبيعة التي توجه مصير الإنسان فقد كلف سلوقس النحات الشهير في زمنه «يوتيخيدس Eutychides» وهو تلميذ «ليسيبوس Lysippos» بأن يصنع لمدينة أنطاكية تمثالاً لإلهة الحظ. وعلى الأرجح أن إقامة التمثال كانت ما بين 296 و 293 قبل الميلاد. وسرعان ما صار في كل المدن الهلنستية في الشرق رمزاً محبوباً للنجاح والخصب والنعيم. وقد أصبح تمثالها في أنطاكية نموذجاً لكل ما صنع بعده من تماثيل

(137) يبدو مع ذلك أن الملوك السلوقيين أيضاً لم يكن لديهم اهتمام بتدوين شيء عن انجازاتهم في المنشآت العامة والرسمية، على عكس ما رأيناه سابقاً لدى كل الملوك في الهلال الخصيب من العصر السومري حتى العصر البابلي الجديد الذين كانوا يخلدون في مدوناتهم ما أنجزوه من أعمال عمرانية سواء في الأبنية ككل أو في منشآت الري وغيرها من المرافق العامة.

لهذه الإلهة في العالم القديم. وتظهر في رداء طويل وهي جالسة على صخرة ترمز إلى جبل سيلبيوس. واستندت إلى الصخرة بيدها اليسرى وأمسكت بيدها اليمنى حزمة رمزية من نبات القمح. وعلى رأسها تاج بشكل جدار يرمز إلى سور المدينة.

وأمام قدميها سبّاح عاري الجسم يرمز إلى نهر العاصي. وكان هذا الإنجاز الفني من البرونز ينتصب في أنطاكية تحت سقف حجري محمول على أربعة أعمدة. إلا أن هذا التمثال اختفى ولم يُعرف مصيره. وهناك نسخة رومانية عنه محفوظة في متحف الفاتيكان تم نحتها من المرمر استناداً إلى وصف دقيق من قبل المؤرخ الأنطاكي ملالاس، ويُعتقد أنها أشبه ما تكون بالتمثال الأصلي المفقود.

وعلى طرف المدينة صقر كبير نحت من الحجر، يرمز إلى طائر الإله زيوس الذي أشار إلى موقع بناء المدينة. وقد أصبح ذلك الصقر شارة لمدينة أنطاكية ظهرت على كل العملات التي ضربت فيها أثناء العصر الهلنستي والروماني أيضاً.

أما ذكرى المدينة المهجورة «أنتيغونيا Antigonia» فقد حفظها تمثال الإلهة «Tyche» البرونزي، وتظهر فيه ولها قرن «أمالتيا Amaltheia» ـ العنزة التي أرضعت زيوس ـ وكان قد صنعه لها مواطنوها الذين هجروها إلى أنطاكية، والذين أقاموا تمثالاً أيضاً للملك سلوقس. وقد صنع بالحجم الطبيعي للملك وله قرنان يبدو أنهم رمزوا بهما إلى قوة سلوقس الجسدية التي كانت مضرب المثل، حيث يروى عنه أنه في إحدى المرات قبض بيده على ثور هائج كان معداً للتضحية تكريماً لذكرى الاسكندر الكبير، وكان قد قطع رباطه وثارت ثائرته.

وتعبيراً عن امتنانه أمر الملك سلوقس بأن يقام تمثال برونزي لأولئك الأثينيين الذين جاؤوا بناء على طلبه من أنتيغونيا إلى أنطاكية. وكان هذا التمثال مع تمثال كبير آخر للإله زيوس كرونيوس قد نقل من أنطاكية إلى روما ما بين سنتي 51 و50 قبل الميلاد ـ أي بعدما صارت سوريا ولاية رومانية ـ وذلك بأمر من الحاكم الروماني «كالبورنيوس بيبولوس Calpurnius Bibulus».

خلال فترة حكم أنطيوخس الرابع الملقب «إيبفانس» ما بين 175 و 164 قبل الميلاد بلغت مدينة أنطاكية القمة في الأبهة والروعة والبهجة وحياة الترف والنعيم. ومن المخلفات الفنية الجديرة بالذكر لتلك الفترة صورة نصفية محفورة على واجهة صخرية كبيرة مواجهة لأنطاكية في جبل سيلبيوس. يظهر فيها الرأس المتآكل بفعل عوامل الطبيعة

مغطى بوشاح. وفوق الكتف الأيمن يقف على بروز صخري تمثال يكاد يختفي تماماً يحمل سلة على شكل زنبقة، كتلك التي كانت تظهر في مواكب تكريم إلهة الخصب «ديميتر». والتحريات التي أجريت على هذا النقش الفني أثبتت أن صانعه لم يكن قد انتهى منه.

ويروي المؤرخ الأنطاكي ملالاس بهذا الخصوص أنه خلال حكم أنطيوخس انتشر وباء مخيف في أنطاكية ومات فيه ناس كثيرون. وكان هناك متكهن يدعى «ليوس Leios» أشار على الناس بإلحاح أن ينحتوا وجهاً مقنّعاً كبيراً في صخر الجبل المطل على المدينة. وبعدما فعلوا ذلك تسلق المتكهن إلى هناك وكتب على ذلك الوجه المقنّع شيئاً غامضاً. وكان أن اختفى الوباء من المدينة. هذا وأن الصورة الباقية لا تظهر عليها كتابة. إلا أنه لا يستبعد أنها كانت موجودة وأفلحت في إزالتها أيدي أولئك الذين حاربوا وجود الصور والمنحوتات القديمة، سواء في العصر المسيحي أو العصر الإسلامي.

دفنه ضاحية أنطاكية

= شجرة الغار=

اعتبرت دفنه كما وصفها المؤرخون القدامى ـ حتى ما بعد العصر السلوقي أيضاً ـ من أجمل الأماكن في سوريا على الإطلاق. ووقعت إلى الجنوب من أنطاكية واعتبرت ضاحيتها. وقد جمعت بين سحر الطبيعة والتاريخ الغنيّ بالأساطير. إذ كانت تزينها الجداول والشلالات وأشجار الغار والسرو الكبيرة، مما جعل منها مكان اصطياف واستجمام لأهل أنطاكية، وجعل المؤرخين في ذلك الزمن يعتبرونها «تيبور Tibur الشرق»[138] وأحد أشهر الأماكن في العالم القديم كله.

والمستوطنون الأوائل في دفنه كانوا كما تذكر الأسطورة هم الهرقليين (أبناء هيراكلس) الذين نفاهم «يوريستيوس Eurystheus» من وطنهم في البيلوبونيز ـ كما مرّ سابقاً ـ. وتقول الأسطوة في تسمية دفنه أن «پينيوس Peneios» إله الأنهار في «تساليا Thessalia» ـ شمالي اليونان ـ كانت له ابنة رائعة الجمال تدعى «دفنه Daphne»[139]

---

(138) «Tibur» مدينة لاتينية قديمة كانت قريبة من روما. وفي زمن لاحق صارت تدعى «تيفولي Tivoli». وتعتبر اليوم ضاحية الفيلات الجميلة في روما.

(139) والواقع أن كلمة «دفنه Daphne» باليونانية تعني شجرة الغار.

وقع الإله أبولو في حبها. إلا أنها رفضته وهربت منه. فأخذ يطاردها ويبحث عنها، حتى وجدها في ذلك المكان. وللتخلص منه تضرعت إلى والدها «بينيوس» أن يحولها إلى شجرة غار، فكان لها ما أرادت. واعتبرت هذه الشجرة منذ ذلك الوقت شجرة أبولو المقدسة. والواقع أن الغار له اعتبار خاص على مدى التاريخ. وكانت أكاليل الغار رمزاً للمنتصرين.

وأشجار السرو المعروفة أيضاً بجمالها تملأ تلك المنطقة. وتربطها الأسطورة بقصة مشابهة تقريباً عندما تقول أن شاباً كان يدعى «إيباريسّوس Yparissos» قتل غزالاً من غير قصد، فكان حزنه لذلك عظيماً. فأشفقت عليه الآلهة وحوّلته رحمةً به إلى شجرة سروٍ حزينة[140].

كما تقول الأخبار المتوارثة: لم تكن «إيدا Ida» الكريتية، بل كانت دفنه هي المكان الذي اختاره «باريس Paris»[141] للفصل في مسابقة الجمال التي أدت إلى الحرب الترويانية.

أسس سلوقس في دفنه قسماً خاصاً بالمقدسات وأحاطه بسور. وبنى معبداً للإله أبولو وزرع حوله غابة من أشجار السرو. وكان ذلك المعبد يقوم قريباً من عيون المياه والشلالات. وصنع النحات الأثيني «برياكسيس Bryaxis» تمثالاً شهيراً للإله أبولو، يصفه المؤرخ الأنطاكي ليبانيوس بقوله إن الجذع الخشبي كان مغطى بمعدن براق، وأن الأطراف والرأس كانت من الحجر. وقد أمسك الإله بإحدى يديه قيثارة وباليد الأخرى قارورة. وكان شعره وإكليل الغار الذي يعلوه مذهّبين. والعينان بيضاويتان من الحجارة البنفسجية المصقولة. وقيل إن ذلك التمثال كان بحجم تمثال الإله زيوس في «أوليمبيا Olympia».

---

(140) ويبدو هنا أن لإسم Yparissos أيضاً علاقة بكلمة «kyparissos» اليونانية التي تعني شجرة السرو والتي دخلت اللاتينية بشكل «cupressus» واعتبرت شجرة الأموات المقدسة بالنسبة للإله «بلوتو Pluto» إله العالم السفلي. وبقيت مستخدمة في بعض اللغات الأوربية الحالية مثل الانكليزية «Cypress» والألمانية «Zypresse» وغيرها وبمعنى شجر السرو أيضاً.

(141) كان إبن ملك «تروريا Toria» ـ شمال غربي آسيا الصغرى ـ يدعى «باريس Paris» وقد اختارته الإلهات هيرا وأثينا وأفروديت ليكون حكماً بينهن في مسابقة أجمل إلهة. وهذه المسابقة كانت نتيجتها قيام تلك الحرب الترويانية المشهورة بين أهل تروريا وبين الإغريق واستمرت استناداً إلى مرويات الكتاب القدامى من 1194 إلى 1184 قبل الميلاد.

ويصف ليبانيوس في تاريخه كيف قام سلوقس بعد تأسيس أنطاكية برحلة صيد إلى دفنه راكباً حصانه وتحيط به كلابه. واقترب من شجرة الغار (دفنه) المذكورة آنفاً، ويقول:

=. . . وعندما اقترب من الشجرة ضرب حصانه بحوافره الأرض فانطلق منها رأس سهم ذهبي يحمل كتابة تشير إلى أنه من سهام أبولو. وأعتقد أن هذا الإله خلال حزنه على حوريته الجميلة التي تحولت إلى شجرة قد أطلق كل السهام التي كانت في جعبته وبقي رأس هذا السهم المكسور مدفوناً في الأرض ليبلغ سلوقس أمر الإله بأن يزين هذا المكان ويجعله مقدساً. ولم يقتصر الأمر على هذه الإشارة بل إن سلوقس بينما كان يمسك برأس السهم في يده أبصرحيّة تفحّ وتقترب منه وهي رافعة رأسها. ونظرت إلى الملك لحظة بلطف وما لثبت أن اختفت. مما يتضح معه تماماً أن الإله أبولو قد تجوّل في هذا المكان. . .=

كان معبد أبولو في دفنه جميلاً جداً. وتقول الروايات إن زائريه كانت تزول عنهم الأمراض والهموم والخوف عندما يتقربون من الإله بطريقة صحيحة ويكشفون عن همومهم بخشوع وتضرع. وقد تمسك بهذه المعتقدات إلى زمن طويل سكان مناطق الشرق الأدنى القديم الذين كان الكثيرون منهم يحجّون إلى مكان ذلك الإله في دفنه. وقد كان هذا من جملة الأسباب التي دعت المسيحيين المتحمسين في سنة 362 ميلادية لإحراق ذلك المعبد.

نبذة ممّا قيل في حياة الأنطاكيين

يقدر أن عدد سكان أنطاكية في بداية عهدها لم يتجاوز العشرين ألفاً. غير أنها اجتذبت باستمرار كثيراً من الناس لأسباب منها: فرص العمل والنجاح المتوفرة، الأمر الذي نراه في أيامنا هذه أيضاً في مختلف بلدان العالم، حيث تجتذب العواصم والمدن الكبرى كثيراً من السكان. ثم المناخ اللطيف وسهولة المعيشة وأسباب الرفاه ووسائل التسلية. وعدا عن ذلك وجود مختلف إدارات الدولة والمؤسسات الرسمية منها. حتى وصل سكانها في بعض الفترات إلى النصف مليون، يعتقد أنه كان منهم حوالى الثلاثمائة ألف من المواطنين الأحرار. وكانوا خليطاً من سوريين ويونان ومكدونيين عدا عن بعض

الأقليات الأخرى البسيطة.

وقد نالت أنطاكية شهرة عالمية بمصنوعاتها الذهبية والفضية التي صدرت إلى أقاصي العالم المعروف آنذاك، وحليّها النادرة المثيل، ومنتجاتها من العطور والزيوت الزكية الرائحة، وبضائعها الكمالية من الأنواع كافة. وكان عند أهلها فيض من المنتجات الزراعية التي زادت عن احتياجات السوق المحلية وصدرت إلى مختلف الجهات. وكانت المدينة تحقق من تجارة الترانزيت ومن المؤسسات المالية أرباحاً ضخمة أوصلتها إلى درجة من الثراء أصبحت معها حديث الناس في العالم المعروف في ذلك الزمن.

ومن الطريف بهذا الصدد ما كتبه «پلوتارخوس Plutarchos»[142] إلى الملك الأسبارطي «أغيس Agis» قائلاً:

=.. إن خدم وعبيد الملك السلوقي في أنطاكية يملكون أكثر مما جمعه كل ملوك سبارطة مجتمعين طيلة حياتهم...=

وأما عن طبائع سكان هذه المدينة العالمية فإن آراء المؤرخين كانت دائماً متباينة بشكل كبير. ومنها ما كان متطرفاً في وصفه للمجتمع الأنطاكي.

فقد رأى بعض مؤرخي العصر الحديث أن الناس في تلك المدينة قد سيطر عليهم التراخي والشعور بالراحة والنعومة واستسلموا لحياة الدعة والفراغ والتسلية واللهو والترف، فاستخفّوا بفضائل الرجولة وسخروا من تحفظ النساء. وتطرف «رينان Renan» في وصفهم عندما اعتبرهم جمهوراً مأخوذاً بالتهريج والشعوذة والغرور والاحتيال والدجل وأن أنطاكية مدينة الألعاب والسباقات والمهرجانات والفوضى والرفاه الذي لا حدود له والاعتقاد بالخرافات... وغير ذلك. وأن سكانها ليس لديهم شعور بالوطنية أو اعتزاز بالعائلة ويغلب عليهم الفساد وروح العصيان.

من الواضح أن هذه الأحكام استند أصحابها إلى معلومات في مصادر قديمة كان كتّابها من الناقمين على سكان أنطاكية ومن أبرزهم: «فيلوستراتوس Philostratos» والقيصر الروماني جوليان، ويوحنا فم الذهب الذي كان من أبرز آباء الكنيسة الذين عرفتهم أنطاكية. والواقع أن هؤلاء تعمدوا تسجيل كل ما رأوه مستنكراً أو أثار نقمتهم، وأهملوا الجوانب الأخرى.

(142) كان من مشاهير العلماء اليونان في القرن الأول الميلادي. وكانت حياته بين سنة 46 و 120.

وما يمكن قوله هو أن سكان أنطاكية لم يكونوا لا أفضل ولا أسوأ من سكان بقية المدن الكبرى في ذلك الزمن. وما نعرفه في أيامنا هذه أيضاً أن المدن الكبرى في مختلف بلدان العالم هي البيئة الأكثر مناسبة لحياة اللهو وانتشار الفساد الاجتماعي.

حظيت أنطاكية باهتمام كبير من الحكام السلوقيين وبعض القياصرة الرومان فيما بعد. وكان تطور الأوضاع السياسية منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وبدء الخلافات في السلالة الحاكمة والدسائس والاغتيالات قد أثر على الحالة العامة للمدينة وتولد عند السكان الاستعداد للعصيان وأعمال العنف عندما تساء معاملة المدينة أو ترتفع أسعار بعض المواد الضرورية. وفي عهد أواخر ملوك السلوقيين وجدت أسباب كافية لقيام الاضطرابات. ولا شك أن وجود الاستعداد للقيام بالاضطرابات وأعمال العنف في الأحوال السيئة يشير إلى حرص الأنطاكيين على الحياة الطبيعية ويقلل من جدية الوصف الذي جاء عند «رينان» وغيره. وكان لدى الأنطاكيين عموماً اهتمام بالاحتفالات والمسرحيات والألعاب والموسيقى والسباقات وما إلى ذلك... وكان الإقبال كبيراً على الحمامات العامة. إذ كان أهل أنطاكية بصورة عامة من الملك حتى أبسط المواطنين يقصدون الحمامات بانتظام. الأمر الذي ما زال معروفاً عند الكثيرين في بعض المدن السورية اليوم.

وقد وجد الأنطاكيون متعة في الشعر الساخر والهجاء والتهكم والنكتة. ولم تسلم حتى بعض الشخصيات الكبيرة من سخريتهم إذا كانت تستحق السخرية. فلما استطاع ملك مصر بطليموس الثامن في فترة من الضعف والفوضى أن يضع على عرش أنطاكية واحداً من خارج الأسرة السلوقية دعي بالاسكندر الثاني (128ـ 122ق.م) سرعان ما أطلق عليه الأنطاكيون التسمية الساخرة «زابيناس» التي تعني: المشتَرى[143]. وربما يعود ذلك إلى أنه كان ابن تاجر ولم يكن من أهل السياسة والحكم. وأنطيوخس العاشر أطلقوا عليه تهكّماً لقب «بيوس Pius» بمعنى: التقي أو الورع الصالح. ذلك أنه تزوج من امرأةٍ كانت سابقاً زوجة عمه أنطيوخس الثامن ثم صارت زوجة أبيه أنطيوخس التاسع.

وأكثر من شعر بالمرارة من سخريتهم هو الأمبراطور الروماني جوليان حيث

(143) كلمة آرامية، الأصل فيها أن تلفظ بتسكين الزاء «زْبينا» إلا أن لفظها بالمد «زابينا» هو طريقة شعبية. وقد أضيفت إلى آخرها اللاحقة اليونانية ـ S. -

وصفوه بأنه «قزم بلحية تيس». وقد كان قصير القامة وشكله لا يوحي بالمهابة. وكانت هذه السخرية مبرراً لنقمته عليهم كما ذكرنا آنفاً.

ومن الجدير بالذكر ما سجله «لوكيانوس Lucianus»[144] في مديحه للأنطاكيين بالعبارات التالية:

=.. في المسرح أثناء العرض يصبح الجميع عيوناً وآذاناً فقط، بحيث لا تفوتهم لا كلمة ولا أدنى حركة..=.

كان أبرز الأمثلة على حياة الترف في أنطاكية، وأكثر الأمور إثارة هو ذلك المهرجان التاريخي الذي حصل في القرن الثاني قبل الميلاد وخلده المؤرخون حينذاك.

ففي سنة 174ق. م. اعتلى عرش أنطاكية انطيوخس الرابع الملقب «إبيفانس». واعتبر من أبرز الملوك السلوقيين. ورأى بعض المؤرخين أنه كان مؤهلاً ليعيد للدولة السلوقية قوتها وهيبتها لو قدر له أن يعيش طويلاً. فقد قام بحملتين ضد مصر وحاصر الاسكندرية ولم ينسحب منها إلا بتدخل الرومان. وأوصل أنطاكية إلى مرحلة من ألمع وأبهى مراحل تاريخها. وبلغت في عهده أوج تطورها العمراني واتساعها. ورأى بعض المؤرخين أن ذلك كان للتعويض عن شعوره بتزايد التبعية الاقتصادية للأمبراطورية الرومانية. وقد انتشرت في طول العالم وعرضه الأخبار عن ثراء أنطاكية ومحبة هذا الملك للأبهة والعظمة. وذلك بنتيجة المهرجان الذي أقامه في دفنه ضاحية أنطاكية سنة 167 قبل الميلاد عقب حملته المصرية واعتبر أعظم مهرجان عرفه التاريخ القديم. وقد أنفقت في ذلك أموال طائلة ساهم في تقديمها أصدقاء الملك وبعض أغنياء المواطنين.

وقد سجل المؤرخ اليوناني المعاصر له «بوليبيوس Polybios» وصفاً دقيقاً كشاهد عيان لما اعتبره أعظم حدث من نوعه خلال عصره.

افتتحت الاحتفالات بموكب استعراضي ضخم سار في مقدمته بضع عشرات الآلاف من الجنود الذين ينتمون إلى مختلف القوميات وقد حملوا مختلف أشكال العتاد والأسلحة الثمينة منها الذهبي والفضي والبرونزي، تتبعهم فرق متعددة من الفرسان أيضاً مختلفة القوميات والعتاد والزينة، وتليها مجموعات من العربات الحربية الكبيرة

(144) هو لوكيانوس السميساطي - نسبة إلى مدينة سميساط على الفرات الأعلى - كان شخصية أدبية شهيرة في القرن الثالث الميلادي. وكان كاتباً وخطيباً وعمل أستاذاً للفلسفة وتجول كثيراً في العالم وعين في أواخر حياته حاكماً على مصر.

والصغيرة، ثم فريق من فيلة الحرب بكامل هياكلها القتالية المزينة[145]. بعد ذلك عدد كبير من علمان الأشراف يلبسون التيجان الذهبية. وعدد كبير من أنياب الفيلة وأعداد لا تحصى من مختلف التماثيل المزينة بالذهب. ومر ألف من عبيد أحد أصدقاء الملك[146] يحملون أثمن الأواني الذهبية والفضية الكبيرة ثم عدد آخر من عبيد الملك يحملون الأواني الذهبية. تتبع ذلك مئتان من النساء ترش العطور من قوارير ذهبية على المشاهدين. وبعدهم أكثر من خمسمائة امرأة أخرى محمولة على محفات لها مساند ذهبية وفضية.

بعد هذا الاستعراض استمرت الاحتفالات ثلاثين يوماً كاملة تخللتها مختلف الألعاب والعروض المسرحية والمسابقات الرياضية وسباق العربات والرقص وغير ذلك.. وبنهاية كل ذلك كان بإمكان كل إنسان إذا أراد أن يدلك جسمه بدهن الزعفران أو زيت القرفة لخمسة أيام متتابة في حمام المدينة الكبير حيث وضعت ثلاثون جرة ذهبية كبيرة مملوءة لهذا الغرض. ووضعت في الساحة العامة للمدينة أكثر من ألف طاولة ملئت بأشهر المأكولات ليلاً ونهاراً لكل من أراد الطعام.

نهاية الهلنستية والتحول للعصر الروماني

إن ما رأيناه عن أنطاكية في الفقرات السابقة جعلها واحدة من أبرز مدن شرقي البحر المتوسط. وقد ذكر سترابون الذي عرفها خلال القرن الأول قبل الميلاد أنها من حيث غناها وعظمتها لم تكن أقل من سلوقية على دجلة واسكندرية مصر. هذا ولم تكن أنطاكية حالة فريدة في البلاد السورية، بل كان مستوى المعيشة عموماً جيداً، وكانت هناك وفرة كبيرة في كل متطلبات الحياة شملت البلاد كلها كما يذكر العالم والمؤرخ الأفامي الشهير «بوسيدونيوس Poseidonios».

وقد استمرت شهرة أنطاكية وأهميتها والعناية بها إبان العصر الروماني زمناً غير

(145) كانت الهياكل القتالية عبارة عن أبراج خشبية على ظهور الفيلة يجلس في كل منها عدد من المقاتلين، وخصوصاً رماة السهام. فكانت الفيلة تبدو بذلك وكأنها قلاع حربية صغيرة متحركة تثير الرعب في المعارك التي استخدمت فيها.

(146) المقصود بذلك هو «ديونيسيوس» وقد ورد ذكره سابقاً. انظر الحاشية 126.

قليل. واعتبرت خلال القرن الأول الميلادي ثالث مدينة بعد روما والاسكندرية. بعد انقضاء قرن كامل على ذلك المهرجان التاريخي الذي تقدم وصفه وصل القيصر الروماني بومبي إلى أنطاكية في سنة 64 قبل الميلاد، بعد انتصاره على ملك الفرتيين «ميترداتس Mithradates» سنة 66 قبل الميلاد. وخلال أقل من عقدين من الزمن جعل الأمبراطور أوغسطس أنطاكية عاصمة لمقاطعة سوريا الرومانية، التي كانت تدير شؤونها حامية عسكرية رومانية. وفي تلك الفترة تم إنشاء شارع الأروقة الكبير، الذي بلغ طوله ميلين رومانيين. وهو أحد أقدم الشوارع التذكارية الضخمة المعروفة في العالم القديم وأعظم المعالم الجديرة بالمشاهدة في أنطاكية. والأمبراطور هيرودوس الذي كان يحب أنطاكية كثيراً قدم الأموال اللازمة لرصف الشارع بحجارة المرمر. وكذلك قدم طيبريوس من أمواله التكاليف اللازمة لبناء الأروقة ذات الأعمدة. وكان يوليوس قيصر قد أحدث فيها منشآت أخرى عدا عن مسرح ومدرج. وفي أيام تراجان وهادريان بنيت فيها حمامات إضافية. وعلى كل تقاطع طرق كبير كان سقف مربع الشكل مزخرف بالفسيفساء يقوم على أربعة أعمدة.

وبموت طيبريوس كانت أنطاكية الهلنستية قد تحولت إلى مدينة رومانية ـ يونانية يقصدها الرحالة من مختلف أنحاء العالم.

نهاية المدينة العالمية

تعرضت أنطاكية خلال تاريخها إلى سلسلة كبيرة من النكبات والكوارث الطبيعية أو السياسية. أكثر ما سجل منها كان خلال القرون الستة الأولى الميلادية التي شهدت على الأقل عشرة زلازل قوية مدمرة، كان أعنفها ذلك الذي حصل في سنة 115 ميلادية. وكان من أسوأ الكوارث السياسية التي داهمتها على الإطلاق هو اجتياح الفرس لها بقيادة شابور الأول سنة 260 ميلادية بصورة مفاجئة تماماً، حيث ذبح الكثير من سكانها وأشعلت فيها النيران. وخلال فترة قصيرة من الزمن لا تتجاوز السبعة عشر عاماً، ما بين 525 و 542 ميلادية، حدث حريق كبير التهم قسماً كبيراً من المدينة، وشهدت زلزالين من أعنف الزلازل، واجتياحاً فارسياً تم فيه نهب المدينة، كما اجتاحها مرض الطاعون الذي أهلك قسماً كبيراً من السكان.

عملت هذه الأمور كلها تدريجياً على زوال عظمة المدينة العالمية، بحيث أنه خلال القرن السادس الميلادي لم تبق لها من أهمية تذكر. وعندما وصلها المد العربي

الإسلامي في سنة 637 ميلادية كانت عبارة عن بلدة عادية محصنة على حدود الدولة البيزنطية تكثر فيها الخرائب وليس فيها أي مظهر من مظاهر ذلك الثراء التاريخي.

وعلى الرغم من أنها اعتبرت خلال الحقبة الأولى من العهد العربي ـ الإسلامي عاصمة للحصون الشمالية من بلاد الشام، فإن ذلك لم يكسبها إلا أهمية ضئيلة بالمقارنة مع ماضيها. كما أن فترة الحروب الصليبية عادت فأكسبتها بعض الأهمية من جديد واعتبرت مركزاً استراتيجياً إلى حين، إلا أنها استمرت في تراجعها بعد ذلك قروناً عدة حتى لم تعد تخطر ببال أحد خلال أواخر عهد السيطرة العثمانية على سوريا. وقد رأينا في فقرة سابقة كيف لم يبق من آثارها شيء جدير بالذكر.

إلا أن أنطاكية بقيت مدينة خالدة في الآداب والتواريخ العالمية مثلما بقيت بابل وغيرها من كبريات المدن السورية.

الفصل الرابع عشر

مملكة الأنباط

بترا
ومقدمات ظهورها

اختلفت بترا عاصمة المملكة النبطية في عوامل وطبيعة نشأتها عن بقية المراكز الحضارية الكبرى في الهلال الخصيب. إلا أنها شابهتها إلى حد كبير في عوامل تطورها وازدهارها الاقتصادي والحضاري وحتى في أسباب زوالها.

فمن المعروف أن أغلب المراكز الحضارية، إن لم يكن كلها، بدأت في أزمنة موغلة في القدم، تعود إلى العصر الحجري القديم، كجماعات استقرار صغيرة بسيطة تطورت إلى مستوطنات أو قرى كبيرة. واتسعت تدريجياً خلال قرون عديدة لتصبح منها مدنٌ كبيرة وعواصم إقليمية. والتجارة التي كانت نتيجة حتمية لتطور الحياة الاجتماعية والسكان والعلاقات الاقتصادية جعلت من هذه المراكز امبراطوريات تجارية، بل وسياسية أيضاً، كما رأينا في الفصول السابقة.

وبشكل عام يقاس تاريخ هذه المراكز من نشأتها إلى نهايتها بآلاف عدة من السنين. ومن هنا فإن بترا تعتبر مركزاً حديثاً جداً قياساً لما ذكرنا. كما أنها لم تنشأ عن استيطان قديم في أرض زراعية وتخضع لهذا التطور الطويل المذكور، بل كان نشوءها خلال فترة قصيرة نسبياً ساهمت فيه بالدرجة الأولى والأساسية طرق القوافل التجارية المارة عند مورد للمياه في تلك الوديان الصخرية بالطرف الجنوبي من سوريا الغربية. والمعروف منذ أقدم الأزمنة أن موارد الماء كانت مدعاة لوجود استقرار سكاني حولها، نتجت عنه في بعض الأمكنة مستوطنات تطور بعضها إلى مدنٍ كانت بترا نموذجاً فريداً لها.

عندما حل الضعف بالدولة البابلية الجديدة (الكلدانية) وتصدعت وحدتها في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، أخذ نابونيد آخر ملوكها يتأهب لتأسيس مستعمرات عسكرية بعيدة عن بابل ووضع مراكز للشرطة بين مدينة يثرب وواحة تيماء عند تقاطع طريقين تجاريين هامين: الأول هو طريق البخور القادم من جنوب الجزيرة العربية. والثاني هو ذلك الدرب الصحراوي المتجه من الخليج الفارسي ومنطقة الرافدين إلى الغرب. وكان يهدف من ذلك وضع تجارة القوافل تحت سيطرته.

ويبدو أن القبائل التي كانت ضاربة هناك أدركت أنه حان الوقت للابتعاد عن تلك الناحية. فخلال وقت مضى كان أفرادها يعيشون من موارد قطعانهم البسيطة ويستعينون لتحسين معيشتهم بين الحين والآخر بنهب قافلة تجارية وزيادة الرسوم المفروضة على المرور في نواحيهم. أما الآن فقد أصبح بقاؤهم صعباً بوجود الجنود البابليين. ومن المعتقد أن جماعات منهم كانت قبل زمن طويل قد سبقتهم في الانتقال إلى مناطق جنوبي البحر الميت ووجدت مملكة الإدوميين القديمة أرضاً فقيرة بالسكان تطيب الإقامة فيها. أما الذين بقوا في ذلك الوقت فقد ارتحلوا الآن، آخذين معهم قطعانهم. وكانت لديهم على ما يبدو قدرة جيدة على الاستقرار والتأقلم، وموهبة في التجارة ووعي للإدارة المنظمة. وغير مستبعد أنهم في البداية تابعوا الحياة الرعوية في أرض الإدوميين. ثم تبين لهم بعد ذلك أنهم سيحققون أرباحاً وحياة أفضل إذا أخذوا على عاتقهم حماية الطرق التجارية والقوافل، وإذا مارسوا التجارة بأنفسهم أيضاً.

ليس مؤكداً إن كان الإدوميون قديماً قد شمل استيطانهم ذلك الوادي الصغير الذي وقعت فيه مدينة بترا، أو أن هؤلاء القادمين الجدد هم أول من استقر فيه، ثم أقاموا مستوطنة تطورت فيما بعد إلى تلك المدينة التي يعتقد أنها احتوت خلال عصر ازدهارها فيما بعد على ما يقارب الثلاثين ألفاً من السكان. وهو عدد كبير بالنسبة لأحوال ذلك العصر.

وعلى الرغم من أن أغلب الباحثين ينسبون هؤلاء المستوطنين الجدد إلى القبائل الشمالية من الجزيرة العربية، فإن أصلهم العرقي لم يزل موضعاً للنقاش. وبشكل عام عرفوا باسم «الأنباط» حسب اللفظ العربي. والكتابات الآرامية عموماً تدعوهم «نَبطايا». أما في نقوشهم فقد كتبوا التسمية دائماً بشكل «نَبطو»[147] ذلك المورد المائي القديم،

(147) أنظر مثلاً: Julius Euting: Nabataeische Inschriften aus Arabien (Berlin 1885) =

الذي تحول إلى مدينة تجارية كبرى، يقع في مكان جبلي مخفي تماماً على الطرف الشرقي من وادي العربة المهيب. أما الجبال القليلة الكائنة هناك فليست إلا قسماً من سلسلة تمتد باتجاه الجنوب مقابل ساحل البحر الأحمر وتأخذ بالارتفاع في الأراضي اليمنية لتعود فتنحدر باتجاه المحيط الهندي. وفي الاتجاه الشمالي تعتبر مرتفعات شرقي وادي الأردن امتداداً لها، حيث تتشكل فيما بعدُ سلسلتا لبنان الغربية والشرقية. وأما امتداداتها الشرقية فتخف تدريجياً حتى تنتهي مع تموجات البادية السورية.

في بعض الأماكن من الطرف الشرقي لهذه السلسلة كان يمر طريق البخور الشهير القادم من أعماق جنوب هذه الجبال الواقية. ولما كانت موارد الماء على الجهة الشرقية للبحر الميت ـ الذي ينخفض 390 متراً عن سطح البحر ـ أكثر منها على الجهة الغربية منه، فقد استمرّ فيها طريق البخور منذ القدم، والذي التقى معه الطريق التجاري القادم إلى الجنوب من حلب فدمشق. هذا الطريق الذي سُمّي قديماً «طريق الملك» ما زال اليوم مستخدماً. ومن الشرق كان يأتي عبر الأراضي الصحراوية الطريق التجاري الخارج من بلاد الرافدين والمراكز التجارية على الطرف الشمالي للخليج الفارسي. ومن العقبة كان يخرج طريق باتجاه الشمال، وطريق غيره كان ينطلق من غزة على الساحل الجنوبي، التي كانت مركزاً كبيراً لتخزين البضائع المتجهة إلى مصر.

هناك شيء آخر يضاف إلى ذلك: فبلاد الرافدين ووادي النيل على الرغم من التنافس المستمر وإضمار العداء خلال الحقب الطويلة، كانا يبحثان عن الاتصال بعضهما ببعض. وهذا لم يكن أمراً سهلاً، إذا امتدت بينهما الأراضي الصحراوية والجبال. فالسلسلة الممتدة شرقي وادي الأردن والبحر الميت، والتي تصل ارتفاعاتها حتى 1500 متراً أحياناً، كانت عقبة أساسية في وجه القوافل. وقد شكلت فيما مضى العمود الفقري بالنسبة لمملكتي الإدوميين والمؤابيين واعتبرت آخر العوائق بين الصحراء والبحر المتوسط. وبهذه السلسلة كانت تصطدم الطرق التجارية. فوجب البحث عن معبر إذا كان لا بد للتجارة والاتصالات بأنواعها أن تستمر. وقد اكتشفت هذه الإمكانية هناك، حيث يتعرج وادي موسى بين الصخور قبل أن يلتقي بوادي العربة.

وهناك في وادي موسى يقع ذلك المكان الذي يُعتقد أنه هو المقصود بتسمية

= وأيضاً: Mark Lidzbarski: Handbuch der nordsemitischen Epigraphik I.Teil, Text (Hildesheim 1962) p 448-454.

حيث ترد في أغلب النصوص المعروفة عبارة «ملك نبطو» أي ـ ملك الأنباط ـ.

«هالسَّلَع» في النصوص العبرية التوراتية[148] والذي دعاه اليونان فيما بعد «بترا PETRA». وكلاهما يعني: الصخر. وبالحقيقة يجب تفسير لفظة «هالسَّلَع» بـ: «الصدع الصخري» أي بالمدلول العربي لكلمة «سلع» حيث أن التسمية تنطبق على الشكل الطبوغرافي للمكان. كما أن التسمية اليونانية «PETRA» كان القصد منها بالواقع «المدينة الصخرية» وليس الصخر بشكل مطلق.

هذا وقد ذكرت الكتابات الآرامية اسمها بشكل «رِقِم» أو «رَقْمو» وهو اللفظ الذي تبنته المصادر العربية القديمة بشكل «الرقيم»[149] من المحتمل أن التجار قديماً جداً كانوا قد سلكوا هذا الدرب. ولكن الموقع لم يتعدّ كونه مورداً مرغوباً للماء كان الناس يلتقون فيه صدفة. والماء بالذات لعب بالطبع الدور الأساسي في اتجاهات طرق القوافل عندما نشطت حركة التجارة في الحقب القديمة. ثم إن هذا المورد المائي تحول في أواسط الألف الأول قبل الميلاد إلى محطة كبيرة للاستراحة والتخزين التجاري والمبادلات.

إن اطمئنان جماعات القوافل إلى توفر الماء بشكل دائم وكافٍ قد فاق ما كانوا يطمحون إليه، وسرعان ما أدركوا أنه يتجمع بسهولة. حيث أن سلسلة القمم الشرقية تشكل قوساً واسعاً له ذراعان متوازيان يمتدان باتجاه الغرب إلى وادي العربة، ولهما من الإرتفاع ما جعلهما يشكلان مع قوس القمم شبه حوض طبيعي كبير ينتهي إليه الماء القادم من وادي موسى الضيق. وما زال يشاهد اليوم كيف يتدفق إليه الماء أثناء زخات المطر الشديدة. وإن لم يتم حبس الماء هناك يسيل ببطء عبر وادي السياغ ليصب في وادي العربة. وقد عمد المستوطنون الأوائل إلى نقر أقنية صغيرة في الصخور يسيل منها الماء ليجتمع في آبار حفرت في الصخر أيضاً. وما زال ذلك ظاهراً حتى اليوم.

الإدوميّون والأنباط

غير معروف حتى الآن من كان أقدم المستوطنين في هذا الموقع الصخري. ربما الحوريون، الذين اتُفق على تفسير اسمهم بـ «سكان الجبال». غير أن أقدم من توفرت

---

(148) أخبار الأيام الثاني: 25، 11ـ12 وكذلك الملوك الثاني: 14، 7.

(149) حيث ورد بهذا اللفظ عند كل من ياقوت الحموي في معجم البلدان، والمقدسي البشاري في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. والإصطخري في المسالك والممالك. ثم أبي الفداء في: تقويم البلدان.

عنهم بعض المعلومات حتى الآن هم الإدوميون، الذين يسود الاعتقاد بأنهم لم يسكنوا «بترا» الحقيقية، بل انتشروا في المرتفعات المحيطة بها. ومناطق سكناهم أطلقت عليها تسمية «إدوم» وهي لفظة لها مدلول الإحمرار. وربما كان ذلك بسبب لون الصخور التي استخرجوا منها خامات النحاس، حيث أنهم عرفوا تصنيعه.

من الملاحظ أن النصوص التوراتية لم تتناول الإدوميين بالذكر إلا وتصب عليهم اللعنات وتضمر النقمة. وعلى الرغم من أن السبب الظاهري هو أن ملكهم «رِقِم» منع اليهود من المرور في أرضه، فقد كانت هناك أسباب حقيقية خفية لإثارة حفيظتهم وحقدهم أهمها: أولاً هو أن الإدوميين كانوا يسيطرون على الطريق التجاري القادم من الصحراء إلى غزة، وثانياً هو استخراجهم لخامات النحاس من أطراف وادي العربة، والتي لم يكن اليهود يمتلكونها. فما هو معروف أنه عند ظهور العبرانيين لأول مرة كان الإدوميون متفوقين عليهم كثيراً، إذ قطعوا شوطاً كبيراً في تصنيع المعادن وأتقنوه. وفي حين أن هؤلاء العبرانيين لم يكونوا يعرفون لا صناعة أدوات العمل ولا كيفية شحذها، كان قد انقضى على الإدوميين زمن طويل في استخراج النحاس من وادي العربة. ومن الواضح أنهم أجروا عمليات التنقية والسبك في أماكن الإستخراج، حيث تشير إلى ذلك أكوام الخبث الموجودة. كما يتضح أن أماكن ورشات العمل كانت محصنة بأسوار لمنع المتسللين منها وإليها.

وكان للإدوميين ميناء «إيلوت/إيلات» المعروف على خليج العقبة. وقد أدرك اليهود كم من الأرباح يحقق الإدوميون من النحاس ومن العمليات التجارية. وكان ذلك من أهم الدوافع للحروب المتكررة التي تأتي على وصفها كتابات التوراة خلال فترات مختلفة تمكن اليهود في بعضها من تحقيق بعض السيطرة على الطريق البحري والتغلغل في مناطق نفوذ الإدوميين.

إن كل الأخبار المعروفة عن الإدوميين هي بالواقع من تواريخ ومدونات أعدائهم الألدّاء، اليهود. إذ أنه لم يعثر حتى الآن على شيء كتبه الإدوميون عن أنفسهم. ولكن مما يُفهم من خلال ما دوّنه خصومهم كتّاب التوراة أنهم كانوا شعباً لا يهزم في الحرب بسهولة، واعتبروا أصحاب حكمة، وعرفوا الكتابة، وصنعوا الأقمشة، وهذا يعني أنهم عرفوا طبعاً الغزل والنسيج. واحتلت نساؤهم مكانة معتبرة في المجتمع. وقد أظهرت الحفريات أنهم لم يكونوا معماريين مهرة، ولكن ثبت أنهم فخاريون ممتازون أنتجوا آنية خزفية كانت من الرقة والنعومة كتلك التي عملها خلفاؤهم الأنباط. ويبدو أن آلهتهم

كانت شبيهة بآلهة العبرانيين القدماء، إلا أن أماكن عباداتهم غير معروفة.

والرسوم الجدارية التي اكتشفت في أحد المعابد تصور انتصار الملك المصري رمسيس الثالث على الإدوميين واحتلاله لمواقعهم. وتصور شيخ «شاسو» راكعاً مع ستة من الأسرى أمام الفرعون المصري. إلا أنه لا يوجد ذكر لملك الإدوميين، الأمر الذي يدفع إلى الإعتقاد بأن إدوم كانت تشكل رابطة من المدن والقرى يحكم كلاً منها أكبر الشيوخ سناً وبصورة مستقلة عن الأخرى. في سنة 587 قبل الميلاد احتل البابليون «أورشليم»[150] ودمروها وأخذوا عدداً كبيراً من اليهود أسرى إلى بابل. فأقفرت المناطق التي كانت فيها كثافة يهودية.

لا شك أن ذلك كان في مصلحة الإدوميين الذين كانوا يرون في أورشليم مركزاً للطغيان اليهودي فشعروا عندها بارتياح كبير.

الواقع أنه لا توجد معلومات مفصلة عن التحركات السكانية في تلك الفترة وكيفية حلول الإدوميين محل اليهود في المناطق التي سيطروا عليها قبل الحملة البابلية. ولكن من الثابت أن جماعات كثيرة من الإدوميين غادرت المرتفعات إلى تلك الأراضي الخالية وانتشرت في المناطق الجنوبية من فلسطين الممتدة غربي البحر الميت وجنوبي القدس حيث نشأت مملكة جديدة سميت «إدوميا».

إلا أن هذه المملكة الإدومية لم تستمر سوى بضعة عقود من الزمن، حيث أن اليهود العائدين من بابل بعد صدور المرسوم الفارسي سنة 538 قبل الميلاد (أي بعد سقوط بابل) أخذوا يتجمعون ويشكلون قوة جديدة في مناطق القدس. وخلال القرن الثاني قبل الميلاد كان قد تزعّم اليهود المكابيين[151] ما بين 135 و105 «يوحنا

---

(150) إن مسألة احتلال البابليين لأورشليم (القدس؟) وتدميرها ونفي اليهود إلى بابل، من ضمن مسألة أوسع هي الوجود اليهودي من أساسه وبكل أبعاده في فلسطين أو خارجها، مسألة جديرة بأن نتوقف عندها ونعيرها الاهتمام الكافي على ضوء ما يراه الدكتور كمال الصليبي في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

وبصورة عامة، سواء كانت هذه الـ «أورشليم» في غربي جزيرة العرب (الصليبي) أو كانت أورشليم الفلسطينية فهذا لا يتناقض مع مجرى الأحداث التاريخية بصورة جذرية.

(151) أول ما عرفت تسمية المكابيين بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وذلك نسبة لـ «يهوذا بن ماتاتياس» الذي أطلق على نفسه لقب «المكابي». إلا أن مدلول هذه اللفظة غير واضح. ويحتمل أنها اشتقاق من الكلمة العبرية «مقبّا» التي تعني «المطرقة» مما يجعل لفظ الاسم «مقابي» هو الأصح كما يستدل من وروده في المصادر السريانية. وقد عرف أتباعه «المكابيون» أو «المقابيون» بأنهم أصحاب النزعة القومية الدينية المتطرفة بحيث حاربوا واضطهدوا كل الفئات الأخرى.

هيركانوس» وقام بحملة قوية لاحق فيها الإدوميين الذين كانت لهم مدينة«حبرون» في ذلك الوقت وأنهى دولتهم وأجبرهم على اعتناق الدين اليهودي.

يبدو أن الأنباط عند دخولهم مرتفعات الإدوميين المهجورة لم يحاولوا إخراج أولئك القلائل المتبقين فيها من السكان، بل اختلطوا بهم شيئاً فشيئاً. وقد اكتشفوا المهارة التي يتمتع بها الإدوميون وثبت لهم بسرعة كم يمكنهم أن يتعلموا منهم.

لا شك أنه قد انقضت عقود عدة من الزمن قبل أن يستقر الأنباط تماماً في تلك المنطقة. ويمكن القول بشكل عام أن بداية تشكل دولة نبطية بمدينتها «بترا» (رقم/رقمو) لم يكن قد حصل قبل القرن الخامس قبل الميلاد. في ذلك الوقت كانت قد أصبحت تحت سيطرتهم الأراضي الممتدة ما بين البحر الميت وخليج العقبة، بالإضافة إلى المناطق التي كانت تشكل مملكتي المؤابيين والعمونيين فيما سبق، أي كل ما يدعى في أيامنا هذه «شرقي الأردن»، وامتد نفوذهم في داخل الصحراء العربية.

كان الأنباط منذ زمن طويل قد أدركوا أية أرباح تعود بها الطرق والقوافل والتجارة بشكل عام. ولم ينقض وقت طويل حتى أخذوا يجنون الأرباح الطائلة من ذلك الموقع الذي كان بالأساس مورداً للماء ليس إلا... وثبت لهم أن القوافل الآتية من الجنوب والشرق والشمال والغرب ليس لها من معبر آخر إلا ذلك الوادي الصخري الضيق. ونتيجة حدس دقيق عندهم لا يخطىء جعل هؤلاء السكان الجدد من ذلك الموقع مكاناً للتخزين سرعان ما تطور إلى مدينة بكل معنى الكلمة، اعتبرت بورصة للبضائع وميناءً صحراوياً لم يكن ينقصه شيء، سواء أماكن المبيت لأهل القوافل أو الاسطبلات لجمالهم أم مستودعات البضائع والمكاتب والمخازن التجارية. وحتى أماكن التسلية توفرت فيها.

ثم عمد الأنباط لاتخاذ تدبير آخر كي لا يتركوا شيئاً من التجارة يفلت من أيديهم، وهو أنهم جعلوا من مدينتهم المحطة النهائية لكل الطرق التي تلتقي فيها بحيث أصبحت مركزاً لتفريغ كافة البضائع وإعادة شحنها وليس مركزاً للترانزيت فحسب. وبذلك صارت القوافل القادمة من الجنوب تسلم حمولتها ليصار إلى نقلها في قوافل أخرى شمالاً وغرباً.

وهكذا فإن القدرة التنظيمية عند الأنباط حولت ذلك الموقع إلى مركز تجاري يعج بالحركة، له علاقات عالمية، وجعلت منه عاصمة لدولة كانت لها أدوار قوة ونفوذ في شرقي المتوسط.

لمحة عن مدينة بترا وبنائها

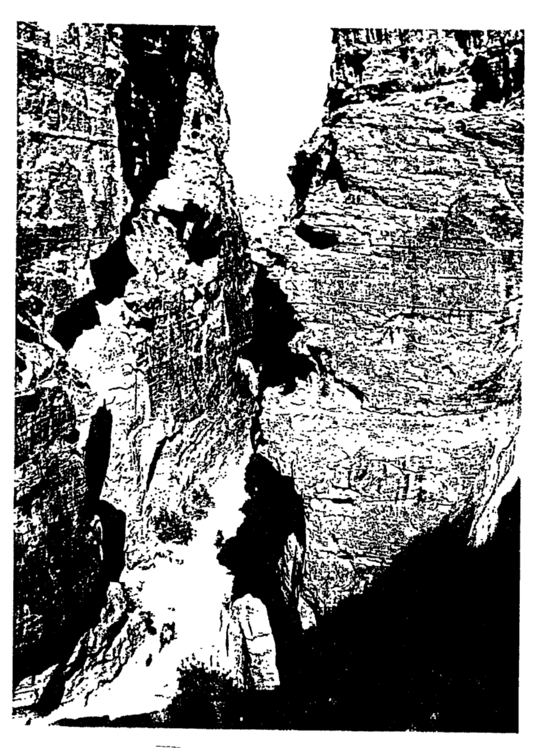
احتلت مدينة بترا موقعاً فريداً من نوعه في النهاية الداخلية لذلك المضيق الصخري العميق، الذي يتسع هناك ليشكل وادياً شبه مستدير يحتوي آثار المدينة. واسم بترا له علاقة بالصفة الطبوغرافية لهذا المكان كما ذكر في بداية هذا الفصل. لا شك أن موقعاً كهذا يجعل احتلال المدينة شبه مستحيل. فالمدخل الوحيد إليها هو ذلك الصدع الصخري أو المضيق، الذي يتعرج لمسافة أكثر من ألفي متر بين الصخور التي لا يزيد ارتفاعها في بدايته عن الخمسين متراً. ولكنها تتدرج في الارتفاع حتى تصل المئتي متر. ويضيق هذا الصدع كلما اقترب من المدينة، فبينما يبلغ عرضه في البداية حوالي العشرة أمتار، لا يزيد في نهايته عن الأربعة أمتار. في تلك الصخور ترك الأنباط ما يصعب حصره:

تعرجات ومنحنيات لا تحصى.. أقنية للماء منقورة في الصخر.. أشكال للآلهة على البروزات الصخرية.. قطع منحوتة من الصخر بأشكال مختلفة ومسلات حجرية.. وكثير من الشقوق الصخرية نما فيها نبات الدفلى وأشجار التين.. وبقايا من قوس النصر.. وهنا وهناك بضع درجات صقلتها آثار الأقدام لكنها لا تقود إلى أي مكان ظاهر.. وبعض الكتابات المحفورة... وركن صخري عليه صورة متآكلة لإحدى الإلهات بين اثنين من النمور.. وغير ذلك..

والصخور المسيطرة على المضيق يميناً وشمالاً تتدرج من بياض اللؤلؤ إلى الأصفر الخفيف فالأحمر الشاحب ثم البنفسجي الخفيف. ويتناوب على المار هناك بعض من ضوء الشمس وزرقة السماء تارة وبعض من الظلال المعتمة تارة أخرى. وفي أضيق مكان منه تبدو الصخور وكأنها معلقة بحيث لا يرى المار شيئاً من السماء.

قبل أكثر من ألفي سنة كانت حركة الذهاب والإياب في هذا المضيق لا تهدأ. أما تشكُّل هذا المضيق فيعود إلى الحقب الجيولوجية القديمة التي حصلت فيها تحركات طبيعية عنيفة في الأرض، ارتفع فيها الجبل وتصدعت الكتل الصخرية، ثم وجدت مياه وادي موسى مجرى لها في هذا الصدع. وعلى مدى آلاف السنين عمل فيه حت المياه تعميقاً وتوسيعاً.

ويفاجأ المار هنا بوصوله إلى مدينة بترا بلحظة غير منتظرة، عندما تطالعه على حين غرة واجهة منحوتة في الصخر تكشفها للناظر حزمة من ضوء السماء. وخلال



المضيق الصخري المؤدي إلى مدينة بترا

دقائق قليلة جداً يخرج الإنسان من الظلال المعتمة إلى أشعة الشمس ليجد نفسه أمام أجمل وأهم بناء في هذه المدينة العجيبة، وهو المسمى «الخزنة».

في تلك الصخور ذات اللون الأحمر الوردي تم نقر هذا البناء العميق. ويبلغ ارتفاع الواجهة أربعين متراً من القاعدة حتى قمة الباب، تعلوها أكثر من ثلاثة أمتار أخرى من الصخر المحفور على شكل صندوق. والذي يرجح أنه سبب تسمية البناء بـ «خزنة الفرعون». وهذه التسمية العربية تستند إلى خرافة بدوية تقول إن مدينة بترا بكاملها أوجدها ساحر ضخم أسود أراد أن يتمثل بالفرعون ويظهر قدرته السحرية من خلال الأبنية، وقد خبأ خزنته عالياً في ذلك الصندوق كي لا تطالها أطماع الناس. وفي ذلك الصندوق الصخري عدد لا يحصى من آثار الطلقات النارية، إذ أن أجيالاً كاملة من البدو في عصرنا الحالي كانت تحاول على ما يبدو كسر ذلك الصخر. لأن الخرافة المذكورة تقول إن الرامي المحظوظ يجب أن تغمره بَرَكة الذهب.

ليس في هذه الواجهة ما يوحي بأنها من الفن النبطي. ولا يستبعد أن يكون قد أنجزها فنان قادم إلى هناك أيام حكم الملك الحارث الثالث المعجب باليونان والذي لقب «محب الهلنستية»، وذلك ما بين 84 و56 قبل الميلاد. وبالتأكيد كانت هذه الواجهة توحي لكل قادم إلى بترا بأنه يدخل مدينة غنية. وبصورة عامة فإن الغرض من هذا البناء ما زال حتى الآن غير معروف.

إن استعراضاً عاماً لبقايا المدينة يجعلنا نتصور كم كانت تعج بالحياة فيما مضى. لقد انتشرت فيها شبكة كاملة من الأنابيب الفخارية التي كانت تمدها بالمياه العذبة. وكانت فيها معابدها وحماماتها العامة ومدارسها وقصرها الملكي وأسواقها وأسوارها ومسرح يتسع لما يقارب السبعة آلاف متفرج، ثم معبد الآبار وشارع الأعمدة.

ومن الواضح أنه لم توجد مساحة كافية من الأرض لإقامة المسرح، فعمدوا لاقتطاع كل الواجهات في الشارع المتاخم له، بحيث صارت تشكل جداراً خلفياً لمدرج المتفرجين. كما حصل ما يشبه ذلك لأبنية أخرى عند إنشاء شارع الأعمدة.

ويبدو أن الأنباط كانوا يحبون الزخارف الجصية والألوان على الأبنية. إلا أنه لم تكن لهم تلك الشهرة في الفنون المعمارية كغيرهم. فالأبنية التي ترجع إلى ما قبل العصر الروماني ليست على درجة ملحوظة من الجمال.



أجمل ما خلفه الأنباط في مدينة بترا «الرقيم» وأروع ما يمكن أن تحفره يد الإنسان في الصخور الصلبة.

ما يدعى: «خزنة الفرعون»

والعمل في الصخور كان يتم من الأعلى إلى الأسفل. ولا شك أن إنجاز سقف صخري لغرفة قياساتها متواضعة كان بالنسبة إليهم أمراً مرهقاً ويستغرق وقتاً طويلاً. والدعائم والجوارير كانت في البداية غريبة عليهم. وقد تعلموا كثيراً من قواعد البناء فيما بعد، عندما أفسحوا المجال للتأثيرات من المناطق الأخرى، حيث أبدعوا واحداً من روائع الأبنية التذكارية وهو المعبد الكبير المسمى اليوم قصر بنت فرعون.

ونشاهد نموذجين من الأعمدة. فالنموذج الروماني هو ذلك الموجود فيما يسمى شارع الأعمدة. وهي رفيعة نسبياً وعالية وبعيدة بعضها عن البعض الآخر، ويتكون

العمود من بضع قطع مركبة فوق بعضها. بينما النموذج النبطي الصرف يتكون من عدد كبير جداً من الأقراص الحجرية المستديرة المنضدة بإحكام فوق بعضها، ويتصف العمود منها بضخامة ظاهرة ومتانة عظيمة. ولا شك أن هذه الطريقة في صنع الأعمدة كلفت وقتاً وجهداً أكثر مما نتصور. ويبدو أنهم كانوا يخشون الفراغات الواسعة فعمدوا إلى جعل الأعمدة قريبة جداً من بعضها وضمنوا بذلك استناداً متيناً للسقوف فوقها. وأثبتوا جدارتهم في بناء الأنفاق واستغلال الماء بشكل متقن للغاية. فذلك الفن الموجود في تمديدات المياه والسيطرة عليها وتخزينها وتنظيم كل هذه الأمور بطرق فنية لم يكن الرومان أنفسهم متفوقين عليه.

الحياة العامة عند الأنباط

لا بد لنا في هذا الصدد من استعراض ما ذكره المؤرخ اليوناني سترابون في وصفه للحياة بشكل عام في بترا. ولم يُعرف عن سترابون أنه شاهد بترا بنفسه، بل إن معلوماته كلها قد رواها له «اينودوروس Ahenodorus» الذي كان مربياً وصديقاً للقيصر أوغسطس والذي قضى بعض الوقت عند الأنباط في عاصمتهم خلال القرن الأول قبل الميلاد. يقول سترابون استناداً إلى هذه المعلومات:

«. . الأنباط شعب متزن ونشيط إلى درجة كبيرة. العقوبات القانونية عندهم تفرض بحق أولئك الذين تتضاءل أموالهم لأسباب تعود إلى سوء تصرفهم، بينما يحظى بالاحترام والتكريم أولئك الذين تزداد أموالهم[152]. وبما أن الأنباط لسبب أو لآخر لا يمتلكون إلا القليل من العبيد فهم يخدمون بعضهم البعض، كما أن كلاً منهم يخدم نفسه بنفسه. وهذه العادة موجودة حتى عند ملكهم. وفي مجالس التسلية والضيافة يحرصون على التوزع في مجموعات تضم كل منها ثلاثة عشر شخصاً ويؤانسها موسيقيان. والملك يستضيف في بيته الكبير كثيراً من هذه المجموعات دفعة واحدة. لا أحد منهم يحاول أن يشرب أكثر من أحد عشر كأساً صغيراً من الخمر في جلسة واحدة. وملكهم يتصف بالديمقراطية. فهو لا يخدم نفسه بنفسه

(152) سنلاحظ في الفصل القادم ما يشبه ذلك عند التدمريين الذين عبروا عن هذا التكريم بإقامة التماثيل أو النصب التذكارية للمساهمين في زيادة الثروة.

فقط، بل ويخدم الآخرين أيضاً. ومصاريفه يعرضها على الشعب لينال موافقته. كما أن سلوكه العام في حياته خاضع للتحقيق الرسمي.

وبيوت الأنباط مبنية من الحجارة. ومدنهم ليست لها أسوار. وعندهم الكثير من الثمار. ولكن الزيتون لا يوجد لديهم. والأرجح أنهم كانوا لذلك يستخدمون زيت السمسم. وأغنامهم تنتج الصوف الناعم الأبيض. وثيرانهم كبيرة وقوية. إلا أنهم لا يربون الخيول. وعوضاً عنها لديهم جمال كثيرة تقدم لهم خدمات عديدة. وملوكهم يلبسون «البابوج» في تجوالهم، ولكنهم يرتدون الألبسة الأرجوانية.

وهم يرون أن جثث الموتى ليست لها قيمة أكثر من الزبالة. ويبدو أنهم تأثروا بما قاله «هيراكليت Heraklit»[153] أنه يجب التخلص من الجثث قبل التخلص من أكوام القمامة. ولذا فقد دفنوا حتى ملوكهم على مقربة من المراحيض.

وكانوا يقدسون الشمس ويقيمون في كل بيت مذبحاً يقدمون عليه كل يوم قرباناً من المشروبات ويستهلكون في ذلك كثيراً من البخور الذي يملكون منه كميات ضخمة. والعاصمة النبطية تدعى بترا. وقد دعيت كذلك لأنها محمية من كل جهاتها بالصخور التي لها من الخارج انحدارات شديدة مخيفة. ولكن من الداخل ينبع منها الماء الصافي بشكل دائم ويساعد في زراعة الحدائق...=

ليس كل ما كتبه سترابون ثبتت صحته من خلال التحريات الأثرية. كما أنه ليس مؤكداً إن كان «اينودوروس Ahenodorus» نفسه ـ وهو صاحب هذه المعلومات ـ قد أدرك بصورة صحيحة كل ما كان يحكى له أثناء وجوده في بترا. فهو لم يكن يتكلم اللغة النبطية، أو ربما على الأكثر كان يفهمها بصعوبة. وهو ينتمي إلى الثقافة اليونانية ـ الرومانية، وعدا عن ذلك كان أعمى. ولذا فإنه بالطبع لم يكن يستطيع التأكد عياناً مما

(153) كان أصله من نسب ملكي في مدينة «إفسوس» غربي آسيا الصغرى وعاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وتملكت نفسه الفلسفة في سن مبكرة. فانزوى في الجبال قرب أحد المعابد وعاش بشكل زاهد حتى مات هناك. واعتبر أول زاهد عرفه ذلك العصر.

انظر لذلك: Woerterbuch der Antike, p291...

يسمعه. ولم يكن ملماً بنظام الحياة تماماً وطريقة التفكير في بلدان الشرق الأدنى. ومن هنا يمكن القول إن أموراً كثيرة كانت بالنسبة إليه غير مفهومة، وأموراً غيرها أحسَّ بأنها غريبة. فهناك مثلاً الأعداد الواردة عنده ـ ثلاثة عشر شخصاً وأحد عشر كأساً ـ ليس لها تفسير واضح، وربما كان لها مدلول ديني. ووصفه لحياة الملك بالديمقراطية يستنتج منه أن الأنباط في حياتهم الاجتماعية كانوا فعلاً قد احتفظوا ببعض التقاليد ذات الأصول القبلية، وأن ملكهم في الفترات الأولى لدولتهم كان يعتبر نفسه بمثابة شيخ قبيلة عصري أو متمدن، وأما مسألة حسن الضيافة وقيام المضيف بنفسه على خدمة ضيوفه فهي من صميم التقاليد الشرقية وما زلنا نرى آثارها حتى اليوم.

من المعتقد أن الأحياء السكنية في بترا كان لها قبل فترة النفوذ الروماني مظهر لا يختلف عن مظهر تلك المدن الريفية الصغيرة في المحيط السوري، والتي لم تثقلها يد الحداثة في عصرنا هذا. فبيوتها الصغيرة تكونت من طابقين، وكانت لها نوافذ صغيرة. وسطوحها مستوية. واستخدم في البناء الطوب المجفف والبيوت محصورة في أزقة ضيقة متعرجة. أما منطقة السوق والمعابد فهي مفتوحة للنور أكثر ولها مجال أوسع. وجدران المعابد غير مزخرفة. ولكن يبدو أنها كانت مطلية بنوع من الملاط ومدهونة الألوان الزاهية. وبشكل عام لم يكن الفن غريباً عن البيئة السورية.

في العصر الروماني، وعلى التحديد خلال القرن الأول قبل الميلاد، حصل تطور ليس بالقليل نتيجة التأثيرات الخارجية المستمرة، والتي يلاحظ أنها لاقت قبولاً عند الأنباط. فقد كشفت التحريات الأثرية عن بيوت مبنية بالحجر تعود إلى تلك الفترة وما بعدها. وهي من الداخل تتناسب مع الوضع المادي لأصحابها. إلا أنه لا يستنتج منها شيء عن المكانة الاجتماعية لأصحابها.

من الواضح أن الأنباط كانوا مولعين بالمادة. يحسبون حساباً للمال الذي يحصلون عليه من التجارة. ومن لم يكن تاجراً، وبالتالي لم يكن من أصحاب الأموال، مثل أولئك المستخدمين لدى المؤسسات التجارية أو الموظفين أو الكهنة أو المفكرين وغيرهم، أمكنه الحصول على الرغم من ذلك على مكانة معتبرة، لأن الآخرين بحاجة إليه لهذا أو ذاك من الأسباب. ولكنه يبقى غير معدود بين أهل المال الذين كانت بيوتهم من الداخل والخارج مزخرفة والأرجح أيضاً مدهونة بألوان زاهية، كما لاحظ الآثاريون من قطع الجص الموجودة.

وأما فرش البيوت العادية فكان أقرب إلى البساطة. إذ استخدموا البسط الصغيرة

المصنوعة من الصوف أو شعر الماعز. والمعتقد أن استخدام الطاولات والكراسي عندهم كان على نطاق ضيق فقط. وبسبب ضيق النوافذ فإن الغرف كانت معتمة وسيئة التهوية، خصوصاً وأنهم استخدموا في الإنارة سراج الزيت. هذا وإن مشاهدتنا لبعض البيوت القديمة في مدننا الحالية والتي ما تزال مأهولة تعطينا فكرة تقريبية من مساكن الأنباط.

يبقى أمراً غير معقول ما ورد آنفاً في نص سترابون عن تصرف الأنباط بموتاهم، حيث إن شعائر الدفن والتقاليد المتبعة فيه كان لها دور هام في حياتهم. والواقع أن القبور الصخرية المنحوتة بعناية لا تدع مجالاً للشك في ذلك. كما تدفع للاستنتاج أنه كانت لديهم طقوس تأبين منظمة. وهذه القبور العديدة تجعل من الجروف الصخرية مقبرة بكل معنى الكلمة. بعضها صغير وبدون أسماء، والبعض الآخر كبير ومصنوع بشكل فخم. مثال ذلك ما يدعى قبر القصر، والمقبرة الملكية، وموقع الأربعة عشر قبراً، ثم ما يدعى قبر الوعاء بساحته الأمامية والأعمدة المقطوعة من الحجر وقاعته الداخلية العريضة والعميقة.

وعلى واجهات القبور نقشت بالخط النبطي كتابات تخلد ملكية هذه القبور لأصحابها وتعتبر بمثابة وثيقة ملكية وراثية، حيث أن أغلب الكتابات المنقوشة عليها جاءت بصيغ متقاربة أو متشابهة على النحو التالي:

«هذا القبر (أو المدفن أو هذه المقبرة) بناه... أو صنعه فلان بن فلان... لنفسه ولأولاده من بعده.. و.. و.. إلخ. وكل من يبيعه أو يشتريه أو يرهنه أو يؤجره أو يدفن فيه شخصاً آخر.. أو.. أو.. إلخ.. يكون ملعوناً من الآلهة إلى الأبد.. و... إلخ»[154].

هذه الكتابات بالذات تجعلنا نستبعد أن يكون الأنباط قد صنعوا قبوراً رمزية أو لهدف آخر ليُدفنوا بعد موتهم في أمكنة أخرى، وخصوصاً إذ لاحظنا هذه العبارة الصريحة: ـ أو يدفن فيه شخصاً آخر ـ التي ترد في العديد من هذه المنقوشات.

وقد تقدم البعض بآراء تقول إن المقابر الصخرية الكبيرة ربما كانت مساكن أو مخازن للبضائع. إلا أنها مجرد افتراضات تخيلية لا يوجد أي إثبات لها، وليس في تلك المقابر ما يوحي بالميل إلى هذه الآراء. مقابل المضيق المؤدي إلى المدينة ينتصب قبر

(154) وجدت نماذج مشابهة لذلك في نقوش التدمريين أيضاً.

المسلات الكبير الذي دعي كذلك بسبب تلك المسلات الأربع الغليظة التي يقارب ارتفاع كل منها سبعة أمتار، أما فترة إنشائها فغير معروفة بدقة.

على كل حال فإن ما زعمه سترابون عن دفن ملوك الأنباط قرب مراحيضهم هو أمر غير قابل للتصور، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المدينة في هذه الحال ستصبح بسرعة غير قابلة للسكن. ومن الجدير بالذكر أن كل الجهود التي بذلت في الحفريات الأثرية لم تكشف عن أي أثر لأماكن المراحيض.

مما لا شك فيه أن بترا خلال فترة ازدهارها الطويلة نسبياً كانت مكتظة بالسكان لدرجة الازدحام. وهذا يعني أن الكثافة السكانية على مدى قرونٍ عدة تنشأ معها مقابر كبيرة خارج نطاق المدينة التي تطوقها الجبال الصخرية. إلا أن عدم اكتشاف آثار للمقابر ما زال لغزاً يشكل خيبة أمل لباحثي الآثار.

وهناك مجموعة من أعمدة القبور الهرمية الشكل والتي عرفها الفينيقيون وجدت عند مدخل وادي المظلم ـ من تفرعات وادي موسى ـ، إلا أنها لم تدل على وجود مقابر حقيقية. وأخيراً هناك من لا يستبعد أن يكون الأنباط قد اتبعوا ولو جزئياً عادة وضع الأموات في أماكن عالية، استناداً إلى اكتشاف أماكن مغطاة بصفائح حجرية. وعلى الرغم من ذلك فإن كل ما قيل يعتبر حتى الآن مجرد افتراضات.

الحياة الدينية

إن ما هو معروف حتى الآن عن المفاهيم الدينية وعادات التعبد عند الأنباط لم يتم التوصل إليه إلا بصعوبة وبنجاح جزئي. فالكتابات المحفورة في الصخر تقدم بعض الإيضاحات البسيطة وأحياناً إسماً لأحد الآلهة. وقد تم العثور على محارق البخور المصنوع بعضها من الحجارة والبعض من الفخار. كما توجد تلك المسلات الحجرية، وأصنام صغيرة يمكن حملها، ومذابح، وتقارير الكتاب القدماء، الذين لا يمكن دائماً تصديق كل أخبارهم.

من المحتمل أن أمناء المحفوظات حملوا معهم كل مدوناتهم عندما بدأ التدهور التجاري في بترا وأخذ الأنباط يهاجرون إلى دمشق وتدمر والأسكندرية. وأطول نص تم العثور عليه صدفة في موقع وادي المربعة عند البحر الأحمر مكتوب على البردي (البابيروس). وعلى الرغم من هذه الندرة في وثائق الأنباط، فإنه من خلال الاستنتاجات

وبعض تقارير القدماء المعتمد عليها، والمكتشفات الأثرية، والمقارنات، ووثائق المناطق المجاورة، تم التوصل إلى تصور معقول عن الحياة الدينية والطقوس عند الأنباط، ولا شك أنه كان لها دور كبير في حياتهم كما هو الحال عند كل شعوب ذلك العصر.

عرف الأنباط آلهة متعددة. لكن أبرزها كان الإله «ذو الشرى» والإلهة «العزّى». وعدا عن الآلهة اعتقدوا بالأرواح.

أما الإله «ذو الشرى» فيحتمل أن الأنباط أخذوا عبادته عن الإدوميين. ومن الواضح أنه كان إلهاً محلياً، حيث أن الاسم له علاقة بتلك المرتفعات الجبلية المحيطة ببترا والتي تدعى منذ القدم «الشراه». وقد صوروا هذا الإله بشكل حجر مربع كبير. ومن المعروف أنه كان للحجارة والصخور مكانة هامة عند الأنباط في التصورات الدينية. ومما يميز الأنباط ومن جاورهم في شرقي الأردن عن أهل الرافدين والمصريين أنهم لم يهتموا بإعطاء أصنامهم أشكالاً بشرية. وليس مؤكداً إن كان سبب ذلك افتقار للموهبة الفنية. إلا أن الحجر المربع بحد ذاته لم يكن يعني كل شيء. فهو إنما يرمز إلى الألوهية التي لها حسب تصورهم مسكن وعرش تجلس عليه ومذبح لتقديم القرابين. وذو الشرى ازدادت أهميته مع اتساع مملكة الأنباط ودائرة نفوذهم. وتحت تأثير الثقافية الهلنستية أخذ يكتسب بالتدريج ملامح بشرية. وقد ساوى اليونان بينه وبين إلههم «ديونيسيوس»، ولكن في بترا نفسها لم يتغير شيء وبقي ذو الشرى يمثله حجر مربع. ويبدو أن حجم الحجر لم يكن يلعب دوراً أساسياً. إذ كان يمكن أن يكون كبيراً وله مكان ثابت، أو صغيراً بحيث ينقل من مكان إلى آخر. وعدا عن الحجر المربع عرف لديهم شكلان آخران هما المسلة المدببة والعمود.

ثم كانت عندهم «اللات» التي اعتبرت بشكل عام إلهة الشعب. والاسم يعني ببساطة: الإلهة. لأنه ناتج عن تخفيف لفظي لكلمة «ألاهتا» الآرامية اختفت فيه القيمة الصوتية للهاء. وقد مثلوها غالباً بشكل مركب من عناصر عدة: قرنين بشكل هلال وحجر مستطيل فوقه كرة.

ثم احتلت «العزّى» في بترا المرتبة الأولى، واعتبرت أم الآلهة. والاسم له مدلول القوة والسلطان. كما اعتبرت حامية الشعب وإلهة الينابيع. ورمزوا إليها بحجر كبير مستطيل في أعلاه عينان على شكل النجوم.

ليست هناك معلومات دقيقة عن طقوس الاحتفالات الدينية عند الأنباط. إلا أنه

يستنتج من روايات ذلك العصر أن احتفالات عبادة ذي الشرى كانت لها جاذبية غير عادية. ومع ذلك لا نعرف إن كانت شبيهة باحتفالات «ديونيسيوس» عند اليونان أو احتفالات «أدونيس» عند الفينيقيين.

وتدل المكتشفات في بعض الأماكن على أن الأنباط مارسوا العبادة فوق المرتفعات أيضاً. حيث وجدت فوق إحدى القمم المحيطة ببترا بقايا مكان مقدس يُصعد إليه على طريق منحدر بشكل درج محفور في الصخر. ولإنشاء هذا المعبد أزالوا قمة الجبل بكاملها ليصبح الموقع مسطحاً تبرز فيه مسلتان كبيرتان يعتقد أنهما تمثلان ذي الشرى والعزى. وربما كان ذلك الموقع من زمن الإدوميين ثم طوره الأنباط فيما بعد. فوق تلك المرتفعات كانت تقدم القرابين التي كانت لها بالتأكيد مدلولات أكثر مما نتصور اليوم. فهي في ذلك الزمن تجديد للعلاقة بين الإنسان والآلهة ونوع من الالتصاق بها، وتستجلب الرحمة لصاحبها. وفي هذه الحال لم يكن الدم يعتبر رمزاً للألم أو المعاناة، بل رمزاً لتجدد الحياة ومصدراً لها. إلا أنه لا توجد حتى الآن أدلة واضحة، إن كان الأنباط قد قدموا قرابين بشرية أيضاً. أو أنهم اكتفوا بالقرابين من الحيوانات.

فن صناعة الخزف

غير معروف على وجه الدقة إن كان الأنباط أنفسهم، أو أولئك المتبقون في بترا من أسلافهم الإدوميين الذين اختلطوا معهم، هم أصحاب ذلك الفن المتفوق في صناعة الخزف. هناك من الأواني المسطحة له من الرقة والنعومة ما يجعله يقارن بالبورسلان. ومن الواضح أن الخزافين كانت لهم مهارة أيدي وسيطرة على العمل بصورة ممتازة. ويمكن أن نتصور الجهد والرشاقة المطلوبين من قذف الطين على الدولاب ودورانه إلى صقله. بينما يتم سكب البورسلان في شكل واحد. علماً بأن الأواني المسطحة تعتبر من حيث شكلها من أصعب ما ينجزه الخزاف وتتطلب أكثر الأيدي مهارة.

وأما الألوان التي استخدمت فهي تتدرج من الأحمر الغامق إلى البني الغامق إلى الأسود، على أرضية بلون قرميدي فاتح أو غامق. ويلاحظ في الزخرفة تغلب الأشكال الطبيعية، كأوراق النباتات وخصوصاً النخيل، والفواكه والطيور. أما الأشكال الهندسية فهي أقل. وبعكس الكثير من المناطق الأخرى وجدت كميات كبيرة من الفخار المكسر دائماً، وكان وجود أوانٍ كاملة، أو شبه كاملة، أمراً نادراً جداً.

أول تصادم
بين الأنباط واليونان

في الوقت الذي أنشئت فيه الخزنة كانت بترا قد أصبحت مدينة حقيقية منذ زمن طويل. ومن المعتقد أنه قبل ذلك بكثير كان قد وجد مجتمع مدينة بالمعنى الصحيح، أي على الأقل حوالى 300 قبل الميلاد. وربما كان لديودور الصقلي رأي آخر في ذلك، إذ أنه استخدم، كما هو معروف، تقارير السلوقيين في وصفه لمدينة الأنباط، والذي ألحق به قصة طريفة عن أول اصطدام بينهم وبين اليونان، كان عبارة عن هجوم فاشل على مدينة القوافل وراء الجبال:

ففي إحدى الليالي من سنة 312 قبل الميلاد قامت مجموعة يونانية بغارة على بترا، كان قد رتَّبها «أنتيغونس Antigonos» أحد القادة الأربعة الكبار الذين اقتسموا امبراطورية الاسكندر، وكان له حكم آسيا الصغرى (كما مر في الفصل السابق). واستطاع جنود المجموعة أن يغنموا في هذه الغارة 500 طالن من الفضة وكميات ضخمة من البخور والمر، وانطلقوا بهذه الغنيمة بأسرع ما يمكن[155]. ويبدو أنه لم تكن عندهم فكرة واضحة عن هؤلاء التجار الأنباط. وعلى كل حال فقد شعروا أنهم بحاجة لبعض الراحة بعد هذه الغارة. ولكن الأنباط باغتوا اليونانيين قبل الفجر وهم يغطون في نوم عميق. فاستردوا منهم الغنائم بعد أن أبادوا منهم من استطاعوا ما عدا خمسين فارساً تمكنوا من الفرار.

بعدها بعث الأنباط إلى «أنتيغونس» بتوضيح كامل عن الحادثة مذيل بمعذرة. فأرسل يؤكد لهم في جواب لطيف كله مجاملات أن قائدة «أثنايوس Athenaios» قد قام بهذا التصرف على مسؤوليته الخاصة وأنه سينزل به العقوبة التي يستحقها.

إلا أن هذه الدبلوماسية الكاذبة لم تخدع الأنباط الذين يعرفون حق المعرفة كم كان «أنتيغونس» يتحرق شوقاً للحصول ولو على جزء من أرباح التجارة التي كانت تمر في

---

(155) سبق تعريف الطالن في الحاشية رقم (5) والإشارة إلى أنه اعتبر في اليونان يساوي 26,2 كيلوغراماً. فإذا صحت معلومات ديودور فإنما يعني أن الـ 500 طالن تساوي أكثر من ثلاثة عشر ألف كيلوغرام من الفضة. عدا عن الكميات الضخمة من البخور والمر. ويعني بالتالي أن الأمر كان يتعلق بغارة كبيرة ربما تصحبها العربات لنقل هذه الحمولة، وليس بمجموعة بسيطة تنطلق بأسرع ما يمكن.

بترا ليملأ به جعبته، هذا إذا لم يتمكن من السيطرة على المدينة نفسها وطرق القوافل بالكامل.

ولم يخطىء ظنهم في ذلك، حيث أنه لم يمض وقت طويل حتى تكررت المحاولة للاستيلاء على بترا، وهذه المرة بقوة عسكرية أكبر وبقيادة واحد آخر من جنرالات «أنتيغونس» يدعى «ديمتريوس Dimetrios». ولكن يظهر أنه أيضاً لم يلاق نجاحاً كبيراً. إذ أنه أفسح المجال للتفاوض مع الأنباط والانسحاب بعد حصوله على هدايا قيمة[156].

يتضح من ذلك أن الأنباط كانوا بحاجة للسلام. وكانوا على استعداد لشرائه بالمال إن اقتضت الضرورة، خصوصاً وأنهم لم يكونوا دولة محاربة بالمعنى الصحيح. والحرب والتجارة لا سبيل إلى التوفيق بينهما. ومن روايات ذلك الزمن يستنتج أن الأنباط، أو بالأحرى غالبيتهم، لم يكونوا في تلك الفترة قد أصبحوا أهل مدن وسياسة بكل معنى الكلمة، أي عند المقارنة مع الممالك الأخرى في سوريا القديمة، بل احتفظوا بجانب من حياة البداوة، وإلا لما استطاعوا بسرعة حمل ما غلا ثمنه والالتجاء إلى الجبال الصخرية.

من الجدير بالذكر أن ديودور الصقلي يزعم أنه كان محرماً على الأنباط بموجب قانون صريح أن يزرعوا حبوباً أو يغرسوا أشجاراً مثمرة أو يشربوا خمراً أو يبنوا بيتاً.

ولكن حتى لو صح هذا الزعم فإنه لا ينطبق على الفترة التي كتب فيها ديودور الصقلي، أي عصر أوغسطس في القرن الأول قبل الميلاد، ولا حتى على الفترة التي حصل فيها التصادم مع اليونان في الحملتين الآنفتين في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، بل يعود إلى زمن سبق ذلك بكثير عندما كانت جماعات الأنباط تبحث عن مستقرٍ لها.

---

(156) مر معنا سابقاً ما يشبه ذلك في حملة أنطيوخس الثالث الكبير (205 قبل الميلاد) على مدينة «جرها» على الساحل الغربي للخليج وانسحابه مقابل حصوله على هدايا كبيرة.

ارجع إلى فقرة (سياسة السلوقيين في سوريا ونظم الحياة العامة).

النشاطات الخارجية
والدبلوماسية النبطية

حتى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد كانت الثقافة الهلنستية قد انتشرت في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم ولاقت قبولاً لا يستهان به. والأنباط الذين كانوا في بداية تاريخهم ببترا محافظين جداً ومعروفين بالتشكك والتردد إزاء الثقافات الأخرى أخذوا بالانفتاح واختلطت عندهم كل التقاليد والعادات من بلاد الشام والرافدين على السواء، بعدما ثبت لهم أن ذلك سيعود بالفائدة لمصلحتهم التجارية قبل كل شيء. وسوف نرى أن ما يشبه ذلك تقريباً حصل أيضاً في تدمر.

وفيما بعد أعطى التأثير الهلنستي لحياتهم وأفكارهم وجهاً جديداً. وساعدتهم براعتهم في تحقيق فوائد عظيمة من الحروب الطويلة بين البطالمة الذين حكموا مصر والسلوقيين الذين حكموا مناطق بلاد الشام وآسيا الصغرى. وقد تمكن الأنباط من توسيع مجال تجارتهم وتعميق نفوذهم. كما امتدت دولتهم باتجاه الشمال لدرجة أن مدينة دمشق صارت تحت نفوذهم (من دون عمليات عسكرية) في عهد ملكهم الحارث الثالث الذي أطلق عليه لقب «Philhellene» ويعني: «محب الهلنستية».

إلا أن الأنباط لم يقفوا عند هذا الحد. فمن تقارير جواسيسهم ومن التجار الكثر وقادة القوافل القادمين إلى بترا اجتمعت لديهم معلومات أنّ الأمور في جنوبي شبه جزيرة العرب ليست طبيعية. فهناك مؤشرات على بدء زوال ممالك المدن، وقد ظهر هناك الحميريون على أنقاض دولة السبئيين[157]. وأحس الأنباط أنه قد حان الوقت لمدّ منطقة نفوذهم صوب الجنوب أيضاً. إلا أن الطريقة التي اتبعوها في ذلك غير معروفة. وكل ما يمكن قوله إنهم ربما فضلوا طريقة التغلغل الهادىء في أرض اللحيانيين الذين كانوا قد انتقلوا تدريجياً إلى واحة «ديدان» المعروفة اليوم باسم «العلا» إلى الجنوب من «تيماء» وأسسوا هناك شبه مملكة لهم.

ومن المعروف على كل حال أن الحميريين فقدوا كل نفوذ كان لهم في أواسط شبه جزيرة العرب وبالتالي محطة القوافل «ديدان» نفسها، ووجدوا أنفسهم مضطرين في البداية إلى تقاسم أرباح التجارة مع الأنباط، وفيما بعد إلى التنازل لهم عن القسم

(157) أنظر لمحة عن هذه الممالك في ملاحق الكتاب.

الأعظم منها. والأنباط لم تكن تنقصهم المهارة في التعامل مع الجزيرة العربية. فعرفوا أنه من الحكمة عدم التدخل في التشكيلات السياسية عند البدو المعروفين بشراستهم، وأنه لا بد أن يتركوا لهم شيئاً من مظاهر الاستقلال لكي لا يتسببوا في قلاقل تعرض تجارة القوافل إلى الخطر.

وبذلك اتبعوا سياسة لو كانت في عصرنا لما كنا أسميناها إلا نظام الحماية أو الانتداب. ربما يظن البعض مما تقدم أن الأنباط كانوا مجرد أصحاب قوافل وتجاراً متهالكين على المال فحسب. ولكن هذا لا يمثل إلا الجانب الاقتصادي عندهم. لقد كانوا أهل إقدام وتوثب بحيث وصلت علاقاتهم حتى بحر إيجة وإيطاليا. تشهد على ذلك الألواح الحجرية المنذورة لآلهتهم. ومن ناحية أخرى وصلوا إلى درجة من الحضارة لم تهمل شيئاً من حياة ذلك العصر، ولم يكونوا بها متخلفين عن سواهم.

حكام الأنباط والعلاقات السياسية

لم يكن الأنباط شعباً عادياً بسيطاً. فالواقع أنهم برعوا في التجارة وجني الأرباح الطائلة واستثمار هذه الأرباح. ولكن عندما لاحظوا أن حماية الطرق التجارية لا تضمنها إلا سلطة قوية منظمة، طوروا نظام العلاقات السياسية والروابط القديمة ليجعلوا من ذلك دولة متطورة بالمعنى الصحيح. وأخذوا ينشطون في سياسة المنطقة بكاملها. وقد حققوا نجاحاً فعلياً في ذلك.

وبينما لا توجد معلومات واضحة عن ملوك الأنباط في القرن الثالث قبل الميلاد، يلاحظ أنهم صاروا خلال زمن قصير قوة لها دورها في سياسة شرقي البحر المتوسط.

وسلسلة الملوك الذين توفرت عنهم أخبار واضحة نسبياً حكموا اعتباراً من القرن الثاني قبل الميلاد. وأول هؤلاء كان الحارث الأول[158] الذي حكم خلال النصف الأول

(158) وصيغة الاسم في النقوش الآرامية النبطية عموماً تُقرأ بشكل «حارِثت» كما يرد في الكتابات اليونانية بشكل «أريتاس Aretas». وقد أتخذ ملوك الغساسنة العرب فيما بعد اسم «الحارث».
أنظر شكل الاسم بالنبطية عند: Julius Euting, Nabataeische Inschriften aus Arabien, (Berlin 1885), pp.24-60
انظر أيضاً: Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsmeitischen Epigraphik, I.Teil, Text, (Hildesheim 1962), pp.448-454.

من القرن الثاني. وإليه التجأ «ياسون» كبير كهنة القدس عندما طرد منها. ثم يظهر اسم الحارث الثاني الذي يقدر حكمه بين 110 و 96 قبل الميلاد. وهو الذي هب لنجدة مدينة غزة عندما حاصرها المكابي «ألكسندر جنايوس» في سنة 96 قبل الميلاد. وخلفه في الحكم «عبيدة» الأول[159]، وهو الذي حقق في سنة 96 نصراً ساحقاً على المكابي «جنايوس» في معركة وقعت شرقي بحيرة طبريا، واسترد السيطرة على مؤاب وألحق بالدولة النبطية كل مناطق شرقي وادي الأردن بما فيها حوران.

وأما إبنة الحارث الثالث فقد اعتبر المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط السياسية في المنطقة. ففي الفترات الماضية كان الأنباط يتجنبون الاصطدام مع القوى الكبيرة، أي السلوقيين في الشام والبطالمة في مصر. إلا أن تدهور قوة هؤلاء أمام ازدياد النفوذ الروماني جعل الحارث الثالث يمد سلطته حتى دمشق التي وجه له سكانها دعوة للتخلص من بقايا السلطة السلوقية التي أصبحت في أيام أواخر ملوكهم عبئاً ثقيلاً. وكان ذلك في سنة 85 قبل الميلاد، حيث دخلت دمشق وكل ما يدعى سوريا المجوفة (الانهدام السوري الكبير) تحت السيادة النبطية، التي أمنت بذلك حماية الطريق التجاري المتجه إلى الشمال والذي أخذت أهميته تزداد سنة بعد سنة. كما تطلع الأنباط فوق ذلك للاستفادة من الحركة التجارية التي تتم بين دمشق ومناطق الخليج الفارسي عن طريق تدمر. ومن جهة أخرى تم للحارث الثالث أن يهزم مرات عدة جيش اليهود ويحاصر أورشليم.

هذا النجاح الكبير الذي حققه الأنباط خلال زمن قصير نسبياً في توسيع سلطتهم كان صداه مريراً عند الرومان الذين سعوا أنفسهم لتوسيع منطقة سيطرتهم حتى البحر الأحمر، والأكثر من ذلك الوصول إلى بلاد البخور في جنوبي شبه الجزيرة العربية فيما بعد. لذلك لم يتريث الرومان إزاء تزايد قوة الأنباط فأرسل بومبي حملة بقيادة «سكوروس Scaurus» أحد جنرالاته لاحتلال مدينة بترا وإصابة قلب هذه الدولة النبطية. فكان هذا أول احتكاك عسكري مباشر بين الأنباط والرومان. لكن تلك الحملة فشلت في تحقيق هدفها وانسحبت. ويسود الاعتقاد أن الأنباط اشتروا انسحاب الحملة بالهدايا والمال مثلما كانوا قد فعلوا في صد الحملة اليونانية قبل أكثر من قرنين من

(159) وهذا الاسم يرد أيضاً في النقوش بشكل «عبيدث». ويدعوه اليونان «أوبوداس Obodas» أنظر المرجعين المذكورين ذاتهما.

الزمن[160]. وسواء كان هذا صحيحاً أو لا... فإن الأنباط برزوا بعدها كأقوى قوة سياسية في بلاد الشام.

ولكن مع كل هذا لم يكن للأنباط بدّ من اتباع سياسة متميزة مع الرومان، الذين لم يكن ممكناً الوقوف في وجههم عسكرياً بصوّرة دائمة وفي حرب كبيرة. فتركوا الباب مفتوحاً للتأثيرات اليونانية الرومانية وأخذت بترا تلعب دور حليف لروما[161]. وتدليلاً على ذلك ساهم الأنباط شكلياً في حملة رومانية فاشلة على جنوب شبه الجزيرة العربية للاستيلاء على مصادر البخور[162].

هذه العلاقات الجديدة تخللتها بعض حالات الزواج، مثلما حصل عندما تزوج «هيرودس أنتيباس Herodes Antipas» من إبنة الحارث الرابع. غير أن هذا تجرأ على طلاقها ليأخذ زوجة أخيه التي كانت سبباً مباشراً في مقتل يوحنا المعمدان[163]. مما دفع بالحارث الرابع إلى شن حرب على هيرودس. والحارث الرابع هذا يدعو نفسه في الكتابات النبطية: «راحِم عمّه» أي محب شعبه[164]. وقد حكم مدة طويلة، ما بين 9 قبل الميلاد و39 أو 40 ميلادية. ومن الواضح أن الأنباط عاشوا خلال عهده فترة من الأزدهار على كافة المستويات، تخللتها حركة عمل ونشاط دائبة في كل المراكز التجارية والطرق وفي كل الاتجاهات. وكان لهم وكلاؤهم المنتشرون في كل مكان للعمل على إنجاح الأعمال التجارية والترويج لها، وقد كونوا شبكة لا تحيط بها معلوماتنا ولكنها كانت دون شك شبكة واسعة ومنظمة بما فيه الكفاية.

(160) ارجع إلى فقرة ـ أول تصادم بين الأنباط واليونان ـ

(161) وهكذا كانت أيضاً سياسة تدمر في بداية قوتها إزاء الإمبراطورية الرومانية، كما سنرى في الفصل التالي.

(162) انظر تفصيل هذه الحملة في ملاحق الكتاب المتعلقة بموضوع تجارة البخور.

(163) إنجيل متى، 14: 3ـ 11.

(164) وهناك عدد كبير من النقوش التذكارية (أو نقوش تخليد الملكية على المدافن) أرخت بسنوات حكم هذا الملك، حيث تقرأ فيها كلها عبارة:

«بسنة... كذا... لـ حارثْ ملك بنطور راحم عمّه..»

انظر نفس المكان من المرجع السابق: ..Julius Euting

انظر نفس المكان من المرجع السابق: ...Mark Lidzbarski

نهاية المملكة النبطية

لم تكن للأنباط حيلة بالنسبة لزوال مملكتهم، الأمر الذي كان منذ سنوات طويلة قد أصبح في روما مسألة وقت فقط. فأطماع الأمبراطورية الرومانية بالتوسع لم تعرف حدوداً. وكان محور سياسة الرومان في تلك الفترة ابتلاع الممالك المستقلة أو شبه المستقلة كافة في بلاد الشام لتشديد قبضة الأمبراطورية الرومانية على كل البقعة المواجهة لمملكة الفرتيين، تلك القوة الآسيوية الخطيرة فيما وراء الفرات (كما رأينا في الفصل السابق). وبذلك فإن عملية دمج المملكة النبطية في جسم هذه الأمبراطورية المتنامية كانت قد تقررت جدياً، على الرغم من أن المهارة الدبلوماسية للأنباط على الأرجح هي التي لعبت دوراً رئيسياً في إطالة عمر استقلالهم سنة بعد أخرى.

الواقع أنه لا توجد تفاصيل كافية عن ملوك هذه المرحلة الأخيرة. ولكن المعروف هو أن «رابيل» الثاني كان آخر الملوك في بترا وكانت فترة حكمه ما بين 71 و 106 ميلادية.

كان الحاكم الروماني في المقاطعة السورية «كورنيليوس بالما Cornelius palma قد تلقى أمراً من الأمبراطور تراجان أن يسرع في احتلال مملكة الأنباط وإلحاقها بما دعي «Provincia Arabia» المقاطعة العربية، لأنه لم يبق مكان للممالك الصغرى في المنطقة.

ليست هناك تقارير عن وقوع عمليات حربية، بل إن المملكة انتهت بسلام. وهناك توقعات بأن الرومان كانوا قد وعدوا رسمياً باحترام استقلال المملكة حتى موت رابيل الثاني. وبعدها لم يعترفوا بخلف له. إلا أنه لا توجد أدلة رسمية على ذلك.

وعلى كل حال فمن المعروف أنه بتاريخ الثاني والعشرين من آذار سنة 106 ميلادية كانت نهاية بترا كعاصمة لمملكة مستقلة. ولم يبق الرومان ولو على شيء رمزي من شهرتها. وبدلاً من تحويلها إلى مركز مقاطعة جعلوا من مدينة بصرى عاصمة لما دعوه المقاطعة العربية الرومانية.

بترا تحت الحكم الروماني

انتهى دور بترا كعاصمة لدولة وكمركز تجاري لامع منذ قرون عدة. ويبدو أن الحياة الثقافية قد دب فيها نشاط جديد في ظل الإدارة الرومانية. بينما التجارة على

العكس من ذلك بدأت تأخذ اتجاهات جديدة في المنطقة تحت النفوذ الروماني. فتم الترويج لطريق القوافل الشمالي الذي يصل بين الخليج الفارسي ودمشق، وسرعان ما حلت تدمر التي تتوسط الطريق بين الفرات ودمشق محل بترا التي أصبحت على هامش الحياة. وهو المصير نفسه الذي لاقته مراكز تجارية كبرى في أرض الرافدين قديماً مثل أور وبابل وغيرهما كما رأينا في الفصول السابقة.

وصار موقع بترا الجغرافي عديم الأهمية تماماً بعدما جمع الرومان مناطق الشرق الأدنى كافة في وحدة اقتصادية كاملة تحت سلطتهم. وصارت الطرق التجارية تخدم مصلحة الأمبراطورية الرومانية فقط من دون أية مصلحة أخرى. ومارس الرومان سياسة اقتصادية رومانية صرفة لا مكان فيها لمراعاة المصالح الأخرى.

وسرعان ما أدرك الأنباط ذلك. فلجأ الكثيرون منهم إلى الهجرة من بترا كي لا تضيع تجاراتهم بشكل كامل ونهائي[165]. وأغلب أولئك المهاجرين اتجه إلى تدمر. وخف سكان بترا كثيراً، وتقلصت حدود المدينة بشكل واضح تحت حكم الرومان.

ويبدو أن الرومان من جهة أخرى قد سعوا للحيلولة دون زوال مدينة بترا بشكل نهائي. وبالفعل تشير بعض الكتابات إلى أن المدينة قد حافظت على شيء من اعتبارها. كما يتضح أن الحياة المتحضرة استمرت فيها على الرغم من زوال ذلك الازدهار التجاري حتى القرن الرابع الميلادي. ولكن مع ذلك فإن هذه المدينة التي كانت تعج بالحياة والتجارة تحولت تدريجياً إلى مجتمع صغير يغلب عليه الخمول. ومن الثابت أنه عندما زار الأمبراطور الروماني هادريان بترا في سنة 130 ميلادية كان لا يزال للمدينة بعض الاعتبار وفيها حيوية لدرجة أن حركة البناء كانت لم تزل قائمة.

في النواحي المجاورة لبترا كان مقر الفرقة الرابعة الرومانية. ومن المؤكد أن بترا بشوارعها وأبنيتها الجميلة كانت لا تزال شاهد عظمة ومكاناً جذاباً لإقامة المراسيم وقضاء بعض الوقت.

وأما الأعمال التي مارسها الأنباط لقرون عديدة فقد صار يتولاها رجال الفرقة الرومانية، كالاهتمام بالأمن وحراسة الطرق والرقابة على الأوزان وتحصيل الرسوم

---

(165) رأينا فيما سبق كيف أن مدينة بابل التي كانت لحقب طويلة دماغ العالم القديم ومركز النشاط فيه تحول أيضاً قسم كبير من سكانها إلى سلوقية التي بناها السلوقيون على دجلة وحولوا إليها الطرق التجارية.

والضرائب والجمارك. في حين أصبح الموظفون الأنباط بلا عمل.

على الرغم من ذلك، يبدو أنه حتى في القرن الثالث الميلادي وجد في بترا أناس لديهم من أسباب الرفاه ما جعلهم يقدمون شيئاً للأعمال الفنيّة.

وبعد انسحاب الحاميات الرومانية أدرك بقايا الأنباط أن مدينتهم قد حكم عليها بالموت البطيء.

وأسدل الستار على المدينة العظيمة «المدينة الصخرية». فبعد دخول العرب في سنة 633 ميلادية لم تعد تخطر ببال أحد. غير أن النهاية الحقيقية حلت عندما غادرها نهائياً من بقي حياً من السكان بعد زلزال عنيف أصابها في منتصف القرن الثامن أتى على كل بنيانها.

وهكذا طوى النسيان تلك المملكة إلى أن أثارت اهتمام علماء الآثار بعد بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

الفصل الخامس عشر

المملكة التدمرية

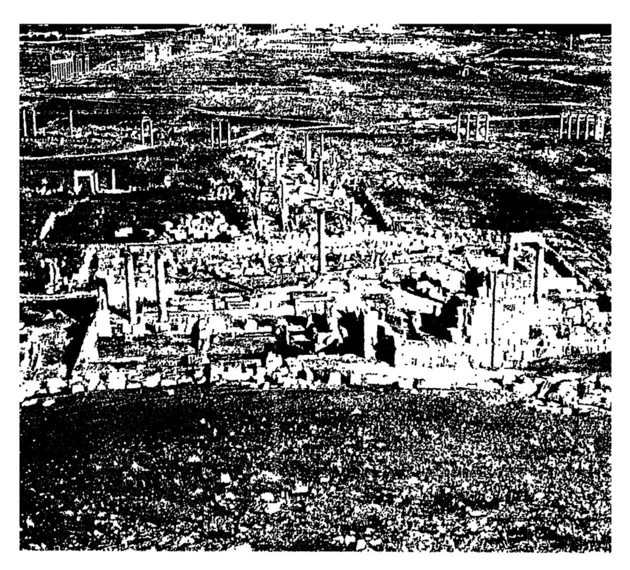
تدمر قلب البادية

تشكل البادية السورية ـ أو بادية الشام ـ بمجموعها تموجات من الأراضي القليلة الإرتفاع تنحدر تدريجياً باتجاه وادي الفرات. وكانت المناطق التي تحظى بكميات من المطر أكبر من غيرها، والمناطق التي وجدت فيها مصادر للمياه، قد اجتذبت المستوطنين منذ القدم للاستقرار فيها. وأهم هذه المناطق في قلب البادية كانت تدمر. وهي تتوسط المسافة ما بين الفرات من جهة ودمشق من جهة أخرى.

وتدمر من جملة المدن التي كانت العوامل السياسية والتجارية هي الأساس في بروزها وتطورها السريع وشهرتها، كما كان الحال خصوصاً بالنسبة لمدينة بترا. ولذلك فإن التاريخ المعروف والواضح لتدمر قصير جداً بالنسبة إلى زمن وجودها وقياساً إلى بقية المراكز الحضارية في الهلال الخصيب كله.

فهي كمنطقة مأهولة تعود إلى أزمنة قديمة جداً. ومما لا شك فيه أن التجار الذين اجتازوا البادية بقوافلهم منذ تلك الأزمنة قد اتخذوا من تلك الينابيع في واحة تدمر مكاناً للاستراحة. فنشأت بمرور الزمن قرية صغيرة ومعبد. إلا أن القوافل القليلة التي كانت تمر بين الحين والآخر لم تجعل من تدمر في تلك الأوقات القديمة مدينة تجارة.

لقد أظهرت التحريات الأثرية التي تمت في حرم معبد بعل أنه قد وجد هناك استيطان خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، أي في فترة موازية لفترة ازدهار مملكة إبلا، وأن ذلك الاستيطان استمر بكثافة حتى أواخر العصر البرونزي حوالى 1200 قبل الميلاد. ومما يدعم نتائج التحريات الأثرية هذه هو أن تدمر ورد



منظر عام لتدمر يبدو فيه القسم الأعظم من آثار المدينة بما في ذلك ما كان يدعى «معسكر ديوكليتيان» في مقدمة الصورة. أما في الخلف فيُرى حرم معبد بعل.

ذكرها في النصوص المسمارية التي وجدت في موقع «كُلْتِبِه Kültepoe» الذي هو «كانش» مركز المستوطنات الآشورية في آسيا الصغرى، التي تعود إلى فترة موازية. والمعتقد أن هذه الفترة القديمة شهدت فيها تدمر ازدهاراً كانت بدايته مع انتشار الأموريين في سوريا وانتهى بظهور قوة الآراميين. كما يعتقد أن تدمر لم تجد مجالاً للإزدهار بعد ذلك لقرونٍ عدة خلال فترة السيادة الآشورية على غربي الهلال الخصيب. ومما يرد في النصوص الآشورية بهذا الصدد أن «تغلات فلاصر» الأول كان خلال

مطاردته لقبائل البدو في القرن الثاني عشر قبل الميلاد قد هاجمها ونهبها جنوده[166].

وعلى الرغم من أن اليونان دعوا المدينة «پالميرا Palmyra» بمعنى: مدينة النخيل، كاشتقاق من كلمة «palma»، فإن لفظة تدمر لا تفسر بهذا المدلول. فأصل التسمية وزمنها غير معروفَيْن. وهناك ما يشير إلى أن الإسم قديماً كان يلفظ «تدامورا» والأرجح أنه يعود إلى صيغة قديمة شبيهة باللفظة الآرامية «تدمورتا» بمعنى الإعجاب، أي المدينة التي تُعجب[167].

تنازع القوى ومقوّمات ظهور تدمر

كانت السياسة الاقتصادية للإمبراطورية الرومانية هي السبب الأساسي والمباشر في انهيار مملكة الأنباط. ذلك الانهيار الذي كان بدوره عاملاً أساسياً في الازدهار الأسطوري الذي حققته تدمر بعد ذلك. عدا عن أن الرومان طمعوا من خلال ذلك في ضمان أفضل للتجارة وتركيز قوتهم في منطقة الشرق الأدنى للمحافظة على تفوقهم السياسي والعسكري والاقتصادي بوجود مركز كبير متطور في هذا الموقع من البادية السورية.

كان الطريق التجاري الكبير للسلوقيين يتجنب البادية السورية، ويصل بين سلوقية دجلة وبين عاصمتهم أنطاكية. ويلتقي معه في حلب الطريق التجاري القديم الآخر الآتي من مصر عبر فلسطين فدمشق. وأما طريق الفرات الكبير فقد كان خطاً حيوياً بالنسبة للسلوقيين. فهو الذي يؤمن المواصلات بين آسيا الصغرى وبلاد الشام قلب مملكتهم إضافة لمناطق أخرى شرقي الرافدين. ولحماية هذا الطريق أقاموا على أبعاد منتظمة بعض الحصون وأسسوا المستعمرات التي كانت أهمها على الإطلاق دورا أوروبوس على الفرات (والتي مرت في فصل سابق). وكان السلوقيون يعرفون تمام المعرفة أن

---

(166) أنظر Otto Kaiser: Staedte der Wueste, p.59 (Die Karawane, 22, 1981, I, Ludwigsburg) Fischer Weltgeschichte, vol. 3, 1966, p.95
وارجع إلى: فيليب حتي. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج 1. ص 432ـ 433. طبعة بيروت 1958.

(167) قارن لذلك: E.Honigmann: Historische Topographie von Nordsyrien in Zeitschrift des Deutschen Palaestima-Vereins, vol.47, 1924, p.27
أيضاً: عبدالله الحلو في تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية/ قيد الطبع/ .

الطريق المباشر من الفرات إلى ساحل البحر المتوسط عبر البادية أقصر وبالتالي أخف كلفة، إلا أنهم مع ذلك لم يهتموا به. فالمدن الكنعانية على الساحل السوري كانت خاضعة لنفوذ خصومهم ومنافسيهم بطالمة مصر الذين دخلت دمشق أيضاً تحت نفوذهم لفترة من الزمن. ولكن الأمر تغير عندما استطاع أنطيوخس الثالث ما بين 201 و198 قبل الميلاد أن ينتزع من البطالمة السيطرة على فلسطين والساحل السوري. ومع ذلك لم يحاول السلوقيون التخلي عن طريق الفرات الآمن. إلا أن هذا الطريق أصبح مهدداً عندما أخذ الفرتيون ينزلون من مرتفعاتهم مهاجمين السهول الرافدية التي وقعت كلها في قبضتهم خلال النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد (كما رأينا فيما سبق). وفي وقت غير معروف بدقة من السنوات الأخيرة للقرن الثاني قبل الميلاد وقعت في قبضتهم أيضاً البلدة الفراتية دورا أوروبوس. كما أنه ليس من المؤكد إن كان ذلك هو الذي أدى لتحول التجارة مع الغرب إلى طريق البادية السورية ومهد بالتالي لازدهار تدمر. ولكنه على كل حال أمر ممكن. حيث أن السلوقيين تدهورت قوتهم بعد هزيمتهم في معركة «مغنيزيا» ضد الرومان سنة 190 قبل الميلاد (كما رأينا سابقاً)، الأمر الذي أدى إلى عجزهم عن حماية طريق الفرات الكبير. وبعد اضطرابات شديدة ظهرت دويلات جديدة على الفرات الأعلى والمناطق المجاورة نتيجة لتفكك مملكة سلوقس الأول. كما أن ظهور جماعات من اللصوص مرتبطة المصالح وتشكل العصابات وتكوّن الحدود الجديدة للدويلات، كان كله مما ضيق الخناق على القوافل السلوقية والفرتية في آن وجعل طريقها صعباً. ولذا فإنه من غير المستبعد أن يكون التجار السلوقيون وكذلك الفرتيون قد فضلوا طريق البادية المتعب وأصبحوا ينعطفون بقوافلهم من دورا أوروبولس باتجاه الغرب. وعلى الرغم من ذلك فإن أواخر القرن الثاني قبل الميلاد لم تعتبر بالنسبة لتدمر فترة كثيرة الأرباح.

كادت الحركة التجارية تشل تماماً عندما أخذ الفرتيون يضيقون الخناق على بلاد الشام، التي كانت الهلنستية الضعيفة تبذل آخر جهودها للاحتفاظ بها. أما الخسائر الاقتصادية الناتجة عن هذا الوضع فلا توجد عنها إلا معلومات بسيطة جداً ومشوهة، لأنه لم يبق شيء جدير بالذكر من الوثائق المكتوبة السلوقية. إلا أن ملوك أواخر العهد السلوقي كان ما يزال لديهم من الغنى ما يجعلهم يأكلون طعامهم بالملاعق الذهبية. ولكن على الرغم من وقوفهم في وجه سياسة الرومان التوسعية في آسيا فإن روما لم تترك لهم شيئاً بعدما نجحت في إقامتها سوراً كاملاً من الأمارات التابعة لها في الشرق.

ثم توجت هذه السياسة بالخطوة التي قام بها بومبي «Pompeius» سنة 64 قبل الميلاد بتحويل سوريا السلوقية إلى مقاطعة رومانية.

اعتباراً من ذلك الوقت أصبحت سياسة الأمبراطورية الرومانية هي التي تحدد اتجاهات الطرق التجارية.

سياسة التعايش السلمي

بعد الهزيمة المنكرة التي تشتت فيها الجيش الروماني وقتل قائده «كراسوس Crassus»[168] والتي حصلت عام 53 قبل الميلاد في أراضي حران بالجزيرة السورية على مقربة من نهر البليخ، وبعد الجهود اليائسة التي بذلها أنطونيوس عقب ذلك بعقدين من السنين، استقر رأي الرومان على أن احتلال مملكة الفرتيين أم لا يمكن التفكير فيه، وأن منطقة وادي الفرات لا يمكن أن يربحوها عن طريق العمليات الحربية.

ومن الجانب الآخر اقتنع الفرتيون أيضاً بعدم جدوى الاستمرار في الهجمات على بلاد الشام التي لم تكن روما مستعدة للتخلي عنها وتعريض مناطق سيطرتها كافة في الشرق الأدنى للخطر. وبما أن المصالح التجارية الحيوية بالنسبة للطرفين كانت في كفة الميزان، فقد صار كلاهما محبذاً لفكرة التوصل لاتفاق يؤدي إلى حالة من التعايش السلمي ويعترف بموجبه كل من الجانبين باحترام المصالح التجارية للجانب الآخر ويتعهد بعدم وضع العراقيل في وجهها، ويتكفل بالحماية الضرورية لطرق المواصلات الواقعة تحت سيطرته أو في مناطق نفوذه.

كان الذي أوعز للبدء بهذه المفاوضات هو القيصر أوغسطس، حيث فكر بذلك الوارد الضخم الذي سيصب في الخزينة الرومانية من الجمارك والرسوم والضرائب التي يعود بها ذلك السيل من البضائع الكمالية المرغوبة في روما والقادمة من الشرق الآسيوي. والمعروف عن أوغسطس، وهو حفيد أحد المصرفيين، أنه كانت تهمه كثيراً السياسة الاقتصادية.

توصل مفاوضو القيصر الروماني إلى اتفاق سلام مع الفرتيين. ونجحوا بذلك في إعادة تسيير القوافل التجارية بشكل كامل. والمعروف أن ما حصل بين الطرفين لم يكن

---

(168) حيث ذكرنا سابقاً أنهم حملوا رأسه إلى ملك الفرتيين وتشفى منه بأشكال عدة. ارجع إلى فقرة ـ ملامح الحياة العامة وتأثيرات الهلنستية ـ.

إبرام عقود بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هو عبارة عن اتفاقيات وتعهدات بسيطة في شكلها كان يتم التأكيد عليها عبر تبادل للرسائل. وكان كل من الحاكم الروماني لبلاد الشام والحاكم الفرتي (المرزبان) لبلاد الرافدين يتلقى التعليمات الضرورية من ملكه لتنفيذ الاتفاقيات التي تم التوصل إليها دون الإخلال بشيء.

والوثائق التي تعود لذلك الزمن توضح أن تدمر مع نواحي البادية المحيطة بها كانت قد اعتبرت دولة محايدة. وقد التزم كلا الطرفين باحترام الحدود والحفاظ على الأمن. وهكذا لم يعد هناك شيء يقف في وجه التجارة بين قوتين سياسيتين تعيشان من الناحية الرسمية في عداء مكبوت. كما لعبت تدمر نتيجة لهذا التفاهم السياسي دور محطة استراتيجية وتحولت خلال زمن قصير إلى واحدة من أغنى مدن الهلال الخصيب أو الشرق الأدنى كله، وأفخمها وأكثرها جمالاً وأناقة وأقواها نفوذاً. كان ازدهار تدمر قد بدأ مع تزايد الاضطرابات والمخاوف على طول طريق الفرات، التي بدأت بانحطاط قوة السلوقيين، وتعاظمت باستمرار حتى انتشار السيطرة الرومانية. وخلال فترة قصيرة اتخذت تدمر مظهر مدينة يونانية ـ رومانية جميلة وبلغت درجة من الغنى أثارت حسد وأطماع ماركوس أنطونيوس الروماني، فقام مع فرسانه بمحاولة لغزوها ونهبها سنة 41 قبل الميلاد. لكن حملته منيت بالفشل، إذ كان التدمريون قد سبقوه إلى إفراغ مدينتهم من كل الأموال والأمتعة الثمينة وحملها إلى ما وراء الفرات. واعتبرت هذه الحادثة أولى المناوشات العسكرية بين الرومان والتدمريين[169]. وتشير سنة 32 قبل الميلاد إلى درجة كبيرة من الغنى وإلى وضع أسس أكبر المعابد في المدينة.

كان سكان تدمر يتحدرون من الجماعات الآرامية التي انتشرت بأعداد كبيرة في مختلف نواحي الهلال الخصيب. ويعتبرون برأي بعض الباحثين عرباً. إلا أنه من الثابت أن لغتهم كانت الآرامية. واللغة الآرامية كانت على مر القرون قد أصبحت بمثابة لغة عالمية رسمية في أنحاء الشرق الأدنى كافة. وبقيت كذلك قرابة الألف عام. واتخذها ملوك الفرس الأخمينيون كلغة رسمية في امبراطوريتهم الواسعة[170]. وبواسطة الآرامية كان يتم التفاهم بين كل تجار الشرق الأدنى عامة والهند. كما كانت هي اللغة الأم التي تحدث بها المسيح والرسل. والأرجح أن الأناجيل كانت في البداية قد كتبت بها ثم ترجمت إلى اليونانية.

(169) قارن ذلك مع حادثة أول اصطدام للأنباط مع اليونان في الفصل السابق.

(170) ارجع إلى فصل ـ امبراطورية ثقافية جديدة ـ حيث ورد تفصيل ذلك.

خلال عهد كل من أوغسطس وطيبريوس كانت تدمر قد أصبحت مدينة ممتازة. وقد زادت روعتها ومكانتها خلال السنوات اللاحقة. وبدأت فترة الأوج من ازدهارها بعدما قام القيصر تراجان في سنة 106 ميلادية بضم مدينة بترا نهائياً إلى المقاطعة العربية الرومانية. وأُهمل شيئاً فشيئاً الطريق التجاري الذي كان يصل بين بترا وبلاد الرافدين السفلى، خصوصاً وأن روما أمنت السيطرة مباشرة على بلدة دورا أورويوس، التي كانت من خلالها تؤمن السيطرة على كل من الطريق الصحراوي وطريق الفرات الكبير.

بعدما ثبتت للرومان الأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية لبلاد الشام التي هي قلب منطقة آسيا الغربية، عملوا كل ما بوسعهم وبصورة منظمة لتطوير هذه المنطقة وطرقها التجارية.

كان قائد الفرق الرومانية الذي يحكم في أنطاكية بمثابة أعلى موظف عندهم. وكانت أربع فرق تتمركز في مواقعها وتبقى بشكل دائم في وضع الجاهزية القتالية. وقد كُلف بحماية طرق القوافل فيلق روماني من راكبي الجمال تدعمه فرقة خاصة من التدمريين كان عليها تأمين حماية القوافل والعناية بمحطات الاستراحة والاهتمام بأماكن المياه إلا أنه لا توجد معلومات مفصلة عن هذه الفرقة التدمرية، إذ لا يعرف مثلاً إن كانت في عداد الفرق العسكرية التدمرية أو مجرد أفراد مستأجرين يكافئهم أصحاب الأعمال التجارية من حين إلى آخر.

إلا أن تدمر كان لها جيش مدرب ذو تسليح جيد يحافظ على الأمن في أنحاء الدولة كافة. واعتبر من أمهر جيوش ذلك العصر. وكان قائده يعتبر أعلى موظف في المدينة. وفي أوقات الشدة كان مواطنو تدمر يكلّفون (بموافقة قائد الفرق الرومانية) شخصية متميزة بقيادة كل القوات المسلحة وبصلاحيات غير محدودة تقريباً. ففي إحدى المرات أعطيت لأحد القادة صلاحيات مطلقة في اتخاذ كل الإجراءات التي تبدو له مناسبة من أجل إخماد هيجان قبائل البدو. ولما كانت المسافات التي تستطيع القوافل قطعها دون ماءٍ محدودة، فقد كان لا بد من إيجاد المياه على الطرق. ولذا تم الحفر للبحث عن الماء على هذه الطرق، وعلى مسافات منتظمة تقريباً لا تتجاوز الأربعين كيلومتراً. ومما يعبر عن العناد الذي تميز به التدمريون والرومان في الوقت نفسه أنه كان يجب مواصلة الحفر حتى إيجاد الماء.

وقد تم إنشاء مجموعة من الطرق في مختلف الاتجاهات. فأصبحت ثلاثة طرق تتجه من مدينة تدمر إلى الشرق حتى الفرات. الشمالي منها يصل إلى الرقة، والأوسط

إلى قرقيسيا عند مصب الخابور، والجنوبي إلى هيت. وهذا الأخير يقارب طوله الـ 480 كيلومتراً وما زال اليوم معروفاً.

وأما باتجاه الغرب فقامت طرق عدة أيضاً، منها إلى بصرى، وإلى بترا مدينة الأنباط، ثم إلى مصر. وكذلك إلى حمص وحماه ودمشق، ومنها إلى الساحل. كما اتجه طريق مباشر من دمشق جنوباً إلى البحر الأحمر. ومما يثير الإعجاب ذلك الطريق الذي امتد بين حلب وأنطاكية وكان مرصوفاً بقطع الحجارة الضخمة التي بلغت سماكتها بشكل عام حوالى ثمانين سنتمتراً. وما تزال حتى عصرنا هذا قطعة منه كانت تصل بين حلب واسكندرون.

ومما يذكره المؤرخ الأنطاكي «أميانوس مرسيلينوس»[171] أن القيصر الروماني جوليان سار على هذا الطريق نفسه في يوم مشرق من ربيع سنة 363 ميلادية ولم يكن يتوقع أنه سيموت على الفرات في حربه ضد الفرس.

المركز التجاري الكبير

أصبحت تدمر مدينة التجارة والقوافل بكل معنى الكلمة. وخلال القرون الثلاثة الأولى الميلادية لم تستطع أية مدينة أخرى في الشرق الأدنى كله أن تضاهيها. وقد امتد نفوذها وعلاقاتها في كل أنحاء الأمبراطورية الرومانية وفي خارجها أيضاً. فصارت للتدمريين مراكز إقامة في كل المدن الهامة. فقد وجد لهم ما يشبه مستعمرة كبيرة في روما، كان لها معبدها الخاص وآلهتها ومذابحها وتماثيلها التدمرية. ومستعمرة أخرى في «بوتيولي Puteoli»[172] في جنوبي شبه الجزيرة الإيطالية. وفي بابل الخاضعة لحكم الفرتيين أقاموا مستوطنة، إضافة لأماكن أخرى على الخليج الفارسي كانت كلها تعجّ بالنشاط. وحتى في مناطق الدانوب وبلاد الغال (قسم من فرنسا الحالية) وأسبانيا ومصر كان للبيوت التجارية التدمرية والمؤسسات المصرفية وكلاؤها المقيمون. ويمكن القول إن شبكة التجارة والعلاقات التدمرية امتدت تقريباً في كل العالم المعروف آنذاك. وحيث

---

(171) «Ammianus Marcellinus» حوالى 330 ـ 401 ميلادية. أي إنه عاصر المؤرخ الأنطاكي الآخر «ليبانيوس» وكانت له مراسلات معه. كان مولده من أسرة يونانية نبيلة. وعمل في الجيش الروماني وحصل على مراتب وشهرة. وكتب باللاتينية عن الأحداث التاريخية التي عاصرها وعرف بالحيادية فيما كتب. وقد اعتبر آخر مؤرخي الحقبة القديمة.

(172) وتسمى اليوم: «Pozzuoli».

كانت توجد ثغرة كانوا يسارعون لملئها. كما كان للتدمريين أسطول صغير من السفن متمركز في المجرى الأسفل للفرات يراقب دائماً حركة الملاحة في شمالي الخليج. وفي مدن الرافدين التجارية كان التجار التدمريون ينتظرون القوافل الآتية من فارس والصين ليتسلموا منها الحرير واليشم. أما في مدينة بابل حيث كان لهم مكتب تجاري كبير في سنة 24 ميلادية، فقد كان يتم شحن البضائع الهندية كالتوابل والعاج والأحجار الكريمة.

وكانت مراكز التدمريين التجارية هذه عبارة عن منشآت واسعة تضم المكاتب والمخازن ومساكن لأصحاب التجارة أو وكلائهم وعمالهم. وغالباً ما كانت لها امتيازات من وجوه مختلفة. وللمقيمين فيها حياتهم الخاصة في قلب تلك المدن الغريبة عنهم[173]. ويريد بعض الباحثين اليوم تشبيه هذه المراكز التدمرية من حيث تنظيمها بالمراكز التجارية لجمهوريات المدن الإيطالية في القرون الوسطى ونقابات التجار فيها.

ومن الملاحظ أن أغلب المراكز التدمرية كان يقع في مناطق نفوذ مملكة الفرتيين. وأسباب ذلك غير واضحة تماماً. ومن المعتقد أن الرومان التزموا بالتحفظ دائماً عند ترتيب الامتيازات مع الفرتيين. كما يتضح أن تدمر حققت من التجارة مع فرتيا أكبر نسبة من الأرباح.

لقد بذلت جهود ممتازة واتخذت إجراءات منظمة لتخفيف الأخطار على الطرق وتأمين حماية القوافل. فتم وضع نظام لما يمكن تسميته قوافل المرافقة وله قواعد ثابتة. ووضعت خطط زمنية نظامية لانطلاق القوافل.

ويرد عند المؤرخ اليوناني سترابون وصف لتلك القوافل الضخمة التي كانت تتألف غالباً من ثلاثة آلاف من الجمال، تسبقها دوريات استطلاع، ويحميها من اليمين واليسار رماة السهام، كما يحمي مؤخرها فريق من الفرسان، وتبدو للناظر ـ حسب وصف سترابون ـ كما لو كانت جيشاً يزحف في الصحراء.

هذه القوافل الضخمة لم يكن أحد من التجار يملك الإمكانات بمفرده لتمويلها. وكانت رؤوس الأموال اللازمة لذلك تقدمها البنوك التي يتبين من الوثائق أنها كانت

---

(173) يمكن أن نقارن ذلك من بعض الوجوه مع مستوطنات ومراكز كل من الآشوريين في آسيا الصغرى (كما مر سابقاً) والفينيقيين في عالم المتوسط وسواحل الأطلسي مع فارق هو أن مراكز الآشوريين والفينيقيين كانت خارج المدن الغربية واتخذت شكل مستوطنات مستقلة أو مدن صغيرة.

تحقق من الأرباح حتى الخمسين بالمئة من رأس المال وتتوصل بذلك إلى مبالغ معتبرة.
في سنة 1882 ميلادية اكتشف الأمير الروسي «لازاريف» منقوشة ثنائية اللغة، كتبت بالآرامية التدمرية واليونانية. يتكون نصُّها من 162 سطراً. ويوضح السطر الأول في مطلعها أنها وضعت يوم الثامن عشر من شهر نيسان بسنة 448 حسب التقويم المتبع في ذلك الوقت[174] أي 137 ميلادية.

تحتوي هذه المنقوشة على التعرفة الجمركية ونظام الضرائب عند التدمريين. ولذا أصبحت تعرف بـ «التعرفة التدمرية». وتقدم من خلال ما تحتويه معلومات كثيرة عن مدى اتساع التجارة وإنجازاتها ونظام الحياة ومتطلباتها ومدخول الدولة من هذه التجارة. فكل ما كانت تحمله القوافل يومياً إلى تدمر كان خاضعاً للتعرفة الجمركية. وقد فرضت الضرائب على كل شيء يتم التعامل به تجارياً، وعلى كل عقود القروض والسلف والشراكة. وعلى مبيت الغرباء والجمال. وقد فرضت الجمارك على المواد الغذائية والأنسجة الأرجوانية والتماثيل البرونزية والعطور والعبيد، وذلك حسب قيمتها في التداول، التي كانت تصدر دائماً تعليمات جديدة لتحديدها.

وهناك سلع كانت تخضع لأنظمة خاصة، وهي الجلود والسلع المعدنية والحيوانات البرية والزيت، علماً أنه لم تذكر أسباب لذلك. ومما يعرف أيضاً أن المرّ والعطور المحفوظة في أوعية رخامية ثمينة خضعت لجمارك أعلى من تلك المحفوظة في قِرَبٍ من جلود الماعز.

كما شملت الجمارك كثيراً من البضائع المصدرة خارج تدمر. وعدا عن ذلك خضعت القوافل العابرة لضرائب الترانزيت. وكان على كل أصحاب المخازن دفع الضرائب. وحتى بنات الهوى لم يكنّ معفيّات من دفع الضريبة.

المدينة العالمية

لم يكن تجار تدمر والمصرفيون المهرة فيها وأصحاب رؤوس الأموال هم وحدهم الأغنياء، بل كانت الدولة أيضاً غنية. وإن ما كان يكسبه الناس من المال وما كان يتجمع فيها من ثروات توضحه لنا حتى اليوم بقايا المدافن من حيث عددها وكثرة ما أنفق عليها.

---

(174) كان الأول من نيسان سنة 311 قبل الميلاد هو الذي اعتبر بداية للتاريخ السلوقي الرسمي وهو الذي انتشر استخدامه كتقويم في سوريا كلها. ارجع إلى فقرة: مملكة سوريا السلوقية.

كان التجار والسماسرة والصيارفة ومقرضو الأموال يجلسون في مكاتبهم، يحسبون، وينظمون، ويجهزون القوافل، وينجزون صفقات البيع أو الشراء، ثم يموتون على درجة من الثراء جديرة بالإعجاب.

كان القياصرة الرومان يُستقبلون بأبهة عظيمة مثل هادريان (بين 117 و 138 ميلادية) الذي كان محباً للسلام، والذي شجع التجارة والصناعة وقام بإصلاحات إدارية في الأمبراطورية. وكذلك «سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus» الذي حكم بين 193 و 211 ميلادية واعتبر من أصل سوري، إذ كانت ولادته في مستعمرة فينيقية بأفريقيا وكانت لغته الأم هي البونية (الفينيقية الغربية)، وعمل كقائد فرقة في سوريا، وتزوج من «جوليا دومنه» إبنة الكاهن الأعظم لإله الشمس في حمص.

وعلى ما يبدو أحب هذان القيصران تدمر. وقد أدى ذلك إلى تظاهر الرومان بالتعالي إزاء التدمريين الذين لمع نجمهم وازدهرت دولتهم وطارت شهرتها، دون أن يستطيعوا إخفاء حسدهم الواضح لهذا الثراء العظيم في تدمر. ولكن ذلك الشعور بالتفوق الأرستقراطي الذي كان يتظاهر به الرومان لم يعبأ به التدمريون. وكانت للتجارة والأرباح عندهم أهمية كبيرة لدرجة جعلتهم يصورون بعض آلهتهم وهم يشاركونهم هذا الاهتمام من خلال إظهار الإلهين «أرصو» و «عزيزو» وهما يركبان الجمال كتدليل على أن سلطة الآلهة الخيرة تشمل القوافل التي تحمل بضائع التجار التدمريين في كل أنحاء العالم.

وكما رأينا في الفصل السابق عند الأنباط، فإن المكتشفات تظهر أن التدمريين أيضاً قد كرموا المواطن الذي يعمل على تنمية الثراء والرفاهية قبل تكريمهم للرجل المحارب، وأشادوا بذكر أولئك الذين يجهزون القوافل ويؤمنون حركتها أكثر من إشادتهم بقائد منتصر. ومن الدلائل على ذلك نصب تذكاري اكتشف في البادية إلى الجنوب من تدمر وقد نقشت عليه كتابة ترجمتها كما يلي:

«إن مجلس الشيوخ والشعب في تدمر يكرّمان سؤادوس ابن بوليادس، الرجل الذي يتقي الآلهة، والذي يحب بلاده، والذي عمل ما بوسعه وكل ما أمكنه في كثير من المناسبات لحفظ مصالح تجار بلاده وقوافلهم ومواطنيه المقيمين في فولوغيزيا، كما تشهد رسائل كل من الإله هادريان[175] وابنه القيصر

(175) المقصود هنا أن هادريان اعتبر بعد موته في مرتبة الآلهة، كما كان فراعنة مصر القديمة.

أنطونيوس بيوس. وتذكاراً لخدماته الكثيرة أقامت له بلاده أربعة تماثيل في تدمر وواحداً في سباسينوخاراكس وواحداً في فولوغيزيا وواحداً في محطة القوافل غينّايس...».

لا يمكن أن نفهم مما تقدم أن المال فحسب كان يعني كل شيء بالنسبة للتدمريين الذين لعبوا دوراً كبيراً في سياسة الشرق الأدنى كله وفي الأمبراطورية الرومانية، وقدموا شخصيات مشهورة، وعرفت عنهم وطنيتهم وبسالتهم في الحروب، لدرجة أنهم في إحدى الحملات هزموا الجيش الفارسي لمساعدة الرومان (كما سنرى في فقرة لاحقة)، كما أن صراعهم فيما بعد مع الرومان وحتى سقوط تدمر كان مريراً. إلا أن الاهتمام بالأعمال التجارية إلى هذا الحد، بحيث تصبح هي محور الحياة، أمر طبيعي نراه في كل الممالك التي قامت حياتها من الأساس على التجارة، وفي كل فترات تاريخها بقيت التجارة هي المصدر الرئيسي أو الوحيد تقريباً لقوتها وازدهارها، سواء كان ذلك في سوريا أو خارجها. فقد رأينا كيف نشأت مملكة الأنباط وازدهرت خلال زمن قصير نسبياً بسبب موقعها التجاري وكثافة الحركة منها وإليها. ثم هجرت تماماً بعدما تحولت عنها الطرق التجارية.

وربما كانت للتجار في بعض الأحيان مواقف تؤثر على المصلحة الوطنية. فقرطاجة في أشد ساعات محنتها مع الرومان في الحروب البونية ووصولها إلى حافة الانهيار وقف تجارها وأصحاب المال فيها يعارضون سياسة هنيبعل الحربية. وكان هذا سبباً بارزاً بين أسباب غدة أخرى مهدت لزوال قرطاجة من الوجود. والمعروف عن قرطاجة أيضاً أنها اعتمدت خلال كل تاريخها على جيوش من المرتزقة، وبلغت فيها سلطة أصحاب المصالح التجارية درجة اضطرت معها قرطاجة أخيراً إلى ترك هنيبعل، أعظم قائد عسكري في العصور القديمة، يموت شريداً. فلا عجب أن أقام التدمريون النصب التذكارية لرجال الأعمال وكرموهم أكثر من المحاربين.

ويمكن القول أن الممالك التي خلقتها التجارة من الأساس، وأبرزها في سوريا: بترا وتدمر، قد تميزت بتاريخ قصير نسبياً، بعكس ممالك بلاد الرافدين التي تطورت في البداية على شكل مجتمعات زراعية ومارست من ثم التجارة والصناعة فأصبحت مراكز كبرى وامبراطوريات، وامتد تاريخها الإجمالي ما بين ازدهار وضعف وتجدد وتوسع وانحسار على مدى آلاف عدة من السنين.

وسكان مدينة تدمر الذين يقدر عددهم في فترة الازدهار بحوالى الثلاثين ألفاً

كانوا بغالبيتهم الساحقة من الآراميين. ولكن من الواضح أنه قد عاش بينهم عدد غير قليل من اليونان والفرس. وتبين أن اليونان كانوا يعتبرون أجانب، بينما كان الفرس في عداد الأرستقراطية المحلية واعتبروا إلى حدٍ ما تدمريين. والمعروف أن المنطقة التي يلتقي فيها الناس من بلدان مختلفة وتصبح مكاناً لإقامتهم لا بد أن تظهر فيها تأثيرات الثقافات المتعددة. إذ كان في تدمر إلى جانب سكانها الآراميين: الرومان واليونان والفرس وجاليات أخرى صغيرة. وكل المثقفين كانوا يتكلمون لغتين: الآرامية كلغة أم، ثم اليونانية، وأحياناً كان الكثيرون يفهمون اللاتينية إلى جانب ذلك. والأرجح أن رجال الأعمال منهم كانوا يتكلمون العربية أيضاً.

والتدمرية من اللهجات الآرامية الغربية لم تختلف جذرياً في كتابتها ونطقها عن النبطية وبقية اللهجات التي عمت سوريا الغربية في العهد السلوقي. وأغلب الوثائق التدمرية المكتشفة كتبت باللغتين التدمرية واليونانية.

وفي حين كان الجانب الثقافي من الحياة التدمرية متأثراً باليونان فإن جوانب أخرى تأثرت بالفرس، مثل نظام اللباس والأثاث المنزلي. فقد استخدم الرجال السروال الفضفاض والجاكيت الموشّى، علماً بأن أفراد الأرستقراطية استخدموا الرداء اليوناني. وأكثرت النساء من استعمال الحلي من الرأس حتى القدمين. واستعملوا السجاد كثيراً في بيوتهم. وأحبوا الأثاث المزخرف بالذهب والفضة. ويبدو أنه كان لديهم اهتمام خاص بالمطرزات. أما المعابد والبيوت السكنية التي تذكرنا كثيراً بتلك التي كانت عند البابليين فقد تأثرت بالهلنستية إلى حد كبير. فالجدران الداخلية سواء في البيوت أو المعابد كانت تطلى بالألوان المختلفة تأثراً بالطريقة التي كانت عند اليونان والرومان. وعلى الرغم من أنه لم يبق كأمثلة على ذلك إلا بضعة أجزاء قليلة، فإن الرسوم الجدارية المكتشفة في دورا أوروبوس تدعنا نستنتج أن الغرف من الداخل كان لها بكل تأكيد انطباع ممتع في نفس من يراها.

أخذ التدمريون ظاهرياً أشياء كثيرة عن الحضارات الأخرى. ووجد بينهم البعض ممن عاش حياة يونانية صرفة. ولكن التدمريين عموماً بقوا في صميمهم سوريين من حيث طبيعتهم ونفسيتهم وتفكيرهم وشخصيتهم الوطنية. كما يبدو أن الرفاهية الطاغية عند الطبقة الغنية والميزات الفريدة لمدينة تدمر قد رافقها نوع من الشعور بالعداء وحب الاستقلال والدفاع عن شخصيتها إزاء العالم اليوناني ـ الروماني. فإذا كان من الحكمة فسح المجال لأخذ هذا وذاك من الحضارات الأخرى، فقد وجدوا أنه من الصواب أيضاً

أن يتكيف ذلك وظروفهم المحلية. فلم يحاول التدمريون أن يغلقوا الأبواب بوجه بعض الأمور المتعلقة بأساليب الحياة ومظاهر السلوك. إلا أن هذه الأمور لم تفلح في اقتلاع المواطن التدمري من حضارته السورية.

طبيعة المجتمع التدمري

عرفت تدمر كغيرها من الممالك السورية الأخرى نظام الطبقات الاجتماعية الذي كانت تحدده في تدمر حيازة الأموال ودرجة الثراء عند المواطنين. أي أنه وجب أن تكون لدى المواطن التدمري الأموال أو الممتلكات الكافية لجعله يتمتع بالحقوق المدنية وحق إبداء الرأي في الشؤون العامة كافة[176]. وقد مر معنا في الفصل السابق عن الأنباط ما ذكره سترابون عن مدى اهتمام الأنباط بالثروة. هذا وقد بقي التدمريون طيلة تاريخهم متأثرين بعض الشيء بنظام الانتماء للقبيلة حتى ضمن الدولة. ويبدو أن القبائل التي كانت لها مكانتها في الحياة العامة قد تجاوز عددها الأربعين. إلا أنه غير معروف إن كان لأفراد هذه القبائل كلها امتيازات سياسية. كما لا يوجد ما يؤكد إن كانت تقدم أعضاءً لمجلس الشيوخ وموظفين من مراتب عالية وقادةً للقوافل التجارية. وغالباً ما كانت الاعتبارات التجارية العامل الأساسي في التقريب بين القبائل. ولكن من جهة أخرى يصح القول إن القبائل القوية لم تعرف حياة السلام الدائم والحقيقي بعضها مع بعض. ولم يفلح الانتماء لدولة عصرية مثل تدمر في القضاء على تلك المنازعات القبلية المتوارثة جيلاً عن جيل. الأمر الذي ما زال معروفاً عند قبائل العرب في هذا العصر.

ومما يلقي الضوء على بعض هذه المنازعات نصب تذكاري أقيم تكريماً لشخص يدعى «ح ش ش» في سنة 21 ميلادية، تشير الكتابة التي نقشت عليه إلى أنه قد أقيم

(176) والواقع أن أرستقراطية الأموال والممتلكات لعبت الدور الأساسي وكان لها النفوذ الأقوى في أغلب المجتمعات إن لم يكن فيها كلها. وأكثر ما تجلى ذلك وبصورة رسمية في اليونان القديمة وروما. ففي اليونان ـ ما قبل الإسكندر ـ كان «سولون Solon» في القرن السابع قبل الميلاد قد قسم المجتمع إلى أربع طبقات معتمداً في هذا التقسيم مقدار ما عند المواطن من واردات سنوية. وفي روما كان للمواطنين الأثرياء الكلمة العليا والحق في مناصب الدولة وسياستها في حين أن الطبقة الدنيا المسماة «Aerarii» كانت محرومة حتى من حق التصويت. وفي أحدى الفترات أعطي الاعتبار لهذه الطبقة بموجب مرسوم إصلاحي في زمن «Appius Claudius» للاطلاع: د. عبدالله الحلو في كتاب: الاقتصاد في دول العالم القديم 1997.

على نفقة القبيلتين المتنازعتين لهذا الشخص الذي أسفرت مساعيه عن إحلال السلام بينهما. والقبيلتان يرد اسمهما بشكل «بني كومرا» و «بني متّبول». وأما الكتابة فقد وردت بالآرامية التدمرية بهذا الشكل:

«صلم حشش بر ناشا بر بولحا حشش دي...

عبدو لِه بني كومرا وبني متّبول من دي قام...

بريشهون وعبد شلاما بينيهون وفرنس...

برمنهون بكل صبو كله ربّا وزعورا....

ليقارِه بيرح كانون شنة 333.....»

وترجمتها كالتالي:

«نصْب حشش بن ناشا بن بولحا حشش الذي عمله له بنو كومرا وبنو متبول لأنه سعى وأحل السلام بينهم، وصار منذ هذا الوقت يهتم بشؤونهم وكل أمورهم، الكبيرة والصغيرة...

أقيم تقديراً له بشهر كانون من سنة 333...»[177]

هذا وقد اختلفت العلاقات القبلية وشدة تأثيرها في الحياة العامة باختلاف المراكز الحضارية التي كانت تجاورها وقوة السلطة فيها. وقد رأينا بعض جوانب هذا التأثير في الحديث عن المراكز الحضارية بمنطقة الرافدين.

الكهنوت ومكانته في تدمر

نتيجة لتنوع الآلهة في تدمر كان الكهنة يشكلون مجموعة كبيرة وقوية وكثيرة التشعب بحيث يتعذر تكوين فكرة واضحة ومفصلة عن تدرج المراتب الكهنوتية ووظائفها. فالبعض كانت لهم مناصب في المعابد. والبعض الآخر قام على خدمة جمعيات وهيئات دينية في أماكن المقدسات القبلية القديمة أو في المعابد. إلا أننا لا

---

(177) أي في سنة 21 ميلادية. ارجع إلى ما ذكر في الحاشية (174) وتفصيل ذلك في فقرة: ـ مملكة سورية السلوقية ـ

قارن لذلك: M. Lidzbarski: Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik, Teil I, P 457-458 (Hildesheim 1962).

نعرف شيئاً عن درجة الأهمية بين هؤلاء وبين أصحاب المناصب الكهنوتية. وإن التماثيل الكثيرة لرجال من العائلات المعروفة وصاحبة الشأن في تدمر، والتي تظهرهم بأبهة كهنوتية، تؤدي بنا إلى الاعتقاد أن هؤلاء الرجال ربما كانوا يمارسون الأعمال التجارية، ويقومون في الوقت نفسه بمهام كهنوتية في مناسبات محدودة، وذلك استناداً إلى ما مر معنا من تكريم تدمر لرجال الأعمال والمساهمين في تنمية الاقتصاد.

كما يمكن أن يدل ذلك على أن الكهنوت في تدمر لم يكن وظيفة وراثية ـ مثلما كان الحال في مصر القديمة وبابل وفارس ـ بل كان، كما عند الإغريق والرومان، منصباً شرفياً واعتبر نوعاً من الامتياز والتقدير أن يصل الإنسان إلى مرتبة كاهن. ويرد بين الحين والآخر ذكر ما يسمى «رئيس المجمع أو الوليمة». ويبدو أنه كانت لهذا الشخص مهام كهنوتية ودنيوية. وعلى كل حال فإن هذا اللقب ينطبق على رجل صاحب مكانة مرموقة، كان يترأس الولائم ذات الطابع الديني، وكانت له حاشية كبيرة. ويبدو أنه في هذه الولائم كان يُشرب خمر كثير، كانت فيه مشاركة رمزية للآلهة. ففي إحدى الكتابات يفاخر بنفسه «رئيس المجمع أو الوليمة» حيث أنه، على حد تعبيره، لم يقدم إلا الخمر المعتّق جداً لضيوف السماء والأرض المجتمعين في الوليمة التي ترأسّها.

وكل المشاركين في تلك الولائم من الآلهة والكهنة كانت تكتب لهم دعوات على ألواح فخارية صغيرة. ويظهر أن هذه المآدب الاحتفالية المقدسة لم تكن تقام فقط لتكريم الآلهة أو أي إله منها، بل هناك سبب آخر هو أن التدمريين كانوا يعتقدون أن موتاهم ينضمون إلى أسرة الآلهة أو عالم الكائنات المقدسة. ولتكريمهم كانت تقام الولائم الاحتفالية للأموات، حيث كان الاعتقاد أنهم يشاركون فيها.

وكانت الألواح التي تحمل الدعوات توجه إلى أفراد عائلة المتوفى وأصدقائه القدامى وكل الذين كانوا مقربين إليه وأفراد قبيلته وأعضاء الجمعية الدينية التي كان ينتمي إليها. وهذا يعني بالطبع أن ألوفاً كثيرة من ألواح كهذه ما زالت تغمرها الرمال في تدمر ومحيطها بانتظار الكشف عنها هنا وهناك.

ومما يتعذر توضيحه بهذا الصدد هو إن كانت هذه الولائم التذكارية هي عادات تدمرية صرفة من أساسها أو تعود لتأثيرات يونانية أو تأثيرات فرتية من بلاد الرافدين. ولكن يمكن القول إن ما يشبه هذه التقاليد ما زلنا نعيشه في الكثير من مناطق البلاد السورية في أيامنا هذه مع اختلاف في المظاهر أو الأساليب، وذلك عندما نرى كيف تقام الولائم أو توزع لحوم الأضاحي عن روح فلان.. أو فلان.. من الناس.

شكل الحكم في تدمر

كانت مجموعة صغيرة من العائلات الثرية في تدمر هي صاحبة الشأن والنفوذ القوي على الإدارة وكل ما يتعلق بالدولة والحياة العامة. هي التي كانت تعين رؤساء المؤسسات التجارية والمالية ورؤساء المجامع الدينية وقادة القوافل التجارية الضخمة. وكل ما كانت تراه هذه العائلات مناسباً كان يتم تنفيذه. وقصورها التي أقيمت حول أفنية داخلية تحيط بها الأعمدة كان لها طابع الفخامة. إلا أنه غير واضح كيف كانت تبدو بيوت الطبقة المتوسطة وطائفة الحرفيين والعمال، وفيما إذا كانت إلى جانب قصور الأثرياء أو كانت لها أحياء خاصة بها.

كانت روما تمنح الأشخاص البارزين في تدمر حق المواطنة الرومانية وتعتبرهم في عداد الأرستقراطية الرومانية. وكان ذلك اعتباراً من القرن الثاني الميلادي. والأرجح أنه كان مقابل الدعم العسكري الذي قدمته تدمر لروما في صراعها مع الفرتيين ما وراء الفرات. كما أن بعض الأشخاص البارزين في تدمر أخذوا يضيفون أسماء رومانية إلى أسمائهم الأصلية[178]. وبموافقة مجلس الشيوخ التدمري تمركزت في المدينة حامية رومانية صغيرة. كما عين مجلس الشيوخ الروماني سفراء دائمين في تدمر. ولم تحاول روما أن تحدد التعرفة الجمركية لتدمر، كما لم تكلف وكيلاً لها بإقرارها أو الاعتراض عليها. وعلى الرغم من أن تدمر كانت من ضمن بلاد الشام تابعة رسمياً لروما، فإنها حافظت على قدر كبير من الاستقلال. ولكن الأرجح أن كل الأمور ذات الأهمية الفعلية كان يجب أن تحظى بموافقة الرومان. وبالطبع فإن تدمر التي لا تستطيع الوقوف بوجه القوة الرومانية وجدت أنه لا بد من التعامل مع هذا الواقع ببراعة سياسية ومرونة.

وخلال القرن الثاني الميلادي كانت تدعم الجيش الروماني بفرق عسكرية كاملة من الفرسان رماة السهام الذين كانت تجندهم من مناطق نفوذها الواسعة وتبعث بهم إلى مختلف جهات الأمبراطورية (وسنرى تفاصيل ذلك في فقرة لاحقة: حليفة روما).

وبعد أن كان هادريان منذ سنة 130 ميلادية قد جعلها مدينة تابعة لروما فإنها مُنحت في بداية القرن الثالث حقوق وامتيازات المستعمرة. والأرجح أن ذلك كان من قبل

---

(178) وقد رأينا في فصل سابق كيف أن كثيراً من البابليين أيضاً اتخذوا أسماء يونانية أو أضافوها إلى أسمائهم الأصلية في الفترة الأولى من عصر الهلنستية. انظر لذلك في الحاشية (125).

القيصر «سبتيميوس سيفيروس» المعتبر من أصل سوري كما ذكرنا فيما سبق.

وكان للقانون التدمري من الناحية الشكلية طابع يوناني روماني، ولكن ليس من ناحية المضمون أو الجوهر. كما أن مجلس الشيوخ التدمري كان له شَبَه بمجلس الشيوخ الروماني. وبتعبير آخر يمكن القول إن نظم الحياة التدمرية أو السورية في تدمر قد اتخذت لها رداءً رومانياً ليس أكثر. فإن العضو في مجلس الشيوخ التدمري بقي كما كان قديماً زعيم قبيلة يحمل اسماً رومانياً وسلطة متوارثة غير محدودة لا يستطيع أحد في القبيلة رفضها.

لقد كانت المصلحة العملية والواقعية تتطلب التعايش مع روما بهذا الشكل. وقد استمر ذلك فترة طويلة.

الآلهة عند التدمريين

شهدت تدمر اختلاطاً كبيراً للآلهة من مختلف مناطق الهلال الخصيب والجزيرة العربية، وحتى من الأناضول، مثلما شهدت ذلك الاختلاط في فنون البناء واللباس وطراز المعيشة. فكانت فيها الآلهة البابلية والفينيقية والنبطية والفرتية والعربية والأناضولية. إلا أن التدمريين لم يتخذوا من آلهة اليونان والرومان، علماً أن الأسماء اليونانية القليلة التي تشير إليها المخطوطات المكتوبة باليونانية إنما تعبر عن آلهة محلية أو شرقية. ولكن مما يلفت النظر أن الآلهة غير الفارسية تم تصويرها بأزياء من اللباس الفرتي وبأسلحة فرتية.

ومن الواضح أن التدمريين كانوا مخلصين لتقاليدهم القديمة. إذا كان ما يزال متبعاً عندهم تقديس الآلهة التي تعود إلى الزمن القبلي القديم جداً. ومما يشير إلى ذلك منقوشة على نصب تذكاري يعود إلى سنة 85 ميلادية. وعلى الرغم من بعض التشويه الذي أصابها فقد تبينت فيها السطور التالية:

«بيرح ايلول شنة 396. . .

حمّانا دنا وعلتا ده. . . .

عبدو وقربو لشمش وزبيدا. . .

بني ملكو بر يديعبل بر ناشا. . .

دي متقرا بر عبدبل دي من. . .

فخذ بني مجدة لشمش. . .

إله بيت أبوهون عل. . . .

حييهون وحيي أخيهون. . . .

وبنيهون. . . . .»

ويعني ذلك:

«بشهر أيلول من سنة 396 (85 ميلادية) عمل هذا النصب وقدمه لشمش وزبيدا ابنا ملكو بن يديعبل بن ناشا الذي يقال له ابن عبدبل من عشيرة بني مجدة. من أجل شمش إله آبائهم. وذلك لحياتهم وحياة إخوتهم وأبنائهم. . .».

كانت لبعل المرتبة العليا بين الآلهة، واعتبر إلهاً كونياً. وهو من أصل بابلي كان يوازي مردوك. وقد كرس له أكبر المعابد في تدمر. وكذلك كان أيضاً «بعل شامين» الذي يعني سيد السموات. وله معبد آخر في تدمر. وقد انضمّ إليهما إلهة الشمس وإله القمر. وربما كان هناك إلهان للقمر، حيث يظهر إسم «عجلي بول» ـ عجل بعل ـ الذي يصور أحياناً بهلال على كتفيه، وإسم «يرحي بول» ـ يرح بعل ـ. والمعروف أن كلمة «يرح» بالكنعانية والأرامية تعني القمر.

وفي العهد الروماني كان بعل شامين يوصف بأنه ـ المبارك الأزلي الرحيم الطيب ـ. ثم يظهر اسم «ملاك بل» الذي يعتقد أنه رسول بعل أو خادمه. والأرجح أنه كان يوازي الإله «هرمس».

وعن بابل أخذوا أيضاً عشتار التي عرفت عند الفينيقيين. و «نرجال» إله العالم السفلي. وعن شمال الرافدين أخذوا «حدد». كما يظهر عندهم اسم «عثر عثه» ـ أو أتار غاتس ـ وهي إلهة آرامية من شمالي سوريا. وفي دورا أوروبوس التابعة لتدمر عرفت إلهة باسم «نانايا» لها أصل عيلامي من جنوب شرقي الرافدين. كما وجد مذبح في تدمر مكرس للإله النبطي «شيع القوم» ـ حامي القوافل كما مر سابقاً ـ وأصله من شبه جزيرة العرب، والذي يوصف بأنه الإله الذي لا يشرب خمراً. كما كرست مذابح أيضاً لكل من «أرصو» و «عزيزو». ويبدو أن أولهما أصله من جنوب الجزيرة العربية وكان يقدس في بترا أيضاً. أما الثاني فكان يعبد في أُديسّا في الشمال السوري. وكان كلاهما على ما يبدو إلهين للقوافل. كما يبدو أنهم عدا عن ذلك عبدوا «اللات» التي كانت الإلهة الرئيسية في الجزيرة العربية.

ميزات الفن التدمري

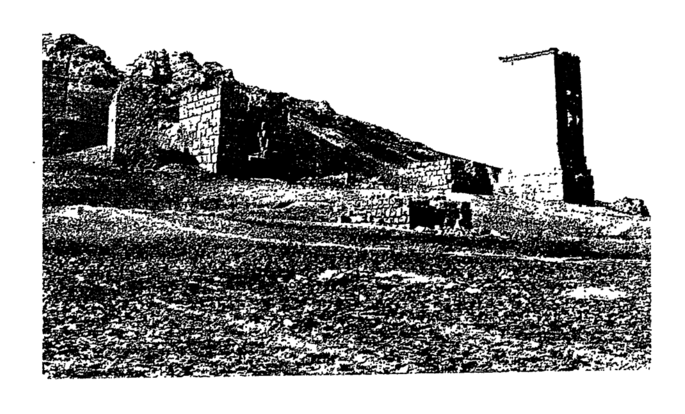
كان فن البناء والتزيينات في تدمر مختلطاً كاختلاط الآلهة. فقد أخذوا نماذج عن اليونان والرومان على حد سواء. ويبدو أنهم كانوا معجبين بالنماذج الكورنثية الفخمة. وكانت النماذج الفنية بشكل عام معبرة عن الثراء الفائق بأجلى مظاهره. إلا أن الأشكال الخارجية المأخوذة عن الغرب الكلاسيكي كانت تخفي وراءها أصالة فنية محلية تأثرت بما أنجزه البابليون والآراميون.

وقد تميزت عند التدمريين المدافن، التي كانوا يدعونها «بيوت الأبدية» وهي على شكل أبراج عالية مكونة من طوابق وغرف متعددة وجدت في الغالب خارج المدينة. وكانت تنحت في داخلها صور الموتى. كما كانت مزخرفة بالألوان. ومن هذه المدافن بشكل أبراج وجدت بعض النماذج في دورا أوروبوس التي كانت تابعة لتدمر. وتعتبر هذه الطريقة في إنشاء المدافن من خصائص الفن التدمري، وليس لها تشابه يذكر مع مدافن الأنباط. ولا يمكننا الحديث عن فن تدمري صرف قائم بذاته. فبناء المعابد والبيوت يتجلى فيه الطابع البابلي. والمنحوتات يظهر فيها النموذج السائد في سوريا الغربية والأناضول. أما الرسوم الجدارية فهي متأثرة بالفن الفارسي الذي يظهر أيضاً في المنسوجات وبعض الأدوات. إلا أن من خصائص البناء التدمري هو تلك التماثيل الكثيرة وأغلبها نُصُفيّة أقيمت بشكل خاص لتكريم مواطني الشرف على الأعمدة المنتصبة على جانبي الشارع الكبير. وهي تماثيل أمامية تظهر فيها وجوه الرجال حليقة وأحياناً بلحية من النموذج الروماني. والعيون فيها واسعة مفتوحة. وتحمل كتابة فوق الكتف. وهي تصور أفراد الأسرة الحاكمة وأفراد الأرستقراطية وعليهم الرداء اليوناني، غير أن عامة الشعب كانت تفضل لباس الفرتيين.

وتظهر في منحوتات النساء بعض ملامح المرأة السورية بشكل عام. إذ نرى فيها العيون الكبيرة اللوزية الشكل والخدود المستديرة الممتلئة.

وعلى وجوه الرجال نقرأ ملامح العزيمة والثقة بالنفس. ومن خلال الشفاه المزمومة نستنتج الشدة والجدية.

كما نشاهد صور تلك السيدات المحملة بالحلي والجواهر على الرأس والصدر، وعليها مسحة الوقار. وكله مما يوحي بما يمتلكن من الثروة والجاه.



بعض من المقابر التدمرية على شكل أبراج والتي دعاها التدمريون «بيوت الأبدية»

المظهر العام لمدينة تدمر

كان المحور الرئيسي في تدمر هو شارع الأعمدة الكبير الذي يتوسط المدينة. وتتفرع منه شوارع ثانوية إلى بقية أطرافها. ويتجاوز طوله الـ 1100 متراً. وله من العرض عشرة أمتار. وبذلك اعتبر بمقاييس ذلك العصر شارعاً ضخماً. وكانت تنتهي إليه طرق القوافل، سواء منها القادم من الغرب أو من الشرق. وقام على جانبيه صفان من الأعمدة التي بلغ تعدادها 375 عموداً، وربما أكثر. ولم يبق منها إلا 150 تقريباً. وكانت ترتفع أكثر من 15 متراً وتعلوها تيجان من النموذج الكورنثي. وقد ربطت بعضها إلى بعضها الآخر في الأعلى عتبة طويلة أو شبه جسر ما زالت أجزاء منه باقية. وحمل كل عمود في نصفه العلوي بروزاً كان قد وضع عليه تمثال نصفي من تلك التماثيل الكثيرة التي صنعت تكريماً لمواطني الشرف في تدمر، كما ذكرنا فيما سبق.

وهذا الشارع ليس على استقامة واحدة، بل فيه زاوية ينكسر عندها قليلاً حيث يتجه القسم الباقي منه إلى معبد بعل مباشرة. والتعليل الوحيد لهذا الانكسار هو أن ذلك الموقع كان منذ القدم مقدساً، ونقل الأقداس من أماكنها يعتبر امتهاناً للآلهة. ويبدو أن القسم القصير من الشارع ما بين ذلك الانكسار ومعبد بعل كانت له صفة القدسية وأنه كانت تسير فيه المواكب الدينية التي يشاهدها الجمهور من أحد جانبي الشارع. وعند هذا الانكسار أقيم حوالى سنة 200 ميلادية قوس النصر الكبير الذي يدعمه قوسان جانبيان أصغر منه.

لا شك أن ذلك كلف التدمريين أموالاً كثيرة، وخصوصاً تلك الأعمدة الغرانيتية التي جلبت من أماكن بعيدة.

ومعبد بعل الكبير يحتل موقعاً مسيطراً على المدينة. إذ كان هو المكان المقدس الذي قصده الناس من أنحاء مختلفة. وجدرانه الخارجية والأعمدة التي تعود إلى أوائل القرن الثاني الميلادي هي من النموذج اليوناني الروماني. وتعلو الأعمدة تيجان تحاكي النموذج الكورنثي من البرونز المذهب المسكوب على نواة حجرية. وقد انكشف هذا التقليد بعد قرون عدة، وذلك على أيدي البدو المتجولين هنا وهناك، الذين كانوا يكسرون البرونز ويأخذونه تاركين من تلك التيجان النواة الحجرية.

وبشكل عام يظهر في البناء اختلاط الفن السوري باليوناني الروماني. وأما مكان المذبح، أي الحجرة الداخلية مع صورة الإله، الذي يعود إلى زمن القيصر أوغسطس،

فله من حيث ضيقه وظلمته طابع الأماكن المقدسة القديمة في المراكز الحضارية السورية بشكل عام. وعلى الرغم من أن المعبد كان محاطاً بالأعمدة وبارزاً للنور بصورة كافية، فإنه يبدو كما لو أن مهندسي البناء كانوا مهتمين ما وسعهم ذلك بالمحافظة على الشكل القديم للمقدسات السورية. وهذا يعني أنهم بعد ازدياد ثراء المدينة إنما أرادوا فقط تكبير معبد قديم وتزيينه بما يتناسب مع عصرهم وغناهم. وربما كان ذلك نوعاً من الاعتراف بالجميل لذلك الإله (بعل) الذي أعطى الثراء للمدينة. وعلى كل حال فإن المعبد من خلال حجمه يولد انطباعاً عميقاً ويوحي بالمهابة.

وفي واد ضيق بين جبلين صغيرين حيث كان يمر طريق القوافل القديم ينتصب أكثر من مئة وخمسين من أبراج المدافن الآنفة الذكر، والتي يصل ارتفاع بعضها حتى عشرين متراً، وتتكون من أربعة طوابق. وفي أركانها توجد التوابيت. وأما الأثرياء من التدمريين فأقيمت لهم مدافن أخرى في معابد خاصة. والأكثر ثراءً بنيت لهم أضرحة تحت الأرض أشبه بالقصور متعددة القاعات والممرات، وقد وضعت فيها مقاعد وطاولات حجرية، وفيها التوابيت والصور المنحوتة.

التحالف التدمري الروماني

كان لنهضة تدمر وانحطاطها على السواء علاقة مباشرة بروما وسياستها في شرقي المتوسط.

إن الصراع على السلطة، الذي زعزع الإمبراطورية الرومانية بعد موت القيصر «سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus» سنة 211 ميلادية، كان قد أضعف وضع الرومان في الشرق الأدنى عموماً. حيث أن أحد عشر من القياصرة الرومان ماتوا قتلاً أو اغتيالاً خلال فترة قصيرة. أما في الشرق فإن الفرتيين الذين سبق لهم أن ظهروا فجأة على مسرح التاريخ وسيطروا على أرض الرافدين وأنزلوا الهزائم المتكررة باليونان ثم بالرومان، فإنهم تواروا أيضاً فجأة عن هذا المسرح عندما ظهرت في إيران قوة جديدة هي سلالة الفرس الساسانيين التي حلت محلهم. وهذه القوة الجديدة كان هدفها الوحيد تجديد المملكة الفارسية القديمة. وكان وصول الساسانيين إلى الحكم حوالى سنة 224 ميلادية.

وأول ملوك الساسانيين كان أردشير الذي وضع حداً لمرور تجارة الترانزيت في

بلاد الرافدين[179]. واستطاع ابنه ووريثه شابور القضاء على جيش روماني في سنة 260 ميلادية عند أديسّا في الشمال السوري ووقع القيصر «فاليريان Valerian» نفسه في الأسر مع سبعين ألفاً من جنوده. ووصل الفرس بعد هذا الانتصار حتى أنطاكية وطرسوس على ساحل كيليكيا ونهبوا بعض المدن السورية الشمالية. ولم تعد بلاد الرافدين منطقة لعبور التجارة. وميناء «خاراكس» على الخليج عند مصب النهرين، الذي بعث فيه التدمريون النشاط التجاري سابقاً شلّت الحياة فيه تماماً. والحروب الأهلية والاضطرابات الاجتماعية هزت الامبراطورية الرومانية كلها. وارتفعت الأسعار بشكل جنوني، وفقدت العملة قيمتها، وبالتالي عاث اللصوص وقطاع الطرق فساداً بصورة متزايدة. وبلاد الشام التي هي محور الأمبراطورية الرومانية في الشرق أصبحت مهددة بالخطر. وأخذ يلوح الانهيار التام، خصوصاً بتقدم الفرس من الشرق وتوغل القوط الشرقيين من جنوب روسيا عبر آسيا الصغرى. أما الأمبراطور «غالينوس Gallienus»، وهو ابن الأمبراطور الأسير فاليريان ووريثه، فقد وجد نفسه في وضع يائس وبعث يطلب العون من تدمر. ومن الجدير بالذكر أن خلفاء «سبتيميوس سيفيروس» كانت قد أعيتهم نزاعات السلطة العنيفة واستهلك قواهم صد الهجمات المتكررة على أطراف الأمبراطورية، بحيث أنهم لم يعودوا يعيرون اهتماماً يذكر لتدمر، التي كانت سلطتها في البلاد السورية تزداد اتساعاً وتعمل على إنشاء جيش قوي نظامي مستقل. الأمر الذي غفل أو تغافل عنه الرومان لفترة طويلة.

خلال تلك الفترة نفسها كان قد صعد نجم عائلة تدمرية قوية تدعى «جوليي أوريليي سبتيمي Julii Aurelii Septimii»، قدمت عدداً من الأمراء البارزين كان من أشهر أسمائهم «أذينة» و «حيران» و «وهب اللات».

كان أذينة قد تلقى فيما مضى من الأمبراطور الأسير فاليريان لقب القنصل. ثم منحه «غالينوس» لقب «أوغسطس الشرق» الذي خوله أن يكون بمثابة نائب للأمبراطور على الأجزاء الشرقية من الأمبراطورية.

وكان أذينة قائداً عسكرياً ممتازاً وسياسياً قديراً. ولم يخيب أمل الأمبراطور الروماني، فدعمه بفرقة من رماة السهام الفرسان. والأكثر من ذلك أنه جند جيشاً كبيراً

---

(179) رأينا كيف أن المفاوضات بين الرومان في زمن القيصر أوغسطس وبين الفرتيين أدت إلى ضمان حرية حركة الترانزيت بين آسيا والغرب. ارجع إلى فقرة: سياسة التعايش السلمي.

من السوريين وقبائل البادية وسار على رأسه فهزم الفرس في معارك عدة في الشمال السوري وطاردهم فيما وراء الفرات واسترجع الحصن الشمالي نصيبين والحصن الفراتي دورا أوروبوس ووصل حتى «طسيفون Ctesiphon» ـ المدائن، عاصمة الفرتيين عند دجلة ـ. وغير مؤكد إن كان أذينة في هذه الحملة نفسها أو في حملة أخرى قد دحر الفرس وطارد فلولهم حتى أسوار عاصمتهم الجنوبية «بِرزِه بوليس» واستطاع أن يأسر بعضاً من أفراد الحاشية الملكية. لكنه لم يتمكن من تحرير الأمبراطور الروماني الأسير فاليريان، الذي مات بعدها في الأسر ومثل به الفرس بأن سلخوه وحشوا جلده وعلقوه في أحد معابدهم.

نتيجة لهذه الجهود الحربية واعترافاً من الأمبراطور «غالينوس» بهذه المساعدات الكبيرة منح أذينة في سنة 262 ميلادية لقب «Dux Orientis» ويعني: زعيم المشرق، إلى جانب لقب امبراطور. وأما أذينة نفسه فإنه إضافة لذلك اتبع التقليد الذي عرفته بلاد الرافدين قديماً وملوك الفرس فيما بعد فدعى نفسه «ملك الملوك». ولا يستعبد أن يكون قد فكر بأن يرث الفرتيين ويمد سلطته على أرض الرافدين. إلا أنه كان على درجة من الحكمة والتعقل والاعتدال جعلته يبقى ضمن حدود المعقول. فبقي على ولائه لروما وتحالفه معها.

خلال الحروب التي خاضها أذينة كان يمثله في تدمر أحد أفراد الأرستقراطية التدمرية وهو «يوليوس أوريليوس سبتيميوس Julius Aurelius Septimius» الذي يقال إنه كان من أصل فارسي روماني مختلط. وكان يقوم بمهمة حاكم المدينة والقاضي الأعلى حسب النظام الروماني ويعتبر بمثابة الحاكم العسكري حسب النظام الفارسي.

وقد ظهرت ازدواجية التأثيرات الخارجية بأجلى مظاهرها في ألقاب هذين الرجلين: يوليوس وأذينة.

أما «ملك الملوك» التدمري أذينة الذي وصل بتدمر إلى مستوى دولة يُحسب حسابها فقد اغتيل مع ابنه حيران الذي كان قد اختاره وريثاً له، وذلك في سنة 268 ميلادية، في حمص أو بجوارها. وكانت ظروف وأسباب ذلك الاغتيال غامضة، فهناك احتمال لا تدعمه أدلة، أن زوجته كانت لها يد في ذلك. واحتمال آخر أن ابن أخيه كانت له علاقة بمؤامرة لا يستبعد أن روما دبرتها. إلا أن السر الحقيقي لذلك الاغتيال ضاع إلى الأبد.

وكان ينتصب في شارع الأعمدة الكبير تمثال للملك أذينة يحمل كتابة بالتدمرية فقط:

«صلم سبتيميوس أذينة ملك ملكي...
ومتقننا دي مديتًا كله سبتيمايا...
زبدا رب حيلا ربّا وزبّاي رب حيلا..
دي تدمر قرطيسطا أقيم لمارهون..
بيرح آب دي شنة 582..»[180]

ومعنى ذلك:

«نصب سبتيميوس أذينة ملك الملوك ومجدّد البلاد كلها. أقامه القائدان الممتازان زبدا قائد الجيش العام وزبّاي قائد جيش تدمر لسيدهما بشهر آب من سنة 582..»[181].

سنوات الأوج في تدمر:

زنوبيا أرملة لا تعرف الاعتدال

رغم تلك الشهرة التي نالها أذينة فإنه لم يبلغ ما بلغته أرملته من العظمة. والتي حكمت بعده كوصية على ابنها القاصر وهب اللات.

كانت تدعوها الكتابات التدمرية باسم «سبتيميا بَتْ زَبّاي» أي إبنة زبّاي. وهو الاسم الذي تناقلته المصادر العربية بعدها بلفظة «الزبّاء». إلا أنها اشتهرت باسم «زنوبيا» فقط. ودخلت التاريخ من بابه الواسع وحققت ما يشبه الأساطير. لم تكن زنوبيا امرأة عادية. كانت كما تبدو من خلال المنحوتات ذات طلعة جميلة. وقد تمتعت بذكاء عالٍ وثقافة ممتازة وموهبة عسكرية وتدريب جيد. وكانت تمارس الصيد وركوب الخيل. وقد تكلمت لغات عدة. وكانت تشارك جنودها المتاعب وتسير معهم أياماً وأسابيع. وعرفت بشربها الخمر. وكان عندها طموح جارف.

---

(180) قارن لذلك المرجع السابق .M.Lidzbarski, p 462

(181) أي سنة 271 ميلادية (ارجع إلى الحاشية 174).

استولى على زنوبيا شعور بأنها ملكة الشرق، وفعلاً أطلقت على نفسها هذه الصفة. وقد تفوقت في طموحها وتأثيرها على كل ملكات العصر القديم. وكانت في المناسبات الرسمية تلبس أزياء الرجال وتتخذ الرداء الأرجواني كالأباطرة الرومان.

وأعطت ابنها القاصر وهب اللات لقب «أوغسطس» الذي لم يكن الأمبراطور غالينوس يريد أن يمنحه إياه. كما لقبت هي نفسها «أوغسطا».

أما مراسيم البلاط الملكي فكانت متأثرة بنظام أكاسرة الفرس. ولذا كان على الزائرين أن يحيوها بالسجود إلى الأرض. وكان ما أدى إلى نهايتها ونهاية تدمر معها هو طموحها اللامحدود وتهورها وعدم اكتراثها بتناسب القوى.

في أواخر حكم الأمبراطور غالينوس وقع اصطدام مسلح بين الفرق التدمرية وبين وحدات الفرقة الرومانية المتمركزة على الحدود الفارسية. ولكن زنوبيا ببراعتها عرفت كيف تتدارك مضاعفات ذلك الحدث قدر الإمكان. إلا أنه خلف بقية من عدم الثقة لدى الرومان، وأخذوا في روما منذ ذلك الوقت يفكرون ملياً وبدقة أكثر في تحركات هذه الملكة المدهشة.

ثم أن زنوبيا اعتقدت أنه قد حان الوقت للضربة الكبرى التي علقت كل آمالها عليها. وذلك بعدما قتل غالينوس وخلفه كلوديوس الثاني، الذي لم يحكم إلا فترة قصيرة أنهكه خلالها صد هجمات القوط الغربيين على شمالي الأمبراطورية، بحيث لم يبق لديه الوقت للانشغال بالأجزاء الآسيوية من الأمبراطورية.

في ذلك الوقت رأت زنوبيا أن لديها قوة كافية. فأعلنت باسم ابنها تدمر دولة مستقلةً تماماً. واتخذ وهب اللات لنفسه لقب «ملك الملوك» ـ كما فعل أبوه أذينة ـ وفي سنة 270 ميلادية وجهت قائدها «زبدا» على رأس جيش كبير إلى مصر احتل الاسكندرية وخلع حاكمها وأقام حامية تدمرية فيها.

بعدها مباشرة تابع القائدان التدمريان «زبدا» و «زبّاي» الأعمال العسكرية في الشمال بالتوغل في آسيا الصغرى واحتلال أجزاء واسعة منها وأقيمت فيها الحاميات التدمرية حتى على مقربة من خلقدونيه في الغرب.

توصلت زنوبيا بهذه الحملات الخاطفة خلال زمن قصير جداً لإنشاء امبراطورية تدمرية حقيقية امتدت من النيل في مصر حتى مشارف القوقاز في الشمال.

وقد خلدت هذه الشهرة في النقوش التدمرية. ففي شارع الأعمدة الكبير أقيم تمثال

للملكة على عمود عالٍ يحمل كتابة مزدوجة بالتدمرية واليونانية. أما النص التدمري فهو:

«صلمت سبتيميا بت زبّاي نهيرتا وزادقتا...

ملكتا.. سبتيميوا زبدا رب حيلا...

ربّا وزبّاي رب حيلا دي تدمر قرطيسطاوا...

اقيم لمارتهون بيرح آب دي شنة 582...»[182].

ومعنى ذلك:

«نصب لسبتيميا زنوبيا الملكة الشهيرة والتقية، وللقائدين الشهيرين بلقب سبتيميوس، وهما زبدا قائد الجيش العام وزبّاي قائد جيش تدمر. أقيم لسيدتهم بشهر آب سنة 582...»[183].

مع كل هذه الانتصارات السريعة تريثت زنوبيا في قطع العلاقة مع روما. وسياستها هذه كانت قد نالت تأييد أفراد البلاط الملكي في تدمر وأثارت حماسهم. إلا أن أرباب التجارة الذين كان لهم مؤيدون أيضاً أعربوا عن عدم ارتياحهم لهذه السياسة، وكانوا دائماً يرفعون أصابع التحذير من الأخطار.

لم يؤثر ذلك كله على تزويد روما بالحبوب المصرية، التي استمر شحنها من الإسكندرية بصورة اعتيادية. إلا أن هذا الوضع من اللاسلم واللاحرب لم يستمر طويلاً. وقد تميزت هذه الفترة القصيرة والأخيرة من تاريخ تدمر بحياة فكرية رائعة. فقد عينت الملكة الفيلسوف «لونجينوس» من حمص وزيراً ومستشاراً سياسياً لها. وكان قد درس في الاسكندرية ثم رحل إلى أثينا حيث قام فيها بالتدريس. وفي سنة 268 ميلادية هرب من اليونان أمام خطر القوط الشرقيين. وكان فيلسوفاً فريداً في عصره. وقد علم زنوبيا الأدب اليوناني قبل أن يصبح مستشارها. كما انضم إلى بلاطها «باول السميساطي» الذي كان أسقفاً في أنطاكية.

ولكن فوق هذا البلاط الرائع كانت تقترب العاصفة دون أن يحس بها أحد. كان

---

(182) لمقارنة النص التدمري واليوناني أيضاً. المرجع السابق نفسه: M. Lidzbarski, p 462.

(183) الملاحظ أن تمثال زنوبيا هذا وتمثال اذينة (الفقرة السابقة) قد أقيما في وقت واحد هو شهر آب من سنة 271 ميلادية.

الأمبراطور الجديد أورليان (270ـ 275) حازماً قوي الشكيمة. بعد حملات عدة ناجحة في إيطاليا والبلقان ضد القوط في سنة 271 ميلادية أخذ يستعد لإعادة هيبة السلطة الرومانية في الشرق الأدنى.

وكانت زنوبيا في سنة 270 بعد احتلال الاسكندرية قد سكّت فيها عملة تدمرية، على أحد وجهيها صورة أورليان وعلى الوجه الآخر صورة وهب اللات تحيط بها عبارة «ملك الملوك». وقد تساهل أورليان بقبول هذه العملة وتداولها. إلا أنه رفض العملة التي سُكّت في السنة التالية مباشرة (271) بدون صورته، وكانت على أحد وجهيها صورة وهب اللات بالرداء الأمبراطوري والتاج المتألق، أي بمنزلة أوغسطس، وعلى الوجه الآخر صورة أمه زنوبيا بلقب أوغسطا. وهكذا عزم أورليان على وضع حدٍ لهذا التحدي وتهوّر ملكة المشرق ودولة تدمر. في السنة نفسها (271ميلادية) عبر أورليان الهلسبونت (المضيق البحري بين اليونان وآسيا الصغرى) وتغلب على الفرق التدمرية التي كانت قد وصلت إلى «بيثينيا» في غربي آسيا الصغرى. وفي تلك الأثناء استطاع قائده «بروبوس Probus» الذي صار امبراطوراً فيما بعد، أن يعيد السيطرة الرومانية على مصر. ودون معارك فعلية جديرة بالذكر استطاع أورليان أن يستعيد من التدمريين كل آسيا الصغرى.

على الرغم من ذلك قدم أورليان للملكة عروضاً معتدلة للتفاوض. إلا أنها رفضتها بشدة. والمعتقد أن ذلك كان بناءً على نصائح مستشارها لونجينوس.

بعد ذلك سارت الأمور بسرعة. وتفوقت فرق أورليان من الفرسان والمشاة الخفيفة الحركة على الفرق التدمرية التي منيت بأول هزيمة عند دفنه ضاحية أنطاكية. ولم تظهر من أنطاكية مقاومة جديرة بالذكر. وتراجع التدمريون باتجاه الجنوب. والمعتقد أيضاً أن حمص نتيجة لشعور أهلها بالحسد لتدمر على هذه الشهرة لم تبدِ إلا بعض المقاومة الخفيفة، وكان احتلالها سهلاً. وعلى مقربة منها عند العاصي انكسر القائد التدمري زبدا وانسحب مع الملكة والجيش إلى تدمر، وأصبح طريق البادية مفتوحاً أمام الرومان.

واعتقد أورليان أن إله الشمس في حمص قد ساعده في هذا الانتصار. فأقام له فيما بعد معبداً في روما. والواقع أنه كان للخيالة الخفيفة عند الرومان دور كبير في هذا النجاح.

بعد الانسحاب اعتقدت زنوبيا أن الطريق الصحراوي سيكون صعباً أمام الجيش الروماني، وأنها تستطيع الدفاع عن تدمر.

في تلك الأثناء عزز أورليان جيشه بقوات مصرية وتابع زحفه عبر البادية في سنة 272 ميلادية بعد قضاء بعض الوقت في حمص. ولم تتلق تدمر أية مساعدات خارجية ووجب عليها الاعتماد على جيشها المحلي. وتقدم أورليان فضرب الحصار على المدينة، إلا أنه قدم مرة أخرى عروضاً بشروط معتدلة، فرفضتها زنوبيا مجدداً. واستمر التدمريون المحاصرون في الدفاع عن المدينة، وعندما فشلت محاولات الثبات وبدأ الجوع بالانتشار والسكان بالتذمر، ثبت لزنوبيا أنها تخوض معركة خاسرة. وكان ابنها في تلك الأثناء قد قتل في الدفاع عن المدينة. فحاولت النجاة بنفسها وركبت جملاً وتمكنت مع بعض المرافقين من تخطي خطوط الحصار الرومانية والوصول إلى الفرات. لكن فرسان الرومان الذين أحسّوا بذلك ولاحقوها أدركوها في اللحظة التي همت فيها بركوب زورق وعبور الفرات. وبذلك لم يبق أمام المدينة سوى الاستسلام.

أراد أورليان أن يظهر بمظهر المنتصر المتسامح. فاعتبر أن المسؤول الأول عن سياستها الخاسرة إنما هو لونجينوس مع المستشارين الآخرين. ونسب إليه تهمه تحريض الملكة على كتابة ذلك الجواب الجاف اللهجة على العروض السلمية التي كان قد بعث بها إليها. فأمر بإعدام لونجينوس وباول السميساطي وبعض المستشارين الآخرين.

لم تصب المدينة أضرار كبيرة حينذاك. إلا أن المنتصرين غنموا منها كنوزها الثمينة وأجمل ما كان فيها من النفائس. وفرضت على السكان غرامة حربية. وترك أورليان حاكماً عسكرياً فيها على رأس حامية من رماة النبال تعدادها ستمائة، لتراقب كل المنطقة الممتدة حتى الفرات.

أما زنوبيا فقد أخذها أورليان مع واحد من أبنائها إلى روما. ومشت بمرارة وهي مقيدة بالسلاسل الذهبية وراء عربة النصر التي ركبها في موكب فريد من نوعه، اجتاز شوارع العاصمة الرومانية في سنة 274 ميلادية.

وأما مصير زنوبيا بعد ذلك فغير مؤكد. إذ أن هناك روايتين مختلفتين تماماً: الأولى أخذت من قصيدة لاتينية مؤثرة تصف كيف أن زنوبيا قضت فترة مهمومة ودخلت إضراباً عن الطعام وماتت كسيرة القلب.

أما الرواية الثانية فقد وردت في مجموعة الكتابات المسماة «كتّاب التاريخ القيصري»[184] وتقول إن زنوبيا قُدم لها بيت مريح في «تيبور» ضاحية روما قضت فيه

---

(184) والعنوان اللاتيني هو: =

بقية حياتها كسيدة كبيرة. ويفهم من هذه الرواية أنها تزوجت هناك، حيث يذكر أيضاً أن بناتها فيما بعد تزوجن من أعضاء في مجلس الشيوخ الروماني.

نهاية تدمر

كان أورليان بعد استسلام تدمر قد عبر الهلسبونت ووصل البلقان عائداً إلى روما في أواخر سنة 272 ميلادية، عندما وافاه خبر قيام ثورة في تدمر تم فيها قتل حاكمه العسكري والتغلب على الحامية التي تركها هناك. فقفل راجعاً بجيشه من البلقان ودخل سوريا من جديد وفاجأ تدمر التي لم تكن قد توقعت هجوماً بهذه السرعة.

هناك تضارب في بعض التفاصيل المتعلقة بمصير المدينة. فالمصدر المذكور في الفقرة السابقة «كتّاب التاريخ القيصري» (أنظر الحاشية هناك) يورد نص رسالة موجهة من الأمبراطور أورليان إلى شخص يدعى «كورروديوس باسوس Corrodius Bassus» تشير إلى أنه قد تم قتل كل سكان تدمر تقريباً وأن أورليان أصدر أمراً يقضي بإعادة بناء المعبد الكبير (بعل) الذي نهبته الفرقة الرومانية الثالثة، وأن يكون البناء على حساب ما كان يملكه التدمريون من ذهب وفضة.

ولكن أغلب الباحثين لا يعتقد أن الأمور سارت طبقاً لهذا الكلام تماماً. فمن المؤكد أنه قتل عدد ضخم من السكان[185]، ومما لا شك فيه أن جنود الفرق الرومانية نهبوا المدينة، إلا أن ما كان لدى التدمريين من الذهب والفضة قد سُلب أيضاً ووجد طريقه إلى روما ولم يصرف لبناء المعبد[186].

لقد دفعت تدمر الثمن غالياً. وانتهت بسرعة تلك العظمة. وبقيت فيها بقية بسيطة

«Scriptores Historiae Augustae».

وهي مجموعة كتابات تاريخية اشترك فيها عدد من الكتاب وشملت الفترة ما بين زمن القيصر هادريان والقيصر نوميريان أي من 117 إلى 284 ميلادية. والمعتقد أن المخطوطة الأصلية غير معروفة وأنها نسخت من كاتب غير معروف حوالي القرن الرابع الميلادي. ولذا فإن بعض المؤرخين لا يثق بدقتها وصحتها.

(185) إذا تأملنا في تدمير الرومان لقرطاجة بعد سقوطها في سنة 146 قبل الميلاد وقتل القسم الأعظم من سكانها لما تصورنا ـ رغم هذا الفارق الزمني ـ أنهم كانوا أكثر رحمة بالتدمريين.

(186) خصوصاً وأنه عرف عن الرومان في كل تاريخهم تمويل الجزء الأعظم من الحروب مما يجتمع لديهم من غنائم الشعوب التي ينتصرون عليها. وذلك حسب مبدأ «الويل للمغلوبين».

من السكان، إلا أنها فقدت أهميتها تماماً. وعلى الرغم من أنه عاد إليها بعض الاعتبار البسيط ولفترات مؤقتة خلال حكم كل من «ديوكليتيان» (284ـ 305 ميلادية) و «جوستنيان» (527ـ 565 ميلادية) فإنها أصبحت على هامش الحياة تماماً، مثلما كان مصير بترا قبلها.

وأُهمل بذلك طريق البادية التجاري. وعادت للطريق الشمالي القديم أهميته ثانية عندما أخذ الفرس يسيّرون عليه قوافلهم التجارية.

إلا أن الحركة التجارية بشكل عام تراجعت أكثر فأكثر نتيجة للإضطرابات المتزايدة في الأمبراطورية الرومانية وعدم وجود الحماية الكافية على طرق القوافل.

وذبلت الحياة في تدمر، وهجرها تدريجياً بعض من تبقى من السكان. وبعضهم الآخر سكن في القرون اللاحقة في المعبد الذي نجا من الخراب الكامل.

وانتهت في تدمر حركة القوافل التجارية إلى الأبد. وتغلبت طبيعة الصحراء على تلك المملكة بعد قرون عديدة من النضرة والحياة والثراء. واستطاعت الرمال على مدى القرون الطويلة أن تغطي بعضاً من معالمها.

وعندما دخل العرب سوريا في القرن السابع الميلادي كانت تدمر قد دخلت في عالم النسيان.

ملاحق الكتاب

العلاقات البحرية

دِلمُون ـ تِلْمون ـ

منذ زمن غير معروف بدقة، وبكلمات أخرى منذ نشوء العلاقات التجارية البحرية، ظهرت أهمية جزيرة دلمون (البحرين حالياً) بالنسبة لمراكز بلاد الرافدين، واعتبرت في الأساطير السومرية من الأماكن التي لها صفة القداسة. ويتكرر ذكرها في كثير من الألواح السومرية والبابلية والآشورية بشكل «دلمون» إلا أن الكتابات الأكادية ذكرتها بلفظ «تلمون». ومن الثابت أنه قد وجد فيها استيطان قديم جداً. ففي عام 1954م. بدأ آثاريون دانمركيون بأعمال تنقيبات أثرية هناك. والنتائج التي توصلوا إليها لم تكن منتظرة. فهم يؤكدون أن الجزيرة كانت مأهولة منذ 5000 سنة قبل الميلاد، ولعبت دور وسيط هام بين وادي الهند وبلاد الرافدين. وإن صحت هذه التقديرات بالفعل فإنما يعني ذلك وجوب إعادة النظر في كل المعطيات الزمنية المعروفة عن الحقب الحضارية في أراضي الرافدين والرجوع بها إلى ما قبل الألفين الثالث والرابع بكثير[1].

(1) وهذا الواقع تثبته نتائج التحريات الأثرية المستمرة التي تحدث تغييراً كبيراً في التواريخ المعتمدة حتى الآن. مثال ذلك ما توصل إليه في بداية هذا العقد الباحث الألماني «هارالد هاوبتمان Harald Hauptmann» خلال حفرياته في الموقع المسمى «نيفالي جوري Nevali cori» إلى الشمال من مدينة أورفه حيث كشف عن بقايا معبد وفيه تمثال وأشياء أخرى، يعود حسب اعتقاده واعتقاد باحثين آخرين إلى حوالى 7000 قبل الميلاد. وهو يقول في ذلك: وحتى بناء معبد إريدو في جنوب الرافدين الذي ترجع أقدم تصاميم فيه إلى 5000 قبل الميلاد والذي اعتبر حتى الآن أقدم ما في العالم فقد تجاوزه في القدم «نيفالي جوري» بآلاف السنين.

هذا وقد نشرت تفاصيل هذا التقرير المصور مجلة «در شبيغل» الألمانية في العدد رقم 33 تاريخ 12 آب سنة 1991 في الصفحات 160ـ 165 تحت عنوان:

«عتبة الحضارة» .«Die Schwelle zur Zivilisation»

ومن خلال الألواح الكثيرة يتضح أن الجزيرة منذ الألف الثالث (ق. م.) على الأقل وخلال حقب طويلة تمتعت بمكانة كبيرة كمركز للتجارة البحرية وكمخزن ضخم للسلع ومحطة للشحن والتفريغ والحسابات والإستسلام والتسليم. وشملت علاقاتها المراكز السومرية وبابل وأكاد وآشور وماري وإبلا غربي الفرات، ومن الجهة الأخرى وادي الهند وساحل الجزيرة العربية. ومن خلال استعراض الأمور التجارية في فصول هذا الكتاب يتضح أن المخاوف حول زوارق النقل البحري كانت أقل من المخاوف بالنسبة للقوافل التجارية البرية. ويتبين من الألواح الفخارية أن السفن الشراعية الصغيرة كانت تحتاج إلى حوالى ثلاثة أيام في أحوال جوية مناسبة للوصول من أور إلى دلمون. فبعد اجتياز العوائق الرملية الكثيرة عند مصب الفرات كانت تصل عند مساء اليوم الأول إلى الجزيرة الصغيرة «فيلقة» على مقربة من الكويت الحالية[2] حيث تقضي الليل على رمل الشاطىء. والمعتقد أن هذه الجزيرة الصغيرة كانت تحت إشراف موظفين من دلمون يتعهدون بحماية السفن ويتقاضون رسوماً. وقد بقيت أهمية هذه الجزيرة الصغيرة حتى قرون متأخرة حيث أقام فيها السلوقيون حامية عسكرية. بعد فيلقة كانت السفن تحتاج إلى يومين للوصول إلى دلمون.

خلال الحفريات التي قام بها «ليونارد وولي Leonhard Woolley» في أور وجدت أكوام ضخمة من الألواح الفخارية بعضها معبأ في جرار فخارية والبعض خزن في حفر صغيرة في الأرض تم طليها بطبقة من الأسفلت. وتقدم هذه الألواح معلومات كثيرة سواء عن المواد التجارية أو عن طبيعة العلاقات بين أور ودلمون من حيث النظام والدقة. مثال ذلك ما جاء في أحد الألواح:

> «مقابل هذا المقدار من لفّات الصوف أو الأنسجة الصوفية يلتزم الشركاء في أور بعد عودة السفينة من دلمون باقتطاع وزن معلوم من النحاس في سبائك من نوعية جيدة... ولا نتحمل الخسارة إذا حدثت خلال الرحلة...».

وتحتوي الألواح المذكورة تنوعاً كبيراً في مضمون المراسلات التجارية. ولا تخلو من رسائل التنبيه أو اللوم والشكوى للتأخر أو المماطلة في التسليم. ومن الأمثلة ما جاء

(2) هذا مع العلم أن ساحل الخليج كان في ذلك الزمن أبعد بكثير إلى الشمال مما هو عليه الآن وكانت أور هي الميناء الرئيسي للجنوب البابلي على ساحل الخليج.

في رسالة موجهة من تاجر إلى أحد عملائه:

«لقد وعدتنا خلال زيارتك بتسليم سبائك جيدة. ولكنك لم تنفذ وعدك. وبدلاً من ذلك قدمت لمبعوثنا إليك سبائك سيئة موجهاً إليه في نفس الوقت عبارة غير مهذبة: ـ إما هذه أو لا شيء غيرها ـ فمن أنا يا ترى... حتى تعاملني بهذه الإستهانة؟...»

ويتضح من خلال ألواح كثيرة أن النحاس الذي كان يشكل القسم الأكبر من التعامل التجاري بين أور ودلمون لم يكن مصدره دلمون، بل كان يتم إحضاره من البلدان الجنوبية. ومن الواضح أنها كانت شحنات معتبرة، عندما يشار بالذكر إلى حمولة سفينة تعادل في أوزاننا الحالية أكثر من ثمانية عشر طناً. وهناك ألواح كثيرة على شكل رسائل تحميل أو ما يدعى فواتير شحن تقدم توضيحاً عن مختلف أنواع البضائع المحملة في السفن إلى أور مثل: النحاس والبرونز والعاج الخام والمصنّع والكحل والمغرة والمرجان والعقيق واللازورد ودروع السلاحف وخشب الساج واليشم وعيون السمك (اللؤلؤ). وبالمقابل كانت سفن أور تنقل الأصواف والألبسة والجلود وزيت السمسم والأسفلت وعدداً كبيراً من منتجات الحرفيين.

ومن غير المعروف كيف كان شكل تلك السفن التي كانت تبحر في مياه الخليج وتصل حتى الهند وسواحل أفريقيا الشرقية والتي يتضح أنها كانت سفناً بحرية بكل معنى الكلمة. ومما لا شك فيه أنه كان هناك خوف دائم من مداهمات لصوص البحر. لذا كان قادة السفن يتخذون تدابير وقائية عند تحميل السفن. فمثلاً عند تحميل شحنة من سبائك النحاس كانوا يغطونها (للتمويه) بخشب الساج وبعض السلع الأخرى، وربما بسبائك صغيرة من الذهب، أما الأدوات والتحف النفيسة المصنوعة من العاج ودروع السلاحف فكانت توضع في صناديق تخبأ في مقصورة على سطح مؤخر السفينة. وكانت تختم بالأختام المستديرة الخاصة بأصحاب الشحن. وعدا عن ذلك توضع عليها حراسة خاصة طيلة وقت الرحلة. ثم إن الحجارة الكريمة والنفيسة التي تعادل قيمتها أحياناً كل ما في السفينة من حمولة، كان يتولى حملها قائد السفينة نفسه بوضعها في كيس من الجلد الطري على صدره تحت ملابسه. وإلى جانب ذلك كانت كل قطعة من السلع الكمالية الغالية الثمن يرفق معها وصف مفصل لها.

وكل السلع التجارية المذكورة آنفاً كان مصدرها الهند وسواحل أفريقيا الشرقية وسواحل الجزيرة العربية. إلا أن دلمون نفسها تميزت بكونها مصدر اللؤلؤ الذي تسميه

الألواح الفخارية دائماً «عيون السمك». وعمليات استخراج اللؤلؤ تعود إلى زمن موغل في القدم كما توضح الرواسب المتبقية من المحارات في دلمون. هذا وأن كثرة استخدام الأصداف في الفنون التزيينية والتطعيم في المدن البابلية تدفع للاعتقاد أن البابليين قد استوردوا اللآلىء من دلمون، علماً بأن عدم العثور على شيء منها في الحفريات الأثرية ربما يدل على أنها قد تلفت بسبب عوامل تأثير التربة. وعلى كل حال فإن المسلة التذكارية التي تركها الملك «شلمنصّر» الثالث تشير إلى أن هذا الحاكم الآشوري كان قد تلقى من الملوك الكلدانيين في الجنوب البابلي لآلىء من جملة الضرائب المجموعة من الفضة والذهب.

إلا أن اللؤلؤة عاشت عصرها الذهبي في روما القديمة ووصل الاهتمام بها إلى درجة خيالية. فمن ذلك ما يرويه «پلينيوس Plinius» أن الرومان عرضوا في موكب النصر سنة 33 قبل الميلاد أيام بومبي ثلاثة وثلاثين تاجاً مصنوعة من اللآلىء وعدداً كبيراً من عقود اللؤلؤ الثمينة، ويقول بهذا الصدد متهكماً:

«أليس كافياً أن النساء يحملن اللآلىء في الرقبة وعلى الرأس والذراعين؟ . . . هل يجب فوق هذا كله أن يمشين عليها؟ . . .»

وعرف عن الأمبراطور «كاليغولا Caligula» الذي لقب بالمجنون أنه طوّق حصانه المدلّل بحبل من اللؤلؤ. وفي أيام «نيرون Nero» كان الممثلون يحملون أقنعة مرصعة باللؤلؤ. ويروي المؤرخ «سيتونيوس Suetonius» أن القائد «فيتيليوس Vitellius» استطاع بموارد اللآلىء العائدة لأمه أن يغطي تكاليف حملة عسكرية كاملة. ولآلىء كليوباترا كانت لها شهرة كبيرة، حيث يصف «بلينيوس» حَلَق اللؤلؤ التي وضعتها في أذنيها أثناء الوليمة الكبيرة التي أقيمت على شرف «ماركوس أنطونيوس» ويقدر قيمة تلك الحلق بستين مليون «سيسترتيوس Sestertius»[3]. ومما هو معروف عن يوليوس قيصر أنه أهدى إلى «سرڤيليا Servilia» والدة «بروتوس Brutus»[4] لؤلؤة كانت قيمتها ستة

---

(3) وحدة نقدية فضية استخدمها الرومان عوضاً عن العملة النحاسية التي كانت تدعى «آس As» وذلك حوالى 250 قبل الميلاد. وكانت في البداية تساوي 2,5 آس. ثم صارت فيما بعد تساوي 4 آس. علماً أن الآس كان يعادل 327 غراماً.

(4) والمعروف أن «بروتوس» اشترك مع الذين اغتالوا يوليوس قيصر علماً بأنه كان أكثر المقربين إليه لدرجة اعتبره البعض بمثابة ابنه. ومن هنا درج القول المعروف عن قيصر: «حتى أنت يا بروتوس؟ . . .».

ملايين سيسترتيوس. إنه من المتعذر أن نعرف كم تعادل هذا الأرقام تماماً بنقدنا الحالي، ولكنها بالتأكيد كانت مبالغ خيالية.

في الأزمنة القديمة كان كبير الكهنة كان يخرج لتحية القوارب العائدة من موسم صيد اللؤلؤ. وحتى قبل بضعة عقود من الزمن في عصرنا هذا كان الشيخ يخرج بزورقه الرسمي لملاقاتهم. غير أن هذه الأهمية كلها انتهت اليوم وأصبحت عملية صيد اللؤلؤ لا يكاد يشعر بها أحد، وخصوصاً بعدما تضاءل صيده وتدنت قيمته التجارية.

هذا وسنرى فيما يلي من هذا الملحق كيف أن تجارة البخور أيضاً أصبحت لا تخطر ببال أحد بعد كل الأهمية التي كانت لها في الأزمنة القديمة.

حوالى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد احتل حمورابي البابلي جزيرة دلمون وأفرغها من كل ما فيها بحيث أصبح ازدهارها في عالم الذكريات. وتحول ذلك المركز التجاري البحري العام إلى مكان لشحن التمور التي كانت نظراً لنوعيتها الجذابة مرغوبة كثيراً في بلاد الرافدين. ومن المحتمل أن الكاشيين هم الذين وجهوا إليها الضربة القاضية فيما بعد. ولم تعد دلمون تذكر إلا في أيام الملوك الآشوريين ـ خلال العصر الآشوري الجديد بعد زوال ازدهارها بزمن طويل ـ إذ خضعت للملك سنحريب بعدما مد سلطته إلى كل الجنوب البابلي، كما كانت بين المناطق التي خضعت لآشور بنيبال. والمرة الأخيرة التي ذكر فيها إسم دلمون كانت في وثيقة رسمية من وثائق حكومة الملك البابلي «نبونيد». واللوح المحتوي على الوثيقة مؤرخ في السنة الحادية عشرة لحكم هذا الملك، أي 544 قبل الميلاد. وهذا يعني قبل خمس سنوات فقط من سقوط بابل على يد الفرس بقيادة قوروش. وفي اللوح يرد الحديث عن حاكم دلمون. وبعدها بقي كل ذكر لهذه الجزيرة مهملاً لوقت طويل.

مناطق ما زالت مجهولة

مكان/ماكان ـ ميلوخّا

خلال الحديث عن العلاقات التجارية الخارجية في الفصول الأولى من الكتاب، وخاصة العصر السومري والعصر البابلي، كان يتكرر ذكر بعض المناطق الهامة التي لم تزل مواقعها إما مجهولة تماماً أو معروفة بشكل تقريبي قائم على التخمينات. وأهم هذه المناطق من حيث العلاقات التجارية، والتي غالباً ما ذكرتها الألواح مقترنة بعضها ببعض هي: «دلمون» (البحرين ـ موضوع الفقرة السابقة) و «مكان» أو «ماكان» و «ميلوحّا» أو «ميلوخّا».

وربما كانت العلاقات التجارية مع هذه المناطق تعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. ففي إحدى الكتابات التي تركها سرجون الأكادي الكبير (في القرن الرابع والعشرين) يفتخر قائلاً بأنه أجبر السفن التابعة لكل من «دِلمون» و «مكان» و «ميلوحّا» على الرسوّ عند أرصفة ميناء عاصمته الرائعة أكاد[5]. ثم يقول حفيده نارام سين في كتابة له إنه أخضع مدناً عديدة في الجنوب البابلي كانت قد قامت ضد الحكم الأكادي ويذكر معها «مكان» بشكل «مجام/ مكام» قائلاًإأنه أسر بنفسه ملكها الذي يدعى «مانيوم»[6]. وفي العصر السومري الجديد يذكر «غوديا/ چوديا» ملك لاغاش الشهير أنه استورد من ميلوحّا» و «مكان» و «دلمون» الأخشاب والمعادن والحجارة، وأهمها تلك الحجارة السوداء (الديوريت) التي نحتت منها تماثيله العظيمة والتي تحمل كتابات تؤكد صحة أقواله[7]. ولم يزل بعض هذه التماثيل موجوداً.

---

(5) Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.107.

(6) أنظر أيضاً Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.106

وارجع إلى: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. الجزء الأول. ص 555.

(7) أنظر: Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.118

لم تقدم الألواح الفخارية المعروفة أي خبر له دلالة جغرافية واضحة حول موقع كل من «مكان/ماكان» و «ميلوخّا». ولكنها تفسح المجال للاعتقاد عند أغلب الباحثين أن «مكان/ماكان» وقعت على الجانب الشرقي من شبه الجزيرة العربية. فهناك اعتقادات مترددة أنها عبارة عن وادٍ كان يمتد ما بين واحة البُريمي وساحل عُمان. كما يعتقد أنها قد تكون عمان نفسها أو ساحل عُمان. وبما أنه يتكرر ذكرها كمصدّر للنحاس فهناك من يعتقد أنها منطقة في جبال عُمان حيث لم يزل النحاس يظهر حتى عصرنا هذا. وفي الأحوال كافة يبقى الاحتمال المرجح هو أن «مكان/ماكان» قُصد بها إحدى النواحي عند أسفل الخليج وليس أبعد من ذلك[8]. ومما يقوي هذا الاحتمال هو ما ذكرته الألواح الفخارية من أن سفناً سومرية في زمن مبكر جداً نقلت نحاساً ليس من جزيرة دلمون بل من «ماكان» مباشرة. وبما أنه لم تكن في ذلك الزمن المبكر سفن قوية كبيرة متطورة، فإنه مما يصعب تصوره قيام سفن بسيطة برحلة بحرية بعيدة، إلى إثيوبيا (الحبشة) مثلاً حيث يتوقع البعض أن «مكان/ماكان» وقعت هناك،الأمر الذي يستوجب الدوران حول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية والاحتكاك مع المناطق المنتجة للبخور في هذه الحال، إلا أنه لا يوجد ما يشير إلى ذلك. وهناك بعض الظواهر التي تشير إلى أن عمان كانت قد وجدت فيها خلال الألف الثالث (ق.م.) مناجم نحاس ناشطة في المرتفعات الجبلية على أطراف الصحراء الكبرى غطتها بمرور الزمن رمال الصحراء المتطايرة[9]. وعدا عن ذلك كانت هناك آراء لا مجال للتوسع فيها، تقول إن «ماكان» ربما هي النواحي الشرقية من مصر، و «ميلوخّا» هي الحبشة مع السودان[10]. وبشكل عام فإن التغيرات التي حصلت في كثير من الأسماء الجغرافية خلال الحقب الطويلة لم تترك إمكانية لمقارنة هذه الأسماء القديمة مع الأسماء المعروفة حالياً.

أما «ميلوخّا/ميلوخّا» فمن الواضح أيضاً أنها لم تكن مدينة معينة بل إقليماً بكامله. وهناك آراء تتجه إلى تحديد موقعها في نواحي وادي الهند أو المناطق الواقعة في غربيه

= ثم: جواد علي، المرجع نفسه، الجزء الأول ص 557.

(8) أنظر لذلك Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.50, 87, 123
H.L. Kaster, Die Weihrauchstrasse, p. 64-65 (Frankfurt/Main 1986).
قارن أيضاً جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام. الجزء الأول ص 557ـ 560.

(9) أنظر كاستر، المرجع نفسه H.L. Kaster, p.65.

(10) انظر أيضاً جواد علي، ص 559.

أو على ساحل الهند الغربي[11]. وعدا عن ذكرها في النصوص البابلية كمنطقة لاستيراد الذهب وأشياء أخرى، فقدت وجدت بالفعل في بلاد الرافدين أثناء الحفريات أشياء هندية الأصل كالأختام القديمة والمزهريات وبعض الحلي وبقايا طيور من العاج الملون وبقايا من الطاولات والكراسي المزينة بالفسيفساء. وهذا يدل على أنه قد وجدت علاقات تجارية منتظمة بين بلاد الرافدين ووادي الهند. ولكن على الرغم من وجود هذه العلاقات التجارية فإن هناك في النصوص الآشورية ما يشير إلى أن «ميلوخّا» لم تكن في نواحي الهند، بل ربما وقعت هي و «ماكان» في ناحية واحدة. من ذلك كتابة تركها آشور بانيبال عن حملة عسكرية قام بها في الجنوب جاء فيها:

«في بداية حكمي. . . في حملتي العسكرية الأولى. . اتجهت مباشرة إلى ماكان وميلوخّا. . .»[12].

وكان ذلك على الأرجح في سنة 664 قبل الميلاد. وهناك مدونة أخرى تركهاالملك الآشوري سرجون الثاني جاء فيها:

«لقد عبرت مسافة 120 بيرو[13] في أراضٍ رملية كانت الأفاعي والعقارب فيها تغطي وجه الأرض كالنمل. . .»[14].

وهذه الـ 120 بيرو كان يقصد بها المسافة ما بين أسفل الفرات و «ميلوخّا»، الأمر الذي يبعث على الظن في هذه الحال أن «ميلوخا» ربما كانت على الجانب الشرقي أيضاً من شبه الجزيرة العربية. ولم يزل كل ذلك من قبيل الافتراضات.

---

(11) انظر: W.F. Leemans, Foreign Trade in Old Babylonian Times, p. 159-166 (Leiden 1960).

Fischer Weltgeschichte, vol. 2, p.49, 87, 123،

H.L. Kaster, Die Weihrauchstrasse, p.65.

(12) انظر: Fischer Weltgeschichte, vol. 4, p.249.

(13) ليس مؤكداً كم كانت تساوي هذه الوحدة القياسية «بيرو». وهناك اعتقاد أنها هي القصبة. ارجع إلى جواد علي. المرجع السابق نفسه ج 1 ص 560. ولا أستبعد أنها كانت تعادل ما كان يعرف عند الفرس ثم العرب بالفرسخ الذي يساوي حوالى الأربعة أميال.

(14) انظر: Fischer Weltgeschichte, vol. 4, p.209-210.

جنوب الجزيرة العربية

على الرغم من أن الباحثين في الأزمنة القديمة يشعرون أنهم ما زالوا على أعتاب المعرفة بالنسبة لحقب ما قبل التاريخ في شبه الجزيرة العربية وأن هناك ثغرات واسعة جداً تملأ ذلك التاريخ، فمن المعروف أن شبه الجزيرة العربية كان قد سبق لها أن لعبت دوراً لزمن طويل كجسر تجاري بين الحضارات القديمة في الشرق والغرب.

حوالى سنة 1000 قبل الميلاد (وربما منذ ما قبل ذلك) كان أحد الطرق التجارية الرئيسية في العالم القديم يمتد من تلك المنحدرات على الساحل الشمالي الغربي للمحيط الهندي ماراً بأراضي اليمن الداخلية، ويستمر محاذياً للبحر الأحمر عبر الحجاز حتى يبلغ جنوبي سوريا وساحل البحر المتوسط ومصر.

ولكن من المعتقد أنه قبل ذلك الوقت بزمن طويل ـ حوالى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ـ كان قدماء التجار المصريين قد توصلوا بقواربهم البسيطة حتى الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية. ومن الناحية الأخرى كان التجار من الهند قد تعرفوا على الطريق إلى ذلك الساحل متنقلين من مرفأ إلى آخر. ومن الطبيعي أن يكون الأمر في الزمن القديم قد اقتصر على مواجهات بين التجار في تلك المرافىء من حين إلى آخر وتبادلٍ بسيط لبعض السلع. ولا شك أن سكان السواحل قد أدركو بسرعة مجالات الربح المتاحة لهم.

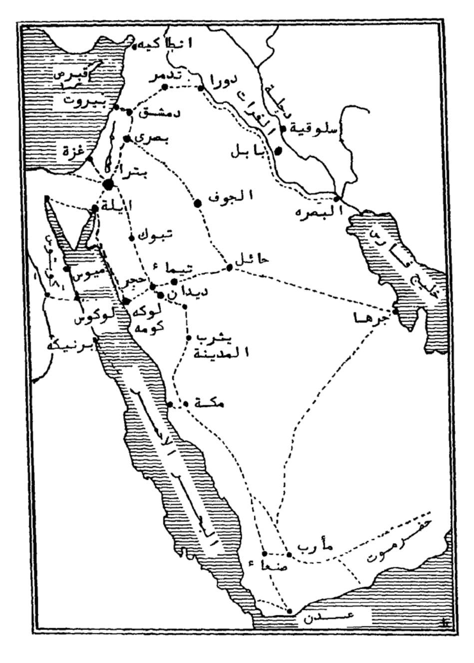
كان ما فكر به المصريون في الأصل هو البخور الذي احتاجوه في معابدهم والمرّ الذي استخدموه في تحنيط الموتى. ثم إنهم بمرور الزمن وعبر الاحتكاك التجاري تعرفوا على عدد كبير من المواد التي وجدوا لها استعمالات أو حركت رغباتهم، مثل: القرفة والتوابل لحفظ اللحوم، واللؤلؤ الذي كان مصدره الخليج الفارسي، والحجارة

الكريمة من بلاد الهند وأفغانستان، عدا عن الأصبغة والحرير.

كان البحارة الهنود يتجنبون الدخول في مياه الخليج الفارسي إما لشعورهم بأنه غير مأمون لتفرّيغ بضائعهم، أو لأن سفن السومريين والدلمونيين احتكرت وحدها عمليات النقل التجاري عبر الخليج ولم تترك للهنود مجالاً، فاعتادوا الإقتراب أكثر فأكثر نحو الغرب. وهناك على السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية كان يعرض عليهم ما هم بحاجة إليه كالمنسوجات المصرية والمصنوعات الجلدية والمعدنية والعبيد النوبيين والعاج الأفريقي وريش النعام والقرود.

من المعتقد أن سكان جنوب الجزيرة العربية كانوا في بداية عهدهم يكتفون بالحصول على بعض الرسوم وعائدات التسويق، غير أن هذا لم يستمر طويلاً، فسرعان ما أصبح منهم وسطاء لا يستغنى عنهم، بحيث لم تبق إلا خطوة واحدة تميزهم عن تاجر الترانزيت الذي يسيّر عبر المسافات البعيدة هنا وهناك لحسابه أو حساب الآخرين البضائع التي تنتظر منها أرباح عالية، والتي كان نقلها غالياً ووزنها خفيفاً وحجمها صغيراً. وكان الابتعاد في العمليات التجارية محفوفاً بالأخطار، إذ إن قراصنة البحر الأحمر كانوا قد جعلوا من الإقدام على النقل المائي مغامرة خطرة. لذلك بقي أمام التجار ذلك الطريق البري الطويل الوعر الذي لا يخلو أيضاً من المخاطر والصعوبات. وكان التجار المولعون بالأرباح الكبيرة من أولئك العرب الجنوبيين على استعداد دائماً لسلوك هذا الطريق، حيث كانوا ينتظرون بفارغ الصبر تلك الأرباح التي ستكون في أيديهم.

إلا أنه لم يتضح إلا فيما بعد، أي شأن كان للبخور الذي قدمه جنوب الجزيرة العربية، والذي كان كل يوم يحرق في مختلف المناسبات وتكريماً للآلهة في معابد وادي النيل والهلال الخصيب والبلدات الأخرى من العالم القديم. والتجار لم يكونوا في ذلك الوقت يتوقعون تلك الأرباح والثروات التي آلت إليهم من هذه المادة. ولم يكن هنالك من حاجة لأن يهتموا بالبحث عن الزبائن أو أسواق التصريف فالإحتياج للبخور كان أمراً يومياً في كل تلك البلدان وسوقه كانت رائجة.



الطرق التجارية القديمة في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ومنها طريق البخور العالمي.

الممالك العربية الجنوبية القديمة

كانت التحريات الأثرية حتى الآن قليلة في جنوب الجزيرة العربية، وبالتالي لم تزل المعلومات ضئيلة عن حقب ما قبل التاريخ بحيث لا نكاد نعرف شيئاً جديراً بالذكر عن الأصول القديمة لتلك المراكز الحضارية التي عرفتها بلاد البخور. وعلى الرغم من أن الكتابات المكتشفة حتى الآن ليست قليلة فإنها ليست إلا دليلاً على اللغة الجنوبية فحسب، يمكن من خلالها معرفة العديد من أسماء الملوك. على أن الحفريات الأثرية القليلة التي جرت تبين منها أن مدن الجنوب العربي كان لها من حيث الإتساع والمظهر شبه ببعض مدن الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى القديم.

وبشكل عام يمكن وضع خطوط عريضة لمجريات العصور التاريخية. كما يمكن أن نتصور هيكلية عامة للتنظيم السياسي في تلك الممالك، وأن نعرف انه قد وجدت في ذلك العصر أرستقراطية إقطاعية ـ وبالتحديد أرستقراطية أموال ـ تحرص على تقييد سلطة الملوك ضمن حدود معينة.

هناك ما يشير إلى تأثيرات من بلاد الرافدين في عصر مبكر جداً. وبعض الباحثين يعتقد بوجود علاقات تجارية بين مدن الرافدين وجنوب الجزيرة العربية منذ أقدم فترات الحضارة الرافدية. علماً أنه لم توجد أدلة واضحة وقاطعة على ذلك. لا شك أن هناك بعض الزخارف والأختام التي تعود بأصلها إلى بلاد الرافدين ولكن هذا هو كل شيء متوفر حتى الآن. ويمكن القول إنه لو كان التأثير كبيراً وعميقاً لكان إنسان الجنوب العربي بالطبع قد عرف الكتابة المسمارية مثلما عرفها واستخدمها العيلاميون والحثيون وغيرهم. الخط العربي الجنوبي جميل متناسق ورشيق. والأبجدية، التي تدعى «السبئية»، تحوي تسعة وعشرين حرفاً. وكما في كل اللغات المسماة بـ «السامية» فإن الكتابة تقرأ من اليمين إلى اليسار، علماً أنه في بعض الأحيان يتغير اتجاه الكتابة

بالتناوب مرة إلى اليسار ومرة إلى اليمين. والأبجدية العربية الجنوبية كانت دون شك حوالى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد قيد الاستخدام. وهذه الكتابة لها صلة قرابة مع الكنعانية، ولكن ليس من الثابت حتى الآن إن كانت قد تطورت منها، أو أن كلاً منهما تطورت مستقلة عن الأخرى من لغة أصلية مشتركة. كما أن لها صلات قرابة مع عربية الشمال ومع اللغة الحبشية. وهناك الألوف من النقوش الكتابية على الحجارة، والتي تم تفسيرها، غير أن فيها كلمات كثيرة ما زالت حتى اليوم غامضة.

كان المنظمون لشؤون الطرق والتجارة في جنوب الجزيرة العربية يتبدلون على مر القرون. ومن غير المستبعد أن بعض التجار كانوا في البداية قد مارسوا أعمال السطو على القوافل التجارية، ثم اكتفوا بعد ذلك وخلال مرحلة معينة بتقاضي أجور عن حماية القوافل كنوع من الكسب الجيد والأكثر أماناً. ثم ثبت لهم بمضي الوقت أن ممارسة التجارة نفسها هي الفرصة الأفضل لتحقيق مكاسب أكبر. ولما كانوا قد عرفوا كيف يحمون أنفسهم من اللصوص وقطاع الطرق وكيف يتجنبون تحمل الرسوم الزائدة عند اللزوم، فقد عمدوا لإقامة التحصينات وتحسين الطرق وتهيئة الأماكن الآمنة للاستراحة والتزود بالماء وغيره. ولا بد أنه ثبت لهم من خلال ذلك أن إنشاء التجمعات أو التكتلات الكبيرة سيحقق لهم أكثر مما تحققه جماعات صغيرة متفرقة، فأستخلصوا من تصوراتهم نتائج وتكتلوا مع بعضهم[15].

ومن الطبيعي أن ازدياد النشاط التجاري وبالتالي ازدياد أهمية ذلك الطريق البري الحيوي في الجزيرة العربية تطلب وجود نظام قوي يشرف على حمايته وحماية القوافل التي كانت مصدر الأرباح الكبيرة. وقد نشأت في فترة غير معروفة بالضبط ممالك المدن التي لم تكن معاصرة بعضها لبعض بشكل كامل، وإنما خلفت بعضها بعضها في السيادة المطلقة على واحد من أهم وأربح الطرق التجارية المعروفة في العالم القديم والذي عاد عليها بالغنى والقوة. وكانت هذه الممالك هي:

مملكة معين

كانت معين هي الأقدم بين ممالك جنوب الجزيرة العربية. وكان موقعها على

(15) كان تكتل التجار أو ممولي التجارات أمراً عرفته كل المراكز الحضارية في الهلال الخصيب وخلال كل الحقب الزمنية كما رأينا في فصول الكتاب.

طرف الربع الخالي. وقد امتد سلطانها ما بين 950 و650 قبل الميلاد على معظم المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية.

وتم التوصل لمعرفة أسماء ستة وعشرين من ملوكها. ويعتقد من خلال آثارها أن المدينة كانت كبيرة وغنية. وكنتيجة للتجارة وما جاءت به من الغنى والقوة امتد النفوذ السياسي لهذه المملكة نحو الشمال. وبعض المستعمرات المعينية في شمال الجزيرة العربية معروفة، كانت أهمها «ديدان» في شمالي الحجاز وتدعى اليوم «العلا». وفيها تم العثور على حوالى المئتين من النقوش الكتابية المعينية.

مملكة قتبان

لا توجد حتى الآن معلومات دقيقة عن بداية ظهور مملكة قتبان. ولكن من المعتقد أن عاصمتها «تمنع» تقارب في قدمها «معين». وموقعها في وادي بيحان غير بعيد عن وادي حارب. والمعتقد أنه في هذا الموقع كان يلتقي الطريقان: الصاعد من الساحل، والقادم من حضرموت، ثم ينعطفان إلى الطريق الرئيسي باتجاه الشمال.

في سنة 1936م. اكتشفت بوادي بيحان كتابة مطلعها:

«أنا ملك قتبان في مدينتي كحلان...». ويرد فيها تعداد للمناطق التي يعتبرها أجزاء من مملكته. واستخدمت فيها لغة لوحظ أن لها قرابة قوية مع لغات معين وحضرموت. ويستنتج منها أن بداية ازدهار دولة السبئيين كانت في ذلك الوقت.

وقد سبق في سنة 1924م. أن تمكن أحد الباحثين النمساويين من جمع كل النقوش القتبانية التي كانت معروفة آنذاك وتأكد من خلالها أن «تمنع» القديمة كانت في موقع التل المسمى «حجر كحلان» بوادي بيحان. وقد غمرت الرمال تقريباً تلك الأماكن، غير أن معالم البيوت وخصوصاً منها الأبنية الكبيرة ما زال ممكناً التعرف عليها دون صعوبة. وقد تبعثرت هنا وهناك الحجارة الكبيرة المنحوتة من مختلف الألوان. وفي وسط ميدان المدينة القديم تنتصب مسلة تغطيها الكتابات ولا يقل ارتفاعها عن الخمسة أمتار. غير أنه تم الكشف عن جزء منها فقط. كما لا تزال شرفة أحد المعابد ماثلة هناك. من المرجح أن أوج ازدهار قتبان لم يكن موغلاً في القدم كما كانت التصورات سابقاً، ولم يعد أحد من الباحثين في الآونة الأخيرة يتحدث عن القرنين السادس أو الخامس ق.م. بل عن الثاني والأول قبل الميلاد.

غير أن العلاقة بينها وبين نهضة السبئيين لا يمكن تمييزها ببساطة. لقد تم الكشف عن أحد بيوت مدينة «تمنع». ويعتقد أنه ليس هنالك ما يدل على أن بناءه يعود لأكثر من 150 قبل الميلاد. ويرجح أنه في ذلك الوقت كان حكم الملك «شهر ياغيل يهرغب أو شهريجل يهرجب» وليس قبله بعدّة قرون كما كان يعتقد سابقاً. وهناك الكثير مما لا يزال مبهماً. وبعض التقديرات الزمنية لم يعد ثابتاً. فما كان يؤرخ سابقاً في القرن السابع قبل الميلاد ينسب اليوم للقرن الرابع، علماً بأن بعض النقوش القديمة يناقض أحياناً هذا التأريخ، إذ إن البعض منها يرجع لقرون عدة قبل ذلك. ويستنتج من تحري بقايا منشآت الري حول «تمنع» أن وادي بيحان كان خلال أوج قوة قتبان أشبه ببستان كبير تزرع فيه الحبوب والخضار وأشجار الفاكهة. واستناداً إلى كتابات مختلفة في قدمها وجدت على فتحات الأقنية يرجح أن ذلك الإزدهار كان ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد، عندما كانت القتبانيون يرمزون لإله القمر بهلال. كما أن طوقاً ذهبياً اكتشف في تمنع يقدم دليلاً واضحاً على ذلك... إنه ليس معروفاً متى كان خراب «تمنع» ولكن الاعتقاد السائد أنه كان بضع سنوات قبل أو بعد الميلاد.

مملكة سبأ

أخذت شهرة كل من معين وتمنع وشبوة بالتراجع عندما طغى عليها صعود نجم مدينة مأرب عاصمة مملكة سبأ في اليمن الحالي، والتي تبعد حوالى المئة كيلومتر إلى الشمال الغربي من تمنع وتقع على طريق البخور مباشرة. هناك بالواقع تضارب في التواريخ المعروفة حتى الآن، علماً أن مشكلة عدم توفر التواريخ الدقيقة وخضوع الكثير من المعلومات التاريخية للتغير في المستقبل سبق أن أشرنا إليها في بداية الكتاب. وعلى الرغم من ذلك فإن أغلب التقديرات تشير إلى أن بدايات نهوض سبأ تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. أما فترة ازدهارها فدامت حوالى الخمسة قرون، جمع السبئيون خلالها ثروات لا تقدر، وكانت بصورة أساسية من تجارة البخور، ولم يوجد أغنى منهم في جنوب الجزيرة العربية. وقد استفادوا من هذا الغنى ليس فقط في البناء والحياة المترفة، وإنما في التوسيع المستمر لنفوذهم السياسي الذي استخدموه من ناحية أخرى لإحكام السيطرة السبئية ليس فقط على طريق البخور، بل ويمكن القول على تجارته بالكامل اعتباراً من إنتاجه وحتى وصوله تقريباً إلى المستهلك.

منذ أن قام الآثاريون الأميركان بحفرياتهم في مأرب سنة 1951م. أصبحت هناك

معلومات أوضح عن هذه المدينة وسدها الأسطوري. ويقدر أنها كانت تعادل في كبرها عشر مرات مدينة تمنع حيث أن التل الترابي الذي يغطيها يبلغ طوله حوالي الكيلومتر وعرضه نصف كيلومتر. ويعتقد العاملون في الحفريات الأثرية أن أعمال البناء تطلبت سنوات كثيرة وأن أقدم بداية للمدينة ربما تعود للقرن الثامن قبل الميلاد.

أشهر ما في مأرب كان هو السد. وهو نموذج من السدود أقيم كي تجتمع خلفه مياه الأمطار التي كان يتم جرها إلى الحقول. ولم يزل جسم هذا السد الأثري قائماً. وقد تم نحت الحجارة الكبيرة بشكل ساعد على تركيبها بإحكام مع بعضها إلى جانب بعض. وكان ارتفاع هذا الجدار الضخم يبلغ 15 متراً، أما طوله فكان 1500 متراً، ويعتبر إنجازاً رائعاً بمقياس ذلك الزمن.

تفيد الكتابات القديمة أن جدار السد تم ترميمه خلال سنتي 449/ 450 ميلادية ومرة أخرى في سنتي 542/ 543. هذا وإن بقاءه هذه المدة الطويلة يدل على جودة بنائه. غير أنه انهار بعد ذلك بسنوات عدة، في الفترة التي سيطر فيها الأحباش على جنوب الجزيرة العربية. وخلال ذلك الوقت كان السبئيون قد أصبحوا في عالم النسيان.

ليس معروفاً بصورة أكيدة من أين كان مقدم السبئيين. ولكن يحتمل أنهم جاؤوا من الشمال. يرد في إحدى الكتابات المعينية أن غارة سبئية قد وقعت على إحدى قوافل البخور في شمالي الجزيرة العربية. وربما كان السبئيون قبل استقرارهم قد مارسوا أعمال السطو كبعض القبائل الأخرى. ولكن من المعتقد أيضاً أنهم قد انتظموا في دولة خلال زمن مبكر. ففي التواريخ الآشورية يذكر أن السبئيين قدموا جزية للملك سرجون الثاني. كما أن المذكرات المكتوبة في زمن سنحريب وبالذات في سنة 685 قبل الميلاد تذكر أحد الملوك السبئيين. ومع ذلك تبقى التفاصيل غير واضحة حيث أن التواريخ القديمة لم تكن تهتم بتسجيلات دقيقة لأسماء شعوب جنوبي الجزيرة العربية.

بلغت علاقات السبئيين التجارية مدى أبعد مما كانت عليه عند أسلافهم. ومن المؤكد أنهم كانوا ذوي إقدام في التجارة وكان لهم وكلاؤهم في كل الموانىء الشرقية للبحر المتوسط، يطلعونهم باستمرار على أحوال الأسواق والتطورات الاقتصادية والسياسية حيث إن لها علاقة مباشرة بالتجارة. ويُستدل من بعض المراسلات المتروكة في بيت أحد التجار اليهود في المدينة البابلية «نيبور» أن السبئيين توصلوا في علاقاتهم حتى تلك الناحية. ويبدو أن السبئيين لم يتركوا فرصة تفلت من أيديهم لضمان إحكام القبضة على احتكار تجارة البخور الذي كان عصب الحياة في رخائهم الإقتصادي.

ويذكر المؤرخ الروماني ديودور الصقلي أنهم تجاوزوا في رفاهيتهم وإسرافهم جيرانهم من العرب وكل شعوب المناطق الأخرى، وأن من أسباب ذلك هو تحقيقهم لأعلى الأسعار في التجارة وعدم تعرضهم لويلات الحروب على مدى أجيال عديدة. وعلى الرغم من أن ديودور الصقلي لم يشاهد بنفسه جنوب الجزيرة العربية بل دون ما كان يسمعه فقط، فيبدو مع ذلك أن ثراء السبئيين وصل إلى درجة صارت حديث الناس. ومن الممكن أن هذا الوضع من الرخاء كان منذ ما قبل السبئيين بعدّة قرون، وكان تدفق الأرباح الكبيرة من تجارة البخور هو العامل الذي ساعد على الرفاهية وإدخال الأشياء الغنية الثمينة، والاحتكاك المستمر مع البلدان الغريبة ساعد الحرف الفنية المحلية على النشاط والنهوض كما لوحظ من المكتشفات الأثرية. في القرن السادس قبل الميلاد كانت حضارة جنوبي الجزيرة العربية قد تطورت بشكل جيد. ولهذا يقدر البعض أنها أقدم من ذلك بحوالى القرنين من الزمن. إلا أن المعلومات عن تلك الحقبة القديمة بسيطة جداً.

لقد كان من الممكن اعتبار تلك العلاقة بين «ملكة سبأ» والملك سليمان في أورشليم وثيقة تاريخية هامة لو كانت هناك إثباتات عن شخصية هذه الملكة. ففي الكتابات السبئية المعروفة لا يوجد أي ذكر لملكة، علماً إن التواريخ الآشورية تبين أن عرب الشمال كانت لديهم ملكات ترأسْنَ دولاً، حتى أنها تذكر بالاسم اثنتين: «زبيبة» و «شمسْ». والنصوص العبرية التوارتية تذكر (في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول) قصة زيارة «ملكة سبأ» للملك سليمان في أورشليم وما صاحب ذلك من هدايا متبادلة، علماً بأن هذه النصوص تغفل كل ذكر لاسم الملكة، بينما المعروف عن النصوص التوراتية بشكل عام هو دائماً ذكر أسماء الملوك والأمراء والقادة وغيرهم في كل زمان ومكان. والواقع أن اسم «بلقيس» عرفناه من خلال المصادر الإسلامية فقط. والذي يزيد الموضوع ارتباكاً هو ما ذكرناه آنفاً من عدم وجود تواريخ ثابتة وأكيدة. فحسب المرويات التوراتية التي تحدد زمن الملك سليمان في القرن العاشر ق.م. يجب إرجاع تاريخ السبئيين إلى فترة أقدم من ذلك بكثير وبالتالي تجاهل كل التواريخ المعروفة عن بقية الممالك العربية الجنوبية، واعتبار القرن السادس ق. م. مرحلة متأخرة من تاريخ سبأ سبقتها قرون عدة من التطور. والجدير بالذكر أن الأحباش يريدون التمسك بالرأي أن «ملكة سبأ» كانت أميرة حبشية. وربما كان مردّ ذلك إلى أن المرويات التوراتية في الإصحاح العاشر من سفر التكوين تذكر «سبأ» ثم «شبأ» كإسم لجدّ قبيلة في

أرض «كوش» التي كان يُقصد بها أعالي وادي النيل ـ أي الحبشة ـ ثم تذكر بعد ذلك «شبأ» كإسم لجدّ إحدى القبائل المنسوبة إلى عرب الجنوب.

لا شك أنه خلال القرن العاشر قبل الميلاد (أيام سليمان) وصلت إلى أورشليم كميات كبيرة من البخور والتوابل والحرير من الجنوب العربي. وكانت «شبوة» حينذاك مكان التقاء القوافل الكبيرة التي تتجه إلى الشمال. أما عن ملكة السبئيين فلا توجد وثائق إثبات ولا يوجد في الكتابات السبئية ما يشير إليها. ولكن هذا لا يعني كل شيء بالطبع لأن ما تم حفره حتى الآن في مأرب، وعموماً في جنوب الجزيرة العربية قليل جداً. وإن نقشاً واحداً يحمل معلومات حقيقية قد يكشف عنه في أي يوم في المستقبل.

بقي أن نعرف أن الحكام الأُوَل تذكرهم النقوش حوالى سنة 800 قبل الميلاد بلقب «مكرب». وكانوا ملوكاً كهنة كما هو الحال في الكثير من دول العصر القديم.

مملكة حِمْيَر

حوالى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد فقدت مملكة السبئيين أهميتها بانتقال مركز الثقل إلى المرتفعات اليمنية في الجنوب الغربي.

وأسباب ذلك غير معروفة، ولكن الأرجح أنه نتيجة للمنازعات الشديدة التي لم تنقطع بين الشعوب العربية الجنوبية من أجل السيطرة على طريق البخور وتجارته وجد السبئيون المترفون أنفسهم في النهاية مضطرين لإفساح المجال لشعب آخر من شعوب اليمن.

اتخذ الحميريون مدينة «ظفار» عاصمة لهم. وموقعها بالقرب من المدينة اليمنية الحالية «يريم» الواقعة على الطريق الجبلي بين تعز وصنعاء. وكانت ظفار عاصمة آخر مملكة كبيرة من ممالك المدن العربية الجنوبية. من المحتمل جداً أن ما دفعهم لاختيار هذا الموقع هو تصورهم أنه بذلك تتم لهم أفضل سيطرة على طريق البخور الذي يعبر السفوح الشرقية للجبال، وبحيث لا يكون هنالك إهمال أيضاً للتجارة البحرية التي توقع الحميريون تطورها.

ومن الواضح أنهم كانوا أصحاب موهبة وبعد نظر ومهارة في السياسة والتجارة. كما كانوا يعرفون فن استخدام القوة العسكرية لخدمة أهدافهم. وقد امتد نفوذ مملكتهم في السنوات الأولى الميلادية ما بين البحر الأحمر والمحيط الهندي شاملاً حضرموت

وظفار حتى ساحل الخليج الفارسي.

واليمن الذي هو قلب مملكة الحميريين كان يدعى فيما مضى «بلاد القصور». ويذكر المؤرخون العرب في أخبارهم شيئاً عن قصور مدينة صنعاء، التي كان أشهرها القصر المسمى «غمدان». وفي هذه القصور عاشت أرستقراطية إقطاعية من أصحاب الأموال سيطرت على أغلبية كبيرة من البسطاء لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن ظروف حياتها الاجتماعية.

حوالى نهاية القرن الأول الميلادي كان الاحتكار الحميري للتجارة قد انهار عملياً وانقضى عهد الأرباح الطائلة. فما كان من التجار ذوي النظرة البعيدة، الذين أحسوا بما سيحل بهم، إلا أن هاجروا باتجاه الشمال، حيث كان الأنباط الدهاة قد استوطنوا منذ أمد طويل. وأما أهل العزم من الملوك الحميريين فقد ضربوا في اتجاهات أخرى ليستردوا شيئاً مما أفلت من أيديهم من التجارة العالمية. فمدوا سيطرتهم حتى ساحل المحيط الهندي وما بعد البحر الأحمر على ساحل أفريقيا الشرقي. ولكنهم دخلوا بذلك في نزاع مع الأحباش تمكنوا بمهارتهم أن يحولوه إلى اتفاق. وربما أثبتوا بذلك للأحباش أنه من الأفضل لمصلحة الطرفين العمل معاً ضد المنافسين الأنباط في الشمال.

في تلك الأثناء كان مبشرون مبعوثون من قبل القيصر قسطنطيوس بن قسطنطين الكبير قد أدخلوا المسيحية إلى جنوب الجزيرة العربية حيث لاقت انتشاراً كبيراً في اليمن. وقد وقفت في وجهها اليهودية التي جاءت أيضاً إلى اليمن وقوي نفوذها لدرجة أن الملك «ذو نواس» آخر الملوك الحميريين كان يهودياً. وعندما تأهب في سنة 523 ق.م. لإبادة المسيحيين في مدينة نجران اليمنية سابقاً طلب مسيحيو اليمن المساعدة من ملك الحبشة المسيحي. ويذكر المسيحيون العرب في أخبارهم أن الأحباش أرسلوا جيشاً إلى اليمن قوامه سبعون ألف رجل كالسيل جارفاً أمامه كل شيء، حتى أن الملك «ذو نواس» فرّ هارباً على الحصان عبر رمال السهول الساحلية وقفز في أمواج البحر فلم يره أحد بعدها. وبموته في سنة 525 ميلادية انتهت المملكة الحميرية.

بعد خضوع اليمن نقل الأحباش العاصمة إلى صنعاء وبنوا في سنة 550م. كاتدرائية فخمة من الحجارة التي أمروا باحضارها من خرائب مأرب.

أما القوافل التجارية فقد بحثت عن طرق أخرى، وتراجعت أسباب الرفاه. كما أن

النزاعات بين القبائل والحروب الخاسرة المتكررة ضد الغزاة الأحباش رافقها إهمال شبكات الري وبالتالي خرابها، فعمّ الفقر في البلاد.

يلاحظ أن المؤرخين العرب لم يكتبوا إلا الشيء القليل عن تلك الظروف. غير أنهم ذكروا ما فيه الكفاية عن انهيار سد مأرب العظيم في أواسط القرن السادس الميلادي ويجب أن يكون خبره قد انتشر كالبرق في الأنحاء العربية الجنوبية كافة. وقد فسّر الناس ذلك الإنهيار بطريقتهم، فقالوا إن الجرذان حفرت في السد فقوضته. الواقع إنه ليس من المستبعد أن تكون تلك الحيوانات المعروفة بحفرها للسراديب قد ساهمت فعلاً في التصدع الذي أدى للإنهيار. ولكن أصحاب الخبرات الهندسية يعتقدون على كل حال أن السبب الأساسي في ذلك كان إهمال جدار السد حقبة طويلة من الزمن.

بلاد البخور

تلك المادة العالمية

منذ زمن موغل في القدم استخدم الناس في مختلف البلدان الدخان الطيب الرائحة في كل الطقوس المتعلقة بالعبادات وأعمال الكهانة والتنبؤات والسحر وغيرها، وحتى في بعض المراسيم السياسية المتعلقة باستقبالات البلاطات الملكية. وقد اشتهر منذ تلك الأوقات البخور كمادة ينتج من إحراقها دخان عبق الرائحة، ويمكن القول إن هذه المادة اعتباراً من إنتاجها وحتى استهلاكها أصبح لها نوع من القدسيّة والأهمية العالمية عبر الحقب التاريخية، وجلبت على تجارها على مدى قرون عديدة ثروات لا تقدر.

منذ الألف الثالث قبل الميلاد كان يحرق البخور في المعابد القديمة في كل مدن الهلال الخصيب ومصر ثم انتشر استخدامه في بلاد فارس واليونان والرومان وغيرها وأصبح في كل تلك البلدان مادة يومية لا غنى عنها. وهناك أمثلة مما دوّنه الكتاب القدماء عن الاستهلاك الهائل لهذه المادة، من ذلك ما ذكره المؤرخ هيرودوت أن ما تم حرقه من البخور لتكريم الإله بعل في أيام عيده على المذبح الكبير في معبد بابل بلغت قيمته ما يعادل ألف طالن[16] هذا وإن النصب التذكارية في «بِرزِه بوليس Persepolis»[17] وقطع العملة الساسانية تقدم أدلة واضحة على استخدام البخور لطقوس العبادة في بلاد فارس القديمة. وبهذا الصدد يؤكد هيرودوت أيضاً أن الضرائب التي فرضها الفرس على الجزيرة العربية (بعد انهيار بابل وامتداد سلطانهم غرباً) كانت مقادير

(16) الطالن سبق تعريفه في بداية الكتاب في الحاشية رقم (5).

(17) تقع هذه المدينة إلى الشرق من الخليج الفارسي. وإسم Persepolis يوناني الشكل حيث إن اسم المدينة بالفارسية هو «پارسا كارتا» ويعني: قلعة الفرس. اعتبرت عاصمة إضافية لملوك السلالة الأخمينية. وكان الاسكندر الكبير في سنة 331 ق.م قد أحرق القصر الكبير الموجود فيها انتقاماً من الفرس لتدميرهم مدينة أثينا في سنة 480 ق.م.

سنوية من البخور تعادل قيمتها ألف طالن.

والرومان كانوا مستهلكين للبخور بشكل كبير، فبدونه لم تكن هناك شعائر دينية ولم يوجد حماس. وقدمه الأتقياء من المواطنين يومياً كقرابين للآلهة. ويقدر «بليني Plinius» أن البخور كان يبتلع حوالى نصف مدفوعات روما البالغة مئة مليون «سسترتيوس Sestertius»[18] والمخصصة سنوياً لاستيراد بضائع من الشرق. ويروى أيضاً أنه تنفيذاً لأمر من الأمبراطور الروماني نيرون تم حرق مستوردات سنة كاملة من البخور أثناء مراسيم دفن زوجته «بوبيا Popea» التي قتلها برفسة من رجله.

إلى جانب البخور اشتهر المرّ الذي استخدم في تحضير مواد التجميل ومعالجة الكثير من الحالات المرضية ودخل عند المصريين في عمليات التحنيط. وبصورة عامة كان البخور والمر من الحاجات اليومية في العالم القديم. إلا أن البخور بقيت له المكانة الأولى في الأهمية وضخامة الاستهلاك.

إن الطلب الهائل على هذه المادة، واستئثار بقعة معينة بها، وإنتاجها المحصور الذي كان متعلقاً بالعناية المستمرة بالشجيرات والأشجار، وطول ومخاطر طريق النقل عبر أراضٍ موحشة، ورسوم الطريق والخوّات الكثيرة، والخسائر الناتجة أحياناً من مفاجآت قطاع الطرق، والأعباء الواقعة على عاتق الإنسان والحيوان في مناخ قاسٍ طوال الطريق، كل هذه الأمور جعلت من البخور سلعة باهظة التكاليف.

ويروي «بليني» بوضوح كيف كانت المخازن على ساحل البحر المتوسط محروسةً ليلاً نهاراً، وكيف كان يجري تفتيش العمال بدقة لدى انصرافهم من العمل. كما يقدم صورة مفصلة عن تكاليف البخور اعتباراً من منطقة إنتاجه وانتهاءً بوصوله إلى المستهلك في الدولة الرومانية موضحاً بنتيجة ذلك أن كلفة الكيلوغرام الواحد في روما تعادل نسبة 10 بالمئة من متوسط تكاليف المعيشة السنوية، الأمر الذي يبين لنا كم كان هذا الصمغ الزكي الرائحة باهظ التكاليف في ذلك الزمن.

أما في أيامنا هذه فقد اختلفت الصورة كثيراً عما مضى، فقيمة البخور لا تتعدى جزءاً صغيراً مما كانت عليه قديماً، وسوقه أصبحت محدودة جداً، وتقلصت تلك القوافل الكبيرة فصارت تقتصر على عدد من الجمال لا يكاد يتجاوز أصابع اليد

---

(18) ارجع إلى الملحق الأول من هذه الملاحق (دلمون) حيث ورد ذكر الـ «سسترتيوس» وتعريفه في الحاشية هناك.

الواحدة، ويقول الناس في «صلاله» على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية أن تجارة البخور في أسواق هذه الأيام لم تعد لها أهمية أكثر من تجارة الماعز أو الحطب، وأن السعر يحدده اللون والنقاوة وكبر الكتلة.

وكما هو الحال في أشجار المطاط يتم تجريح تلك الأغصان الفضية والشجيرات التي كان قد اعتُنِيَ بغاباتها جيداً. ويتم تجفيف الحبيبات الصمغية في أشعة الشمس وكانت قديماً تجمع في مخازن قبل تصديرها. وكانت أفضل أنواع البخور هي تلك التي تأتي من وديان المنحدرات الشمالية المعاكسة للمحيط الهندي في قارة وقمرين. وتقول الأسطورة إنه حتى التراب هناك كان ينبعث منه أريج لطيف في الزمن القديم. وبالطبع كان لدرجة الحرارة ورطوبة الهواء وطبيعة التربة الدور الهام في إنشاء غابات البخور على ارتفاعات تقارب التسعمائة متر بصورة عامة. وما زال اليوم يتم تجريح الأشجار في أواخر الربيع وبداية الصيف.

خلال الفترة الزاهية لتجارة البخور التي انقضى عليها أكثر من ألفي سنة كانت ملكية الغابات كما يقال تعود لثلاثة آلاف عائلة. ويبدو أن تجريح قشور الأشجار اعتبروه من الأعمال التي لها طابع ديني. والعمل فيه كان امتيازاً متوارثاً ينحصر في الأفراد الذكور لحوالي ألف عائلة. أما اليوم فيستخدم عمال مأجورون يجمعون الحبيبات المجففة في أكياس. وفي كل من صلاله وعدن تقوم النساء اليوم بتصنيف حبيبات البخور. أما المرفأ القديم «قنا» على المحيط الهندي فتغمره الرمال منذ زمن طويل. لقد زالت صفة القدسية عن هذه المادة وأصبحت أهميتها العالمية في ذمة الماضي.

البخور وطريق التجارة العالمي

إن مواصلة ما كان يتم للبخور في جنوب الجزيرة العربية ورحلته البعيدة باتجاه الشمال قد سجله المورخ الروماني «بليني Plinius» الذي استقى معلوماته من الروايات الشفهية، ولكن هذا لا يعني أنها غير واقعية. فهو يقول في ذلك:

> = ... عندما يتم جمع البخور ينقل على ظهور الجمال إلى شبوة حيث يكون واحد فقط من أبواب المدينة مفتوحاً. هذا وإن الإنحراف عن الطريق أثناء المسير كان يعتبر حسب القانون المعمول به جريمة يعاقَب عليها بقسوة. وفي شبوة يتقاضى الكهنة بالكيل لا بالوزن نسبة العُشر من البخور

من أجل إلههم. ولا يمكن التصرف بالبخور إلا بعد تسليم هذه الضريبة. ومن هذا العُشر كان يتم الإنفاق على كل الخدمات العامة. وكانت الآلهة ترعى بكرم كل الغرباء الذين قاموا برحلة طويلة للتعرف على البلاد. ولم يكن ممكناً إخراج البخور إلا عبر أراضي الجبانيين الذين كان يجب أيضاً تقديم ضريبة لملكهم. ولكن، ليس هذا كل شيء بعد. إذ كان يتوجب تقديم هدايا من البخور للكهنة وأمناء الملك. كما أن أمناء المخازن وحراس باب المدينة وموظفين آخرين كان لهم حق في تناول هدايا، وكلها من البخور. عدا عن هذا كله وجب على الإنسان طوال طريق الرحلة أن يدفع في أماكن التزود بالماء والعلف وأماكن المبيت وأماكن العبور المأمونة، وفي حالات أخرى كثيرة. بحيث أن حمولة الجمل الواحد عندما تبلغ أخيراً سواحل بحرنا (أي البحر المتوسط) لا تقل كلفتها عن 688 ديناراً رومانياً، وبعد ذلك يبقى أن يُدفع إلى محصل الرسوم الجمركية والضرائب في الإمبراطورية الرومانية...=

الواقع أنه بالإمكان تصديق هذه التفاصيل التي ذكرها «بلينيوس»، لأن الأهمية التي رأيناها للبخور فيما تقدم تدفع بكل إنسان للحصول على شيء منه إذا أمكنه ذلك.

حتى الآن لا توجد معلومات جديرة بالذكر عن الاتفاقات ما بين ممالك المدن في جنوبي الجزيرة العربية، والحكام المحليين، وزعماء القبائل البدوية وشيوخ العشائر، الذين كانت تصادفهم القوافل أو تمر في ديارهم خلال إيصال سيل البخور من غاباته إلى أماكن جمعه. وبالطبع كان كل هؤلاء يحاولون الاستفادة منه، ولم يحدث أن واحدة من ممالك المدن أو الدويلات الإقليمية كانت لها وحدها السيطرة المطلقة ولزمن طويل على الإنتاج والتجارة. وكذلك ليست هناك معلومات واضحة عن تلك الدويلات والقبائل الكثيرة التي كان طريق القوافل الطويل يعبر أراضيها باتجاه الشمال. لقد كان أصحاب التجارات والقوافل مضطرين لحماية انفسهم قدر المستطاع من أعمال السطو والسلب والغارات ومن رسوم العبور المرتفعة، وذلك بعقد الاتفاقات واستئجار المرافقين والحراس هنا وهناك. وكانت بالطبع تتم المساومة على كل ذلك. ومن الطبيعي أن كل التكاليف الناتجة عن ذلك كانت تضاف إلى سعر السلعة كما هو الحال في كل التجارات الأخرى.

كان اتجاه الطريق يتغير بحيث يتلاءم أحياناً مع الظروف السياسية ومع التوقعات

الاقتصادية ومقتضياتها. وهذا ينطبق على الطريق البري الطويل (الطريق العالمي) وعلى الطرق الثانوية الموصلة، التي كان ينقل عليها البخور والمر من أماكن الإنتاج في أجمات الوديان الجبلية إلى أماكن التوزيع الكبرى.

ليست هناك معلومات أكيدة عن الطرق الثانوية الموصلة. ومن الممكن أنه قد جرى تغييرها خلال الزمن الطويل مرات عدة لمختلف الأسباب. كما لا يستبعد أن يكونوا قد استخدموا طرقاً متعددة في وقت واحد.

كانت أماكن التجميع الكبرى تقع في حضرموت التي اعتبرت بلد البخور بشكل مطلق على الرغم من أنها لم تكن تنتجه بل تاجرت به فقط وأوصلته إلى أسواق العالم. كانت الطرق الثانوية تؤدي إلى الوديان الممتدة طولياً. ومن الممكن أن الكثير من البخور كان ينقل من منحدرات جبال قارة إلى أماكن ساحلية صغيرة ومنها في قوارب إلى ميناء قنا. وبعضه كان ينقل مباشرة عبر المنحدرات إلى قنا. وكانت هناك بعض الطرق التي تمتد من أرض الميناء عبر الوديان باتجاه الشمال مؤدية إلى غربي حضرموت. غير أنه أصبح من المتعذر تتبعها بشكل دقيق. إن بعض الكتابات القديمة المنقوشة على سطوح بعض الصخور في الطريق هي كل ما يوجد من وثائق محلية، ولقد داستها أقدام لا تحصى حتى غدت وكأنها مصقولة. ويبدو أنه قد وجد تجار آخرون لم يقصدوا الساحل وميناء قنا بل نقلوا البخور مباشرة من ظفار إلى حضرموت خلال ثلاثين يوماً عبر أراضي «مهره» في المرتفعات الداخلية الموحشة الواقعة خلف الجبال الساحلية.

لم يكن لحضرموت ذلك الدور البارز بين ممالك المدن في الجزيرة العربية. ولكن موقعها الجغرافي وطبيعتها اللطيفة ومهارة أهلها ساعدتها على احتلال مكان مركزي في تجارة البخور حافظت عليه من البداية حتى النهاية. تتكون حضرموت بمعظمها من منخفض عريض أخضر يمتد طولياً ما بين الصحراء في الشمال والمرتفعات الجبلية في الجنوب. وحيث ينتهي هذا المنخفض ترتفع جروف صخرية عالية.

كما تتخلله الحقول الخضراء والبساتين وأشجار النخيل. وتنتشر فيه قرى ومدن من أهمها: «سيون» و «شبام» و «تريم». يبدأ منخفض حضرموت بالصحراء ممتداً إلى الغرب. وتلك الصحراء نفسها كانت تقع فيها المدن التي جهزت قوافل البخور الكبيرة. وهذه القوافل كانت إضافة للبخور تنقل اللؤلؤ وريش النعام والتوابل وسلعاً أخرى مما خف وزنه وارتفعت قيمته باتجاه الشمال. كان أصحاب التجارة يعمدون إلى إقامة اتحادات أو تكتلات وقتية. فالتاجر بمفرده لم يكن يجرؤ على المجازفة لأن ضياع قافلة

واحدة كان يعني دماراً مالياً. وكانت تدعم هذه التكتلات حكومات فعالة وقوية لدولة منظمة جيداً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. ولما كانت تجارة القوافل مما يدعم حياة هذه الدول بحيث وجدت نفسها في نزاع دائم مع البلدان المجاورة للسيطرة على الطريق، فإنها كانت تهتم بصيانة الطرق والموانىء وتتخذ الإجراءات الأمنية وتوقع العقود.

هناك في أسفل الجزيرة العربية كان يبتدىء طريق التجارة العالمية. وكان الأساس لوجود هذا الطريق الرغبة في الربح، وعموده الفقري الإتجار بسلعة مطلوبة كثيراً في مختلف البلدان وباهظة التكاليف. غير أن هذا الطريق انتهى شأنه، وانهارت بذلك الإبداعات السياسية التي كان الاقتصاد دعامتها الوحيدة، عندما اضمحلت تجارة البخور. وعمر طريق البخور معروف بالتقريب، إذ أنه كان مستخدماً منذ منتصف القرن العاشر قبل الميلاد. ولكن ما زال طوله غير معروف بدقة. وسيكون هذا ممكناً إذا تم تنظيم رحلات بحث علمية بصورة جدية في تلك المناطق الصحراوية الواسعة. ولذا كان الاعتماد في دراسته حتى الآن على الأخبار القديمة والمنقوشات القليلة والمختصرة التي يعثر عليها بالصدفة. كان القسم الأول من الطريق يمتد عبر الشريط الساحلي العريض المسمى «تهامة» وهي منطقة طبيعتها قاسية تتخللها الصحراء والحفر. ثم يتحول الطريق صاعداً باتجاه «إبّ» ومن ثم عبر الجبال باتجاه منطقة الحدود اليمنية «بيحان القصب» ويمتد على طول الصحراء المسمّاة «رملة سبتين» حيث ينتهي في غربي حضرموت.

أما الطريق الكبير فكان يبدأ في شبام وشبوة أو تمنع ويتجنب الربع الخالي الشهير والمتعذر العبور، الأمر الذي توجب معه تجاوز كثبان المنطقة الصحراوية الموحشة والشديدة الرياح والمعروفة باسم «رملة سبتين». ثم يمر في مأرب ومعين والمنحدرات الشرقية لجبال اليمن باتجاه نجران محاذياً للصحراء العربية الكبرى. وكان يمر على مقربة من يثرب (المدينة) أما مكة فكانت بعيدة عنه. كانت «تباله» محطة لاستراحة القوافل، ووجد فيها أحد معابد فينوس (الزهرة) الشهيرة. ثم كانت هناك محطة هامة هي واحة تيماء. ومن هذه الواحة كان ينحني طريق شرقاً باتجاه أرض الرافدين.

كانت رحلة القوافل حتى واحة ديدان (أي العلا اليوم) تستغرق خمسة وستين يوماً.

ثم إنه عند تيماء كان يتفرع مرة أخرى إلى طريقين: الأول يذهب مباشرة إلى بترا (الرقيم) مدينة الأنباط. والثاني يتجه إلى «إيلانا» المسماة «أيلة» عند الجغرافيين العرب والتي دعيت «إيلات» في النصوص القديمة الأخرى، وهي مقابل العقبة الحالية، ثم

يستمر ذاهباً منها إلى غزة على الساحل. بعض الدلائل تشير إلى أنه قد وجد طريق آخر ثانوي كان يخرج من حضرموت أيضاً باتجاه الشمال الشرقي إلى «جرّها»[19] على الساحل الغربي للخليج الفارسي حيث كان التجار الكلدانيون يتلقون البخور من هناك ويبحرون به حتى رأس الخليج. وهذا يعني أن الرحلة على هذا الطريق كانت تستغرق حوالى أربعين يوماً.

كان اتجاه الطريق في الجنوب خاضعاً إلى درجة كبيرة لتأثير الظروف السياسية وتقلباتها حيث إن كل واحدة من دويلات المدن كانت تطمح لأن يكون الطريق بكامله تحت سيطرتها. وهكذا فقد كان خلال زمن قتبان يتجه من «تمنع» ماراً بنهاية وادي بيحان ثم في مضيق «مبلقة» الشاقّ، ووادي حارب اليمني إلى مأرب، ومنها عبر وادي الجوف باتجاه الشمال الغربي إلى نجران.

إن أكثر ما هو جدير بالتأمل ذلك الطريق الجبلي الذي صنعته يد البشر. إنه يبلغ من الطول حوالى الخمسة كيلومترات، يصعد ويهبط، ويتغلب على فروق الارتفاعات بواسطة منحنيات حادة ضيقة أقيمت على مدرجات، تم تحصين زواياها الخارجية بأسوار طويلة. وعرض هذا الطريق أحياناً لا يكاد يبلغ الثلاثة أمتار، بينما يصل في أماكن أخرى الخمسة عشر متراً. وقد تم رصفه بقطع الحجارة الكبيرة. والأماكن الشديدة الإنحدار أقيمت عليها حواف لتذليل الصعوبة.

وحجارة الطريق تآكلت وصقلها المسير، إذ مرت عليها عبر خمسة وعشرين قرناً ألوف كثيرة من الجمال المحملة بالبخور، والتي كانت تربط أخفافها خوفاً عليها. وفيما تحت المضيق العالي كان انحدار الطريق شديداً بحيث لم يكن ممكناً إقامة المدرجات. ولم يكن بوسع عمال الطريق في ذلك العصر إلا أن يكسروا الصخور على مسافة ثلاثين متراً وبعرض خمسة أمتار وعمق اثني عشر متراً. ويمكن أن نتصور كم كان هذا العمل بوسائلهم البسيطة في ذلك الزمن إنجازاً شاقاً.

أما لماذا أخذت قتبان على عاتقها ذلك الجهد وتلك التكاليف الباهظة لإنشاء هذا الطريق الصعب في الصخور، بينما كانت هناك إمكانية أسهل بكثير عن طريق عبور مسافة سهلية آمنة إلى الشمال قليلاً والوصول دون متاعب من «تمنع» باتجاه وادي حارب إلى مأرب؟.. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه أطول، إلا أنه كان سيوفر عليهم تكاليف

---

(19) انظر ما ورد عن هذه المدينة في الحاشية 120 من حواشي الكتاب.

كبيرة، وتعليل ذلك أن هدف قتبان كان التحكم بتجارة البخور والرسوم التي تؤخذ من القوافل، والتي زادت في غنى هذه المملكة. ولكن غير معروف إن كانت قد فرضت رسوم خاصة على استخدام هذا الطريق الجبلي، علماً أنه أمر متوقع.

والجدير بالذكر أنه ما زالت هنالك بعض البيوت من مدينة قتبانية فوق تل ترابي على الطرف الشمالي من الطريق قبل أن ينعطف إلى وادي حارب.

أما مدينة «شبوة» التي تبعد حوالى المئتي كيلومتر إلى الجنوب الغربي من المدينة الحضرموتية القديمة «شبام» فقد لعبت دوراً بارزاً كمركز للقوافل خلال حقبة طويلة. ومن المحتمل أنه كان لها موقع احتكاري في تجارة البخور بالكامل ولزمن محدود، أي خلال فترة ازدهارها كعاصمة لمملكة حضرموت.

يروي المؤرخ «بلينيوس» عن شبوة أنها كانت عاصمة البخور، وكانت تقوم على تل، واحتوت على ستين معبداً رخامياً وكان غناها فائقاً للتصور. غير أن المعابد تساقطت والنعمة زالت بعدما اتخذت تجارة البخور طرقاً أخرى. وأخذت الرمال تزحف شيئاً فشيئاً نحو المدينة لتغطيها تدريجياً بعدما هجرها ساكنوها[20].

والمدينة الحضرموتية الأخرى «شبام» ليست قديمة جداً مثل «شبوة» وقد أخذت مكانها في الأهمية. أما موقع شبوة القديمة فما زال معروفاً، وهو مغمور بالرمال التي ترتفع فيها بقايا من سور المدينة. وهناك أربع كتابات حفرت في بعض بيوت السكان.

ومن المعروف عن البريطاني «سان جون فيلبي» الذي اعتنق الإسلام وأصبح مستشاراً للملك ابن سعود وقام برحلات في الصحراء، أنه كان قد وصل مرة إلى هناك. أما في هذا الوقت فلا يمكن الوصول إلى شبوة إلا بصعوبة.

---

(20) وهو مصير مألوف خلال الحقب التاريخية التي مرت معنا ورأيناه في مراكز حضارية عدة في الهلال الخصيب، فقد مر معنا كيف أن الموت الحقيقي لمدينة بابل بدأ مع تحول طرق المواصلات التجارية عنها، ثم رأينا أمثلة مشابهة كان أهمها بترا عاصمة الأنباط ثم تدمر مدينة البادية.

الأبعاد السياسية لتجارة البخور والصراع لكسر الإحتكار

كان البخور على مدى قرون عديدة تلك الكلمة الساحرة التي جلبت رفاهية أسطورية. وبالسيطرة على الطريق التجاري صعدت ثم سقطت ممالك المعينيين والقتبانيين والحضرموتيين والسبئيين والحميريين. وكانت سياساتها كلها مطبوعة بطابع التطلع للأرباح. ولم يكن لدى الناس حرج في اختيار الوسائل لتحقيق ذلك. أما المكاسب فلا نستطيع لها حساباً، ولكنها كانت بلا شك مبالغ ضخمة في زمن كان فيه العالم كله يطلب البخور ويدفع فيه الثمن الذي يفرضه أصحاب الإحتكارات في جنوبي الجزيرة العربية.

لذا كان من الطبيعي أن يقوم المصريون والآشوريون والكلدان وفيما بعد السلوقيون ثم الرومان بمحاولات متكررة على شكل حملات عسكرية على طريق البخور لكسر هذا الاحتكار الثقيل، ولكنها كانت دون جدوى. فالجيوش التي كانت توجهها بلاد الرافدين لم تستطع التوغل بعيداً. ومن ذلك تلك الحملة الصحراوية المغامرة التي أرسلها الملك الآشوري سنحريب وخسر فيها قسماً كبيراً من جيشه. وكان نابونيد، آخر ملوك بابل، قد وصل حتى واحة تيماء وبنى فيها قصراً، إلا أنه لم يبق طويلاً بعدما سقطت بابل أمام الغزو الفارسي. غير أن المحاولة التي قام بها الرومان فيما بعد كانت أبعد في مداها وأهدافها. فقد وضعوا نصب أعينهم احتلال تلك البلدان التي تنتج هذه المادة الثمينة بحيث يصبح الطريق التجاري بعدها ثمرة يانعة تسقط من تلقاء نفسها في أيديهم.

لم ينقض أكثر من خمس سنوات بعد سيطرتهم على مصر سنة 30 قبل الميلاد حتى سيّروا أسطولاً قوامه 130 سفينة وعشرة آلاف جندي روماني، معهم فرقة مساندة نبطية من ألف رجل، وخمسون يهودياً كتراجمة وخبراء اقتصاديين، وذلك كله بقيادة «إيلوس غالوس Aelus Gallus» حاكمهم في مصر. وانطلقت الحملة في البحر الأحمر باتجاه جزيرة العرب. وألزم الرومان واحداً من الأنباط يدعى «سيلايوس Syllaius» أن يكون دليلاً لهذه الحملة.

بعد إبحار أسبوعين بلغ فيه الأسطول أواسط البحر الأحمر تم إنزال الفرق على ساحل الجزيرة العربية حيث بدأت مسيرها باتجاه الجنوب. وليس هناك ما يثبت لنا أي طريق سلكته في سيرها. وقد تبع الرومان «سيلايوس» لمدة خمسين يوماً في صحراء

قاحلة لا ماء فيها، وساد الاعتقاد عند الرومان أن ذلك الدليل النبطي كان يهمه عدم إيصالهم إلى هدفهم[21] وبعد ستة أشهر كفّوا عن المتابعة وأقلعوا عن الخطة. والمعتقد أنهم كانوا قد وصلوا إل موقع يدعى «مَرْيَبا Mariaba»[22] على مقربة من مأرب. وكانوا قد تعرضوا لبعض المناوشات وتغلبوا فيها، غير أن الرومان بعد كل ذلك لم يتوصلوا لاكتشاف بلاد البخور. وتبددت بذلك أحلامهم في عقد اتفاق مع الحميريين ووضع حامية رومانية في عدن والحصول على الثروات الضخمة. وباشروا انسحابهم من الجزيرة العربية بخيبة أمل مريرة. ويذكر سترابون الذي رافق الحملة كمراسل حربي أن الدليل النبطي «سيلايوس» تم إرساله كسجين إلى روما حيث اعتبر خائناً وقطع رأسه. وقد أقلع الرومان إلى الأبد عن محاولاتهم لاحتلال تلك البلاد الأسطورية في أعماق الجنوب من جزيرة العرب.

ربما كان الطريق البحري بالنسبة لاحتكار البخور لا يخلو من نقاط الضعف. ففي زمن مبكر جداً كان المصريون قد استطلعوه وكرروا محاولاتهم ليجربوا حظهم بهذه الطريقة، علّهم يتمكنون ولو جزئياً على الأقل من اختصار فروق الأرباح التي يحققها الوسطاء العرب، ولكنها بقيت مجرد محاولات دون طائل. وكان الإبحار بزوارق صغيرة يعتبر مغامرة خطرة، فقد أحاطت الصحراء بالبحر الأحمر من جانبيه وانتشرت الشعاب المرجانية المستورة بأعداد لا تحصى أمام السواحل. ومن الجزر المرجانية كان ينطلق بعض الجائعين من البداة يدفعهم البؤس لممارسة القرصنة البحرية التي كانوا يعتبرونها شبيهة بأعمال السطو على القوافل في الطرق الصحراوية. وأما بطليموس الثاني الملقب «فيلادلفوس» الذي حكم مصر ما بين 285 و246 قبل الميلاد فقد صرف كثيراً من الوقت في تفحص الطريق البحري والسواحل الأفريقية للبحر الأحمر. ولكن من المعروف أن همه الأكبر لم يكن البخور بمقدار ما كان الحصول على الفيلة الأفريقية. وهناك اعتقاد أيضاً أنه في زمن بطليموس الثاني هذا قد تمت رحلة بحرية ما بين السويس وباب المندب ومحاولات لإعادة افتتاح خليج العقبة للملاحة والتي تابعها خلفاؤه البطالمة

---

(21) رأينا في الفصل الخاص بالدولة النبطية أن الأنباط كان لا بد لهم من اتباع سياسة تحالف ظاهري مع الرومان، القوة العسكرية الكبرى حينذاك، لعدم إمكانية الوقوف في وجههم عسكرياً. كما رأينا سياسة مشابهة بعض الشيء عند التدمريين في المرحلة الأولى. لذلك كان من أشكال هذا التحالف الظاهري إشراك فرقة مساندة نبطية في هذه الحملة.

(22) هكذا ورد هذا الإسم الجغرافي في أخبار الحملة. وما زال هناك تضارب في الآراء عن حقيقة الموقع. ومن غير المستبعد تماماً أن يكون لفظاً غير دقيق لإسم مأرب نفسه.

باهتمام وإصرار. غير أنه لا يوجد ما يشير إلى نجاح حقيقي في تلك المحاولات، حيث أن الأنباط كانوا بالمرصاد وكانت النهاية الشمالية لطريق البخور تحت سيطرتهم. وهكذا فإن دخول جهات غريبة في تجارة قوافل البخور لم يحالفه النجاح. ويبدو أن البحارة العرب كانوا يصلون بسفنهم مباشرة إلى مصر بعد حصولهم على شهادات السفن من القراصنة للاستدلال بواسطتها.

ومن هنا يتضح أنه لم يكن بالامكان كسر طوق الاحتكار في تجارة البخور العالمية.

● ● ●

بعد سنة 600 ميلادية أصبح طريق البخور وحضارة الجنوب العربي القديمة في عالم النسيان، علماً أن الطريق نفسه بقي بالتأكيد مستخدماً بعد ذلك زمناً طويلاً. . . ويخبر المؤرخ الهمداني عن هلاك قافلة كبيرة على الطريق إلى نجران.

ولكن بعده لم يعد أحد يتناولها بالذكر إلا ما ندر.

كان عصر البخور قد ولى. . . والتجارة بين آسيا والبحر المتوسط اتخذت لها طرقاً أخرى. وقد انقضى أكثر من ألف سنة قبل أن يعرف أحد في العالم الخارجي شيئاً عن بلاد البخور القديمة. وكان ذلك في سنة 1772م. عندما نشر الباحث الدانماركي «كارستن نيبور Carsten Niebuhr» لأول مرة تقريراً علمياً عن وجود كتابات عربية جنوبية قديمة.

المراجع العربية

فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين طبعة بيروت 1958.

جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت 1976ـ 1978.

عامر سليمان: القانون في العراق القديم ـ دراسة تاريخية قانونية مقارنة ـ مطبعة جامعة الموصل 1977.

مفيد رائف العابد: سوريا في عصر السلوقيين من الاسكندر إلى بومبيوس 333 ـ 64 قبل الميلاد دمشق 1993.

المراجع الأجنبية

Alt, A. : Voelker und Staaten Syriens im fruehen Altertum (Der Alte Orient XXXIV, 1936 Leipzig).

Andrae, Walter : Das wiedererstandene Assur (Muenchen 1977).

Bermant, Ch. & Weitzman, M. : EBLA. Neu entdeckte Zivilisation im alten Orient. Aus dem Englischen von F. W. Gutbrod (Frankfurt am Main 1979).

Borger, R. : Die Inschriften Asarhaddons Koenig von Assyrien (Archiv fuer Orientforschung IX, 1956).

Boudou, R. P. : Liste de Noms géographiques (Orientalia XXXVI - XXXVIII, 1929).

Contenau, G. : So lebten die Babylonier und Assyrer (Stuttgart 1959).

Downey, G. : Ancient Antioch (Princeton, New Jersey 1936).

Euting, J. : Nabataeische Inschriften aus Arabien (Berlin 1885).

FISCHER WELTGESCHICHTE, 2, 3, 4: Die Altorientalischen Reiche I, II, III (Frankfurt am Main/ Hamburg, 1965-1967).

Goetze, A. : Kleinasien (Muenchen 1957).

Goetze, A. : Das Hethiter-Reich 1929.

Hamond, Ph. : The Nabataeans- their History, Culture and Archaeology (Gothenburg, Sweden 1973).

Hirsch, H. : Die Inschriften der Koenige von Agade (Archiv fuer Orientforschung XX, 1963).

Hitti, Ph. : History of Syria, 1951.

Honigmann, E. : Historische Topographie von Nordsyrien im Altertum (Zeitschrift des Deutschen Palaestina-Vereins, ZDPV, 46, 1923; 47, 1924, Leipzig).

Hrouda, B. : VORDERASIEN I. Mesopotamien, Babylonien, Iran und Anatolien

(Muenchen 1971).
Jacobsen, Th. : Early Political Development in Mesopotamia (Zeitschrift fuer Assyriologie XVIII, 1957).
Kaiser, Otto : Palmyrenische Traeume - STAEDTE DER WUESTE - (Die Karawane XXII, 1981, Ludwigsburg).
Klengel, H. : Geschichte Syriens I, II, (1965, 1969).
Klengel, H. : Syrien zwischen Alexander und Mohammed (Wien 1987).
Klengel, H. : Koenig Hammurapi und der Alltag Babylons (Berlin 1991).
Klengel, H. : Handel und Haendler im alten Orient (Wien 1979).
Klengel, H. : Die Hethiter, Geschichte und Umwelt (Muenchen 1970).
Koldewey, R. : Das wieder erstehende Babylon (Leipzig 1914).
Lamer, H. & Kroh, P. : WOERTERBUCH DER ANTIKE (Stuttgart 1989).
Landsberger, B.: Assyrische Handelskolonien in Kleinasien (Leipzip 1925).
Leemans, W. F. : Foreign Trade in the Old Babylonian Period (Leiden 1960).
Lenzen, H. : Die Sumerer (Berlin 1948).
LAW: LEXIKON DER ALTEN WELT (Zuerich 1965).
Lidzbarski, M. : Handbuch der nordsemitischen Epigraphik nebst ausgewaehlten Inschriften, I, II (Hildesheim 1962).
Lindner, M. & Zeitler, J. P.: PETRA. Koenigin der Weihrauchstrasse (Fuerth...).
Lloyd, Seton: Die Archaeologie Mesopotamiens (Muenchen 1981).
Mueller, D. H. V. : DIE GESETZE HAMMURABIS und ihr Verhaeltnis zur Mosaischen Gesetzgebung sowie zu den XII Tafeln (Amsterdam 1975).
Oppenheim, A. L. : Ancient Mesopotamia (Chicago 1964).
Orthmann, W. : Der Alte Orient (PROPYLAEN KUNSTGESCHICHTE Bd. 14) Berlin 1975,
Schmoekel, H. : UR, ASSUR UND BABYLON (Stuttgart 1962).
Soden, W. V. : Einfuehrung in die Altorientalistik (Darmstadt 1985).
Stark, Freya : Rom am Euphrat (Stuttgart 1969).
Weidner, E : Die Inschriften Tukulti-Ninurtas I. und seiner Nachfolger (Archiv fuer Orientforschung XII, 1959).
Weitzman, M. : Bermant.
Wissmann, H. V. : Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Suedarabien (Wien 1964).

صراع الممالك
في التاريخ السوري القديم

هذا العمل الذي هو حلقة من سلسلة أعمال في التاريخ السوري ما زالت قيد الإعداد. إنما دعوته "صراع الممالك في التاريخ السوري القديم" كون المعلومات التي اجتمعت فيه تتعرض إلى ما هو واضح من جوانب تاريخية ومقومات حضارية لممالك عديدة مختلفة الأحجام والمواقع والأدوار والأعمار، تزامن بعضها وتعاقب البعض الآخر على الأرض السورية بمفهومها الجغرافي الواسع، أو البقعة التي عرفت باسم "الهلال الخصيب". وطبعت حياتها في أغلب مراحلها بالصراع، إما ضد بعضها البعض، أو ضد قوى خارجية.